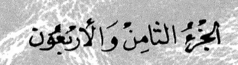
الموسوعة الشاملة
في
تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والأربعون



المسألة، وأجابوا بأن الافادة التي عملت لم تكن صحيحة، حسبما جرى عرضها، وأن هذه المطالب لاينبغي الاستجابة لها، وبناء عليه جرت مناقشة القضية قانونياً، وبعد الإصغاء بعناية إلى مرافعات كل من الطرفين. وبعد مداولات، وبناء على نصيحة إخواننا، إننا في نهايتها نصدر مرسوماً، بأنك مقبول بكل حرية للقيام بالزيارات التفتيشية للعميد، وللهيئة الكهنوتية، وكذلك إلى الكهنة، وإلى رجال الدين في جوقة المنشدين، وإلى القساوسة، وحجاب الكنائس، والكهنة العائدين إلى الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوّم أيضاً أغلاطهم، وأن تصلح عاداتهم، وعلى كل حال سوف لن تقدم نفقات مالية من قبل الهيئة الكهنوتية في الكنيسة الكاتدرائية، من أجل الزيارات التفتيشية، وأخطاء كهنة الكنيسة الكاتدرائية، التي جرت العادة بتقويمها من قبل الهيئة الكهنوتية، سوف يجري تقويمها من قبلها، وفقاً لعرف الكنيسة، الذي جرت مراعاته حتى الآن بسلام، وأن يجري تعيين ذلك لهم بناء على دعوتك وأوامرك، وأن يكون ذلك من قبلك ومن قبل خلفائك في مدد مناسبة، وإنه منذ ذلك الوقت سوف تقوم أنت أو خلفاؤك، وقد وضعتم الرب القدير أمام أعينكم، بتقويمهم بالروادع الكنسية، وذلك حسب ما تتطلبه معالجة النفوس.

ونحن نأمر أيضاً الكهنة المتقدم ذكرهم بمراعاة الطاعة الكهنوتية، وأن يقدموا الاحترام لك، وهم ليسوا على كل حال مرغمين على ربط أنفسهم لهذا بيمين، أو بإعطاء أيديهم، أو بالوعد، حيث لست مخولاً بهذا العرف، وبالنسبة لقضايا ما طلبته بإلتماسك، نحن نحلل العميد المتقدم الذكر والهيئة الكهنوتية، وبناء عليه، ما من أحد سوف يسمح له بالاعتداء على هذا،أو أن يقاومه بطيش، أي ما جاء في كتابتنا المحددة، وإذا ما حاول أي واحد الاقدام على فعل من هذا القبيل، هو سوف يجني غضب الرب القدير، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص. صدر في ليون، في هذا اليوم الخامس والعشرين من آب، في السنة الثالة من بابويتنا».

موت جون أسقف هارتفورد

في الرابع عشر من تشرين الأول من هذا العام، دفع جون أسقف هارتفورد دين الطبيعة ذلك أنه عاش ثلاثين سنة، منذ أن حـرم من أسقفيته بناء على أمر من البـابا، إنما احتفظ —على كل حـال— بمرتبتـه الأسقفيـة، ولدى اغلاقـه لحياته السعيدة الفـانية، لم ينس إضفاء بعض المنافع على كنيسـة القديس ألبان، فترك في وصيته إلى تلك الكنيسة كتبـه، وبعض الزينة الكنسية، ولذلك كوفىء بنيل حصة في جميع الأعمال الجيدة التي عملت فيها، وكأنه كان راعي دير آخر، وقد دفـن هناك فيها، أمام مـذبح القديس أمفيبـالوس Amphibalus مع كل المهابة المستحقة.

موت وولتر راعي دير بورغ

في الثاني والعشرين من كانون الأول من هذا العام، وبعد كثير من الارهاق غير المستحق والاضطراب ومـرض ثقيل، حصـل في بلاط رومـا بسبب تلك القضيـة، غـادر وولتر، راعي دير بورغ Bourg طريق الجسد ، مما سبب خسارة كبيرة واضطراباً لكنيسته.

الخديعة اللطيفة والتقوية للملك الفرنسي

مع اقتراب حلول عيـد ميلاد مـولانا، وهو الوقت الذي اعتـاد فيه النبـلاء على توزيع ألبسة وغيارات جديدة من البقـايا —وهو ما ندعوه بالعادة بشكل عـام، الثياب الجديـدة— على آل بيوتهم، كـان الملك الفـرنسي، هو الذي تولى حمل عمل الصليب، وجعل من نفسه المسـؤول عن التبشير، والوكيل المسؤول عن قضية الصليبية في شكل جديد، لأنه أمر بصنع أردية مع ملحقاتها، بأعداد كبيرة، أكثر مما هو معتاد، بأن تصنع مـن أغلى الأقمشة، مع جلود مختلفة فيهم، وصلبـان تعمل من أفضل أعمال الذهـب، حتى تخاط على جـزء الكتف من الأردية، وأمر بصنـع هذا كله بسرية فاعلة، وفي الليل، والصبـاح الباكـر، أمر الفـرسان بارتداء أرديتهم الملكيـة، ليظهروا معـه في الكنيسة لسماع القـداس،

الأمـر الذي فعلوه في الصبـاح البـاكـر، حتى لايتعـرضـوا للنقـد بالكسل أو التراخي، وفيها هـم على نية القداس:

وعبر العالم الشمس المرحة

بدأت ثانية تسير في مسارها

ووفقاً لمثل بيرسيوس Persius:

كل واحد يرى المخلاة على ظهر جاره.

فقد حمل كل فـارس شارة الصليب، وهي معمولة على كتفي جـاره، وبعـد لأي اكتشفوا بأن الملك مارس هذه الخديعـة التقوية عليهم، وقد دخلـوا الآن على طريقة جـديدة، لم يسمع بها من قبل حول التبشير بالصليبيـــة، وأصبحوا مبشرين بالأفعـال أكثـر منهم بالأقـوال، وبما أنه بدا أنـه غير لائــق ومهين، وكذلك غير جـدير بهم، أن يضعوا جانباً هـذه الصلبان، قاموا مع ابتسـامة، لم تكن —على كل حـال— مـن دون رغبـة، ومع فيـض من دمـــوع الفـرح، فأطلقـوا على الملك الفرنسي —بسبب هذه الواقعـة— اسم «صياد الحجـاج» و«صياد سمك جديد».

مختصر أخبار السنة كلها

كانت هذه السنة مـدهشـة ووافرة بالقمـح، وزادت بخصبهـا العـظيم عن السنة المتقدمة كثيراً حتى أن مقياس القمح هبط سعره إلى شلنين فقـط، ولكن بسبب اضطراب الفصـول وسـوء أحـوال المناخ في الصيف لم تنتــج أشجـار الفواكـه أية ثمار، وكانت أحـداث السنة منتجة للازدهار وللزيـادة خـاصة في فرنسـا، وكان هناك اضطراب وخسارة بالنسبة لانكلترا، وللأرض المقـدسة، عدوانية وخطر، وبالنسبة للايرلنديين متاعب وإنهـاك، وبالنسبة للويلزيين دم وسوء حظ، وللبواتيين سـوء معامـلة، وكأنهـم أولاد جاءوا من زوجة الأب، وجعلت هذه السنـة الامبراطوريـة كلها وبلاط روما يرتجفان.

عام ألف ومائتين وستة وأربعين
غضب البابا ضدّ الإنكليز بسبب أنهم تجرأوا على الشكوى في المجمع

عـام١٢٤٦، الذي هو العام الثـلاثين من حكم الملك هنري الثـالث، وفي عيد الميلاد لهذا العام كـان الملك المذكور في لندن، بصحبة عدد كبير من نبـلاء المملكة، ومع أخيه الايرل رتشـارد، والملكة، وأختها كـونتسة كـورنوول، الذين جميعـاً، بعـدما عـانوا من إرهاق اليـوم وحـرارته مع الملك، في ويلز، احتفلوا بعيـد الميـلاد مـع كثير من البهجـة، وهكذا فإن هؤلاء الذين كـانوا رفقاء في الاضطراب، كـانوا الآن شركاء في السرور والبهجـة، لكن حـدث في هذه الآونة، في سبيل أن لايبتسم السرور على الفانين من دون أن يمتزج بالحزن، أن راجت شائعـة مريبة، وصدر عن هذه كثيراً مـن الشكوك، حيث تحدثت عـن أن البـابـا مـايـزال يحتفظ بمشـاعـر الحقد في قلبـه، مع أنه لم يبـق هناك سبب منطقي لفعله ذلك، وفي الحقيقـة كـان هو غـاضبـاً كثيراً، وشرع بتهـديـد الملك والمملكة الانكليـزية بكثير مـن الطرق المتنوعـة، وأعلن أنـه إذا استطاع اخضـاع الامبراطور فردريك، فلسـوف يطأ بعد ذلك الشموخ المتمـرد للانكليز، الذين كانوا يتحركون ضـده، لأنهم قاموا بالشكاية في المجمع ضد مظالم البـلاط الروماني، وبشكـل خاص حـول الجزية، لأنه بدا بالنسبـة له أن الانكليـز التعسـاء، ينبغي عـدم السماح لهم بالبكاء أو التنهـد تحت تأثير المضار المضاعفـة التي أنزلت بهم، فخلال المؤتمر السري والطويل، الذي عقده مع الملك الفرنسي في كلوني، سعـى لاقناع ذلك الملك، ولتحريضه للقيـام بانتقـام كـاف بسبـب هذا الأذى، ويكون بالهجـوم على الملك الانكليزي الضعيف، وبتجريده من ميراثه، أو على الأقل معاقبته بطريقة تجعله ينحني، شـاء أم يشأ، أمام إرادة البلاط الـروماني، وفي هذا المؤتمر قـال قداستـه بأن السلطات البـابوية سـوف تساعـده بأقصى جهـودها،

وهذا كما يقـال بأن الملك الفـرنسي قـد رفـض بكل إصرار فعله، لأن الملكين كـانا أقرباء، وملكاتهما أختين، ولأن الملك الفـرنسي لم يكن لديه إدعاء واضح في مملكة انكلترا، ومجدداً لأنه كانت هناك هدنة بينهما، وأن هذه الهدنة كـان المطلوب إطالتها بسبـب حجه، بدلاً من نقضهـا بشكل خياني، وبسبب أنه كـان هناك عدو أكثر قـوة، ينبغي تدجينه، وهو عدو أكثر إيذاء للكنيسة الرومانية، وكان ذلك العدو هو فردريك، كما أنه لن تكون الدمـاء المسيحيـة قليلـة هي التي سـوف تسفـك، قبل أن تذعن المملكة الانكليزية للفرنسيين، ولأن الصليبيين في الأرض المقـدسة كانوا عـرضـة للعسف وللتنكيل من قبل المسلمين، ويتـوقعون قـدومـه، مثل أناس سفينتهم عرضة للغرق، وينتظرون ريحاً أكثر لطفاً ومواءمة.

غضب ملك إنكلترا من الأذى الذي لحق به من كونتسه بروفانس

قبل عيـد الغطاس ومع الفـراغ من الاحتفـالات المهيبة لعيـد ميـلاد الرب، وصلت تقـارير من بروفـانس أزعجت الملك وأقلقتـه إلى درجـة عالية، ذلك أن بيترايس كونتسه بروفانس، وأم الملكة، التي كانت تتسلم منذ خمس سنوات مبلغـاً سنوياً مقـداره أربعـة آلاف مـارك، من أجل تحصين ست عشرة قلعـة في بروفـانس، كـانت عـائـدة إلى الملك بحكم زواجه، قـد قامت دون تذكر للعـدل، ولاخلاصها ولاتفاقيتهـا، وناسية للتشريفـات، وللكرم الذي أضفـي عليهـا عندمـا ذهبت إلى انكلترا، فتخلت عن بروفـانس وتنازلت عن قلاعهـا إلى الملك الفرنسي، دون أن تذكر حقـوق ملك انكلترا، أو اتفاقيـاتها معه، وأعطت ابنتهـا الصغرى، التي هي الآن حـرة وآمنة من المؤامـرات ضـدها، إلى الملك الفـرنسي لتتزوج من ابنه شـارل، وبهذا خرقت الكونتسه المذكورة عهـدها بدرجة سيئة، وذلك بقـدر ما كانت قـد وعدت الملك الانكليـزي بشكل ثابت ومخلص، بأنها سـوف لن تسلم القلاع المذكـورة إلى أي كان، ولا بشكل

من الأشكال، إلاّ له، ولم يقابل الملك —على كل حال— بالتعاطف أو بالمواساة من قبل أي واحد من أجل خسارته واهانته، لأن الكونتسه بيترايس عندما قدمت منذ بعض الوقت إلى انكلترا في أبهة عظيمة، قام الملك من دون تقدير لما ينبغي ولما هو موائم، وبطريقة غير اعتيادية وغير مستقيمة، باخضاع نفسه وأتباعه وممتلكاتهم إلى انفاق كبير جداً، حسبما ذكرنا من قبل في المكان المناسب، وبناء عليه، يقال أن الكونتسه المذكورة، بعدما وزنت بمكر أعمال الملك وكلامه، قالت: «أنا آسفة لأنني أعطيت ابنتي (اللتين دعتهما حسب التعابير العامية في بروفانس: ولديها) بالزواج لهذا الملك ولأخيه».

الملك الفرنسي يطلب تمديد الهدنة

ومع اقتراب حلول عيد القديسة هيلاري، كان الملك الفرنسي مشغولاً في التحضير لحجه، ولذلك كان قلقاً بأن جميع القضايا ينبغي تمتينها، وترتيبها سلمياً في مملكته، حتى أنه عندما سينطلق في حملته لن يترك أي مشكلة معلقة خلف ظهره، ولذلك سأل من أجل تمديد الهدنة التي كان قد عملها في بواتو بينه وبين ملك انكلترا، كما قيل بأنه عرض أيضاً بشكل سري، بعض العروض للسلام، وهي عروض، تردد ملك انكلترا، على كل حال، في قبولها، وكانت هذه العروض، تتضمن إعادة جميع الأراضي الموجودة في القارة، والتي كانت من قبل ملكاً للملك الانكليزي، وذلك باستثناء نورماندي، تعاد بشكل حر إلى ملك انكلترا المذكور، على أساس أن يتخلى عن نورماندي، التي اعتقد أن للمملكة الفرنسية حق كامل بتملكها بشكل أبدي، وردّ الملك الانكليزي على الجزء الأول من هذه الرسالة، لكنه ترك الجزء الآخر من أجل مداولات أكثر نضوجاً، فعلى الجزء الأول أعلن بأنه سوف يكون راغباً وعلى استعداد لمنح هدنة أطول إلى الملك الفرنسي، وذلك حسب رغبة هذا الملك، وذلك حتى لايظهر هو، أي الملك الانكليزي، معيقاً لمسألة

الحملة الصليبية، إنما على شرط أن لايقوم الملك الفرنسي بإيذائه، بل عليه أن يتخلى له بسلام عن ذلك الجزء من بروفانس، مع القلاع الست عشرة، التي تقدم ذكرها، والتي هي عائدة له بسبب الزواج المعقود بينه وبين إليانور ابنة ريموند، كونت بروفانس، المتوفى أخيراً.

إعفاء تمّ الحصول عليه من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، صدرت الرسالة التالية عن أسقف لنكولن، من أجل إخبار أفضل إلى الناس حول المسائل المتقدمة: «**إلى جميع أبناء الكنيسة الأم، الذين إليهم سوف تصل هذه العروض، من روبرت، الذي هو بفضل الرحمة الربانية، أسقف لنكولن، صحة دائمة بالرب:** ليكن معلوماً إليكم بشكل عام، أننا قمنا بفحص أمر وصاية من البابا، ليست عرضة للإزالة أو للإلغاء أو إبطال بأي حال من الأحوال، وصيغتها هي كما يلي»: «**من أنوسنت الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: الأساقفة، وإلى أبنائه المحبوبين كثيراً، رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمداء، والحجاب، والقساوسة الآخرين، ورجال دين الكنائس في جميع أرجاء المدينة، والأسقفية، ومنطقة كانتربري، صحة ومباركات:** إن عمق الخطط اللاهوتية، هي التي رتبت كل شيء بشكل دقيق ومحكم وحكيم، وهي ليست من دون أساسات مؤكدة وربانية، حيث تتولى تغيير مظاهر الأعمال، مثل أنها قد تقدم في وقت من الأوقات العون الضروري من الأدنى مرتبة إلى الأعلى مرتبة، وتقدم في وقت آخر العون الضروري من الأعلى مرتبة إلى الأدنى مرتبة، في سبيل أنه بهذه التغييرات يمكن لبني البشر أن يروا عدم الاستقرار في أوضاعهم، وأنهم بتعاطفهم، وبمساعدة أحدهم الآخر، من الممكن تنفيذ قانون المسيح وتطبيقه، الذي به قد أمر كل واحد بمحبة جاره، وأن يحمل أثقال أتباعه، وبما أنه بناء عليه، قد عرض علينا أخونا المحترم، رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسة كانتربري الآن،

وكذلك كانت فيما مضى في أيام أسلافه، الذين عانوا من اضطرابات لاتحصى، وأزعجوا بعدم تحسن عدد كبير من الضروريات، ومثل هذا أيضاً خلال الفراغ الطويل الذي عاشته تلك الكنيسة، والذي خلاله خرج كل من الأصدقاء والغرباء سواء عن طريقهم، لنهب ممتلكاتها وتجريدها منهم، ولذلك ضغط عليها كثيراً بدين كبير وثقيل جداً لم تتمكن إلاّ بصعوبة بالغة من تحرير نفسها منه، وبعد الاستعانة بالحكمة المتوفرة في الكرسي الرسولي، و قد توجهت الآن بتواضع بالرجاء إلينا، بأن نتلطف بلطفنا المعتاد فنقدم المساعدة إلى الكنيسة المذكورة، خشية أنه من خلال تضاعف الفائدة، سوف تصبح خسائرها أكثر قسوة، وتصبح في وضع لايمكن انقاذها منه، هذا وإن كنيسة كانتربري المذكورة، هي فوق جميع الكنائس الأخرى في العالم، وهي بحكم احتلالها لمثل هذه المكانة، ينظر إليها بنظرة عاطفة مخلصة، بمثابة أنها الابنة المحبوبة والمتميزة بعلامات الحظوة المنفردة، من قبل الكنيسة الرومانية، برائحة طيبة منعشة، تعيدها إلى حالة الهدوء، والتقدم بازدهار، ودعونا أيضاً نعامل كنيسة كانتربري المذكورة، بذلك الامتياز الخاص من الحظوة والنعمة، وبناء عليه، إننا بتجاوب مع الطلب المستعجل للكنيسة المذكورة، وبشكل رئيسي بتقدير لرئيس الأساقفة المذكور، الذي هو ابن مخلص، وطرف نبيل للكنيسة متحمس في تقواه، وفي سلوكه بالحياة، ومتميز بنبالته، ويحتل لدينا التقدير الأعلى والتعاطف، وكذلك من قبل إخواننا، وإننا بناء على نصيحة إخواننا نعطي موافقة طيبة لالتماساته، ونعطي برسائلنا هذه، أوامر إلى أخينا المبجل، أسقف هيرفورد، بأن يقوم لمدةسبعة أعوام، وليس أكثر، فيجمع موارد السنة الأولى من جميع المنافع اللاهوتية، التي سوف تصبح من هذا الوقت شاغرة: في مدينة، وفي أسقفية، ومقاطعة كانتربري، إلى أن يصل المبلغ إلى عشرة آلاف مارك، لكن إذا جرى جمع المبلغ قبل انتهاء الأعوام السبعة، ما من شيء يجري طلبه بعد، وكذلك عليه أن يجمع ألفي مارك سنوياً من موارد

رئيس الأساقفة المذكور، وعليه أن يستخدم تلك المبالغ المتقدم ذكرها باخلاص، من أجل دفع ديون الكنيسة المذكورة، شريطة أن يخصص ذلك الأسقف المذكور حصة كافية من تلك الموارد، ليجري تعيينها إلى الأشخاص الذين يقومون بواجبات المنافع المذكورة، للانفاق عليهم، حتى لايجري حرمانهم من المنافع المستحقة لهم، إذا ما حدث وكانت موارد المنافع المذكورة للسنة الأولى عائدة —وفقاً لعادات البلاد— إلى أشخاص يموتون، سوف يقوم الأسقف المذكور بجمع محصلات هذه المنافع في السنة التالية، وأن يضبط جميع ألسنة السوء بسلطتنا، وبناء عليه، إننا نرجو، ونحذر، ونحث، وبهذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم كلها، بإيلاء الانتباه إلى حقيقة أن من الموائم لحالة الضرورة للأم، أن تلقى التفريج بوساطة ثروات أولادها، حيث عليهم باخلاص، وبلطف دعمها في أعبائها، وأن يظهروا أنفسهم متحمسين وجاهزين بالكلمة وبالفعل لجمع الموارد المذكورة، ودفعها إلى الأسقف المذكور، حتى تتمكنوا هكذا في مستقبل الأيام، أن يكون لديكم ادعاء لنيل الحظوة والارادة الطيبة من رئيس الأساقفة المذكور، وأن تجدوه على أساس هذه المسألة أكثر استعداداً، لرفع شأن منافعكم، ومنافع كنائسكم. صدر في ليون، في اليوم السابع والعشرين من آب، في السنة الثالثة من حبريتنا، وكشاهد على هذا، جعلنا خاتمنا يجري وضعه وتثبيته على هذه العروض».

غضب الملك ثم هدوئه فوراً

عندماوصلت هذه الأشياء إلى علم الملك، أصيب بالدهشة أولاً، ولأنه أثير كثيراً وغضب، عبّر عن مشاعره بصوت مرتفع قائلاً: «أنا مستغرب أن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أنا رقيته ورفعته إلى هذا المقام، قد تسبب بهذا القدر من النفقات إلى مملكتي، ولم يقنع بأنه قام بشكل وقح، فاقتلع من الأسقفية في شيكستر روبرت باسلو،

الذي أنا اخترته، والذي توليت ترقيته، بل إنه منخرط بالحرب يومياً، مثل قاطع طريق، وهو يعمل الآن على ابداع خطط ضدي، في سبيل إلحاق الخسارة بي، والحط من كرامتي في بروفانس، وكذلك في انكلترا، فها هنا الآن استخراج للمال لم يسمع بمثله حتى الآن من قبل، ما أكثر المصائد العائدة للصيادين، التي نصبت لخداع البسطاء من رعاياهم، فبهذه الآلية، جرى خداع نبلائي الذين إلى رعايتهم تعود الكنائس، فقد جردت الأرض من مواردها، ويخشى من تكرار وقوع مثل هذه الاستخراجات»، وعندما أخيراً، وبعد لأي همس إلى الملك أن لديه سبب صغير للغضب من رئيس الأساقفة من أجل إلغائه انتخاب روبرت المذكور، بسبب حرمانه الكنسي، حيث وجد ضعيفاً، وأيضاً بسبب أن إلغاء انتخابه كان مفيداً ومربحاً له، أي الملك، لأن روبرت كان الآن مستخدماً نفسه بنشاط يومي من أجل تعويض ملكي، مثل امرأة، وأن قراره بمعارضة هذا الإجراء قد دمر، وكما قيل هو كان ضعيفاً بكل مهانة بالاتصال الجنسي مع النساء، وهو لذلك يدعى امرأة، لأنه جلب الويل والضعف إلى الرجل.

كما أن الملك (وياللعار أقول ذلك) لم يقف بشجاعة، كما ينبغي من أجل حماية الكنيسة لأنه كان من الواضح أن كنيسة كانتربري كانت مظلومة إلى درجة عالية من قبل رئيس الأساقفة ادموند بشكل خاص فيما يتعلق بالفائدة، كما أنه لم يقف بشجاعة من أجل حماية مملكته، أو في سبيل صون كرامة الأحبار المقدسين لكانتربري، بل إنه أعطى الاذن لبونيفيس رئيس الأساقفة المذكور لكي يتسلم الاسهام المذكور من قبل في جميع أرجاء انكلترا، وأصدر على كل حال، في الوقت نفسه أمراً منع فيه أي واحد قدم من البلاط الروماني، بناء على أمر البابا، ويحمل رسائل عليها ختمه، من اصدار مراسيم بقصد استخراج مال من الكنيسة الانكليزية، ومن إفقار مملكته، وبعدم السماح لهم بالتجول في

البـلاد على الأسـاقفـة، وأن أي واحـد سـوف يمسك وهو يفعل ذلك، ينبغي أن يعتقل، ويحبس في سجنه الملكي، كما أنه أمر بحـراسة الموانىء، وبفــرض هذا الأمـر على مــدرائهم، وشجع هـذا بعض الشيء قلوب الانكليز التعساء، الذيـن عرفوا عدم استقرار الملك، وعلمـوا بالتجارب المتوالية بأنه كان يقلع عن أي قرار، بالسهولة نفسها التي أقنع بها لعمل القرار.

كيف فرضت غرامة على اللندنيين

وحـوالي هذا الوقت نفسـه، مـع أن المناخ الربيعي الهادىء قـد ابتسم لبعض الناس، مع ذلك فإن العـالم المعـارض قد أزعج أوضـاعهم، لأن سكان لندن، الذين كانت الرحمة الملكيـة ملزمة بحفظهم تحت جناحيها، في حمايتها السليمة، قد أرغمـوا، مع مرارة بالقلب، ومع تعرضهم لأذى كبيراً لأنفسهم ولانقـاص لممتلكاتهم، أرغمـوا على انقـاذ أنفسهم، بدفع ألف مـارك، تحت عنوان «حسـاب»، ووافـق كثير من الناس تماشيـاً مع نبـوءة ميرلين Merlin، وكـانوا شهـوداً على صـدقهـــا، وأعلنوا بأن الملك هنري كان حقـاً: «وشقا (حيـوان) يخرق كل شيء بعينيه»، أي أن تقول يبصبص في حافظات نقود الجميع ويخرقها.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

وفي الوقت الذي كـان فيـه نهر الزمـان يقيس عمر الانسـان، أصـدر الملك رسائل، استدعى فيهـا جميع نبلاء المملكة إلى الاجتماع في لندن، في اليـوم الذي يغنى به «لتبتهـج القـدس»، أي في منتصف الصـوم الكبير، لترتيب شؤون المملكة بشكل عام.

طموح رهبان دومينيكان

وحوالي الوقت نفسـه تجاوز الرهبان الدومينيكان حـدود الفقر، الذي أقروه، وآمنوا به مؤخراً، وشرعـوا بالصعود إلى مراتب أعلى، وشجعهم

على ذلك كونهم كانوا محترمين، ويخشى جانبهم من قبل القساوسة اللاهوتيين، وتطلعوا نحو أن لايكونوا واعظين فقط، بل معترفين كذلك، واغتصبوا لأنفسهم واجبات المعمدين، الذين جعلوهم ينظر إليهم نظرة ازدراء، وكأنهم كانوا ضعفاء وغير أكفاء بالعلم والقدرة على حكم شعب الرب، ومن ثم الامساك بأزمة الكنيسة، وبهذه الاجراءات، ظهروا لكثيرين على أنهم رجال مستقيمين، ليتولوا بشكل كبير احداث الاضطراب في ترتيبات الكنيسة العالمية، حسبما كانت قد تأسست من قبل القديسين الرسل والعلماء اللاهوتيين المقدسين، من أسلافنا، الذين كانت قداستهم ظاهرة إلى جميع العالم، ولقد وضح أنه لاطائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين قد تدمرتا بوساطة هذه التجاوزات خلال سياق سنوات كثيرة، لأن طائفة هؤلاء الدومينيكان، قد زرعت أغصانها في انكلترا خلال هذه السنوات الثلاثين، وبعد مضي سنوات قليلة، حصلوا على امتياز لم يسمع بمثله، من البابا غريغوري، الذي كان معتنياً بهم بشكل خاص، وحصلوا الآن، في الأيام الحاضرة على امتياز آخر من البابا، وجاء هذا الامتياز الجديد لتمتين الأول، مما ألحق خسارة كبيرة وأذى بالمعمدين.

إمتياز الدومينيكان الأول

«**من غريغوري، الأسقف، وعبدعبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأبناء الأحباء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، والعمداء، ورؤساء الشمامسة، ورؤساء الكهنة، ورجال الدين الآخرين للكنيسة، الذين إليهم سوف تصل هذه الرسائل، صحة، ومباركات رسولية:** بما أن الظلم بات كثيراً، والاحسان الصادر عن كثير من الناس بات بارداً، إنظر إن الرب جلب إلى الحياة، طائفة رهبان الدومينيكان المحبوبين كثيراً من قبلنا، الذين لايطلبون ماليس لهم، بل الذي هو عائد إلى المسيح، في سبيل وضع نهاية للهرطقات،

ومحق الأوبئة الأخرى المميتة، وأن يكرسوا أنفسهم بالتبشير بكلمة الرب، في فقر تطوعي شديد، وإننا بناء عليه، في سبيل معاونة قصدهم المقدس، وإحاطة قداساتهم الضرورية برعايتنا، نعهد بهم باخلاص إلى جماعتكم، ونرجو ونصلي باسم الرب في سبيل احسانكم إليهم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بحكم تبجيلكم للرب، أن تقبلوا بلطف أولادنا المحبوبين، رهبان هذه الطائفة، لأداء واجبات الوعظ، التي من أجلها أنيبوا، وأن تسمحوا للناس المعهود بهم إلى تقواك، أن يتلقوا بذور كلمة الرب من أفواههم، وأن يعترفوا إليهم، بحكم أنه مسموح لهم بموجب سلطاتنا أن يسمعوا الاعترافات، وأن يفرضوا العقوبات، ونحن نحثكم أن تقوموا بشكل مواظب، بموجب احترامكم لنا، وللكرسي الرسولي، أن تساعدوهم بكرم في ضرورياتهم، وأن يكون الناس مستعدين، بموجب حثكم، على استقبال المتقدم ذكرهم، علهم يكونوا مثل أرض خصبة، بدأت لتقدم حصاد الفضائل عوضاً عن الأشواك وعليق الشرور، وأن يتمكن الرهبان المذكورين بالتعاون معكم من إكمال عمل الخدمات الدينية، الذي تعهدوا به، وأن يجنوا الثمار المرجوة والمنتظرة، لجهودهم، أي جهود انقاذ النفوس، هذا وبالنسبة للشرور التي غالباً ما تدخل بشكل سري تحت قناع يشبه الفضائل، فغالباً ما يبدل الملاك الشيطان شكله إلى شكل ملاك الضياء، ولذلك إننا بموجب سلطات هذه العروض نعطي أمراً، أي أن أي واحد يقول بأنه من طائفة المبشرين، سوف يتولى التبشير في مقاطعاتكم، مغيراً منهجهم إلى طلب الحصول على المال، الذي بموجبه سوف تتعرض عقيدة الذين آمنوا بالفقر إلى الإهانة، عليك على الفور إلقاء القبض على مثل هؤلاء، ومعاقبتهم بحكم كونهم مبشرين زائفين. صدر في أناني Anagni في الثامن والعشرين من أيلول، في العام الأول من حبريتنا.

الإمتياز الثاني تثبيتاً للأول

«من أنوسنت الرابع، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الإخوة المبجلين أساقفة: وينكستر، ووورکستر، ونورويك، صحة ومباركات رسولية: بما أن بعض الناس يتمتعـــون بالشرور، أي بكسرهم لأغـــلال التقشف، حيث أنهم يمنحون حرية الحركة للأعمال اللاقـانونية، ويضعون جـانباً كل خــوف من الرب، ويقـدمــون على إهانة الرهبـان بطرق متنـوعـة ومضـاعفة، ولذلك عملـت الكنيسة الأم المتعـاطفـة ممارسة للاحسـان، لمسـاعـدة هؤلاء الأشخـاص ضـد مثـل هذه الشرور، بمنحهم وسـائل الدفـاع، بحيث يمكن بذلك ضبـط طيش هؤلاء المفسـدين، وينبغي أن يبقى هؤلاء الأشخاص بسـلام، كما ينبغي حرمان الآخـرين من وسائل اقتراف اعتداءات مماثلـة، وبناء عليه، بما أن رؤساء الـرهبان الاقليميين، ورهبان طائفـة الدومينيكان في انكلترا (حسبما ذكر لنا باسمهـم) يعانون من أضرار مضـاعفـــة من بعض الذين لايخافـون مـن تناول اسم الرب عبثـاً، نحن نـرغب بحماية هؤلاء ضـــد المحـــاولات الوقحـــة لهؤلاء الأشخـاص ذوي العقول الشريرة، فبـوساطة هذه الكتـابات الرسوليـة نأمـر إخــوتكم، بمـوجب حماية حظوظكم، أن تقـومـــوا بشكل فعـال بمساعـدة رئيس الرهبان المذكور والرهبان، ضـد جرأة الناس الأشرار، وبأن لاتسمحـوا لهم بتعذيبهم بشكل غير جـائز، بوسـاطة أية معارضـة للامتيـازات الممنوحة لهـم من قبل الكـرسي الرسولي، وايقـاف جميع مثل هذه الاضطهـادات لهم، دون الاهتمام بمـرســوم رحلة اليـومين، الذي صدر في المجمع العام، فهو لم يعد له فعالية بعد مدة عشرة أعـوام، وإذا لم تتمكنوا جميعـاً أن تكونوا حاضرين أثناء وضع هذه القضـايا موضـــع التنفيـذ، يتــوجب على اثنين منكم مع هذا، أن يشرفــا على تنفيــذهم. صـــدر في اللاتيران، في اليوم السـابع عشر من أيار، في السنة الأولى من حبريتنا».

جواب رئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان

وفرح الدومينيكان وتشامخوا بوساطة هذا الامتياز، فقدموا بصلف أنفسهم إلى مختلف أساقفة الكنائس، ورؤساء الشمامسة، أثناء الترؤس لمؤتمراتهم، حيث توفر كثير من الرجال ذوي النفوذ، مثل العمداء، والكهنة، والنواب، وقساوسة الكنائس في الاجتماع، وأروهم بشكل معلن هذين الامتيازين اللذين منحا لهم، وطلبوا بوقاحة وعناد أنه تتوجب دعوتهم، وأن يستقبلوا باحترام، وأن يوصى بهم في كنائسهم، وأنه يتوجب قبول الرهبان الدومينيكان أنفسهم من دون أي اعتراض، ليقوموا بالوعظ بين الناس في المجامع المقدسة، وفي الكنائس الأسقفية، وكأنهم نواب بابويين، لابل كأنهم ملائكة للرب. وبتصرفات وقحة، كانوا يسألون باستمرار كل واحد، حتى شمل رجال الدين: «هل اعترفت؟»، وإذا جاء الجواب بالتأكيد، كان الدومينيكان يسألونهم: «من قبل من»؟ وإذا جاء الجواب: «من قبل كاهني»، كانوا يضيفون: «من هو ذلك الأحمق، هو لم يصغ قط إلى اللاهوت، وهو لم يدرس قط المراسيم، وهو لم يتعلم قط حل أي سؤال، إنه من قوم عميان، وقادة عميان، تعالوا إلينا، نحن الذين نستطيع أن نميز مجذوم عن آخر، والذين إلينا جرى منح التعب، والمصاعب وأبيحت الأسرار الخفية للرب، اعترفوا من دون خوف إلينا، نحن الذين كما سترى وتسمع، قد منحت إلينا سلطات كبيرة».

وبناء عليه، فإن كثيراً من الناس، ولاسيما النبلاء، وزوجاتهم، استخفوا بكهنتهم وقساوستهم وعملوا اعترافاتهم إلى الدومينيكان، وبذلك غدت مكانة وأحوال المعمدين، ذات تقدير صغير، وفي وضع سيء جداً ومضطرب، وقد انزعجوا كثيراً لأنهم باتوا في حالة الرفض هذه، ولم يكن ذلك من دون سبب واضح، لأنهم شاهدوا بأن التنظيم اللاهوتي قد اضطرب كثيراً، وهو النظام الذي كان يسير منذ زمن

طويل في الماضي، في طريق الرب ببساطة هادئة، قدمت كما هو واضح إلى الرب كثيراً من القديسين لدى مغادرتهم هذا العالم، والذين كما أعتقد، أنه من العيب الشك بقداستهم، ولقد نظروا أيضاً إلى ذنوبهم الكنسية بجرأة ووقاحة، لأنهم عرفوا أنهم سوف لن يتعرضوا للإهانة أمام كاهنهم، عندما يعترفون بذنوبهم، التي عدت ذات خطر كبير، ومهينة بالقدر نفسه، ومسببة قدراً من الاضطراب أثناء الاعتراف بشكل رئيسي، وفي الجزء الأكبر من التوبة، ولذلك عندما كانوا على وشك اقتراف أي ذنب، كان أحدهم يقول همساً إلى الآخر: «دعونا نفعل أي شيء يبدو إلينا ممتعاً وشهوانياً، وبعد فعلنا لما رغبنا به، سوف نعترف من دون أي ازعاج إلى بعض الدومينيكان أو الفرنسيسكان، عندما يعبرون من قربنا، وهم الذين لم نرهم قط بعد، وسوف لن نراهم ثانية»، وهكذا، بما أن المعمدين وتلاميذهم قد أهملوا، تراكمت الذنوب، وبينما كان العالم آنذاك، مثل البحر هائجاً ومضطرباً بمثل هذه الحركات، امتلك بعض الدومينيكان الجرأة، وهم مزودون بامتيازاتهم، فدخلوا إلى كنيسة القديس ألبان (حيث كان رئيس شمامسة تلك الكنيسة —كما كانت العادة— عاقداً اجتماعاً كما هو متوجب)، وعرضوا امتيازاتهم، التي زودوا بها بسلطات جديدة، لم يسمع بمثلها، وكذلك بمراتب، وطالب أحدهم، الذي بدا أنه صاحب سلطات أكبر من الآخرين، بالتزام الصمت، لأنه مقبل على الوعظ، وبناء عليه رد رئيس الشمامسة قائلاً: «تصرف بنفسك بلطف أيها الراهب، وانتظر قليلاً ريثما أشرح لك، وجهة نظري: نحن أناس بسطاء، قد اعتدنا على العادات القديمة المصادق عليها، ونصاب بالدهشة أمام هذه البدع المفاجئة، وليس عجباً أن تنتج مثل هذه البدع الجديدة التي لم يسمع بها العجب والخوف، فلماذا أنت تعدّنا هكذا بعناد أننا غير جديرين، أو غير أكفاء للقيام بواجبات المنصب الذي جرى تعيينه لنا؟ وهل تعتقد أنك وحدك من بين هذه الأعداد، الذي سوف تنجو؟ لأن الرسول يقول: «ما من انسان

يعـــرف هل هو يستحق الكـراهيــة أم المحبـــة»، وأنتم الآن مقحمين أنفسكم، ليس للتبشير فقط، وفقـاً لاسمكم «المبشرين»، لكنكم تتلقـون الاعترافـات أيضاً، أو بالحري تستخـرجـونها، أي أنه بإمكانكم إضافـة لقب جديد لأنفسكم وهو «الرهبان المعترفين»، ياإخواني، أنا لاأعتقد أنه من الحكمة ترك مـاهو مؤكـد من أجل ماليس مـؤكداً، وأن تتراجع عما اعتدت أن تفعله، لتتبنى مالم تعتـد أن تفعله، من دون المزيد من التداول والمشاورات مع رئيسكم، وأنا سـوف لن أسمح لكم بالتبشير، أو بتلقي الاعترافات، من الذيـن أنا معين عليه بموجب أوامـر راعي الدير، لأنه واضح إلى جميع الكنيسة، بـأن المراسيم التالية، التي سـوف أريك إياها، وأريها إلى جميع الذين من حـولك، قد عملت وتأكـدت من قبل المجمع العام، الذي عقـد في أيام انوسنت الثالث، في سنة النعمـة ألف ومائتين وخمس عشرة، الذي كان حاضراً فيه أوائل الجماعة المسيحية كلها: واحد وستون رئيس أسـاقفة، وأربعمائة واثني عشر أسقفـاً، وثمانمائة راعي دير ورئيس رهبان، وكـانت هذه المراسيم أوامـر تتوجب مراعـاتها من دون تردد في جميع الأوقـات»، ثم إنه فتح الكتاب، وأشـار إلى مارسم حـول هذه القضية وقرأه.

المراسيم حول القضايا المتقدم ذكرها

«على جميع المسيحيين من الجنسين، عندما يصلون إلى سنوات الرشد، الاعتراف بشكل سري بذنوبهم، على الأقل مـــرة و احـدة في السنة، إلى كـاهنهم الخاص، وعليهم، بقدر مـايمتلكون من قدرة السعي إلى تنفيـذ العقوبة التـي فرضت عليهم، ولسـوف يتلقون باحترام قداس القـربان، على الأقل في الفصح، مـالم —بناء على نصيحة كـاهنهم— ربما يرون أن من الموائم التمنع عن استلامه لبعض الوقت، لسبب ما معقول، وإذا ما رفضـوا فإنهم ســوف يمنعـون —طالما هم أحيـاء— مـن الدخـول إلى الكنيسة، وعندمـا يموتون لايسمح لهم بدفن مسيحي، ولقـد رسم هذا

بشكل صحيح، لذلك يتوجب نشره تكراراً في الكنائس، خشية أن يقوم أي واحد، صدوراً عن العمى، أو عن الجهل، فيتخذ لنفسه حجاباً بعض الأعذار، وإذا ما رغب أي واحد —لسبب ما صحيح— أن يعترف بذنوبه إلى كاهن غريب، لابد له من أن يسأل أولاً الحصول على إذن من كاهنه، لأنه إذا ما لم يفعل هذا، لايمكن للكاهن الغريب تحليل المغلول، ويتوجب أن يكون الكاهن مستقيماً وحذراً، أي أن يكون مثل طبيب بارع، يمكنه أن يصب الزيت والخمرة في جروح الرجل المصاب، ويبحث بعناية في ظروف المذنبين، والذنب، وبذلك يستطيع أن يفهم كيف يمكنه اعطاء الرأي المفيد إلى الشخص المعترف، وحسبما ينبغي أن يتسلم، وأن يستخدم نوعاً من العلاج، وأن يقوم بتجارب متنوعة لشفاء الرجل المريض، وعليه أن يتخذ كل الاحتياطات الممكنة والعناية الفائقة، بأن لايخون المذنب، لابالكلمة أو بالاشارة، أو بأي شكل من الأشكال مهما كان نوعها، وإذا ما احتاج الكاهن النصيحة من أي شخص أكثر حكمة، ليقم بالسؤال بحذر، من دون أن يذكر اسم الشخص، وكل شخص سوف يقدم على كشف أي ذنب أبيح إليه، عند منصة الاعتراف، هو لن يخلع فقط من وظيفته اللاهوتية، بل سوف يلقى به أيضاً في واحد من الديرة القاسية، ليعاني من عقوبة دائمة.

موت داود أمير شمالي ويلز

وفي حوالي بداية الربيع من هذا العام، عندما كان هؤلاء (الانكليز مع الويلزيين) على وشك الاشتباك بالحرب، التي كانت بالعادة أكثر عجلة، وفي أثناء العمل على صنع الترتيبات الضرورية، مات داود، أمير شمالي ويلز، وحفيد الملك، من جهة الأخت، وكان رجلاً حانثاً لليمين وقاتلاً لأخيه، وكان قد تلاشى تعباً بسبب مختلف الاضطرابات، فلقد غادر وادي الفانين إلى وادي الموت، بعد معاناة لما لايحصى من الأحزان بالعقل، وبعد رؤيته لدمار أراضيه، وشهوده لمختلف المذابح،

وآلام رعيته من الجوع، وهو الآن قد ترك ويلز في حالة اضطراب، وفي أوضاع مأساوية مزعجة، وفي محله انتخب الويلزيون ابن غريفين ليكون مقدماً لهم، الذي عندما سمع بهذا، ترك على الفور ملك انكلترا، وهرب بشكل مفاجىء مثل أرنب بري، إلى أوكار اختباء الويلزيين، مع أن الملك المذكور، كان قد تلقاه في صدر رحمته، ورباه بشكل مشرف لمدة طويلة من الوقت الذي مضى، وارتقى به إلى المراتب.

عقد بارلمان في لندن

في هذا العام، عملت بعض القوانين، مع زيادة بالقسوة ضد جميع الذين اقترفوا بشكل سري أعمالاً آذوا بها الحدائق أو المطارد التابعة للآخرين، وقد أعطي وصف كامل لهم في كتاب الرسائل، بعد عملية التفتيش المتعلقة بالتجاوزات المرتبطة بالغابات.

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير، وفي التحديد في اليوم الذي يغنى به: «لتبتهج القدس»، اجتمع جميع النبلاء من كل أرجاء انكلترا، بما في ذلك الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، وكذلك الايرلات، والبارونات، في بارلمان عام في لندن، بناء على دعوة ملكية، لعمل ترتيبات فعالة، حسبما تقتضي الحاجة، لشؤون المملكة، التي كانت الآن في أوضاع متأرجحة، لأن الشعب كان متأذياً من الظلم الذي لايحتمل، والذي مورس ضدهم بدون انقطاع من قبل البلاط الروماني، والذي لم يعد بإمكانه تحمله أية مدة أطول، من دون نيل تهمة الجبن، ومن دون جلب الدمار على أنفسهم، وقد أصيبوا بقسوة أكبر في نفوسهم، لأن البابا حنث بوعوده، وعسف بهم وظلمهم يومياً، بشدة أعظم مما كان من قبل عملهم شكواهم، وفيما يلي الوعود التي كان قطعها البابا في مجمع ليون:

إمتياز آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع الأساقفة بشكل عام، وإلى كل من الكنائس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، وإلى رعاة الكنائس من رجال الدين والعلمانيين في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إنه بالنسبة لبعض الأضرار التي لحقت بكم من قبلنا من دون إرادتنا، أي من قبلنا أنفسنا، أو من قبل الآخرين بموجب سلطاتنا، مع أن المتوجب علينا هو أن نسعى —حسبما هو واجبنا— لحمايتكم من ازعاجات بعض الناس، لذلك ليكن معلوماً لديكم بموجب فحوى هذه العروض، أنه إذا كان ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، قد تولى بموجب أمرنا تعليق أي واحد منكم عن تناول المنافع أو امتلاكها، لقد قررنا سحب مثل هذه التعليقات، ما لم يكن قد جرى فرضها من أجل بعض الأشخاص، الذين قررنا —على كل حال— أن يقتصر عددهم على اثني عشر، شريطة أن لايعدّ بينهم أياً من المنافع المتقدمة الذكر التي منحت، أو الذين لديهم رسائل تتعلق باستحواذهم من أولياء نعمتهم، أو من الذين الممتلكات عائدة إليهم».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الإخوة المبجلين، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، في جميع مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: بما أن الكرسي الرسولي متأثر بعاطفة كبيرة نحو الانكليز، إلى حد أنه ينوي أن يرفعهم فوق إخوانهم بعطايا مضاعفة، وأن يشرفهم بعلامة خاصة ذات إرادة طيبة، وإن رغبتنا العظيمة والمخلصة، هي أن يستمر الانكليز المذكورين بشكل متواصل في الاستمرار بتقواهم، وأن يرفعوا عالياً ممارسة أعمال الرب الصالحة، حتى يحتلوا بذلك بين البقية الجدارة والقبول، وبناء عليه نحن نرجوكم، ونحثكم، وبهذه الكتابات الرسولية نأمر جماعتكم، بتحريض سريع ومستمر، بأن تقنعوا رجال الدين في

مدنكم، وأسقفياتكم، والذين يمكن أن يعدّوا بين الفرسان الكهنوت، وبشكل خاص أبناء النبلاء، والرجال ذوي المراتب، بأن يمارسوا بشكل ظاهر، الأمانة بالسلوك، وأن يستثمروا معارف الكتابة والفضائل، وأن يدرسوا بكل يقظة حتى يجعلوا من أنفسهم شاكرين، ومواثمين للمطالبة بنيل حظوة الكرسي المتقدم ذكره، والرغبات الطيبة للآخرين، وجائزة لاستقامتهم، لأننا على استعداد بكرم لفتح يد العناية اللاهوتية، إلى رجال الدين الانكليز المستحقين لذلك عن جدارة، وأن نوزع منافع ذاتية، على الذين أكثر نبلاً وأفضل أخلاقاً، من الذين نعرف أنهم يستحقون حصة أكبر من حظوتنا».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع رؤساء الأساقفة، والأساقفة في جميع أرجاء مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إن اخلاصكم يستحق عن جدارة، أن يقوم الكرسي الرسولي بتقويتكم بمعروف مناسب، وأن يرفع من شأنكم بامتياز نعمة خاصة، ولذلك نحن نميل إلى تزويدكم، ونرغب بالحفاظ على حقوقكم دون تعرض للأذى، وننصحكم، ونحذركم، ونحثكم، وبوساطة السلطات الرسولية نأمر جماعتكم، وبوساطة السلطات نفسها، نمنحكم الإذن —بقدر ما هو متعلق بكم— حراً، ومن دون معارضة، بأن تمنحوا المنافع اللاهوتية في عطاياكم، عندما يصبحون شاغرين، وأن تعطوهم إلى الأشخاص المناسبين، الذين يمتلكون الرغبة وكذلك القدرة على القيام بواجبات تقدمهم. ولذلك لاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى أبنائه رعاة جميع الكنائس في جميع أرجاء مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إن الاخلاص الحار للانكليز،

يتوجب أن يقوم الكرسي الرسولي باحتضانهم بذراعي عاطفة الأمومة لديه على أنهم أولاده المحظيين، وأن يرفع من شأنهم بامتياز النعمة الخاصة، ولهذا نحن نميل نحو التماساتكم، ونرغب بالحفاظ على حقوقكم دونما خرق، وبناء عليه نمنحكم إذناً —بقدر ما هو متعلق بكم— حراً ومن دون اعتراض، بأن تقدموا إلى المنافع اللاهوتية التي لكم حق الرعاية عليها، أينما صارت شاغرة، الأشخاص المناسبين، الذين سوف يمتلكون الرغبة وكذلك الإرادة، والقدرة على أداء واجب ازدهارهم، ولاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى ملك انكلترا اللامع، إلخ، إلخ، نحن نرجو أن نخبر معاليكم، بفحوى هذه العروض، وهي مع أن الذين تولوا حمل الصليب من أجل مساعدة الأرض المقدسة قد أعفيوا من أشياء كثيرة، نحن لانرغب في أن يكون الذين في مملكتكم، الذين حملوا شارة الصليب من أجل تلك الغاية، أن يكونوا معفيين من مراعاة العادات المرعية للمملكة المذكورة، بل أن يكونوا ملزمين مثل الآخرين بمراعاتها».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الملك المشهور لانكلترا، إلخ، إلخ: نحن نرجو بفحوى هذه العروض أن نخبر معاليكم، بأننا رسمنا مؤخراً، تمايشاً مع المجمع المقدس، بوجوب تعيين الجزء العشرين من جميع الموارد اللاهوتية لمساعدة الأرض المقدسة، وأن شطراً مساوياً من وارد بعض الكنائس —حصة الثلث من بعض الأشخاص، وحصة العشر من بعضهم الآخر— ينبغي أن يعطى لانقاذ الامبراطورية الرومانية (حسبما جرى تبيان ذلك بشكل كامل في القرارات التي نشرت حول

هذه القضية)، ولقد كان رسلك، الذين بعثتهم إلى المجمع المذكور باسمك، وباسم المملكة كلها، قد عارضوا بشدة جميع المراسيم من هذا النوع في ذلك المجمع».

وكان سبب هذه المعارضة، هو أن البابا قد رسم بأن يعطى منصب جباية هذه الضريبة لأي واحد سوف يختاره، وهذه حالة أصبحت موضع شك.

آخر

وكتب مرة أخرى إلى الملك، بادئاً رسالته بقوله: «بموجب فحوى هذه العروض نرغب بأن يكون معلوماً لديكم، بأنه مع أن الإذن قد منح حتى الآن، من قبل الكرسي الرسولي إلى بعض أساقفة الكنائس، بحرية الاحتفاظ لبعض الوقت بالمنافع اللاهوتية التي كانت بحوذتهم قبل ترقيتهم، إننا لاننوي من الآن فصاعداً القيام بمنح مثل هذه المنافع».

وإضافة إلى ذلك منح امتياز واحد هو: «ينبغي أن يخلف إيطاليا ايطالي على الفور»، وقد جرى منح هذا بسبب غش الذين قاموا إثر موت أشخاص منتفعين، بشكل سري، بتعيين آخرين مكانهم، لكن جميع هذه المراسيم ومراسيم أخرى قد جرى اضعافها بسبب العثرات المعيقة، بعبارة «دون الاهتمام»، إلخ. «فأين هو الصدق؟ وأين هي الحقوق التي جرت العادة بتأكيدها بالكتابات»؟ لقد نفيت.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى مصالحة الإمبراطور مع البابا

في هذه الآونة عندما كان بحر الدنيا هائجاً بهذه العواصف، أخذ فردريك، ربما بعد قليل من ردات الفعل والتأمل، وربما لشعوره بالانذار، ولخوفه من حملات من الألمان، وكذلك من الايطاليين، ومن رعاياه أيضاً، ومن جيرانه، وربما لرعايته عقيدة الخوف من غضب

الرب، تغيرت مشاعره نحـو الأحسن، وقد منح روح التواضع من قبل الذي قـال من خلال نبيـه داود: «امـلأ وجوههـم بالحياء، وهم سـوف يطلبـون اسمك، أيها المولى»، ولذلك عـرض بعمل استغفـار لذنوبه إلى البابا، وفي هذه المسألة عيّـن الملك الفرنسي ليكون وكيله ووسيطاً، وقد بذل هذا الملك جهـوده، وذهب إلى البـابا الذي كـان مقيماً في ليـون، والذي قـدم إلى كلوني لدى قـدومه، للقـائـه، ولعمل ترتيبـات في سبيل إقامة سلام، إذا ما جـرى تقديم أية عروض له، وقد عرض الامبراطور فردريك بأن يغادر إلى الأرض المقدسة، وأن لا يعود أبداً، أي أنه سوف يمضي حيـاته هنـاك في سبيل القتـال من أجل المسيح، و سـوف يبـذل جهوده كلها في سبيل إعادة المملكة كلها إلى العبادة المسيحية، على شرط أن يوضع ابنه مكانه في المنصب الامبراطوري، وأن يجري منحـه غفـراناً وتحليـلاً، أي إلى فـردريك المذكـور، مع مسـامحة كـاملـة عن ذنوبه التي اقترفها، وبـذلك يتم استرداد اسمه للسمعـة الطيبة تماماً، وبذلـك أيضاً يمكنه التحول من كونه خـائناً إلى ابن للمصالحة، وعلى هذا العرض ردّ البـابا قـائلاً: «كم مـن مرة عمل الشيء نفسـه، لابل إنه تقـدم بوعـود أعظم، فكل ذلك عمل من قبله، وجـرى تثبيتـه بالأيمان من قبله، وهي أيمان لم يكتف بخرقها فقط، ورفض أن ينفـذها، لكنه أضاف إليها ذنوباً لاتعد ولاتحصى»، ثم إنه نظر بتواضع نحو الملك، وقال: «مولاي ملك الفـرنسيين، والابن المحبوب كثيراً، إنها ليست قضيتي التي هي مـوضع البحث، بل إنها أيضاً قضية جميع المسيحيين أيضاً، وليقم جلالتك بتقدير كم من مـرة جـرت دعـوته وكيف كـان ذلك بتـواضع، في سبيل تحقيق مقصد المصـالحة، في حين كان المجمع كله منتظراً، لكنه لم يقـدم، مع أنه دعي من أجل الالتزام بالقرار الصحيـح للمجمع، وليس للمحاكمة من قبل حكام، وكيف أنه رفض الوفاء بما كـان قد وعد به من قبل، وأقسم عليه بنفسه، مقـابل المخاطرة بروحه، ومن خلال وسطائـه، الذين أيضاً أقسموا بروحه، ولذلك تعرضوا جميعاً للعار، وهي وعود —علاوة على

ذلك— أودعها كتابة، وصدّق عليها بختمه الامبراطوري اللازوردي.

فكيف لي أن أتمكن من ربط بروتوس هذا المتقلب دوماً؟

لقد جعل نفسه غير جديرة بالثقة في كل شيء».

وعلى هذا رد الملك الفرنسي التقي قائلاً: «أوليس مكتوباً في الانجيل، ياصاحب القداسة: (سبعون مرة سبع مرات) ينبغي فتح صدر الرحمة إلى الذي يطلب المسامحة؟ قدّر كم هي هذه الأوقات شريرة، الأرض المقدسة في خطر، وليست هناك من سبل لتحريرها مفتوحة أمامنا، مالم يقم هو —بعد الرب— بمساعدتنا، فهو الذي يمتلك السلطات على الموانىء، والجزر، وعلى الأرض الواسعة قرب شواطىء البحر، وهو الذي يعرف جميع الأشياء، التي سوف تكون مفيدة لنا، نحن الذين على و شك الانطلاق في حجنا، وقد عمل وعوداً كبيرة، وإنني أطلب منك وأنصحك، باسمي، ونيابة عن الآلاف الكثيرة من الآخرين الذين على وشك القيام بالحج، والذين ينتظرون الفرصة الموائمة لعبور البحر، أو بالحري نيابة عن الكنيسة العالمية، وعن المسيحية كلها، في أن تقبل مثل هذا التواضع من جانب مثل هذا الأمير العظيم، متبعاً خطوات المسيح الذي أنت نائبه على الأرض، والذي —كما قيل— تواضع بنفسه حتى الخضوع للموت على الصليب»، لكن بما أن البابا كان عنيداً، فقد رفض، ولم يقبل الاستجابة لهذا الطلب، وغادر الملك الفرنسي غاضباً، ومنزعجاً، لأنه وجد فقط قليلاً من التواضع، عند الذي أمل بأن يكون «عبد عبيد الرب».

كيف سعى الداوية والاسبتارية لفداء إخوانهم الذين كانوا بالأسر

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور وسط مسيرة الشعب في هذا الجانب من الألب، وصل بدورانه أيضاً مسبباً تقلبات كثيرة إلى

الصليبيين في مقاطعات ماوراء البحر، وحيث أن الداوية والاسبتارية شعروا بتعاستهم، فتفكروا حول ذلك فيما بينهم، مع أن ذلك جاء متأخراً، فقرروا تنفيذ صلوات خاصة، والتزموا بصيام أكثر من المعتاد من أجل انقاذ الأرض المقدسة، مدركين —علاوة على ذلك— بأن مقدميهم مع بعض فرسان الداوية وآخرين كانوا محبوسين وهم أحياء بمثابة أسرى، في ظل سلطة سلطان مصر، ولهذا أرسلوا بعضاً من فرسانهم الرهبان الذين عرفوا أنهم أكثر حكمة من البقية إلى السلطان المذكور للتباحث معه بشكل فعال، من أجل اطلاق سراح الأسرى المذكورين مقابل فدية، مهما كان المبلغ المطلوب كبيراً، وأمروهم أن لايوفروا ذهباً أو فضة في الوصول إلى هدفهم، وكان هؤلاء الرهبان المبعوثين قد حصلوا على هدنة وأمان، وقد قدموا في المقام الأول هدايا ثمينة إلى أعيان رجال السلطان، ورجوهم بحرارة للتدخل بشكل فعال لصالحهم لدى السلطان، لإقناعه، لقبول مبلغ من المال، بقدر ما سيختار ويطلب، يكون بمثابة فدية مقابل اطلاق سراح مقدميهم مع بعض إخوانهم، وعندما سمع السلطان بهذا وجّه اللوم إلى هؤلاء المتوسطين، وانتقد الداوية والاسبتارية المذكورين قائلاً: «كم هم تعساء هؤلاء المسيحيين الذين ندعوهم داوية، واسبتارية، ذلك أنهم خارقين بالفعل لقانونهم ولنظامهم، ذلك أنهم رغبوا في المقام الأول، قبل عدة سنوات مضت، أن يقوموا بشكل خياني، بخيانة امبراطورهم فردريك، عندما كان في حجه في خدمة المسيح، لكن بفضل تقديرنا للعدل قمنا بحمايته، ولذلك لم ينجحوا في محاولاتهم، ومجدداً، إن هؤلاء الناس الملزمين بشكل متبادل بحب إخوانهم مثل حبهم لأنفسهم، وأن يساعدونهم في وقت الحاجة، قاموا الآن، ولمدة خمس سنوات، بشن الحرب فيما بينهم، ورعوا مشاعر للبغضاء الشديدة، أحدهم ضد الآخر، كما أن الايرل رتشارد أخو ملك انكلترا، الذي عدّ الأكثر تميزاً بين جميع المسيحيين، لم يستطع تهدئتهم، ولقد قام هؤلاء الداوية بشكل وقح

بخـرق الهدنة التي أبـرمت بحكمـة من قبله، نظراً لكـراهيتهم له، أي للايرل رتشـارد المذكور، الذين سمـوه صبياً، وجاء ذلك بمثـابة ازدراء لإخـوانهم الاسبتـارية، وكـذلك في الآونة الأخيرة، في المعـركـة التي حـوربت بيننـا وبينهم، كـان مقـدمهـم وحـامل الراية (الذي يـدعـونه Balcanifer) قـد تصرفا بشكل معـاكس لنظام طائفتهم، فقد كـانا أول من انسحبـا هاربين من المعـركـة، وأضـافـوا الآن شراً إلى شرور، وكـدسـوا خـرقـاً على خـرق لأنظمـة طـائفتهم، بسعيهم لشراء تحرير مقدميهما، واخـوانهما الذين هم أسرى، بدفع مبلغ كبير من المال، وذلك في الوقت الذي نعلـم فيـه، أنه وفقـاً لأنظمـة طـائفتهم، يمكنهم فقط اطلاق سراحهم بوساطة حزام محدد أو غطاء رأس، وبالنظر لانتهاكاتهم المضـاعفـة، هكذا ألقى الله بهم أسرى بين أيدي الـذين يكرهونهم»، ثم إنه مع نظرة حادة عابسة أمـر أولئك الوسطاء بالمغادرة معلناً أن أوضاع الأسرى سوف تكون أسوأ بالنسبة للمستقبل، وعندما أبلغت نتيجة هذا الطلب إلى الرسل، قالوا بأسف إلى الـذين توسطوا من أجلهم: «ماالذي علينا فعله في حالة الطوارىء هذه؟ هل أعطيناكم الهدايا من دون غاية، مشـاهدين كـم كـانت الثقـة التي وضعناها بكم؟ انصحـونا وبينوا لنا بشكل فعـال، الوسـائل التـي يمكن بها اطلاق سراح إخـواننا الأسرى، الذين نحـن نطلبهم»، وقـد أجـابهم المترجم قـائـلاً: «صحيح أنكم أعطيتمونا هدايا فاخرة، لسوف نعيدها إليكم، مع نصيحة صادقة، فكل الذي يمكنكم فعله هو التـالي: أقنعـوا الامبراطور فردريك، الذي يحبـه مولانا، ويحترمه فوق جميع الناس، بأن يـرسل رسالة شفوية مع رسول، أو رسـالة مكتـوبة بأكثـر عبـارات الالتماس لطفـاً، وكل هؤلاء الذين تطلبونهم سوف يطلق سراحهم بامتنان»، فرد الرسل قائلين: «لن نوافق مطلقـاً مادمنا أحيـاء على خطة من هذا النوع»، وهكذا بعدمـا تعرضـوا لنقد حـاد، غادروا وهم مضطربين، من دون أي أمل في تحرير أسراهم، ومن هذه الواقعة يمكن استنتاج كم كانت الصداقة عظيمة، التي جمعت

بين الامبراطور فردريك والسلطان المذكور.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

فيما يتعلق باجتماع النبلاء في بارلمان سلف ذكـره، في اليوم الذي ينشد فيـه «لتبتهج القـدس»، قام الملك في المقـام الأول بمخـاطبـة الأساقفـة، بفمـه، منفردين، ثـم خاطب بعـد ذلك الايرلات والبـارونات، وأخيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، حول القضايا التي من أجلها بعث برسله الخاصين إلى المجمع في ليـون، وأراهم بعض الغفـرانات، والرســائل البـابوية التي تقـدم ذكرها في هـذا الكتاب، وهي الرسـائل التي جلبهـا الرسل معهم لدى عودتهم، وأخبرهـم كيف أن البـابا قد عمل كثيراً من الوعـود الجيدة للرسل المذكـورين لصالحه ولصـالح المملكة، ولكن لأن الملك قد شعر، حسبما سمع فيها بعـد واكتشف، أنه حتى بعد الغفرانات المذكـورة والوعود، ألقى البـابا يده بثقل أكثر، وعمل، وكأنه متحـدياً، مـزيداً من المطالب، أكثر مما هـو معتاد، تقـدم بها نحو المملكة بوسـاطة ظلمـه للكنيسة، وأراهم بنوداً تتعلق بـالمظالم والأذى الذي مورس ضـد الكنيسة وضد مملكته، وكان فحواهم هو كما يلي:

الأذى الذي لحق بمملكة إنكلترا

«ظلمت المملكة بسبب أن البابا لم يقتنع بالمورد الذي أطلق عليه اسم «بنس القـديس بطرس»، بل استخرج اسهـامات ثقيلة من جميع رجـال الدين في انكلترا، ومازال يسعى لممارسة استخـراجات أعظم، وقد عمل هذا من دون رضى أو موافقة الملك، بشكل معـاكس للعادات القديمة، والامتيازات والحقوق الخاصة بالمملكة، وذلك على الرغم من المرافعات والالتماسات من قبل قساوسة الملك والمملكة في المجمع العام.

بند: إن الكنيسة وكـذلك المملكة قد تعرضتـا للظلم، بسبب أن رعاة الكنائس لم يمتلكوا السلطـة لتقـديم رجـال دين مــوائمين لهن، عندمـا

يشغرن، وهو ما منحه البابا لهم في رسائله، بل إن الكنائس قد أعطيت إلى الرومان، الذين هم جاهلين تماماً باللغة الصحيحة للمملكة، مما يعرض أرواح الناس إلى الخطر، وهؤلاء الرومان يحملون المال إلى خارج المملكة، وبذلك يفقرونها إلى أبعد الحدود.

بند: إنها مظلومة بموجب القرارات المعمولة من قبل البابا لاستخراج أموال بشكل معاكس لفحوى رسائله، التي أفاد فيها، أنه من دون الأخذ بجميع الإجراءات التي عملت في انكلترا، إنه ينوي منح اثنتي عشرة منفعة، ونعتقد أنه بعد كتابة تلك الرسائل المذكورة، قد جرى منح كثيراً جداً من المنافع، وكثيراً من العطاءات عملت بعد ذلك من قبله.

بند: إنها مظلومة، لأن إيطاليا خلف إيطاليا، وبسبب أن الانكليز، قد سحبوا إلى خارج المملكة، بموجب السلطات الرسولية، وانتزعوا من بين قضاياهم، على الرغم مما قضت به أعراف المملكة، وعلى عكس الشرائع المكتوبة، لأنه لايجوز أن يحشروا بين خصومهم، وعلى عكس الغفرانات التي منحت إلى ملك انكلترا، من قبل البابوات المتقدمين.

بند: إنها مظلومة بموجب إعادة تكرار، وظهور تلك العبارة غير الشهيرة في الرسائل وهي «دون المبالاة»، التي بموجبها أضعفت روابط الإيمان ودمرته، مع العادات القديمة، وقوة الكتابات المقدسة، والسلطة بمنح استثناءات وتأسيس قوانين وامتيازات، وبذلك فإن أعداد كبيرة من الناس في انكلترا، قد عسف بهم بحدة، وتضرروا، كما أن البابا نفسه، في إعادته النظر بسلطاته، قد ألزم نفسه بالتعامل مع مملكة انكلترا بشكل معتدل ولطيف، كما أنه قد وعد بشكل مؤكد بحماية مملكة انكلترا.

بند: إنها مظلومة بموجب الضرائب العامة التي جرت جبايتها

وأخـذها، حيث أن ذلك جــاء من دون مـوافقـة الملك ورغبتـه، وعلى الرغم من مرافعة ومعارضة قساوسة الملك وجماعة انكلترا.

بند: إنها مظلومـة، بسبب أنه في منافع الايطاليين، انعـدمت مـراعـاة الشرائع، ورعـاية الفقراء، وتقـديم الضيـافة، كما أن التبشير بكلمـة غير حاضرة، ومثل ذلك انعدام استخـدام زينة الكنائس، ومثل ذلك أيضاً لم تعد معـالجة النفوس، والقـداسات، تمارس بالكنائس، كما ينبغـي ووفقاً لعـادات البـلاد، بل في أبنيتهم، انهارت الجدران مع السقف، وتدمـرت نهائياً».

وبعد إيلاء هذه البنود العناية، وافق الجميع، أنه صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، عليهم أن يحاولوا ثانيـة بالرسائل وبالرسل الخاصين، التوجـه بالرجاء إلى البابا، ليضـع حداً لمثل هذه الأضرار التي لاتحتمل، وأن يرفع هذا النير الذي لايحتمل عنهم، وبناء عليـه كتبوا إلى البـابا كما يلي:

شكوى جميع الإنكليز من المظالم المذكورة

«إلى أبينا المبجـل في المسيح، انوسنت الـذي هو بنعمـــة الرب، الحبر الأعظم، من نواب الأسـاقفـة في منطقة كـانتربري، مع التـوصيـة بتقبيل قـدميكما المبـاركتين: إن لطف الكرسي الرسـولي الذي وضعنا في صـدر إكرامه، مع عاطفة خاصـة، عندما كنا مؤخراً في مجمع ليون، وسمو هذا الكرسي الـذي أظهـر نحـــونا في كثير من الجوانب عطفـــاً كبيراً على تواضعنا، قـد دفع عقولنـا في حماسها الطفـولي، في أن تتحمس من أجل كرامـة وازدهار أمنا الكنيسة المقدسـة، مظهرين بأننا راغبين بالعمل من أجلهـا، ومن أجل كرامتهـا، وللحفـاظ عليهـا بسلام، كما هو متـوجب علينا أن نفعل، وكلما ازددنا حماسـة بالحصول على نتائـج اخلاصنا، كلما وجدنا أن علينا أن نزيد بقـوة من الاحسان إلى شعبنا، ولمملكتنا بالاتحاد

مع الكنيسة الأم، لكن هذا لايمكن أن تكون له فعالية من قبلنا، من دون مساعدة خاصة من الكرسي المذكور، وكنا في المؤتمر الذي عقد مؤخراً في منتصف الصوم الكبير من قبل رئيسنا وملكنا، والذي كنا فيه حضوراً، قد سمعنا بعض الأشياء، نحن نقوم بتكرارها لقداستكم مع الأسف: وكانت هذه الأشياء هي أن الملك والنبلاء، وبالفعل الشعب بشكل عام، كانوا غير راضين، ويكررون الشكاوى، أنه بالنسبة لتوزيع المنافع، التي عملت بالفعل من قبل أصحاب العقود في انكلترا، أنهم هم والمملكة، وكذلك الشعب بشكل عام قد عوملوا باستخفاف، وبظلم لايحتمل من قبل النبلاء ومن قبل آخرين، قد استدعيوا للمحاكمة خارج المملكة، بشكل مضاد لإمتيازاتهم ولإمتيازات المملكة، وأيضاً بوساطة أشياء أخرى مغضبة عديدة، نحن نعتقد أنهم ينوون إخبار قداستكم بتفصيل أكبر، ولدى إدانة هذه الأشياء بشكل مكشوف أعلنوا، وكأن ذلك كان صادراً عن قلوبهم، بأنهم بالحري يفضلون الموت على تحملهم أية مدة أطول، حيث يبدو أنهم يزدادون كل يوم أكثر فأكثر، وبشكل خاص لأن هذه المظالم المذكورة تعسف بهم، حسبما أكدوا، بثقل أعظم، وبشدة أكبر، غير عابئة بوعد تخفيفهم، الذي قيل بأنه قطع لقساوستهم من قبل قداستك، في المجمع المذكور أعلاه، وعلاوة على ذلك إن الشكاوى الصاخبة والهائجة لعدد كبير من الأشخاص الأقوياء جداً، هي خطيرة، وثقيلة لايمكن تحملها بالنسبة لنا، ولايمكن لنا تهدأتها بأية وسيلة من الوسائل، مع أننا نعمل بكل مثابرة ونستخدم كل الوسائل التي نعرفها للوصول إلى هذا المقصد، وإذا مااستمرت الأمور تسير هكذا، نحن نعتقد ونخشى، سوف يشكلوا بداية لمآسي، ومصدراً لكثير من الشرور في انكلترا، ولذلك نلقي بأنفسنا عند قدمي قداستكم، وبدموع نلتمس منكم ونرجوكم بمنح الانتباه إلى الإيمان المتوقد لدى الأنكليز، وأن تقدروا بأن مملكة انكلترا قد برهنت عن نفسها بأنها مخلصة بشكل خاص إلى الكنيسة

الرومانية المقدسة، وأن تنظروا بحق تبجيلكم للرب إلى الشعب المذكور بروح مواساتكم الأبوية في هذه القضايا التي تفضي إلى سلامته وأمنه.

ونحن أيضاً، بما أننا نرغب بحرارة بخلاصهم وأمنهم، سوف نبذل مساعينا للمحافظة عليهم معاً، في وحدة إيمان واخلاص للكنيسة، في سبيل —مع عون المسيح— أن تتحول لتشريف الرب، والكنيسة، وأنتم أيضاً شخصياً، أيها الأب المقدس، وبالاضافة إلى هذا، لعله يرضي قداستكم تهدئة عقلي أميرنا المذكور مع أخيه رتشارد، ايرل كورنوول، بموجب بنود مشرفة، ذلك أنهما قد أكدا قد أوذيا بشكل متبادل، وأعلنا أن الايذاء المذكور هو حظوة غير صحيحة أظهرتها الكنيسة الرومانية إلى الفئة المضادة».

رسائل رعاة ديرة إنكلترا إلى البابا

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، والمولى المحبوب كثيراً، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم للكنيسة العالمية، من أبنائه المخلصين: رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان والرهبان في ديرهم في مقاطعتي كانتربري، ويورك، صحة وقبلات لقدميه المقدستين: إن حكمة الجلالة اللاهوتية، قد وزعت كل الأشياء، بالعدد، والوزن، والمقياس، وأرست قواعد الكنيسة، وقرينها على صخرة قاسية، أي على بناء أساس ثابت، تقوى كثيراً بملاط دم ابنه، حتى يتمكن من أن يرتفع البناء بسهولة أعظم، وبازدهار أكبر، فالكنيسة العالمية قد نبعت من دم المسيح، الذي صرخ عالياً من أجل المسامحة وليس من أجل الانتقام، وهي بتدبير من قرينها، قد حكمت من قبل أب واحد وراع واحد في الوقت نفسه، وفق طريقة سفينة نوح، التي انتهت إلى ذراع، واقتيدت فوق مياه الفيضان، والمسيح —أنا أقول— الذي هو فضيلة الرب وحكمته، قد وجد نفسه مع الكنيسة العالمية، على أنها قرينته الوحيدة، بسبب أنها حمامته الوحيدة، والمختارة الوحيدة من قبله، والتي مع أنها مقسمة إلى أجزاء خاصة،

يتوجب عدم فصلهـا عن العبادة اللاهوتية، وقـد أظهرت كنيسة انكلترا نفسهـا بدون توقف مجيـدة إلى قـرينهـا، الذي دخل معهـا في اتفـاق في الرحم العذراوي، من دون تلطيخ أو وصمة، وإلى الأوقات المتأخرة قد قيلت أشياء مجيـدة كثيرة عن مدينة الرب، أي الكنيسـة الانكليزية، التي بحكم كـونها عضواً من الكنيسـة الرومـانية المقـدسة، فإن جبـال لبنان، والكرمل، وصهيون، يقومون دوماً برعاية واجباتها اللاهوتية، ومع نقاء الطهــارة يتــدفق قلبهــا مثل الماء، وهي ترفـع يديها النقيتين إلى الرب، وتوجه بشكل مستمـر أريج صلواتها إلى كرسي الحكم للثليث، ومع أنها لم تمل بأدنى الدرجات ولم تقصر في تأدية واجبـاتها، هي حزينة، وتبكي، ومضطربة بشأن الاستخـراجـات، والمظالم، والضرائب المضـاعفـة، التي وقعت ثقيلة عليهــا، لأننا كما علمنا من تأكيــد النبـلاء، وكــذلك من صرخـات الناس، فإن الريح المندفعـة من الصحراء، قـد هاجمت بعنف، وهزت الأركـان الأربعـة للكنيسـة المذكـورة، مثـل بيت أيوب، ولذلك غيرت بهجتهــا إلى نحيب، وسرورها إلى بكـاء، لأن روحهــا في وضع مرير، مالم يحصل بفضل من جلالتكم، بعث الرأس الواهن الآن، ورفعه ثانيــة، وإليكـم —بناء عليــه— أيها الأب المبجـل، تلجأ الكنيســة الانكليزية، بحكم كـونكم بمثابة عمود قد ثبتـه الرب، وليس الانسان، وهي آملة بثقــة بالرب، الذي أعماله هي الخير، بأنك ســوف تستخـدم عـلاجاً صحيحـاً ضـد مظالمها، وأنك سـوف تعطي بحق العـدالة التي تتجلى من السماء، وتتطلع نحــو الأسفل من خــلال وحــدة الرب مع الانسـان، إلى كل واحـد حقوقـه، وأن تحفظ الجميع في عـدالتهم، وبناء عليه، بما أننا أبناء مؤمنين ومخلصين للكنيسة الرومـانية المقدسة، قد رأينا بشكل صحيح، أنه حتى يكون الأذى الصـادر عن السهم الذي سلفت رؤيته أدنى درجـة، إحالة القضـايا المتقدم ذكرهـا إلى الكرسي الرسولي، مشاهدين أن مخاطر مضاعفة محيقة بها، وأنه في كثير من النقاط، مالم يتم تقديم العلاج الناجع من قبلكـم، سوف يكون هناك سبب للخوف من

وقوع اضطراب بين الناس، سوف تنجم عنه فضائح، ولسوف ينتج كثيراً من الانشقاقات، لأن الناس مثارين ضد الملك، وعلى استعداد للتخلي عن ولائهم، مالم تتم مواجهة المرض المحيق بسرعة من قبل السلطة الملكية، لأن النبلاء والرجال ذوي المناصب قد أعلنوا بأن الكنائس المعطاة من قبلهم إلى ديرة، سوف تعطى إلى رجال دين ايطاليين، إنهم يمتلكون الحق لاسترداد هذه الكنائس والمنافع الأخرى، ووضعها بين أيديهم، لأن الموارد الناتجة عنهم، يتوجب حقاً استخدامها لصالح الأشخاص الفقراء والحجاج، لأن هذه كانت نية المانح، وسبب المنح، فهل —بناء عليه— يرضي قداستك عمل ترتيب يقضي بعدم الفصل بين المملكة والكهانة، ولابأي نوع من الأنواع، لأنه إذا ما حدث للكنيسة —التي عدّت فيما مضى، فخار جميع العصور، ووفقاً لقول النبي أرض عمالقة— وقام انفصال هكذا بين المملكة والكهانة، فإنها سوف تجر إلى الدمار، كما أن الشعب سوف يكون غير راض، ومثل ذلك الكهانة، ولسوف يتبع ذلك من دون شك مقتل كثير من الناس، وفيما يتعلق بالأضرار التي يتشكى منها النبلاء والرجال ذوي المناصب، فإن الرسل الحاملين لهذه العروض سوف عنها يخبرونكم، ذلك أنه بتقويم يأتي مباشرة إثر شعورهم بالأسى، من الممكن تحويل أساهم إلى سرور».

رسالة من الجماعة العامة لإنكلترا إلى البابا

«إلى الأعظم قداسة، إلخ، إلخ، من أبنائه المخلصين: رتشارد ايرل كورنوول، وسيمون دي مونت فورت ايرل ليستر، ودي بوهون ايرل هيرفورد وايسكس، ور. R لى بيغود ايرل أوف نورفولك، ور. R ايرل أوف غلوستر وهيرفورد، ور. R ايرل أوف وينكستر، و.و. W ايرل ألبميرل Abemarle, وهـ. H ايرل أوف اكسفورد، ومن آخرين في جميع أرجاء انكلترا كلها، من بارونات

ونبلاء، وكذلك نبلاء الموانىء الساكنين قرب شاطىء البحر، ومثل ذلك أيضاً من رجال الدين والناس بشكل عام، صحة، وتبجيل جدير بجميع احترامات مثل هذا الحبر العظيم: إن الكنيسة الأم ملزمة تمام الالزام برعاية أبنائها، وأن تجمعهم تحت جناحيها، حتى لايقصروا في واجباتهم نحو أمهم، بل أن يبذلوا جهوداً كبيرة وقوية لصالحها، إذا كان ذلك ضرورياً، وأن يشهروا السيف، ويحملوا الترس، فإنهم قد يعرضون أنفسهم إلى كل خطر في الدفاع عنها، وهي التي من حليبها استمدوا المواساة، أثناء تعلقهم على صدرها ذي العواطف المليئة بالأمومة، ثم إن على الأم أن تتذكر أولاد رحمها، خشية أن يتصرفوا بشكل معاكس، وينسحبوا من التغذي بحليبها، وبذلك تظهر وكأنها قد غدت زوجة الأب، والأب الذي يسحب عواطفه عن أبنائه، ليس بأب، بل ينبغي دعوته —لسبب صحيح— الأب زوج الأم، لأنه يعدّ أولاده الطبيعيين، أولاداً غير شرعيين، أو أولاد الزوجة، وعلى هذا الأساس أيها الأب المحترم، يامن أنت «عربة بني اسرائيل وقائدها»، نحن نلوذ بثقة إلى ملجأ عاطفتكم، ونحن نصرخ بصوت مرتفع خلفك، وندعو باخلاص لك، على أمل نيل تعويض رباني، فقم بالاصغاء برحمة إلى أصوات الذين يصرخون من خلفك، وقدم لهم علاجاً ناجعاً لأثقالهم وأضرارهم، ومظالمهم المتوالية التي فرضت على مملكة انكلترا، وورست عليها، وإذا كان الأمر عكس ذلك فإن مولانا الملك، سوف تدفعه الفضيحة التي ستقوم، وسوف تحرضه، مثلما حرضتنا نحن أنفسنا، بوساطة صراخ الناس، وعلى هذا إنه لمن الضروري بالنسبة لنا —أنه مالم يتم تحرير الملك والمملكة على الفور من المظالم التي مورست عليه وعلى المملكة— أن نعرض أنفسنا بمثابة سور لبيت الرب، ومن أجل حرية المملكة، وهذا بالفعل قد أجّلنا عمله حتى الآن، وذلك صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، لكننا لن نتمكن من الإخفاء بعد عودة رسلنا الذين أرسلوا حول هذه القضية إلى الكرسي الرسولي،

ولا التمنع عن تقـديم نجـدة —بقـدر ما نمتلك من قـوة— إلى رجـال الدين، وكذلك إلى شعب مملكة انكلترا، الذي لن يستطيع بأي حال من الأحوال تحمل مثل هذه الإجـراءات، ويتوجب على قـداستك أن تتأكد تماماً، أنه مالم يتم اصلاح القضـايا المتقدم ذكرها، بكل سرعة من قبلك، سـوف تكون هناك أساسـات منطقيـة للخوف، بأن مخاطر كبيرة سـوف تحيق بالكنيسة الرومانيـة، وكما بين مولانا الملك إنه لن يكون من السهل تقديم علاج لهذه القضايا، لاسمح الرب».

رسالة الملك إلى البابا من أجل تحرير إنكلترا من المظالم البابوية

«إلى الأعظم قـداسـة، إلخ: يعلم الذي ليس بجـاهل بأي شيء، أننا دومـاً نحتفظ بمشاعـر صادقـة نحو أمنا، الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة، وذلك بقـــدر مـــا هو متوجب علينا أن نحبها، فهي التي نطير إليها ونحن واثقين في أوقات الحاجة الملحة، مثلما يفعل الولد حين يطير إلى أمـه، التي أرضعته من صـدرها، والتي عليها أن ترعـاه عندما يقـاتل تحت حمايتها الخاصة، غير أننا لايمكننـا عدم سماع صرخات الشكوى غير الاعتيـادية لنبـلاء انكلترا، ولرجـال الـدين فيهـا، ومثل ذلك إلى الشعب، وذلك مهما كـانت عظيمـة المشـاعـر التي نحملهـا نحـو أمنا المذكورة، وهو ما ننوي —بعون الرب ورعايته— بالاستمرار باظهاره نحـوها، ذلك أن النبـلاء قـد أصبحـوا، أكثـر مما هو معتـاد، رافعين لأصـــواتهم في شكاويهم، متـوجهين بـالدعـاء إلينـا من أجل استرداد حقوقهم وامتيـازاتهم من المظالم، التي جرى حتى الآن لفـت انتباهكم إليهـا بوسـاطة رسل خـاصين، لكن هذه المظالم مـا انفكت سيئة كما كـانت تشكـل الآن عبئاً أعظم ثقـلاً عليهم، وبنـاء على ذلك أرسل النبـلاء المذكـورين —محقين— رسـولهم الخاص إلينا، ولذلك نلتمس بحرارة من قـداستكم، الاستجابة إلى التماسـاتهم بطريقة يمكن بها أن تحولنا نحـن الأبناء، إلى راغبين كثيراً ومخلصين لأمنا ولـك، ونخشى،

إذا فعلت غير ذلك، أن نوضع نحن، وكذلك الكنيسة الرومانية في أخطار كبيرة (نرجو الرب برحمته منعها) إلى حد أننا لن نكون قادرين أبداً على تحرير أنفسنا منها».

رسالة أخرى منه نفسه إلى الكرادلة حول القضية نفسها

إلى الآباء المحترمين أفراداً وكلية في المسيح، الذين هم بنعمة الرب كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من هنري، الذي هو بالنعمة نفسها ملك انكلترا، إلخ، صحة، وعواطف خالصة: مهما كانت درجة حبنا للكنيسة الرومانية، ورغبتنا بازدهارها ورفعة شأنها، نحن لانستطيع المرور متعامين بصرخات الشكوى الصادرة عن نبلاء انكلترا، وعن رجال الدين، وكذلك عن الشعب، فهؤلاء أصبحوا أكثر إلحاحاً مما هو معتاد في رفع أصواتهم عالياً ضد المظالم، التي جرى من قبل لفت انتباه البابا إليها، ولفت انتباهكم أيضاً، في وقت متقدم، بوساطة رسلهم الخاصين، ولذلك إنهم يلتمسون بتواضع وبإخلاص بأن يتنازل بالإصغاء إلى التماساتهم المنطقية التي قدمت إليه بوساطة رسل متوالين، لأنه بذلك سوف يحولهم إلى أكثر محبذين ومخلصين إلى الكنيسة المذكورة، وإلينا، وسوف نمنعهم من أن يصبحوا بعيدين عن ولائهم، ونحن نرجوكم أيضاً باخلاص، بحكم عاطفتكم الأبوية، ببذل جهودكم، في سبيل أن رسل النبلاء المذكورين الذين أرسلوا ثانية، يمكن أن يصغى إليهم بعناية من قبل البابا، وكذلك من قبلكم أنفسكم، حتى لايسقط الخطر الهائل الذي هو الآن معلق فوق الكنيسة المذكورة —التي نحن مرتبطون بإظهار الخضوع لها إلى الأبد— علينا وعليها، مع أن هذا مخشي منه بدرجة كبيرة من قبل كل واحد، لابل من قبل الجميع في مملكتنا. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في اليوم الثامن والعشرين من أيار، في السنة الثلاثين من حكمنا».

كيف تكدست الشكاوي فوق الشكاوي

تواصل الآن، قدوم كثير من الناس الذين تضرروا من قبل البلاط الروماني، بالقدوم إلى الملك، مع روايات عن الوقائع اليومية للمظالم التي تقدم ذكرها أعلاه، (ولذلك تضاعفت الشكاوي في جميع الاتجاهات) آملين أن يبقى الملك ووكلائه ثابتين في توجهاتهم، وبشكاويهم أعادوا إلى ذاكرته وقائع كثير من المضار التي لحقت بهم، وإلى ذاكرة مستشاريه، والأضرار التي لم تكن قد ذكرت من قبل، أضيفت الآن إلى قائمة شكاويهم المتقدمة، والتي لم يكن ضررها قليلاً بالنسبة إلى الملك والمملكة، مثل مايلي:

شكاوي ضدّ البلاط الروماني

«صدرت مؤخراً رسائل عن الكرسي الرسولي، تتضمن قضايا على درجة عالية من الأذى إلى الملك وإلى المملكة، وهي أن على بعض الأساقفة تزويد قداسة البابا، بعدد محدد من الفرسان، بعضهم بعشرة، وبعضهم الآخر بخمسة، وبعض الآخرين بخمسة عشر، وعلى هؤلاء الفرسان الاستمرار في خدمة الكنيسة الرومانية لمدة سنة كاملة، وأثناء قيامهم بالخدمة، من المتوجب أن يكونوا تحت الدفع من قبل هؤلاء الأساقفة، كما أنه من المتوجب تزويد هؤلاء الفرسان بشكل جيد، وبما فيه الكفاية من الخيول والسلاح، وأن يكونوا حيث يرى البابا أنه موائم، لكن مثل هذه الخدمات العسكرية لاتجوز تأديتها إلى أي انسان، باستثناء إلى الملك فقط، وإلى أمراء أصحاب مملكة، وليس من المتذكر قط، حتى وقتنا الحالي، أنها فرضت من قبل أي واحد، ولاحتى إنه إذا ما رغب البابا في فرض أي شيء من هذا النوع من دون موافقة الملك، أو إذا أراد تسلم مبلغ كبير من المال، مقابل الاعفاء من هذه الخدمة، فإن هذا لايحق له، ولا بأي شكل من الأشكال، يضاف إلى هذا، ولكي لايمتلك الملك وسائل احترازية ضد هذا العمل، جرى تدبر ذلك

بشكل مخادع من قبل بعض رسل الكنيسة، وصدر أمر من قبلهم إلى كل واحد من الأساقفة، أنه لايجوز لهم الإباحة بخبر هذا الإلزام، إلى أي واحد تحت طائلة التعرض إلى عقوبة الحرمان الكنسي، أو دفع فدية ثقيلة عوضاً عنها، وذلك في اطار مدة نصف سنة، ومجدداً، مما أحدث أضراراً كبيرة وأذى عظيماً إلى جميع رعاة الكنائس الانكليزية، جرى في هذه الآونة، عمل منحة إلى رئيس أساقفة كانتربري، بوجوب إعطائه جميع موارد ومنتجات المنافع التي من الممكن أن تصبح شاغرة في مقاطعة كانتربري، أي إلى رئيس أساقفة كانتربري المذكور، لمدة سنة».

كيف تعافت الأرض المقدسة قليلاً من مظالم المصريين

وفي هذه الآونة، كان الخوارزمية الممقوتين قد أكملوا أعمالهم الشريرة في الأرض المقدسة، ولذلك طالبوا بصلف وبإلحاح أن يقوم سلطان مصر بالوفاء بالوعود المحددة والاتفاقات التي عقدها معهم مقابل خدماتهم بالحرب، وذلك من دون تأخير أو معارضة، غير أن السلطان المذكور رفض بقسوة الاستجابة إلى مطالبهم والإذعان لهم، وأوضح أنهم استغنوا بما فيه الكفاية وصاروا أثرياء من أسلاب المهزومين، وقالت الخوارزمية، صحيح أنهم نالوا بعض الغنائم، لكن مع ذلك قد سلموا إلى السلطان أشخاص النبلاء الأسرى، الذين سوف يفادى بهم بأسعار عالية، ومن هنا نشبت خلافات تبادل للملامة، وتخلوا عن السلطان وتركوه وهم مغضبين، مع تهديدات غاضبة، وعملوا على الفور اتفاقاً مع سلطان دمشق، ودخلوا في حلف معه ودعموه، وقام هذا السلطان، في سبيل ايذاء المصريين وتدميرهم، فأعطى ابنته بالزواج إلى مقدم الخوارزمية، ومنذ ذلك الوقت استردت دمشق أنفاسها، واعتماداً منها على مساعدة الخوارزمية المذكورين، قامت بهجوم حاد على المصريين، الذين هم أعظم أعداء الصليبيين، ولدى سماع الصليبيين بهذه الظروف المستجدة، شعروا بنوع من الآمال والمواساة من الخلاف فيما

بين المسلمين، ولاسيما من الانقسام فيما بين أعدائهم.

كيف برأ الإمبراطور فردريك نفسه من تهمة الهرطقة

وفي حوالي الوقت نفسه، قام الامبراطور فردريك الذي لم تسمح الكنيسة له بأن يعدّ امبراطوراً، وفي سبيل استرداد سمعته، التي شعر بأنها تضررت كثيراً بتهمة الهرطقة، بإرسال الرسالة التالية إلى نبلاء انكلترا، الذين أمل بأن يقفوا جميعاً مع الملك، بجرأة ضد إلحاف البلاط الروماني.

رسالة الإمبراطور

«**من فردريك، إلخ، إلخ، إلى أساقفة الكنيسة، وإلى الايرلات، والبارونات، والنبلاء بشكل عام، في جميع أرجاء انكلترا، وإلى جميع الذين سوف تصل إليهم هذه العروض، بحكم أنهم أصدقاءه المخلصين، صحة مع كل التمنيات الطيبة**: مع أننا نعتقد أنه قبل التفوه بالاعلان عن السمعة العامة، وقبل حمل الشهادة الصادقة لرسل مختلف البلدان إلى علم جماعتكم، عن عدالة قضيتنا، بسبب —مع أن الأذى الذي يصل إلى الأذن أبطأ في إثارة العقل، من الذي يصل إلى أعين المسيحيين— أننا نحن نضع أمامكم الحقيقة النقية والمجردة، حول الاجراءات، التي قام بها حتى الآن، الحبر الأعظم، ضدنا، لأن بحثاً كاملاً ودقيقاً لها —مع أن أشخاصاً قد جرى تعيينهم في كثير من الأوقات، للبحث والتقصي في شؤوننا— نحن نثق بأن عواطفكم يمكن أن تعطي وقتاً ثابتاً وكافياً، يمكنكم خلاله أن تقدروا بآرائكم، فيما إذا كان لدى حبرنا تقدير صحيح للنزاهة الحبرية، وفيما إذا كان يجوز حرماننا من دفاع محق عن أنفسنا، نحن الذين أثرنا من قبل كثير من الأذى الكبير كثيراً، وفي الحقيقة فيما إذا كان نائب المسيح قد قام حقاً بواجبات المسيح، وفيما إذا كان هؤلاء الخلفاء لسلفهم بطرس، قد اتبعوا

المثل الذي ضربه، وعليكم أيضاً أن تقدروا تحت أي عنوان، ينبغي وضع هذا النوع من الاجراءات ضدنا، أو بأي اسم يمكن تسمية القرار —إذا كان من الممكن تسميته كذلك— الذي سوف يعلن من قبل قاض غير كفء، لأنه مع أننا —على الرغم من تقديرنا الصحيح للإيمان الكاثوليكي— نقترح ونعترف بشكل واضح تماماً ونعتقد بأن سلطة كاملة في القضايا الروحية قد منحت من قبل الرب للكاهن الأعلى للكرسي الروماني المقدس، فمهما كان هذا الكاهن مذنباً كبيراً (لاسمح الرب) يمكن لما سوف يربطه على الأرض أن يربط أيضاً في السماء، ولكل ما يحله أيضاً سوف يحل، ومع هذا نحن لم نقرأ في أي مكان بأن السلطة قد منحت له، في القانون اللاهوتي أو البشري، لأن يقوم بتحويل الامبراطوريات كما يشاء، أو أن يقرر إلقاء عقوبات دنيوية على الملوك أو الأمراء، بتجريدهم من ممالكهم أو أراضيهم، ومع أن واجب تكريسنا عائد إليه بعرف وعادات أجدادنا، فإن واجب حرماننا من الشيء نفسه، أو خلعنا ليس عائد إليه، أكثر من عودته إلى بعض أساقفة الممالك، الذين وفقاً للعادات يكرسون ملوكهم ويمسحونهم، ولنفترض أنه من دون موقف عدواني مسبق، هو مستحوذ على مثل هذه السلطة، فهل انطلاقاً من تمام سلطته، يمكنه أن يعاقب كل الذين يعلن أنهم خاضعين لسلطته، من دون مراعاة أو تقدير مطلق للقانون والنظام؟، لأنه قام مؤخراً، كما ذكر، بإجراءات ضدنا، ليس بوساطة وسائل نظامية بتوجيه الاتهام، لأن ما من اتهام أو متهم صحيح قد ظهر، وما من إجراء كتابي تقدم على ذلك، كما لم تكن هناك إجراءات استدعاء وفقاً للقانون، ولابوساطة طريق الاستجواب، ولابوضع الإدعاءات وعرضها مسبقاً، وبما أنه لم تكن هناك نسخة عن إجراءات الاستجواب قد عملت لنا وقدمت، وبما أنه لم يكن هناك شيئاً من هذا القبيل قد عيّن للاستجواب من قبل قاض مثل هذا، فقد أعلن أن كل شيء كان واضحاً، وهو ماننكر بشكل معلن أنه كذلك، كما لم يتبرهن

أنه واضح من قبل أي عـدد قـانوني من الشهـود، لأنـه بمـوجب هذه الطريقـة أي قاض يمكنه —بـوضعه جـانبـاً كل المراعاة للقـانون— أن يدين بنفسه أي واحـد بموجب إعـلانه فقط أن الجريمة واضحـة، وقد قام هناك ضدنا (كما أخبرنا) في المجمـع بعض العدد القليل من الشهود غير المستقيمين، كان واحداً منهم أسقف كالفي Calvi, الذي كان لديه سبب مسـوغ لشعوره بالكراهيـة ضدنا، بسبب بعض قـراباته، أي بسبب أخيه وحفيـده، اللذان أدينا بشكل قانوني، وقضي عليهما من قبلنا بالشنق، بسبب جـريمة الخيانة، والذي شهـادته ينبغي أن ترفض بشكل صحيح، بناء على هذا الأساس، وآخرين قدما من أقصى مناطق اسبانيا، وهما أسقفي تاراغونا Taragona, وكومبـوستيلا Compostella, اللذان هما معـاديان لقضيتنا بسبب بعـد بلدهما المحلي، وهو ايطاليـا، وبسبب التأثير المسم الذي مـورس عليهما، وعلى أتباعهما، وعـلاوة على ذلك، إذا كان المدعي والقاضي قـد تصرفا بشكل قانوني بالنسبـة لما أدلى به الشهود، هناك فريق ثالث مـازال مطلوباً، كان من الممكن أن يدان لو أنه كـان موجـوداً، وأن يدان إذا كـان غائبـاً من خـلال التمـرد، لأنـه مع أننا قـد استـدعينا أثنـاء وعظه في ليـون —كما سمعنا— مع أن ذلك كـان بشكل غير رسمي، أي كان علينا أن نظهـر إما بشخصنا، أو من خـلال آخرين أكفاء للاجابة عنا، ولتقـديم العدالة للذي استدعانا، أو لآخرين لم تكن هناك عبارة واضحة حول الشخص أو القضية، وحـاضرين لم نكن هناك بشكل مؤكد، لكن غيـابنا قام على أسس جيدة، ولنبرهن أياً كان وكـلاء القانونيين، لم يسمح لنا بذلك، كما أننا لم نكن غـائبين صدوراً عـن التمرد، بقـدر مـا كان هناك إلى جـانب ذلك، أي استـدعـاء إلى أي واحـد، لأنه كما ذكـرنـا من قبل، لم يحدد الاستدعـاء أي وقت محدد، حسبما تتطلب الاجراءات القـانونية، كما أن صيغ الاستدعـاءات التي ترسل إلى الأمراء والأساقفة،، تظهـر بوضوح الذي يتكون منه تمردنا، بالاضافة إلى هذا كنا بريئين تماماً بوساطة رسالة

المعلم ثاديوس دي سوسا، الذي هو من رعيتنا المحبوبين، كما أنه القاضي المخلص في محكمتنا العليا، والذي لم تضعف سلطاته بأي حال من الأحوال بوساطة الاجراءات ضدنا، لأنها لم تكن مدنية، بل ذات صفة إجرامية، وفي هذا النوع الأخير لايمكن لوكيل أن يعمل، بما أن فحوى الاستدعاءات التي وجهت إلينا أو إلى وكيلنا سوف تبرهن العكس، أي كان من المتوجب القيام بالاجراءات ضدنا ليس بطريقة تجريمية، بل في قضية مدنية، محدودة بكل الخصوصيات المتقدمة الذكر، من دون مواقف عدوانية مسبقة لحقنا العادل، وعلى افتراض أننا كنا متمردين بشكل مكشوف، إنه لايجوز قانونياً إصدار عقوبة بالتمرد، على شخص أخبر أنه متمرد، أو اتهم بالتمرد، وادانته بحكم محدد، قبل محاكمته بشكل إجرائي صحيح، ومن دون البحث في قضيته في محاكمة خاصة أو عامة، لأن لمثل هذه القضايا هناك عقوبات أخرى، تصدر بحق الأشخاص المتمردين، حسبما جاء في الأحكام المدنية والقانونية، وأخيراً لنفترض أن جميع الاحتياطات العدلية المتقدم ذكرها قد اتخذت، فذلك بلا جدوى، مع أنهم قد يكونوا قد استخرجوا من قضيتنا، ذلك أن فحوى ذلك الاعلان، بأن الحكم لم يصدر ضد وكيلنا الذي كان حاضراً، بل صدرت الإدانة ضدنا مع أننا كنا غياباً، وهو حكم تعلن بعض القوانين والحقوق أنه باطل وفارغ، والدليل على الظلم في جميع مسار الإجراءات قد ظهر أيضاً، في الأسباب التي أدخلت في قرار الحكم، والتي ضدها قد جرى الدفاع عنا بموجب حقيقة نقية، وبموجب وثائق معلنة، مثل الرواية الصحيحة لحملة هذه العروض، ومثل ذلك ماتظهره بكل وضوح محتويات تلك الوثائق، علماً بأن جميع القضايا المتقدم ذكرها، غير كافية لإصدار قرار حكم ضدنا بمثل هذه العقوبة القاسية (وذلك إذا كان من الممكن تسميته قرار حكم) وهو القرار الذي قد قذف ضدنا، نحن الامبراطور الروماني، ومن الواضح تهوره، ومن عقله المليء بمشاعر الكراهية أظهر أنه عمل وفقاً لذلك في

القضايا المتقدمة الذكر، لأنه لم ينتظر حتى لمدة ثلاثة أيام لوصول أسقفنا المحبـوب كثيراً، المبجل أسقف فـريزنغيـو Frisingue, وهـ . H رئيس دير اسبتارية التيوتون، والمعلم ب. P دي فينيا، قاضي المحكمة العليا، وهم من رعـايانا المحبوبين كثيراً لدينا، كنا قد أرسلناهم مـؤخـراً إلى المجمع لإكمال بنود مفـاوضـات الســلام، كما أنه لم ينتظر وصـول المعلم وولتر دي أوكـرا، الذي هو قسيسنا، والكاتـب بالعـدل لدينا، ومن رعايانا المخلصين، وكان قـد أرسل من قبلنا، وذلك بمعرفة من الحبر الأعظم ومـن بعض الكرادلة، وكـــان من المتـــوجب انتظار وصـوله لمدة عشرين يـوميـاً، أي إلى مـاقبل يومين فقط، قبـل أن تأخـذ الإجـراءات المتقـدم ذكـرها مكانها وتحدث في ليـون، مع أن النبـــلاء والأساقفـة كانوا يتطلعـون إلى وصوله وينتظرونه، هذا وهناك عـدوانية كبيرة واضحـة في شدة القـرار الذي أنزل على غلطتنا، والـذي بموجبـه تمت إدانة الامبراطور الروماني، الحاكم الامبراطوري، والسيد المعلن لها، بجـريمة الخيـانة، وبذلك جعل بشكل مضحك خـاضعاً للقـانون، وهو الذي بمـوجب مـرتبته الامبراطورية متحـرر من القـانون كله، ذلك أن العقـوبات الدنيوية لايجوز أن تنزل عليـه من قبل الانسـان، بل من قبل الرب، لأنه لايوجد رئيس له بين البشر، ثم إن العقـوبات الروحية التي نحكم بها، ينبغي أن تكـون بمثـابـة أعمال توبة يتم تحديدها لنـا من قبل الكهنة، ونحن بالنسبـة لرفض المفاتيح، ومثل ذلك التجـاوزات البشرية الأخـرى، سـوف نستقبل باحترام، وسنطبق باخـلاص العقـوبات التي ليس فقط يجري فـرضها من قبل الحبر الأعظـم (الذي بالنسبة للقضـايا الروحية نحن نعترف بـه على أنه أبانا ومولانا، وذلك مـادام راعياً لرأي تجاهنا بمثـابة ابنه)، لابـل حتى من قبل كـاهن من الكهنـة، ومن هذه الأشياء كلها، إنه واضح تماماً، أنه قال بأننا ينبغي أن نكون موضع شك في ابتعادنا عن الإيمان الكـاثوليكي، منطلقاً من رغبة في تـوجيه الإهانة، وليس انطلاقـاً مـن أرضيـات عـادلة، وفي هذا الشأن، نحـن نؤمن بأن

الذي هو في عليين هو قاضينا، ونحن بفكر واحد نطبق معتقدين كل قراراته، وفقاً للنظام العام، وللأعراف المقررة للكنيسة الرومانية، ونحن نترك إلى حكمتكم حتى تقرروا فيما إذا كان الحكم المتقدم الذكر —الذي هو ملغى في ذاته— وفيما إذا كانت الإجراءات —التي هي من وجهة نظر القانون لاغية— من المتوجب رعايتها، ليس فقط لزيادة إلحاق الضرر بنا، بل وبجميع الملوك، والأمراء، وبجميع الأعيان الدنيويين، والذي هو قرار حكم، ما من واحد من أمرائنا في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد حملنا لمرتبتنا، ووظيفتنا نفسها، والذي عليهم يعتمد خلعنا، قد قام بتثبيته بحضوره أو برأيه، وقدروا أيضاً أمراً آخر، وهو ماهي النتيجة المتوقعة من مثل هذه البدايات، إنها بدأت بالفعل معنا، لكن البقية من المؤكد أنها سوف تنتهي مع بعض الملوك والأمراء الآخرين، حيث أنهم يتفاخرون أنهم لايخشون منهم أية مقاومة، وذلك إذا (لاسمح الرب) ماتمكنوا من وضع سلطتنا تحت أقدامهم ووطئوها في المقام الأول، وبناء عليه، أيها الملوك، دافعوا عن عدالة قضاياكم من خلال الدفاع عن قضيتنا، وتزودوا وأعدوا من أجل شعوبكم ومن أجل ورثتكم، ونحن لن نتردد، بكل ثقة، اعتماداً على رابط علاقتنا، في أن نطلب دعم تماسككم الملكي، بداية بعدم الإصغاء إلى أي شيء يمكن أن يكون مفيداً إلى خصمنا، من الممكن أن يذكره بوساطة رسله أو نوابه البابويين، سواء بشكل معلن، أو بشكل سري، بل الذي عليكم بالحري هو أن تقوموا، بكل جرأة وقوة، مستخدمين كل الوسائل المتوفرة لديكم، بتقديم المساعدة لنا، وبعدم قبول أي رسول أو نائب بابوي يمكن أن يحاول نشر أي شيء لإلحاق الضرر بنا بين الناس، الموضوعين تحت إدارته، وكونوا متأكدين، أنه بموجب الشروع بمثل هذا العمل الطائش ضدنا، تستهدف السلطات البابوية من ذلك حرماننا، لتمد آفاق عملها، ومع ذلك إذا كانت اليد اليمنى لملك الملوك، التي تعين دوماً العدالة، سوف تقدم العون لنا، إننا سوف نواجه

هذه البـدايات، شرط أن لايقـوم الملوك والأمـراء المهتمين بقضيتنا، بمعارضتنا، لأنكـم أنتم مع أشخاص كبار آخـرين على الأرض، يمكن أن يشعـروا محقين بالخوف من مثل هذه المحـاولات المتخـذة ضـدنا، ونحن نفعل هذا غير راغبين، والرب هو شاهدنا، غير أننا مكرهين على ذلك، عندما نرى بأن المسيحية مداس عليها في أيامنا هذه، ونحن نأمل، حسبما كتبنا مـؤخـراً إلى جـلالة الملك، بالتعـاون معكم في الحفـاظ على قضيتها، نـرجو أن يقوم الرب فيقضي بيـده على هذا الذي يقدم الـوقود إلى دمار المنفعـة المسيحية العامة، وعـلاوة على ذلك إن كل الذي سوف يقـوله لكم هوغ كـابوشي Cabuche فـارسنا المحبـوب كثيراً ورسـولنا المخلص، يقوله لكم باسمنا حـول مايتعلق بالقضـايا المتقدمـة الذكر، يمكنكم عدّه أصيلاً. صدر في تورين Turin في اليوم قبل... من آب، في الاشارة الثالثة.

كيف نأت عواطف مختلف الأمراء وابتعدت عن البابا

وعندمـا وصلت هذه الرسـالة إلى علم كثير من الأمـراء، نأت تمامـاً بعواطفهم عن البابا، فهم قـد خافوا من تشامخ البـلاط الروماني، إذا ما رضخ فردريك له.

البابا يتدبر انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المنصب الإمبراطوري

ثم إن البابـا في جهوده المتواصلة ومسـاعيه المستمـرة للرفع من شأن قضيتـه، سوغ مـوقفـه من القضيـة، ورغبته في سحق فـردريك المذكـور بشكل ماحق، فحصل على انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المرتبة الامبراطورية، والاعتراف بانتخابه من جميع الكنائس، ولهذه الغاية وعد اللاندغريـف المذكور بمساعـدة وافرة في كل من المال والعسـاكر، وبناء عليه كتـب رسالة إلى رئيس أسـاقفة كولـون، وإلى الأساقفة الآخـرين،

وإلى نبلاء ألمانيـا، لجلب هذا العمل إلى نهاية سريعـة، وإلى هذا استجاب كثيرون، وبشكل خـاص رئيس الأسـاقفـة، كما أنه أرسل إلى امبراطوره —اللاندغـريف— مبلغاً كبيراً من المال ليمكنه من شن الحرب بنشـاط وفعاليـة ضد فردريك، وقـام الأخير بنصب كمين إلى الأشخاص الذين كـانوا جالبين لذلك المال مع بعض الهدايا الملكيـة، في سبيل تحويل ذلك لصـالح استخدامـاته، وإلحاق الأذى باللاندغـريف، الذي هو منافسـه، وكذلك بالبابا.

كيف أرسل الإمبراطور كونراد ضدّ الإمبراطور المنتخب حديثاً

ثم وجـد الامبراطور، أن خصمه، اللاندغـريف المذكـور، قد جـرى الاعـلان عنه في ألمانيـا، بفضل امكانات البـابا، وذلـك للحط من شأنه ولتدميره، وأنـه قد سمن تمامـاً اعتماداً على أموال البابـا، وأيضاً أن كثيراً من نبـلاء ألمانيا قـد ارتبطوا به بقـوة، ولذلك أصيب بالدهشـة والحزن، وبناء عليه أرسل ابنه كونراد مع قـوة كبيرة للقتال ضده، لكن حدث في يوم القتـال، أن الذين كـانوا ملتـزمين بمسـاعـدة كـونراد المذكـور، قـد انتشرت الأخبار، بأنهم أفسـدوا بوساطة أموال البـابا، وبدناءة تخلوا عن سيـدهـم في ميـدان القتـال، وانهزمـوا، أو بالحري انضمـوا إلى جـانب أعدائهم، ونتيجة لذلك عاد كونراد المذكور إلى أبيه مهزوماً يحمل العار.

زواج شارل الأخ الأصغر لملك فرنسا من الابنة الصغرى لكونت بروفانس

وفي هذا العام، جرى تحرير الابنة الصغرى لريمـوند كونت بروفانس المتوفى، من وصاية الملك الفرنسي، بوساطة تدخل أمها بيترايس، وبإرادة من الملك المذكـور وترتيب، جـرى إعطاء كـونتيـه بروفـانس إلى أخيـه الأصغـر شـارل، واقترنت الابنة المذكـورة للكونت به بالزواج، لكن في هذا لم يكن هناك كثيراً من السرور قـد ظهـر بين النبـلاء، ولذلك بات

شارل المذكور غاضباً ويقال بأنه قال لأمه وهو غاضب ومنزعج: «لماذا لم يكن في هذا الاحتفال العام كثيراً من مظاهر الفرح بين النبلاء، مثلما كان أثناء زواج أخي الملك، وذلك في حين انني ابن ملك وملكة، بينما هو لم يكن كذلك؟»، وقد قال هذا لأن شارل المذكور، قد ولد بعد وفاة فيليب الملك الفرنسي الأخير، وتتويج لويس ملكاً، وغدوه ملكاً على الفرنسيين، في حين كان فيليب حياً قبل زواج لويس، ويتوافق هذا الكلام مع ماقاله هنري الأصغر، ملك انكلترا، وذلك عندما قام والده هنري الثاني بخدمته، أي بخدمة هنري الأصغر، حيث قال له: «إنك لست مهاناً بخدمتك لي، لأنك أنت ابن ايرل، بينما أنا ابن ملك وملكة»، لكن دعونا ننتقل من هذا الاستطراد، ونكمل حكايتنا، فقد قام الملك الفرنسي، في سبيل أن لايمتلك فردريك القدرة على إلحاق أي ضرر به، أثناء غيابه في حجه، وأن لايمنعه من الوصول الحر إلى مينائها، قام ببناء ميناء موافق جداً في بروفانس، مقابل نفقات كبيرة، على البحر المتوسط، وبحكمة بنى من حوله قلاعاً قوية.

البابا يأمر بصنع شراريب ذهبية مثل الشراريب التي يرتديها الإنكليز حتى ترسل إليه

وحدث في هذه الآونة أن رأى البابا الشراريب الذهبية الجميلة بين الزينة اللاهوتية التي ارتداها بعض الأشخاص الانكليز فوق أرديتهم وفوق ألبسة الرأس، فسأل عن مكان صنعها، ولدى اجابته: «في انكلترا» قال متعجباً: «حقاً إن انكلترا هي حديقة بهجتنا، وصدقاً هي بئر لاينضب، فيها أشياء كثيرة وافرة، ومن أشيائها الكثيرة، كثير هو الذي يمكن استخراجه»، وبناء عليه أرسل على الفور رسائله المقدسة المختومة بختمه إلى جميع ديرة طائفة السسترشيان المقيمين في انكلترا، الذين إلى صلواتهم عهد بنفسه مؤخراً، في الهيئة الرهبانية للسسترشيان، آمراً إياهم، أن يقوموا من دون تأخير —وكأنهم سوف يحصلون

عليهم مقابل لاشيء— بارسال بعض الشراريب الذهبية المنتقاة ليزين بها ثيابه وأرديته للقداسات ولجوقة الانشاد، وهو أمر لم يرض المرتزقة اللندنيين، لأنهم قد أعدوهم للبيع، وقد باعوهم بالأسعار التي ارتضوها، غير أنها أصابت كثيرين بالقرف، بمثابة بينة على شره الكنيسة الرومانية.

الحملات التي قام بها التتار على المسيحيين

قام في هذا العام التتار، ذوي الذكرى المقيتة جداً بحملة مرعبة داخل المناطق المسيحية، فبعدما أخضعوا كثيراً من الأمراء المسلمين —لأن الرب كان معادياً لبني البشر— جعلوا ملك أرمينيا، وأمير انطاكية، وعدداً كبيراً آخر من النبلاء المسيحيين، يدفعون الجزية إليهم، وبعد ذلك باتوا يأملون بمزيد من حسن الحظ، فتجرأوا مجدداً على غزو مقاطعات هنغاريا، وقد بدت إليهم، وكأنهم لم يخضعوها من قبل، مع أنها كانت قد هجرت بشكل مشين من قبل سكانها، وارتعب ملك تلك البلاد لدى وصولهم، فانسحب مع السكان من الأماكن الضعيفة من أراضيه، وهرب إلى الأماكن الأكثر حصانة (وهذه الأماكن بدت حتى بالنسبة له غير آمنة تماماً)، وانتظر هناك نشوب معركة دموية، كما أنه أرسل رسالة إلى البابا كي يستخدم غاية مساعيه لحمايته وحماية جميع المسيحيين، من مثل هذا الوباء الجارف، لكن حتى بهذا لم ينصرف البابا عن إدمانه وتشوقه واستخدام كل جهوده لجمع المال، كما سنرى في الصفحات التالية.

تعيين روجر بيغود مارشالاً

في هذا العام، وبعد وساطات متوالية، جرى منح مرتبة المارشال، مع المنصب والتشريفات العائدة إليه، إلى الايرل روجر بيغود، بسبب أن الكونتسة زوجته، كانت الابنة الكبرى لوليم الكبير، ايرل مارشال.

كيف تفجرت حروب متنوعة في جميع أرجاء ألمانيا

وفي العام نفسه أيضاً تفجرت الحرب في كثير من الأماكن من ألمانيا، وفي كثير من المناطق المجاورة لها، لأن كثيراً من النبلاء، ولاسيما من العلمانيين، تبنوا قضية فردريك، في حين وقف إلى جانب البابا، رئيس أساقفة كولون مع كثير من الأساقفة، ومثل ذلك بعض العلمانيين، الذين نعموا، أو بالحري أتخموا بأعطيات الكنيسة، وبالاضافة إلى هذا، نشب خلاف بين أبناء كونتسة فلاندرز، قاد إلى حرب مدمرة، تفجرت فيما بينهم، وذلك بسبب الابن الأكبر لـ «بوكارد Buchard, الذي لم يكن شرعياً، ولكن منح الشرعية من قبل البابا، فطالب بتملك بعض الميراث، غير أن الابن الثاني، الذي كان شرعياً، أعلن عن نفسه بحق أنه الوريث، وأعلن أن كل شيء هو عائد له، بموجب حق الوراثة، لذلك تورط في أعمال سلب ونهب واغتصاب، واكتسب الآن عرفاً جديداً أرضيته لدى البلاط الروماني، قضى أنه عندما تنشب الحرب بين أي نبلاء، يتبنى البلاط الروماني قضية الطرف الذي التجأ إليه طالباً المساعدة، محللاً هذا الطرف، ومصدراً حكم الحرمان الكنسي على الطرف الآخر، وعلى هذا فإن الطرف الذي استعان بوسائله، عدّ في جميع مستقبل الأيام مرتبطاً به، وقد تبرهن هذا بوضوح في قضية داود أمير شمالي ويلز، كما أدخلت عادة أخرى مقيتة، وهي أن أي كاهن كانت لديه وفرة من الموارد الغنية، وانتخب أسقفاً، قد سمح له بحرية —بموجب غفران بابوي جاء الحصول عليه عن طريق الوساطات والهدايا— بممارسة نهمه للاحتفاظ بالموارد التي كانت من قبل بين يديه، وكذلك بالأسقفية، وهذا واضح وقد تمثل بقضية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، كما أن هناك أعرافاً أخرى شقت طريقها إلى البلاط المذكور، بذكرها شعرت قلوب رجال مقدسين بالحزن العميق.

كونت سافوي يقدم الولاء إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الـوقت نفسه، قام أمـاديوس Amadeus, كونت سافوي، الذي شعر عن حـق بتقدير كبير نحو ملك انكلترا، بحضور بونيفيس رئيس أسـاقفة كـانتربري، وبطرس أسقف هيرفورد، ونبـلاء آخـرين، وأصدقـاء وأقرباء الكونت المذكـور، وكذلك الملك، بتقـديم الولاء إلى الملك المذكور، على يدي رئيس الأساقفة، الذي شغل مكان الملك أثناء غيابه، وقام الكونت عن طواعية من ذاته، وبارادة شخصية فتـولى تثبيت الـولاء الذي عمله فيما يتعلق بورثـة الطرفين، بتعهـده بإيمانه وباليمين الذي لارجعة فيه، بمـراعاة الشيء نفسه، ثم إنه تسلم اقطاعاً من الملك تعلق بسوزا Suza مع قصرها، وفيلانا Veil-lana والقديس مـوريس دي شابلي Chablis, وقلعة باردو Bardo, وكـان بالامكان عمل هذا الولاء بشكـل آمن من دون خـرق لمصداقيتـه، أو تسبيب الأذى إلى الامبراطور، أو الامبراطورية، لأنه لم يكن بين يديه شيئاً من الامبراطورية إلاّ الماء، وحق عبورها.

كيف أن الاستخراجات المعتادة قد خففت شدتها

وفي هذه الآونة، تمّ بوساطة وكلاء ملك انكلترا في البلاط الروماني عمل ترتيبـات قضت أنه مع أن البـابا يتـولى حسب رغبتـه ومن دون تمييز في كل مكـان إعطاء المنافع الكنسية لفائـدة الايطاليين، حتى وإن أدى ذلك إلى إلحاق الضرر الذي لايحتمل بمملكـة انكلترا، ومع ذلك هدأت —بنعمـة الرب— العـاصفـة في ذلك الطـرف، لأنه ترتب انه كلما رغب بإعطاء منفعــة هناك إلى أي إنسـان، أو إلى أي واحـد من أقربائـه، أو إلى أقرباء الكرادلة، يتوجب عليه —أي البـابا— وكذلك على الكرادلة، أن يطلبـوا إذن الملك، وبنـاء عليـه إن كـان مـا يرضيـه سوف يجري تنفيذه.

كيف أصبح الدومينيكان والفرنسيسكان رسل البابا

ووجد فردريك في هذه الآونة أن البابا لديه كميات وافرة من المال الانكليزي، ولذلك مركز حرساً وكمائن، على الطرقات، وعلى الجسور، وفي الموانىء، لمنع أي واحد من جلب المساعدة من البابا إلى خصمه اللاندغريف، وبناء عليه أرسل البابا رسائل مواساة ومساعدات أخرى إليه بوساطة الدومينيكان والفرنسسيكان وهم متخفين، ومن جانب آخر تدبر فردريك إرسال مؤن إلى الأرض المقدسة.

ملك مان يتسلم مرتبة الفروسية

احتفل الملك في هذا العام بعيد الفصح بأبهة عظيمة في لندن، وفي يوم الفصح منح شرف مرتبة الفروسية إلى هارولد Harold ملك مان Man.

وفي تلك الآونة أيضاً، رغب بعض مقدمي النبلاء الويلزيين، بإقامة سلام مع الملك، فأرسلوا سفارة إليه، ورجوه بأكثر الالتماسات تواضعاً، أن يمنحهم بنود سلام.

مغادرة رسل الجماعة في إنكلترا إلى روما

وفي اليوم التالي لعيد الفصح، انطلق النبيلان اللذان عهد إليهما بواجب حمل الرسالة المهمة المتقدم ذكرها إلى البابا، وهما: المعلم وليم دي بوويرك Poweric, وكان رجلاً بارعاً في القانون، وهنري دي لى مير Mare, وكان فارساً، انطلقا برحلتهما إلى روما، يحملان الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل، وقد ألقي ثقل الأعمال —على كل حال— على كتفي رئيس رهبان وينلوك Wenlock, الذي كان قد ذهب إلى البلاط الروماني ضد أسقف روكستر، بسبب بعض الأذى الذي لحق به من قبل ذلك الأسقف.

حول الأضرار التي تسبب بها الصقيع والثلج

في نهار وخلال ليلة عيد القديس مرقص الانجيلي، غطى الصقيع والثلج الأرض وربطها ببرد ثقيل جداً، وبذلك أضعف نمو أغصان الأشجار مع أوراقها، ولهذا زوت الأوراق وكذلك النباتات بشكل لايمكن تعويضه.

إعادة بارونيته إلى أسقف شيستر

وفي تلك الآونة لان جانب الملك بوساطة توسلات الأصدقاء، وبلطف أعاد بسلام إلى روجر أسقف شيستر تملك بارونيته، لأنه كان رجلاً لطيفاً في مسلكه، وكان يحظى برعاية جميع الأطراف.

مرسوم جديد وغير اعتيادي للبابا

وسمع البابا في هذه الآونة بأن بعض الكهنة في انكلترا، قد ماتوا أغنياء ومن دون وصية، وكان من بينهم المعلم روبرت هيل Hales, رئيس شمامسة لنكولن، الذي مات قبل عدة سنوات مضت، من دون وصية، وخلّف عدة آلاف من الماركات، وبعض الكؤوس من الفضة، آلت إلى ملكيـة علمانيين، وكـذلـك ألماريك Almaric, رئيس شمامسة بدفورد، الذي مات مخلفاً مبلغاً كبيراً من المال، بطريقة غير معتادة، وأخيراً المعلم جـون دي هوتوفب Hotofp رئيس شمامسة نورثأمبتون، الذي أصيب بمرض مفاجىء، وبشكل غير حكيم، وغير معتاد، مات من دون وصية، مخلفاً حوالي خمسة آلاف مارك، وثلاثين كأساً من الذهب والفضة، وكميات ضخمة جداً من الجواهر، ولذلك أصدر قداسته مرسوماً جديداً، لم يسمع بمثله في انكلترا، إنما ليس من دون نيل تهمة الشره، وقضى هذا المرسوم، أنه من ذلك الوقت فصاعداً، إذا مات أي كاهن من دون وصية، فإن ممتلكاته ينبغي تحويلها إلى استخدامات البابا، وأصدر أوامر إلى رهبان

الـــدومينيكـــان والفرنسيسكان بتنفيذ هذا المرسوم، لكن عندما سمع الملك بهذا، وفي مقتـه لمضاعفـة شره البلاط الرومـاني، منع من تطبيق المرسوم، مشاهداً أنه يزيد من أذى المملكة، وذلك إضافة إلى الاضرار به.

وفي هـذه الآونـة تحرر المعلـم روبـرت أوف آرونـدل Arundel, الذي كان رجـلاً بارعاً تماماً باللغة العبرية، والذي قـام بصدق بترجمة كثير من الكتـابات من اللغـة العبريـة إلى اللاتينيـة، تحرر من المشـاكل البشرية، وقام بوداع العالم.

إصابة معلم أبناء الملك بالسكتة الدماغية

في أسبوع الابتهالات أمر الملك باتخاذ المزيد من الإجراءات الأمنية بشأن شعب المقـاطعات القـائمـة على ساحل البحـر، وفي سبيل ذلك ذهب إلى دوفـر، ومـن هناك إلى كـانتربري، ولدى عـودته من هناك، أصيب نبيل من حاشيـة بيته اسمـه هوغ غيفارد Giffard, وكان معلماً لأبناء جلالته، فجأة بسكتـة دماغية، وسقط على الأرض، ولفظ أنفـاسـه، وفي حـالة ألم كبير، وقـد قـال بعضهـم بأن هذه الحادثة قـد وقعت انتقامـاً من القديس ادموند المعترف، الذي كان رئيس أسـاقفة كانتربري، ذلك أنـه بالموت المفاجىء لواحد من جـانب الملك، يمكن أن ينذره، ويدفـع به للقيـام بعمـل ترضيـة لكثير الأذى الـذي أنزل بكنيســة كـانتربـري، وبشكل رئيسي بسبب أنه أسرع بشكـل طائش بترقيـة بونيفيس إلى مـرتبـة رئيس الأسـاقفـة، دون أن يسمح لرهبـان كـانتربري —بموجـب حقهم— بامتلاك سلطة حـرة بانتخـاب الذي يختارونه، لأن بونيفيس المذكور، بتوريطه نفسه بطرق غير معتادة وغير مـوائمــة في الحروب في القـارة، دونما ضبط، بل القيـام فقـط بافقـار كنيسته، قد تولى بشكل مهين الانحراف عن طرق أسلافه.

كيف منع ملك إنكلترا دفع الضريبة إلى البابا

وفي هذه الآونة أيضاً، أصدر الملك رسائله الملكية، محظراً على الأساقفة دفع الضريبة إلى البابا.

وكتب إلى السيد راعي دير القديس ألبان، وإلى الآخرين كذلك، الرسائل التالية: «من هنري، الذي هو بفضل الرب ملك انكلترا، إلى المحبوب لديه كثيراً في المسيح راعي دير القديس ألبان، تحيات: لقد سمعنا بأن الأب المبجل فولك Fulk, أسقف لندن، يرغمكم على دفع ضرائب من أجل استخدام البابا، وقد دهشنا لذلك كثيراً وانزعجنا، لأنه كان قد تقرر بشكل جماعي أثناء الاجتماع المتقدم ذكره، من قبل الأساقفة المذكورين، والنبلاء، عدم فعل أي شيء يتعلق بتلك الضريبة، قبل عودة الرسل من البلاط الروماني، الذين إليه قد أرسلوا، كما تعلمون، بمهمة خاصة تتعلق بمملكتنا كلها، وبناء عليه نحن نأمركم، وبكل دقة نمنعكم من محاولة القيام بأي شيء معاكس لما تقدم الأمر به، أي بناء على أمر الأسقف المذكور، أو أي واحد آخر، مادمتم تؤثرون المحافظة بسلام على امتلاككم لبارونيتكم، التي هي بحوزتكم منا، لأننا لن ولايمكننا أن نتحمل أية محاولة من هذا النوع. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في هذا اليوم الأول من نيسان، في السنة الثلاثين من حكمنا».

رسائل بابوية لاستخراج الأموال أرسلت إلى أساقفة إنكلترا

وحوالي الوقت نفسه، ولكي لاتتوقف جباية الضرائب المزعجة من الانكليز، عمل البابا أكثر الطلبات سرعة وإلحاحاً، من أجل مبلغ كبير جداً، واضعاً ثقته في الذهب والفضة، معاملاً بازدراء كل محاولات التذمر والشكوى الصادرة عن ملك انكلترا والجماعة كلها في تلك المملكة، والذين كانوا يكتبون ويتشكون، ولم يصغ إلى القول الصحيح

والسليم: «بورك الرجل الـذي لم يخرج عن طريقـه سعيـا وراء الذهب، والذي لم يضع ثقته في مخازن المال»، وقد عيّــن بمثابة وكلاء لاستخراج هذه الضريبـة وجمعها، وولتر أسقف نورويـك، مع بعض الآخرين، قـد أنابهم ليكونـوا رسـلاً خـاصين لهذه الغـاية، وبناء عليـه كتب أسقف نورويك إلى راعي دير القـديس ألبـان، ومثل ذلك فعل أيضـاً بالنسبـة لبعض الآخرين بالعبارات التالية الحاوية لما جاء في رسالة البابا:

«**من وولتر، الذي هـو بنعمـة الرب أسقف نورويك إلى راعـي الدير المبجل والمجمع الرهبـاني لدير القـديس ألبـان، صحة دائمـة:** لقد تلقينا وصاية من مولانا البابا محتواها هو كما يلي»:

«**من أنوسنـت، الأسقف، وعبـد عبيـد الرب، إلى أخـويه المبجلين أسقفي وينكستر ونورويك، صحة ومباركـات رسولية:** كنا من قبل، كما نذكر جيـداً، قد كتبنا إلى إخواننا المبجلين، أسـاقفة لنكولن، وووركستر، ولندن، وكـوفنتري، بما يلي: بما أنه تم مـؤخراً، قبل عـودتكم إلى انكلترا من عند حضرتنا، قـد رتبنا معكم، أنه بالنسبة لتقـديم مبلغ الستة آلاف مـارك، الذي هو مطلوب من الكنائس الانكليـزية، لصـالح الكرسي الرسـولي، يتـوجب جمعــه، تحت توجيهكم، من بين أسقفيـات انكلترا، ونحن في هذه الكتـابات الرسـوليـة نأمـر اخـوتكم، أن تخبروننا بأقصى سرعة ممكنة في رسـائلكم، حتى نعهد إلى حـاملي هذه العروض، بالذي من الممكن أن تفعلوه، أو ربما بالذي قـد فعلتمـوه، حول هذه القضيـة، وأن تذكروا لنا أيضـاً، وقت ومكان الدفع، وإذا كان من غير الممكن أن لاتكونوا جميعاً حاضرين أثناء تنفيـذ هذه القضايا، ليقم على الأقل ثلاثة أو اثنين منكم، بدون تقـاعس، بالاشراف على تنفيذ هذه القضـايا، وبما أنه لم يصـل إلينا منـذ ذلك الحين أي شيء حـــول هـذه المسألـة، نحن نحذركـم باخلاص، وبهذه الكتابـات الرسولية نـأمر اخوتكم، أنـه فور تسلم هذه الرسائل، بإعطاء انذار إلى الأساقفـة المذكورين، الذين سوف

يكونوا موجودين في انكلترا، وأن تأمروهم بموجب سلطاتنا، بالالتقاء بكم في اليوم العشرين بعد استلام هذه العروض، في أي مكان محدد، ترون من المناسب إقراره، من أجل ترتيب قضية ذلك الاسهام، وعليكم في ذلك اليوم، وقبل مغادرتكم من هناك، أن تعدوا خطة تقسيم مع الأساقفة الذين يحدث أن يكونوا موجودين هناك، وإذا حدث على كل حال أنه لم يكن أي واحد منهم حاضراً، وحول تلك القضية ما من إجراء تمّ اتخاذه، يتوجب عليكم خلال إطار شهر واحد من ذلك الوقت، أن تتدبروا أن يدفع إليكم شخصياً، أو إلى رسلكم، في أي مكان ترونه مناسباً لاختياره لتلك الغاية، دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره، من أجل استخدامات الكرسي الرسولي، وفقاً للترتيبات التي عملت من قبل في تلك البلاد، اعتماداً على سلطة ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، وهو الأمر الذي أرسلناه الآن إليكم تحت ختمنا، واضبطوا جميع المعارضين بوساطة الروادع الكنسية، وضعوا جانباً كل التماس، وأي غفران، وأي امتياز، أو المرسوم المتعلق برحلة اليومين، الذي صدر في المجمع العام، فهذا لاتولوه الاهتمام، وعليكم أن ترسلوا إيصالاً إلينا من دون تأخير، وأن تخبرونا بالذي عمل، أو الذي من الممكن عمله حول هذه القضية، وليكن ذلك بوساطة ولدنا المحبوب كثيراً ليناسيوس Linasius، كاتبنا والحامل لهذه العروض، وأظهروا أنفسكم بالنسبة للقضايا المتقدم ذكرها، أنكم على درجة عالية من اليقظة، حتى لاتتهموا بالاهمال بالنسبة لها، لابل بالحري أن يثنى عليكم بالنسبة ليقظتكم، وإذا لم يكن من الممكن حضور اثنين أثناء هذا العمل، واحد منكم، مع هذا يمكنه القيام به».

«وعلى هذا إنه بموجب سلطة هذه الوصاية، نحن ننذركم ونحثكم، باسم المولى، ونفرض عليكم بكل دقة، وبموجب فضيلة الطاعة التي أنتم مرتبطون بها إلى الكرسي الرسولي، وأنه بالنسبة لما يتعلق بحصة

البـابا المحـددة لكم، فإن رسلنا سيجلبـون إليكم رسائل مـوثقـة تتعلق بدفع هذه الحصـة، ولسوف يتلقـون ترضيـة منكم خلال ثلاثة أسـابيع، تحسب من بعـد عيـد الفصح، وعليكم إظهـار كل يقظة حـول هذه القضيـة الحاليـة، حتى نمتلك سبباً بأن نثني على اخـلاصكم إلى الحبر الأعظم، وحصتكم هي ثمانية ماركات استيرلينية، وداعاً في الرب. صدر في لندن في الرابع والعشرين من آذار سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين، ونحن قـد كتبنا إليكـم وحـدكم، لأن أخينا المبجل وزميلنـا أسقف وينكستر، قد اعتذر لبعض الوقت».

الملك يمنع دفع الضريبة إلى البابا

ولدى وصـول خبر هذه الوصـاية إلى مسـامع الأسـاقفـة والنبـلاء، سببت إثارة كبيرة، وقلقاً في قلوب الذين سمعوا بها، وبشكل خاص أن رسل الجماعة الانكليزية قـد اشتكوا من مثل هذه المظالم في مجمع ليـون، وبعـد ذلك في البرلمان الذي عقده من قبل ملك انكلترا، الذي اجتمعت فيـه كل جماعـة رجـال الدين، ومثل ذلك كتلة الفـرسـان، حيث تقـرر آنذاك —بصرف النظر عـن احترام البـابا— وجـوب بعث رسـل آخـرين من الجماعـة إليـه، لإقناعـه بـاستخـدام يد التصحيح لمثل هذه المضار، وليس اليد المثقلة بالمظالم، ولذلك غلبتهم الدهشـة، ففي الوقت الذي كـانـوا فيـه متـوقعين إنهاءً لاضطراباتهم، أعيقت آمـالهم، ونالوا المزيد من الظلم، ولذلك عندمـا وصل خبر الرسـالة المتقـدم ذكـرها إلى علم الملك، انفجـر غاضباً بعنف، وكـان مندهشـاً، فكتب إلى أساقفـة انكلترا بما يلي: «**من هنري الذي بنعمـة الرب، إلـخ، إلى الأب المبجل بالمسيح، الأسقف كـذا وكـذا، تحيات**: مع أننا كنا قـد كتبنا إليكـم في أوقات متقـدمة، مـرة أولى، ثم مرة ثانيـة، ومرة ثالثـة، بوساطة رسـائل خـاصة، وكـذلك بوساطة رسـائل مـوثقة، نأمـركم بعدم الاستخـراج، لاستخدام البابا، أو أي انسـان آخـر، أية ضرائب أو أموال مساعدة من

الرهبان، أو الكهنة أو الرجال العلمانيين، لأنه ما من ضريبة أو فريضة من هذا النوع، قد كانت عادة قط، كما أنها لايمكن فرضها من دون إلحاق أضرار كبيرة بكرامتنا الملكية، الأمر الذي لايمكن احتماله ولن نتحمله، ومع ذلك لقد استخفيت بأمرنا في هذه القضية، وعملت بشكل معاكس للمرسوم الذي عمل في مؤتمرنا في لندن، ومن قبل نبلائنا، وأساقفتنا، وكذلك من قبل ايرلاتنا، وباروناتنا، وتابعت مع ذلك تقوم بمثل هذه الجبايات، كما تقدم الذكر، وبشأن هذا التصرف نحن مندهشون كثيراً، وغاضبون، خاصة بها أنك لم تخجل من الاقدام على الوقوف ضد عملك، حيث أنك بالموافقة مع الأساقفة الآخرين، قد وافقت في المؤتمر الأخير، بأنك لن تعمل شيئاً في مسألة هذه الضرائب، حتى يتمكن رسلنا، الذين هم رسلك، وأيضاً رسل النبلاء الآخرين، وجماعة المملكة كلها، من العودة من البلاط الروماني، إلى حيث كانوا قد أرسلوا بشكل خاص، كما تعرف، لتخليصنا من مظالمنا، ولذلك نحن نفرض عليكم أوامرنا، ونمنعكم بكل دقة من السير في أية طريق من أجل استخراج الضريبة المذكورة، أو فرضها، طالما أنك ترغب بالتمتع بتملكك لبارونيتك، والممتلكات الأخرى التي هي بين يديك في مملكتنا، وإذا كنت قد تسلمت أي شيء هنا، إنه غير مسموح لك، ولابأي شكل من الأشكال بحمل ذلك إلى خارج المملكة، بل الذي عليك حفظ ذلك في مكان أمين حتى عودة الرسل المذكورين، ونودك أن تعرف بشكل مؤكد، أنك إذا تصرفت بشكل معاكس، لسوف نلقي بيدنا الثقيلة على ممتلكاتك، إلى مدى أبعد مما تتصوره، ونحن نفرض عليك أن تتولى نشر هذا الحظر على رؤساء شمامستك والموظفين الآخرين، وإن هذا الحظر، الرب يعلم، أننا عملناه لضمان حرية رجال الدين، ومثل ذلك الناس، إلخ».

المصاعب والاضطرابات التي نجمت عن الخلاف بين الملك والبابا

وبناء عليه وضعت الكنيسة الانكليزية في وضع حرج، وقد سحقت بشكل مخيف، لأنها وقعت بين حجري رحا، دار كل منهما بالاتجاه المعاكس للآخر، فقد كان على الجانب الأول صخرة سيلا Scylla المخافة، وعلى الجانب الآخر دوامات الماء المرعبة، فقد كان الملك في هذه القضية مدعوماً ومؤيداً من قبل الرأي العام، الذي ناضل في سبيل الحفاظ على المملكة وعلى اصلاحها، في حين استهدف البابا إفقارها، وكانت الفئتان متواجهة إحداهن مع الأخرى عن بعد، وخاف كثير من الأساقفة من عدم استقرار الملك في هذا الشأن، فيما يتعلق بنواياه المتصورة، ومن جبن المستشارين الملكيين، المرتبطين بقضية البابا، مع أنهم ربما قد رأوا بأن الكنيسة لن تتلقى المزيد من التقدم بوساطة انفاق مثل هذه الأموال، بل لربما سوف تجني الأذى والمعاداة.

الأخبار المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه أخبار محزنة من الأرض المقدسة، في البلدان المسيحية، وتحدثت عن أن الأرض المقدسة المذكورة باتت كلها تقريباً محتلة من قبل الخوارزمية والمصريين، وبات سكان عكا أيضاً، الآن إما خائفين، أو لاخيارات أمامهم، أو غير قادرين على مغادرة مدينتهم، وكانوا متوقعين إما بأن يحاصروا، أو أن يرغموا على تسليم مدينتهم، لأنهم عانوا من نقص كبير في المؤن، إلى حد أنهم أخذوا يتلاشون بين أنفسهم، كما أنه لم تبق لديهم أية آمال بالخلاص، وكان فردريك قد أصبح الآن مطرقة رعب للكنيسة، ولم يعد يسمح بأية مؤن أو مساعدات على شكل عساكر، بأن تنقل إلى أهل عكا، معلناً بأن الكنيسة الرومانية لم تمتلك قط مثل هذه الأرضيات الفعالة لاستخراج

المال من المسيحيين، التي عليها استغنت وغـدت متشامخة، وفعلت ذلك اعتماداً على الاستجداء من أجل الأرض المقـدسة، وعلى التبشير المجرب من أجل حملة صليبية، في سبيل تحريـرها، وعسقلان التي أنفق في سبيل تحصينهـا الايرل شـارل أمـوالاً كثيرة، وجهـوداً عظيمـة، خـلال وقت طويل، وعمل متـواصل ومخلـص، وذلك بالتعـاون مع كثير من النبـلاء الآخـرين، عسقلان هذه كـانت الآن تعـاني من أقسى الحملات ضـدها وأشـدها، من قبـل الأعـداء، وبصعـوبة متناهيـة كـان بـإمكانها الدفـاع ضدهم، وبدت قلاع أخرى، كـانت قد ظهرت من قبل أنها لاترام، من ذلك على سبيل المثـال الكرك وعثليـت، وبعض المدن والحصـون، بدت لخوف السكان بهم، وقد انعـدمت لديهم آمال النجـدات، أنها أصبحت سجــوناً لهم، ولم تعـد أمــاكن للحماية، وكــان هذا مصـدراً للخــوف ولانعـدام الثقـة، وكـان الصليبيـون من كـل جـانب محاصرون من قبل أعدائهم، الذين تجولوا مـن حولهم حسبما رغبوا وشـاءوا، وانخرطوا في النهب، وتمتعـوا بالنصر بسرور، حتى أنهم اعتقدوا أنه سـوف يكون من الأفضل لهم الموت بدلاً من الاستمـرار في هذا الوجود التعيس أية مـدة أطول، ولذلك تذبذبـوا في إيمانهم، لابل بالحري باتوا محبطين كليـاً فيـه، وهجـروا القـــداســات المسيحيـــة، وأصبحـوا مـرتـدين، وهكذا أصبح أصدقاؤنا أعداء لنا، مؤذين لنا أكثر من الآخرين.

حول البارلمان الذي عقد في وينكستر

في يوم مـوت القـديس تومـاس الشهيد، عقـد مـؤتمر كبير بين الملك وبين نبـلاء المملكة في وينكستر، حـول الوضع التعيس للمملكة كلهـا، وخاصة الكنيسة، لأن الرسل الذي كانوا قد أرسلوا إلى البلاط الروماني قـد عـادوا، وهما المعلمان: وليم دي باوريك، وهنري دي لى مير، اللذان جلبا رسالة من البابا، تضمنت لاشيء حول الرفع، بل تضمنت بالحري كلمات غضب، وأعلنا أنهما لم يستطيعـــا أن يريا في سلوك (البـــابا) أو

كلامه أية علامة على التواضع أو الاعتدال، بالنسبة لقضية المظالم، التي أغرقت بها مملكة انكلترا وكذلك الكنيسة، والتي من أجلها عملت الشكوى، لأن البابا كان قد قال لهما، وهو يبحث عن جواب ما مرضياً لهما: «إن ملك انكلترا، الذي يتحرك الآن ضدي، وحاذياً حذو فردريك، لديه خططه، وأنا لدي خططي التي سوف أتبعها»، وبات من ذلك الوقت من الصعب جداً أن يستطيع الانكليزي ترتيب أي عمل في ذلك البلاط، بل طرد الانكليز جميعاً وعوملوا كمنشقين، وأثيروا بوساطة الاهانات، وأثارت هذه الأخبار، مع سبب جيد، غضب الملك، وغضب نبلائه، وأمر الملك على الفور الإعلان العام بوساطة المنادين، في جميع الكونتيات، وفي جميع أرجاء القرى، وكذلك خلال الأسواق، وأماكن تجمعات الناس، أنه لايجوز لأي واحد الموافقة على أية اسهامات مالية لصالح البابا، أو تحويل أية أموال لمساعدته، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، ولدى سماع البابا بهذا، أثير بوساطة غضب عنيف، وكتب مجدداً بطريقة أكثر حدة إلى الأساقفة الانكليز، آمراً إياهم، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والتعليق، بإرضاء رسوله، الذي كان مقيماً آنذاك في المعبد الجديد في لندن، حول قضية المساعدة المالية المتقدم ذكرها قبل عيد الصعود، ومع أن الملك كان قد استعد من قبل للصمود في سبيل حرية المملكة والكنيسة، غير أنه أذعن الآن، وخرق قراره، وأصبح خائفاً من التهديدات الصادرة عن أخيه رتشارد، وعن بعض الأساقفة، الذين كان المقدم بينهم أسقف ووركستر، الذي إليه —كما يقال— عهد البابا بسلطات إلقاء عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين على البلاد جميعاً، وبذلك باتت مساعي جميع النبلاء، ومثل ذلك الأساقفة، بلا فائدة، وقد تلاشت جميع الآمال بتخليص المملكة الانكليزية والكنيسة، وماتت، مما سبب المرارة وشعور الأسى في القلب إلى كثيرين، وأرضى لهاث النهم الروماني، مع تهمة الشره حول مسألة الاسهامات المالية المذكورة.

كيف استخرج الملك الفرنسي والبابا العشر مع جزء من عشرين من جميع ممتلكات المملكة الفرنسية

وفي سبيل أن لاتظهر هذه الفريضة فريدة بين المسيحيين، ولكي لاتظهر يد الرب أنها توفر أحداً، أو بطيئة في معاقبة ذنوب شعبه، أفقرت المملكة الفرنسية الآن بشكل مدهش ومؤلم بوساطة استخراجات بارعة الاختراع من قبل البابا، لأن الملك الفرنسي، الذي كما تقدم ذكره، قد أعاده الرب إلى الحياة، أو على الأقل أعاده من بوابات الموت بشكل اعجازي، قام الآن بناء على إذن من البابا، ومبادرة منه، بظلم مملكته بعدة طرق مضاعفة باستخراج مبالغ كبيرة من المال، بحجة الوفاء بحجه بطريقة توائم مرتبته، فقد أخذ عشر موارد جميع كنائس مملكته، وبالإضافة إلى هذا، أخذ البابا جزئاً من عشرين، وكأن ذلك قام بناء على اتفاق بينهما، أخذه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، ولكل واحد منهما لمدة ثلاث سنوات، وطلب البابا اسهاماً آخر من أجل الامبراطور الجديد، الذي عرف من قبل باسم اللاندغريف، وهو الذي أوجده البابا لاخضاع فردريك، وقد بدا هذا الأخير لكثيرين غير ممكن قهره، ولقد قيل بأنه كان عبثاً محاولات البابا خلع فردريك المذكور من منصبه الامبراطوري، ذلك أنه ربح طريقاً مدهشاً، ووعد بكل نوع من أنواع الترضيات، في حين لم يتنازل البابا بقبول التواضع، ونال مشاعر الكراهية ضده من كثيرين، ونصب فردريك المذكور في الوقت نفسه كمائن، للاستيلاء على الأموال، التي جمعها البابا بنشاط من جميع الجهات، ولإضافتها إلى خزائن أمواله.

تكريس الدير الذي اسمه بوليو

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، جرى تكريس كنيسة تابعة لطائفة رهبان السسترشيان، اسمها بوليو Beaulieu, وذلك في الدير الرعوي الذي كان الملك جون قد

أسسه، وجـرت عمليـة التكـريس بشكل مهيب مناسب، وفي أثناء الاحتفال، كان الملك حاضراً والملكة، والايرل رتشارد، أخو الملك، وأساقفة المملكة ونبلائها، وبعد اكتمال أعمال التكريس المهيبة، أخذ الايرل رتشارد من صدر تلك الكنيسة، حوالي الثلاثين راهباً، ليسكنوا في بيت ديني تابعاً لطائفة السسترشيان، كان هو —أي الايرل المذكور— قد أسسه وبناه على حسابه، في سبيل تخليص روحه، في مكان مناسب قرب دير وايشيكومب Wychecombe, والذي منحه منحاً وافرة وأغناه، تماشياً مع العهد الذي كان قد قطعه عندما كان في خطر في البحر.

موت إيزابيلا أم ملك إنكلترا

من المعتقد أن الحادثة التي تقدم ذكرها أعلاه، لم تقع من دون تدخل الحكمة الإلهية، لأن كونتسة التخوم، أم ملك انكلترا، والايرل الذي تقدم الآن ذكره، والتي اسمها ايزابيلا، أذعنت في هذه الآونة للموت، وهي في حاجة ماسة للمنفعة الروحية الصادرة عن أعمال إحسان الأتقياء.

موت كونتسة ألبيميرل

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، تحررت كونتسة ألبيميرل Albemarle, وابنة ألان أوف غالوي Galway, وأخت كونتسة وينكستر، تحررت من جميع الاضطرابات الدنيوية، وبهذا الموت فإن شطراً كبيراً من غالوي، الذي كان عائداً إليها، آل الآن، بسبب موتها من دون أطفال، إلى روجر دي قوينسي Quincy, الذي كان ايرل وينكستر، وكان متزوجاً من اختها الكبرى.

موت جون دي نيفيل

وفي السنة نفسها، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، غادر جون دي نيفيل Neville طريق الجسد المطروق كله كثيراً، وكان هذا النبيل من قبل

له أهميـة كبيرة بين نبـلاء انكلترا، وباتباعـه لخط سير أبيـه خطوة خطوة، وصل إلى ذروة الكرامة الأرضيـة، وقد ترك الآن مثـلاً واضحاً إلى سكان هذا العالم، بعدم الثقة بحظوة الملوك، وأن يتجنب تقلبات البلاط، لأنه في مطلع رجولتـه، عندما كان المسـؤول الأعلى عن الغابات في جميع انكلترا، تم تقديم عـدد كبير من التهم الثقيلة ضده، تولى تقـديمها روبرت باسلو Passlow, باحتـلالات غير شرعيـة للغـابات، وتجاوزات أخـرى، ولأنه أخفق في أجوبته، وفي تبرئة نفسه، أدين بناء على شهادة أبناء منطقته وتقـدير المحكمين، وسقط إلى وضع مهين كثيراً، حيث غـدت حيـاته من ذلك الوقت قطعة من الموت، لأنه أدين قضـائياً بدفع ألفي مارك، وذلك بالاضافـة للدين الكبير لأبيه الذي سقط فـوق كتفه، وبالاضـافة إلى هذا جـرى تجريده بشكل مـذل ولاعـودة فيـه، مـن بارونيتـه، ولذلك أنهك، وتلاشى خـلال الحزن، وفي حـوالي منتصف الصيف لفظ أنفـاس روحـه التعيسـة، في عـزبتـه في ويلبيرفيلد Welperfield, وقـــد دفن بشكل محترم إلى جانب ضريح أبيه في الكنيسة الديرية لوولتهام Waltham.

كيف لبس أسقف كارآيل رداء رهبان الدومينيكان

في يوم عيـد القـــديسين بطرس وبولص، قـام وولتر أسقـف كـارآيل، بالتخلي عن العـالم الذي تعلق به طويلاً، كما تخلى عن الشـؤون الدنيـوية، ولبس في اكسفـورد رداء طائفـة رهبـان الدومينيكان، لأنه خـاف من أن قبوله في تلـك الأسقفية لم يكن قانـونياً، وقد هرب تـاركاً رداءه بين يدي امرأة مصرية.

رسائل بابوية أرسلت إلى الرهبان الفرنسيسكان

وفي العام نفسـه، بعدمـا أصدر البـابا المرسوم الذي سلـف ذكره، أي المرسـوم حـول ممتلكات الذين مـاتوا من دون وصيـة، بأنها يتـوجب أن تؤول إلى استخـدامه، وكان قـد عيّـن رهبـاناً دومينيكان لوضعه مـوضع

التنفيذ، وقد صار قلقاً حول امبراطورية القسطنطينية، وانزعج بسبب صلف الاغريق في انشقاقاتهم، وبناء على ذلك أرسل رسائل تحتوي على وصاية بابوية مع بنود أخرى، إلى الرئيس الاقليمي للفرنسيسكان في انكلترا، جاعلاً بشكل قانوني الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان نوابه، وبذلك نأى بهم عن طريق التواضع والفقر التطوعي، وهو ماكانوا قد اتخذوه عقيدة لأنفسهم ولأتباعهم، وكان فحوى هذه الرسائل: «هو أنه هو أو رهبانه عليهم البحث فيما يتعلق بممارسي الربا، الذين كانوا يعيشون، وحول مرابحهم بوساطة ذنب الربا، وأن يجمعهم من أجل منفعة امبراطورية القسطنطينية، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وحول مقصد آخر، كان أن كتب بأن «الذين سوف يحملون عن طواعية الصليب من أجل تحرير تلك الامبراطورية، أو سوف يرسلون كمية كافية من ممتلكاتهم، سوف يكون هناك تحليل من ذنوبهم»، وأمر آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا وصايا الأشخاص الموتى، والتي حصلوا عليها بوساطة الربا، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وكان فحوى واحد آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، الممتلكات التي تركت بموجب وصية من الأشخاص الموتى، أو الذين سوف يتركون لمدة ثلاثة أعوام من أجل استرداد ممتلكاتهم، وهي التي استحوذ عليها الأشخاص الموتى بوساطة الآثام أو سوء التصرف، وضبط جميع المتذمرين والمعارضين»، وكان آخر من أجل أن «الممتلكات التي تركت حتى يجري توزيعها في سبيل مقاصد خيرية، وفقاً لقرار أوصياء الميت، وهي لم يجر تحديدها من قبل الأوصياء أنفسهم لأشخاص محددين أو أماكن، أو أشياء مثل التي هي حق متوجب لآخرين، أو جرى تحويلها من قبل الأوصياء إلى مثل هذه الاستخدامات، يتوجب جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، ووجوب اعطاء ملاحظة حول كمية المبالغ، وضبط» إلخ، إلخ، وأمر آخر استهدف أن «عليهم القيام بالبحث في

ممتلكات الأحياء، التي تم الحصول عليها بشكل شرير، ومن ثم عليهم جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المذكورة، شرط عدم وجود أشخاص يمكن أن تقدم إليهم ترضيات من أجل مثل هذه الممتلكات التي تم الحصول عليها بشكل شرير، وعليهم ارسال إيصال إلى البابا، وضبط»، إلخ، إلخ، وأوردت محتويات آخر أن «الرئيس المذكور لديه سلطة تحليل أشخاص من الحرمان الكنسي، لأنه معروف ممارستهم الغش في مسألة الممتلكات، التي سوف تجمع لمساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، شرط تقديمهم ترضية موائمة إلى الرئيس المذكور، أو إلى رهبانه، الذين يتوجب إنابتهم لهذا الغرض».

كيف سأل البابا إقامة سلام بين الصليبيين والمسلمين

وفي حوالي الوقت نفسه سأل البابا سلطان مصر أن يمنح سلماً (أو على الأقل هدنة) بين الصليبيين والمسلمين، حتى يتحقق أمل أن يتبسم الحظ ثانية ويحل على الصليبيين بوساطة عون المملكة الفرنسية، وعلى هذا الطلب كتب رداً بما يلي:

الرسالة التي أرسلت من سلطان مصر إلى البابا وترجمت من قبل كاردينال من العربية إلى اللاتينية

«إلى حضرة البابا» —عنوان الرسالة— «النبيل، العظيم، الروحاني، الكريم، المقدس، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للمسيحيين، قائد أبناء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، منحه ربي القوة وأعطاه السعادة.

من السلطان الأعظم، المتسلط على رقاب الشعوب، المتملك للفضيلتين: فضيلة السيف، وفضيلة القلم، ولميزتي العلم والقضاء، ملك البحرين، وسيد الشمال والجنوب، ملك بلدان مصر والشام، والجزيرة، وميديا، وأدوم، وأوفير، الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان

الكامل محمـد ابن السلطان الملك العـادل أبـو بكر ابن أيوب، حفظ الله مملكته.

بسم الله الرحمن الرحيم: لقـد قدمـت إلينا رسائل من البـابا، النبيل، والعظيم، والروحـاني،والكريم، الثـلاثين بين الرسل، المتحـدث العـالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للشعوب المسيحية، قـائـد أبنـاء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، جعله الرب واحـداً من الذين يرغبـون بالخير، ويعملون به، ومن الذين يريدون السـلام، واتباع طريقـه، أعانه الله، في هذه المسـائل التي هي نافعة للذين يعبـدونه ومن أهل دينه، وللآخرين.

ولقـد رأينـا الرسـائل المذكــورة، وفهمنا البنود التي أدخلـت فيهـا، ومحتوياتها، ولقـد فرحنا، وابتهجت آذاننا بسماعهم، ووصـل إلينا رسول أرسل من قبل قـداسـة البــابا، ولقـد استقبلناه بالتشريف، والتقــدير، والاحترام، واستدعيناه للمثول بحضرتنا، وأصغينا لسماع كلامه، ووثقنا بما قـاله، عندمـا حـدثنا عـن المسيح، عليـه السـلام، وبالنسبـة للمسيح المذكـور، نحن نعـرف عنه أكثـر ممـا تعـرفـون، ونحن نمجـده أكثـر مما تفعلون، وفيما يتعلق بالـذي قلتـه، من أنـك ترغب بالسكون والســلام والهدوء، وأن تمتلك الوسـائل لدعوة الناس إلى السـلام، نحن مثل هذا نرغب بالشيء نفسـه، كما أننا لانـرغب في معـارضـة رغبتك، لأن تلك دومـاً رغبتنا ومبتغـانا، وليعلم البـابـا، حفظه الله ووقـاه، بأن صـداقـة وتقديراً متبادلاً، وحسن نوايا، قد تأسس منذ زمن طويل، فيما بيننا وبين الامبراطور، وذلك منذ أيـام أبينا السلطان، الذي يحيطه الله برحمتــه في كنفـه، وبينك وبين الامبراطور، أنت تعلم كيف هي الأحـوال قـائمـة، وبناء عليه نحن لانمتلك الحرية في عمل أية اتفاقيات مع الصليبيين من دون أن نعـرف رأيه أولاً ونأخـذ موافقتـه حـول المسألة، وقـد كتبنا إلى مبعـوثنـا، الموجـود الآن في بلاط الامبراطور، من أجل الأسبــاب التي

ذكرت إلى رسل البـابا، ومبعوثنا هذا سـوف يأتي إليكم، وسوف يتكلم معكم، ويجلب الجواب إلينا، وعنـدمـا يفعل هذا، سـوف نتصرف بناء على فحوى ذلك الجواب، ولسوف لن نتمنع عن الموافقة لما سوف يبدو أنه لمصلحـة الجميع بشكل عـام، حتى نتلقى الثواب من الله،ورسـولنا هذا إليكم، بإذن اللـه، سـوف يكون صـالحاً للجـانبين. وكتب هذا في اليوم السابع من شهر محرم، الموافق لليـوم السابع من شهر آب، والحمد لله وحــده، وصلى الله على سيـدنا محمــد، وعلى آله، وعسى أن يكون (صلى الله عليه وسلم) شفيعنا».

شكوك حامت حول وثائقية الرسالة المتقدم ذكرها

وعندمـا وصلت هذه الرسـالـة إلى البـابا، أعلن أن كثيراً من أشكال الخداع، قد تدبرها فردريك بمكره في أن تفعل، في سبيل أن يجري اقناع البابا بسهـولة أكبر، حتى يعيد تـأسيس السلام معه، لكـن كما يبدو هذا غير صحيح، لأن البـابا كـان قد أرسل رسـوله، وكـان رجـلاً موثوقـاً، ومعروفاً تمامـاً من قبله، ليحمل رسالته، ليجلب إليـه الجواب، وقد عاد مخلصاً إليه سليماً ومعافى.

عواصف رعدية غير معتادة

وفي سبيل أن تكون العناصر متـوائمـة مع أحـداث العالم، حـدث في هذه الأيام، أي في اليـوم الذي تقـدم على عيد القـديسـة مرغـريت، أن ثارت عـاصفـة هوجاء مخيفـة، ترافقت مع رعـد وبرق، وبسقـوط برد، كـانت حبـاته ذوات زوايا حادة، وكـل منها أكبر من حبـة اللوز، وقـد دمرت الطيـور، لابل حتى بعض الحيوانات، وأزعجت المنطقـة كلها في جميع الأرجاء، وأتلفت أشجـار السنديان، وأطاحت بالأبنيـة، وأحرقت الناس، ودمرت المواشي والسائمة، وحطمت الجسـور بالمياه المتدفقة وقد استمر هذا كله لمدة ست عشرة ساعة، أي طوال الليل وبعض النهار.

ولادة صبي للإيرل رتشارد توفي بعد ذلك فوراً وأيضاً ادخال مجموعة من الرهبان إلى بيت طائفة السسترشيان في وايشيكومب

في الوقت الذي كـانت أحـداث العـالم هكذا عـاصفة متنوعـة بالنسبـة للفـانين، قـام فـردريك الذي خلعـه البـلاط الرومـاني من منصبـه الامبراطوري، فأرسل الرسـالة التالية إلى ملـك انكلترا، وإلى أخيه الايرل رتشارد اللذين عدّهما بين أصدقائه المقربين:

«من فـردريك، إلى ملـك انكلترا، إلخ، تحيـات: خشيـة مـن أن تبتعـد السمعة —التي هي متنوعة مختلفة باختلاف آراء الناس الكثيرين، والمتأثرة بميـولهم المتنوعة— أحيـاناً بكثرة عن الحقيقـة، وأن تؤذي أذنيك، وتزعج قلوب الأصدقـاء، وتدغدغ مسامع ومشـاعر أعـدائنا، إننا سوف نخبركم باختصار في هذه العروض بالحقيقة النقيـة والمجردة، حول الأحداث التي وقعت مـؤخراً، فلقـد جرى التخطيط لمؤامـرة ضد حيـاتنا من قبل بعض رعايا جلالتنا، أو بالحري من قبل بعض حاشيتنا، والمعتمدين لدينا، وهم: ثيـوبولد فـرانسيس، وجيمس دي مـورا Morra, وباندولف Pan-dulph دي فـاسانيـلا Fasanella, ووليم دي سينت سيفيرينو Severino, وبعض أتباعهم، وقــد كشفت المؤامرة الشريرة إلينا، من قبل بعض المتـآمرين من ذلك الحزب، وهكذا أنقـذنا الرب من بين أيديهم وحفظ حيـاتنا من دون أذى بشكل مدهش، لكن مع أننا عـددنا مثل هذه الجريمة جـريمة لاتصـدق، كانت هي بالفعـل غير جائزة قمنا بـإجراءات فحص أبعـد حـول حقيقــة القضيــة، وبناء عليــه تبين أن باندولف دي فـاسـانيـلا، وجيمس دي مـورا، اللذان تقـدم ذكـرهما، كـانا الرئيسين في جريمـة هذه المؤامرة العميقة، وحـرضا على ذلك من قبل ضمير مجرم، مع عدد آخر من المشاركين، والمشايعين في جريمتهم، الذين كانوا حاضرين في بلاطنا، ثم إنهم هربـوا بشكل مفـاجىء، وعلى كل حـال، بقـي ثيـوبولد، ووليم دي سينت سيفيرينو في المملكة، وقـد انتظـرا هناك مـوتنا كـواقعـة

مؤكدة، لكنهما سمعا العكس بشكل غير متوقع، وقد استولى عليهما رعب مخيف، وكأنهما ضربا بصاعقة من السماء، فارتديا ثياب خدامنا المخلصين، وكانا قد حصلا عليها خلسة، وهربا بشكل خياني، إلى اثنتين من قلاعنا، هما قلعتا: كاباكيو Capaccio, وسكالا Scala, وكان ذلك قبل أن يتمكنا من الحصول على المؤن الضرورية، وقبل تحصينهما بالرجال، وقد هوجما من قبل السكان البارعين والمخلصين للمملكة، وطوقا من قبل القوات التي تجمعت من جميع الجهات، وكنا نحن أيضاً في ذلك الوقت في غروسيتو Grosseto, في مملكة صقلية التي هي ميراثنا، وقبل ذلك لم نكن قد اتخذنا أية احتياطات ضد المخاطر التي كان شخصنا عرضة لها، لكن بما أننا لانسمح لنفسنا بأي حال من الأحوال أن تكون عرضة للعدوان، وحيث أن الأمور كانت وكأنها أمام ناظرينا، اتخذنا الإجراءات للذهاب بكل سرعة، ومع قوة زاحفة، إلى مملكتنا، وبعد دخولنا السعيد إليها، كان عدد من رعايانا المخلصين، قد قاموا بناء على مبادرة، واقتراحات زائفة من هؤلاء الخونة ضدنا، قد انضموا إلى المتآمرين، حيث كان قد انتشر تقرير زائف عن موتنا، لكن ما ان انتشر ضوء الحقيقة، وشاهدوا أن القضية، كانت على العكس لما كانوا قد توقعوه، حتى رفضوا أن يكون لهم أية شراكة في خططهم الماكرة، وتخلوا عنهم، وبما أنهم وجدوا فقط ملجئاً في قلعتين، كما ذكرنا من قبل، وهما قلعتا سكالا، وكاباكيو، وفي سبيل تمتين اخلاص رعايانا المخلصين، بوساطة هجوم فعال ومباشر، استرجعنا واحدة من هاتين القلعتين، وهي قلعة سكالا، إلى سلطتنا، وأودع توماس دي سينت سيفيرينو، وابنه، الخائنين والمتآمرين ضدنا، في السجن، وهكذا بقيت قلعة واحدة من القلعتين المتقدمتي الذكر، وهي قلعة كاباكيو، للقيام بانتقام ضدها، وتدبرنا وضع تلك القلعة تحت الحصار من قبل رعايانا المخلصين، وهكذا فإن الخونة المتقدم ذكرهم، الذين من الواضح أن لامورد لديهم، والذين كانت الآن إحدى قلعتيهما قد جرى الاستيلاء عليها، ومن غير الممكن لهم تحصين واحدة

أخـرى، كما لم يعـد بإمكانهم النجـاة منا في أي سبيل، وهكذا جـرى، بوساطة القضـاء، وبكل سرعة بقـدر ما كان الأمـر عادلاً، ايقـاع الانتقام ضـد الخونة المتقدم ذكـرهم، وضـد مشاركيهـم، ونحن نشعر الآن بالثقـة بترتيب الأمور في وقت قصير، لضمان الأمن المستمـر لمملكتنا، وبذلك لن يبقى بالنسبـة للمستقبل أية شكوك في أذهاننا، أو في أذهان خلفـائنا، أو وكـلائنا خـارج المملكة، وعليك —على كل حـال— أن لاتظن أننا تخلينا عن مقصـدنا في متابعـة الثـوار اللومبـارد، ولاحتى تـركنا ذلك لبعض الوقت، بل بـوسـاطة ولدينا المحبـوبين: هنري، الملك اللامـع لسرديـنيـا، والنائب العام للامبراطورية المقدسة لايطاليـا، وفردريك صاحب أنطاكية، الذي يرأس مقـاطعـة ايتروريا Etruria, وذلك إلى أن نتمكن من العـودة إلى إيطاليـا، بعـد صنع ترتيبـات مـوائمـة لقضـايا مملكتنا، أقـول بوساطتيهما سحقنا آثار الثوار المتقدم ذكرهـم، بمطرقة قدرتنا غير المتوقفة، إلى حـد أنهم لم يحصلوا على أدنى منفعـة من غيـابنا، الأمـر الذي اكتشفنا بشكل مـؤكـد أنهم حـاولوا الحصـول عليـه بوسـاطـة خطة طويلة سرية وخيـانيـة، وهم الآن حـزينون بسبب قوتنـا الحالية، أكثـر من تفـاخـرهم بغيابنا، لأن ما من واحدة من الحوادث التي وقعت مؤخراً، قد سببت أي نقص لعظمتنا، كما أن أمـوالنا لم تتنـاقص بما حـدث، بل ازدادت سلطتنا، وأصبحت أعظم، فسبب ضخـامـة هذه الجريمـة العميقـة التخطيط، التي هددت برعب الحرب بين الشعوب، بعـدما ذاقت حـلاوة السلام، أصبح وفـاء رعايانا المخلصين، لاسيما من الطبقـات الدنيا، أكثـر حرارة نحـونا، وثقتهم أكثر قوة، وأيضاً من اضـافة موارد تمرد هؤلاء الخونة، التي جردوا منها طواعية بسبـب عدوانهم، وهي موارد قد نالوا الثـروة منها من خلال كرمنا بالطول وبالعرض، إنها الآن كونـت زيادة أساسية لثروتنا، مع أننا لم نرغب بذلك، ومن هذا يمكن الاستخلاص بوضوح، بأن الوعود الكبيرة التي عملت من قبل عدونا المعلن إلى الخونة المتقدم ذكرهم كان لها تأثيرها —مع أن ذلـك كـــان من دون محصلـة— بإثارتهم لاقتراف هـذا الإثـم،

وبالنسبة لاسم هذا العدو، وللقبه، كنا نرغب تماماً بالمرور به صامتين، لولا أن الصوت العام قد كشفه، مع أننا نرغب بإخفائه بصمتنا، أو تقديم العذر له بوساطة لغة غامضة، لأن المحرضين على الجريمة المتقدم ذكرها، من الذين هربوا، والذين تحت الحصار، كانوا مرافقين ببعض الرهبان الفرنسيسكان الذين منهم تسلموا الصليب، وقد تظاهروا بأن لديهم تفويضاً من الحبر الأعظم، على شكل رسائل رسولية، وذلك من أجل العمل ضدنا، وأعلنوا بشكل مكشوف بأنهم كانوا يعملون في القضية، لصالح الكنيسة الرومانية، التي هي أمهم، وهكذا أعلنوا أن الحبر الأعظم، كان هو المحرض على المحاولة المتقدم ذكرها ضد حياتنا، ومثل ذلك ضد ميراثنا، وبهذه الحقيقة اعترف الأسرى، الذين جرى أسرهم في قلعة سكالا، بفضل مبادرة رعايانا المخلصين، وجعلهم سجناء، فهذا مابينوه بشكل تلقائي، وباعتراف حر، عندما كانوا يموتون بحضرتنا، ذلك أنهم اعتقدوا أن عدم الاعتراف سوف يكون كذباً شريراً، وكذلك فإن أسقف بامبيرغ Bamberg, عندما صدف أنه بعد حصوله على التكريس والمباركة، أو بالحري على اللعنة، كان عائداً وقد لبس التاج الأسقفي من البلاط الروماني، وذلك قبل اعتقاله من قبل رعايانا في ألمانيا، إنه قد أعلن بشكل مكشوف أنه لابد من حدوث اعتقالنا خلال وقت قصير، وموتنا بشكل مهين جداً، على أيدي أصدقائنا المقربين وحاشيتنا، ونحن نتحدث عن هذه الأشياء بحياء، بحكم أن القاضي الأعلى هو شاهدنا، لأننا نعتقد بأننا لم نسمع قط أو رأينا مثل هذه الجريمة أثناء حياتنا، وذلك بأن يقوم قومنا وحبرنا الأعظم، بالرغبة بدناءة بالقضاء على أي انسان بمثل هذه الميتة الشنيعة، لأن العلي الأعلى يعلم بأن العقيدة القبيحة كانت دوماً نائية عن تفكيرنا، حتى بعد الإجراءات التلقائية الذاتية، وغير العادلة، التي قام بها البابا ضدنا في مجمع ليون، وما كنا لنوافق قط على أية محاولة على حياته، أو على حياة أي واحد من إخوانه، مع أنه غالباً ما طلب منا حول القضية من قبل بعض الأشخاص

المخلصين والغيــورين بشكل سري، لكننـا تابعنا دومـاً قـانعين بتحمل أضرارنا، وعـددنـا أنه يكفي أن ندافع عن أنفسنا بشكـل عـادل، من دون القيام بالانتقـام، لأنه من الواضح تماماً بأن الرب يقـاتل من أجلنا، لأنه لم يكتف بانقـاذ حيـاتنا من أيدي أعـدائنا، بل ناولنـا قـوتهم وأشخـاصهم ووضعهم بين أيدينا، لأنه عندما قام مؤخراً الكاردينال رينيير Regnier, العــدو لاسمنـا ولكرامتنا، بـالالتحــاق بـالـ Perusies, وبالـ Assisemates, من رعــايانا العصــاة، بنـاء على إثارة جيمس دي مـورا، الخائن المتقـدم ذكـره، من أجل ايذاء رعـايانا المخلصين، وذلك في اليوم الأخير من آذار الأخير، قرب قلعة أسكـولي، وقد قام مارينوس دي إيبـولي Marinus de Eboli, الذي هو من رعـايا الامبراطورية المقـدسة، والقـائد الأعلى لدينا، بمسـاعدة قـوات مأجورة مع آخـرين من رعـايانا المخلصين، الـذين أمكن جمعهم في تلك السـاعـة، وكـان مـؤيداً بفضيلة اسمنا، وحظنا الجيـد المعتاد، قـام بنشاط بمهاجمة أعـداءها هؤلاء، وبالثقة أكثـر من الاعتماد على عدد عسـاكره، فهـزمهم جميعاً، مع خسـائر كبيرة أيضـاً، ذلك أنه بالإضافـة إلى الذين سقطوا بوسـاطة سيوف قـومنا المخلصين، جـرى أسر أكثـر من خمسـة آلاف من الثـوار من قبل رجـالنا، ومن ثم أودعــوا في سجننا، ونحن نخبرك بهذه الأشيــاء جميعـاً، لمنحك السرور، كما نعتقــــد، لابل، نحـن نعلم أنـك متعـــاطف معنـا أثناء الاضطرابات، وأنك تفــرح معنا أثناء تقـدم النجـاح، كما أن وافـر حظنا الجيد، والعـدل الذي نستحقه لم يسمح لسرورنا ولفـرحكم بالانغلاق مع هذه الأحداث، لأنه حدث في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر، الذي هو شهر نيسان، أن مـدينة كاباكيو، التي على هذا الطرف نحـو اليابسة، والتي كانت محاصرة، قد خرقت بسرعة من قبل رعايانا المخلصين، الذين التهبوا بنوع من أنـواع الجنون لقتل الخونة، وللانتقــام لأنفسهم، وليـس أقل من ذلك لما لحقنا من أذى، والذي حدث هو أن المحاصرين قد شعروا بقدرتنا في كل من القريب والبعيـد، وعندما أصبحوا غير قـادرين على النجاة من

انزال انتقامنا العـادل بهم، قاموا بقتل أنفسهـم بسيوفهم، أو برمي أنفسهم من أعالي الصخور على جانب البحـر في ذلك المكان. صدر في ساليرنو في اليوم الخامس عشر [اقرأ: ٢٥] من نيسان، في العلامة الرابعة».

وولتر دي أوكرا يكتب إلى ملك إنكلترا حول الموضوع نفسه

وكان وولتر دي أوكرا Ocra, الذي كان كاهن فردريك، يعتقد، مثلما فعل سيـده بأن ملك انكلترا سـوف يبقى ثابتـاً على مـوقفـه، يقـاوم بجـرأة وقاحـة البلاط الرومـاني، فبعث بالرسـالة التاليـة إليه، لمواسـاته، ولإزالة جميع أسباب الخوف:

«إلى الملك اللامع لانكلترا، تحيـات من المعلم وولتر: لأنني أعلم أنك تبتهج في ازدهار مـــولاي، يطيب لي أن أخبر جـلالتكم، بـأنَّ مـــولانا المذكـور، قـد قـام قبل حـوالي ثمانيـة أيـام، قبل نهاية تموز الأخير، بإلقـاء الحصار على قلعـة كاباكيو، التي كـان فيها ثيـوبولد فرنسيس، ووليم دي مــــــان Mann, ووليم دي سينـــــــت سيفيرينو Severino, وغيـوفري دي مـورا Morra, وروبرت، ورتشـارد دي فـاسـانيـــلا Fasanella, الخونة له، والذيـن حـاولوا قتلـه، مع مـائــة وخمسين آخرين، بما في ذلك فـرسان، ورمـاة قسي زيارة، مع أصدقـاء آخرين لهم، وكـان بينهم أربعين من الـرهائن اللومبـارد، قـد قـام باطلاق سراحهم، ثيـوبولد المذكـور، في أيام المؤامـرة، وقـام مـولانا المذكـور برمـاية هؤلاء بالقـذائف ليـلاً ونهاراً من دون انقطاع، من سبعـة مجانيق أعـدت بشكل جيد، وبوسـاطة حملات متتابعة أيضاً عملت ليـلاً ونهاراً، تحولوا إلى حالة ميئوس منهـا، وبلا قـدرة، إلى حد أنهم لم يعـودوا قـادرين على مساعـدة بعضهم بعضـاً، سـواء في قضـايا أشخـاصهـم أو أطرافهم، وتم أخيراً، بوساطة الحملات المذكورة، الاستيـلاء على القلعة، مع الأشخاص الذين تقـدم ذكرهم، فهـؤلاء قبل أخذهـم إلى ربنا —باستثناء وصاية البـابا— كـانوا قد حـرمـوا من عيونهم، وكل واحـد منهم أيضـاً، من يد، وأنف،

ورجل، ثم قرر مولانا إرسال ثيوبولد المتقدم ذكره، والخمسة الآخرين الذين حاولوا قتله إلى جميع الملوك والأمراء في أرجاء مختلف البلدان في العالم، مع طبعة ختم البابا —التي وجدت هناك— مختومة على جبين كل واحد منهم، لجعل الجمهور يدركون خيانتهم، وتمّ العثور في هذه القلعة على احدى وعشرين سيدة نبيلة —متزوجات، وأرامل، وفتيات— وقد وضعوا بناء على أمر من مولانا تحت وصاية آمنة، أما القلعة نفسها، فجرى تدميرها إلى حجر الأساس، وكل الذي وجد فيها —باستثناء الكائنات الحية— جرى تحويله إلى رماد في البقعة نفسها، ثم قام مولانا المذكور بترتيب جميع القضايا، وأقام سلاماً مع الرومان، والبنادقة، وبعد الفراغ من ذلك أقسم أنه سوف يسير من دون شك مع كتلة كبيرة من الفرسان إلى ألمانيا، وعمل الاستعدادات للقيام بمثل هذا العمل، ففي تلك البلاد كان الملك ابنه قد اشتبك من دون حذر بمعركة مع أعدائه، يوم عيد القديس جيمس الماضي، وقد أخفق بسبب خيانة اثنين من الكونتات السوابيين، واسمها: ويرتمبيرغ Wirtemberg, وغروننغهن Grninghen, اللذان تلقيا من الحبر الأعظم سبعة آلاف مارك من الفضة، بالاضافة إلى وعد —وعمل وتأكد ذلك بوساطة رسائل رسولية— بحصة من دوقية سافوي Savoy, على أن يقوما باستدراج الملك إلى ساحة المعركة والتخلي عنه هناك في ساعة المعركة، أي أن يتخليا عن الجيش من دون قتال، وبناء على ما توافقا عليه، قاما مع أول حملة بانزال علميهما، وخاضا نهراً هناك، وهربا وتخليا عن الجيش، مع حوالي ألفي فارس ورماة قسي زيارة، وصار الملك نفسه في خطر عظيم، وبقي في وسط الأعداء مع حوالي ألف فقط من الفرسان، غير أنه تابع مع الذين بقيوا معه القتال بشجاعة، لكنه أخيراً بعدما فقد مائتين من أتباعه، التجأ إلى مدينة فرانكفورت، وحدث على كل حال، بعد عدة أيام أن جرى اطلاق سراح الأسرى الذين تقدم ذكرهم، بضمانة، أو برهائن، أو بفدية، فاسترد شجاعته، وتابع بنشاط القتال ضد

أعـدائـه، وإلى هناك سـوف يذهب إليــه من مملكة فـرنسـا، ومن منطقـة بيرغندي، على هذا الجانب من السون Saone, خمسمائة فـارس من بين أقـربـاء وأصـدقـاء مـولانا الامبراطور، ومعهم أيضـاً زحـف دوقـا بيرغندي واللـورين، وكـونتـا: شـالون Chalon وباررميـا Barremia.

الملك يسمح مجدداً إلى الرومان بجمع المال من إنكلترا كما يريدون

وفي هذه الآونة، أصبح الموقف الصلب، الذي اتخذه الملك بشجـاعة، في ضبط توجهـات البلاط الرومـاني بالقوة، هذا الموقف الذي كـان من المأمول والمعتقـد أنه سيحافظ عليه، صـار أضعف، وحدث هذا، حسبما ذكر حقيقـة، قد جـاء نتيجة تأثره بآراء الذين كـانوا خائفين كثيراً، بأنهم سـوف يخسرون مـواردهم من خـلال غضب البـابا، لأن الأشيـاء التي أحبوها في قلوبهم، خافـوا من أنها ستضيع من بين أيديهم، وفقاً لكلمات الشاعر:

الحب مع الخوف دوماً مليء

ثم إن الملك مـع عينين مغمضتين، واذنين مغلقتين، وفي سبيل افقـار بلادنا كلها، سمح بأن تُسلـب الكنيسة الانكليزية، وأن يسرق منهـا ستة آلاف مـارك، وذلك حسب ارادة الرومـان ورغبتهم، وهم أعداء مملكتـه وأعـداء المصلحـة العامـة، وهو مبلغ حمله رسـل البابا وتجاره لمسـاعـدة اللاندغريف، لكنهم لم يتمكنوا تماماً من النجاة من مصائد فردريك، وقد انتقـد هذا الأخير بحدة الانكليـز الضعفـاء، من أجل سماحهم لكل نوع من الناس بالاثراء على حسـاب فقرهم، كما أنه تقدم بشكـوى ثقيلة أمام رفاقه بالسلاح، بشأن ضعف الايرل رتشارد، وتراخيه، في اعطائه الموافقة على هذا، لأنه ظهر وكـأنه مترابط مع حزب البابا مـن أجل دمار المملكة

الانكليزية، وانحدار الامبراطورية، لأنه من خلال الثروات الصغيرة للصليبيين، زاد ثرواته كثيراً، وجاء ذلك بوساطة إذن البابا، وعلى هذا ازدادت مطالب الرومان جرأة، ذلك أنهم لم يواجهوا أحداً اعترض سبيلهم في أعمال سلبهم، فاللاجئون أرغموا على الفرار، والذين أرغموهم على الفرار، هربوا بدورهم، وآمال الانكليز، الذين اتخذوا أعداءهم قضاتهم، قد ديس عليها تحت الأقدام.

كيف قطع ملك أراغون لسان أحد الأساقفة

في الوقت الذي كان الحظ فيه، يتلاعب هكذا مع العالم، قام ملك أراغون بشكل وحشي بقطع لسان واحد من الأساقفة، لأنه ربما نقده بشكل محق، لهذا السبب، أو لأنه كان هناك عدداً مسؤولين عن جريمة قتل، ويتوجب التساهل بعض الشيء في حدة معاقبتهم، ولقد استحق الملك المذكور أن يعاقب بشدة، وأن توضع مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن بإرساله بعض رسله الخاصين الذين استحقوا الرعاية، حصل على مصالحة مع الكنيسة، لأنه قاتل بإخلاص في سبيل الرب ضد الاسبان والمسلمين، وانتصر بشكل مجيد عليهم.

توجيه اللوم إلى البابا من قبل جون الذي هو كاردينال من أصل إنكليزي

في الوقت الذي كانت فيه عواصف بحر هذا العالم هائجة على هذه الصورة،سمع البابا بأن ملك انكلترا قد استعد بجرأة لمعارضة استخراجاته (لأن الرسل لم يكونوا قد وصلوا بعد لإخباره عن خوف الملك وتراخيه ومرونته)، فعند ذلك انفجر بانفعال شديد، وعزم على الانتقام بوضع مملكة انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان بانفعالاته المجنونة يعد هذا القرار، عارضه المعلم جون، وكان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان راهباً من طائفة السسترشيان،

وكـاردينالاً، وقـال له: «مـولاي، من أجل خـاطر الرب، وفـر غضبك، الذي هو —إذا أمكنني القـول— غير مستقيم، واضبط هذه الضغـوط التطوعيـة، باللجـوء إلى الاعتـدال، مقـدراً كم هي سيئة هذه الأيام، فالأرض المقدسـة عرضة للخطر، وقد انفصلت الكنيسـة الاغريقية عَنا، وفردريـك معادي لنا، وهو الذي ليس هناك من هو أقـوى منه، لابل في الحقيقة ليس هناك من يوازيـه بين الأمراء المسيحيين، وأنت ونحن الذين نشكل رأس الكنيسـة، قد طردنا مـن الكرسي الرسولي، لابل في الحقيقـة من المدينة، ونحن نعيش في المنفى، فهنغاريا مع أراضيها الحدودية، تتوقع شيئاً ليس أقل من الدمـار من قَبَل التتـار، وألمانيا ترتجف بسبب حـروبها الداخلية، وأظهرت اسبانيا الجنون، إلى حد قطع ألسنة الأساقفة، وفرنسا التي هي أيضـاً قد تآمـرت ضدنا، قـد غدت فقيرة من خـلالنا، وانكلترا أيضاً التي أوذيت مراراً بالأضرار التي صدرت عنا، هي مثل أتان بلعام، قـد جـرحت بالنخس، وبضربات العصـا، وقـد تكلمت أخيراً، ولامتنا، واشتكت أنها أنهكـت بشكل لايمكن الخلاص منه، وجـــرحـت بشكل لايمكن الشفاء منه، وباتت على هذا مثل الاسماعيليين، مكروهة من قبل الجميع، ونحن قد أثرنا الجميع لكراهيتنا»، ولم يتحـرك عقل البابا —على كل حـال— نحو الرحمة، أو التـواضع، بوسـاطة هذه الكلمات، بل ظل يتحرق للانتقـام وانزال العقوبات، وبينما هو في هذه الحالة، وصل رسل من انكلترا، قاموا بتليين عقل البابا المتيبـس، بتوقعات الربح، وأكدوا أنه من خلال أصدقائه الخاصين في انكلترا (أنا المعد لهذا العمل غير مسموح لي بذكـر أسمائهم) قـد لوي قـرار الملك، وبناء عليـه فإن رغبـاته سـوف يجري بسرعة تنفيذها، ولدى سماعه هذا هدأ السرور عقله وملامحه.

الملك يمنع التفتيش الذي أقامه أسقف وينكستر

وفي هذه الآونة، كـان أسقف وينكستر، قـد مـارس، بناء على اقتراح الدومينيكان والفرنسيسكان —كما ذكرنـا— المظالم على الرعايا التابعين

له، وكان ذلك أكثر مما هو معتاد أو موائم، إلى حد أنه أقام تفتيشاً دقيقاً، يجري في أسقفيته من قبل رؤساء شمامسته وعمدائه، وذلك فيما يتعلق بكبح النفس والأخلاق لدى النبلاء، وكذلك غير النبلاء، مما سبب ضرراً عظيماً للسمعة الصالحة، وفضائح لكثيرين، لأن مثل هذا لم تجر العادة به من قبل، وبناء عليه، لدى سماع الملك الشكاوي الثقيلة للناس، وبناء على نصيحة بلاطه، كتب إلى عمدة هيرفورد كما يلي:

«من هنري، **الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلخ**: نحن نأمرك، حيث أنك تقدر نفسك وجميع ممتلكاتك، أن لاتسمح إلى أي رجل علماني من وكلائك، بناء على رغبة أسقف لنكولن، ورؤساء الشمامسة، والرسميين الآخرين، أو العمداء الريفيين، منذ الآن فصاعداً، بالتجمع في أي مكان، للقيام بإعادة تقدير في اليمين، أو في أية شهادة، مالم يكن في شؤون الزواج أو شهادات القضايا»، ولدى سماع الأسقف بهذا، أعلن بأن الملك مقبل على اتباع خطوات بعض المتآمرين، الذين خرجوا بوقاحة مشابهة في فرنسا (الذين أعطي عنهم بيان مفصل في صفحة مقبلة من هذا العمل).

طغيان البابا في استخراج المال

وازدادت جرأة البابا، من النجاح في اخضاع الانكليز التعساء وإفقارهم، فقام الآن بشكل متغطرس، لا بل أكثر غطرسة مما هو معتاد، فطالب جميع الأشخاص المنتفعين في انكلترا، القاطنين في منافعهم، بوجوب اعطاء حصة ثلث من ممتلكاتهم إلى البابا، وأن يعطي الذين غير قاطنين، النصف، مع إضافة شروط أخرى قاسية جداً، رابطاً الوصاية المتقدم ذكرها، بتلك العبارة المقيتة: «دون الاهتمام والتقدير»، وهي الاضافة التي أخمدت جميع العدالة، التي مضت من قبل، ولكي يضع هذا المرسوم موضع التنفيذ، عيّن على الفور أسقف لندن.

الملك يمنع الاستخراج المتقدم ذكره

ثم إن الأسقف المذكور أعلاه، قام بعدما جعل هذه القضية معلنة ومعلومة في كنيسة القديس بولص في لندن، برفقة بعض الآخرين الذين كان قد جمعهم مع بعضهم لهذا الغرض، فقرر أن يبحث في مسألة هذا الاسهام المرعب، في يوم عيد القديس أندرو، وبينما كانوا متألمين من أنه أمر بما بدا —لابل بالحقية كان— غير ممكن، وصل إلى مابينهم جون أوف ليكسنغتون Lexington, وهو فارس، والمعلم لورانس دي سينت مارتن،وكان واحداً من كهنة الملك، وكانا قد أرسلا إليهم من قبل الملك، حيث منعاهم بكل دقة، بعدم الموافقة، ولابشكل من الأشكال من الاسهام المتقدم ذكره، الذي جرت المطالبة به، لاضراره بالمملكة كلها، ثم بعد عدد من الالتماسات من جميع الذين احتشدوا، أنهوا المؤتمر وهم مسرورين، ولكي لانمر صامتين بالكلمات المؤثرة للذين عارضوا هذا المرسوم، رأينا أنه من المناسب إقحامهم في هذا العمل، ومع أنهم لم يجيبوا بجرأة، لعله كان بإمكانهم أن يكونوا أكثر جرأة، وأكثر فعالية، لو توفرت لديهم أية ثقة في الكلام المتقلب للملك وبأفعاله.

رد رجال الدين بشأن استخراجات البابا غير المعقولة

«لو أن أحوال وأوضاع مملكة انكلترا، كانت معروفة من قبل البابا وإخوانه في أيام المجمع، لما أقدم بأي حال من الأحوال على إعلان ذلك القانون، ولو أن المخاطر والأضرار التي كان من الممكن أن تحيق بالكنيسة الانكليزية بسبب ذلك القانون، قد شرحت له، لما أمكن بأي حال من الأحوال، اقناعه بعمل ذلك المرسوم، لأنه كانت هناك عادة قائمة في الكنائس الكاتدرائية ومرعية، قضت بأن يدفع للكهنة المقيمين فيهن، والذين هناك عدد صغير منهم في بعض الكنائس وكهنة صغار، وقساوسة للكنيسة، من موارد المنافع اللاهوتية، التي هي بأيدي الكهنة

المذكورين في مناطق مختلفة، وإذا كانت حصتهم غير كافية، وصلت إلى نصف المبلغ، فإن خدمات الكنيسة سوف تهجر، بسبب أن الكهنة غير قادرين على الدفع لهم، ولأن الكهنة أنفسهم يعانون من نقص كبير، هم لن يكونوا قادرين على الإقامة في الكنائس، وإذا رأوا أن من الموائم الإقامة بهن، فإنهم لن يتمكنوا من الإنفاق على الآخرين، لابل حتى الانفاق على أنفسهم، من خلال الحصة المتبقية من منافعهم، وخاصة بما أن البابا يقصد أخذ نصيب من حصص المتوفين من دون وصية، حتى يجري استخدامها في أراضي رومانيا (بيزنطة)، وبما أن حصة غير المقيم، قد عدت وكأنه لم يقم شخصياً، ولا حتى اقتطاع التكاليف أو النفقات التي وقعت على جمع الأرباح، ومسائل أخرى كثيرة، وإذا لم تقتطع، من الصعب بقاء جزء من أربعة في حوزة الرهبان».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً بما أن الأماكن الدينية قد أسست في جميع أرجاء انكلترا، وتأسست بناء على إجراءات الكنائس الأبرشية، وفي هذه الحالة، فإن المنافع التي منحت هكذا مع الممتلكات الأخرى بالكاد تكون كافية لهم، وإذا ما جرى أخذ جزء من منافعهم، فإن القسم الأول سوف يكون مرغماً على العيش على الصدقات، أو أن الضيافة، ربما سيجري التخلي عنها، أو أن الأمرين سوف من الممكن حدوثها في بعض الأماكن، وهذا من غير الممكن حدوثه من دون فضيحة كبيرة، وخطر على الأرواح، قد يبلغ حداً أن بعضهم سوف يأخذ بالتجول في أنحاء العالم، وبسبب حالة التشرد هذه، سوف يسقطون في كثير من الذنوب المضاعفة، بعدم مراعاتهم لأحكام الآباء المقدسين، التي هم مرتبطون بها».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن عادة كانت قد سيطرت، وقد جرت مراعاتها في

انكلترا، بأن قساوسة الكنائس الأبرشية، كانوا دوماً مشهورين بضيافتهم، وأقاموا ممارسة تقديم الطعام إلى المحتاجين من أهل أبرشياتهم، وبهذه الوسائل، سعوا ليس فقط لإرضاء الخالق الأعظم، بل الناس العلمانيين من كل نوع، والذين بوساطتهم اضطرب كهنة البلدة، وإذا ما جرى انتزاع حصة من منافعهم منهم، فإنهم سوف يكونون تحت ضرورة رفض ضيافتهم والتخلي عن وظائفهم المعتادة بالتقوى، وإذا ماانسحب هؤلاء، فإنهم سوف يحصلون على كراهية أولئك الرعايا التابعين لهم، وسوف يفقدون عرفان العابرين مع جيرانهم، ولسوف يجري حرمان قساوسة الكنائس من حقوقهم، بحيث يصبحون غير قادرين على الدفاع عنهم، وبسبب فقرهم سوف يظلمون من قبل هؤلاء العلمانيين أنفسهم، مما سوف يجلب العار والخسارة على الكنيسة العالمية، وبعضهم الذين منافعهم غير كافية لإقامة مدة ستة أشهر، والذين نادراً مايجدون طعاماً في الأماكن الأخرى، إن هؤلاء إذا ما جرى اقتطاع جزء من منافعهم منهم، سوف يرغمون على التسول، ولسوف تتوقف القداسات في كنائسهم، وإذا ماتوقفوا، فإن أهل أبرشياتهم سوف يعجزون عن دفع عشورهم، ومواردهم، ولن يكون هناك أحد يتولى متابعة مطالب تلك الكنيسة، بسبب الحاجة، وسوف تصبح كرامة الكنيسة منحطة، وستسقط جماعة الكهنة في حالة الإزدراء، وسوف يتوقف الوعظ، وسيترك علاج الأرواح من دون من يقوم به، وبذلك سوف يكون الإيمان في خطر، بمعاملة الناس للعقائد، وسيقابل إصلاح الأساقفة بالإزدراء».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن الفقراء، الذين هناك أعداد منهم بلا نهاية، يعيشون أثناء السنة على ممتلكات الأشخاص اللاهوتيين، ويتسلم عدد كبير من السادة، وأقربائهم مع آخرين يقيمون في خدمتهم الطعام والدفع المالي

من ممتلكاتهم، فإذا مـا جـرى أخـذ حصـة من مـرابحهم منهم، فإن الصدقات سوف تتوقف عن المنح، ولسوف تصبح أسر فاسقة، وإذا ما حدثت هذه الأمور، فلسوف يموت الفقير من الجوع، وبعضهم بما أنهم لايستطيعـون الحفـر، وأن يتسـولوا عـارعليهم، لسـوف يجدون أنه من الضروري —بدلاً مـن الهلاك جـوعـاً— الانخـراط في السرقـة، والاغتصاب، والسلب، وعن ذلك سوف ينجم قتل الكثيرين، ولسوف تثـور الفـوضـى بين الناس، ولاشك ان اضطراب مملكة انكلترا كلهـا سوف يتلو ذلك بالضرورة».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن هنـاك كثيراً مـن الكهنـة في انكلترا مثقلين بحمـل الديون، إذا لم يجرِ اقتطاع الدين والنفقـات، التي قـدرها يفوق السـدس من مـواردهم، فإن ذلك الاقتطاع لن تجري بـالنادر معـارضتـه في أية قضية، ولكن إذا كان من دون اقتطاع، فإن الأثقال على الكنيسة، المؤلفة من المعـاشـات التقـاعـدية، ووكـالات الأسـاقفـة، واصـلاح الكنائس وترميمها، وتزيينهـا، سوف تستهلك حصة أرباحهم وستنتـزعها منهم، وبما أنهم لايمكنهم العيش على مـا ترك لهم، سـوف يتحـولون إلى حـالة العـوز، ثم إنه في حال الاعتناء بمثل هؤلاء الأشخـاص، وأن لايكونوا في عـوز، خـاصـة حيث من المتـوقع التقـول على الكنيسـة العـالميـة، والفضيحة من الممكن أن تنتج».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، إنه بالإضـافـة لما جرى جمعـه تحت اسم جـزء من عشرين، جرى مؤخـراً دفع ستة آلاف مارك إلى البابا، ولدى مقـارنة كمية الجزء من عشرين مع المبلغ المطلوب، سوف يتجاوز المبلغ المطلوب ستين ألف مارك، بما في ذلك الجزء مـن ستة من الموارد، الذي يعـاد دفعه لدى جمع

المرابح، وبما أنه لم ينقص ذلك الجزء، وبما أنه —بالإضافة إلى هؤلاء— يسعى للحصول من الأشخاص المتوقعين في الوصاية الأولى، ومن الذين يتسلمون موارد مائة مارك، والجزء من عشرين، ومن الذين لديهم موارد أكبر، جزء الثلث، سوف يكون محتماً أن يجمع من موارد الكهنة، مبلغ ثمانين ألف مارك، وهو مبلغ سوف يكون من الصعب كثيراً على مملكة انكلترا أن تقدر على دفعه، فكم على هذا، عندها ستكون خسائر الكهنة، الذين تتألف ممتلكاتهم في المرابح فقط، التي —مع أنها معروضة بشكل عام سنوياً للبيع— تقود إلى كثير من أعمال الشراء المعمولة من المبلغ المذكور، وبما أن المال ينتقل من يد إلى يد، ويبقى في المملكة؟ وإذا ما حذف المال من كل بيع، وحمل إلى خارج المملكة، سوف تكون عمليات الشراء عاجزة، ومن الممكن أن يحدث أن مثل ذلك المبلغ من المال، من الممكن عدم توفره في المملكة، الأمر الذي تبرهن في حالة طوراىء ضاغطة، في زمن مضى، أي عندما حدث أن كان رتشارد، ملك انكلترا، صاحب الذكرى اللامعة، أسيراً ومحبوساً في بلد أجنبي، فوقتها تم طلب ستين ألف مارك من أجل اطلاق سراحه، ومع أن المملكة كلها أسهمت، لم يكن بإمكانها أن تدفع المبلغ جميعه، لولا أنه عدّ صلبان وأواني الكنائس جزئاً من المبلغ المسدد، وهكذا إن إمكانية جمع مثل هذا المبلغ الكبير الآن ضئيلة، وإلى أن يجمع هذا من مقتنيات الكهنة فقط سوف يحتاج إلى ثلاثة أضعاف المدة، أي سوف يحتاج إلى مدة ثلاث سنوات، وبما أنه، على هذا، تعارض الكنيسة الانكليزية بوساطة حماتها هذا الاستخراج، سوف يكون من المفيد إعلام البابا بهذه المعارضة العامة باسم الكنيسة كلها، وهي تدعو إلى حضور يسوع المسيح، وأن يجري عقد مجمع عام، في أي وقت، بنعمة الرب».

كيف جرى إرسال اثنين من القتلة إلى روما

وفي هذه الآونة جرى ارسال اثنين من القتلة الجريئين، من قبل

الامبراطور فردريك إلى البلاط الروماني، بقصد قتل البابا في مؤامرة سرية، حسب طريقة الحشيشية، وقد جرى اعتقالها بحادثة غير متوقعة، وأودعا السجن، لانتظار صدور حكم على جريمة تآمرهما، وكان هناك بعض من قال، بأن هذا الخبر قد جرى اختراعه بدهاء، ورتب بشكل زائف، في سبيل أن فردريك الذي كان قد أعلن، أنه قد تعرض لمحاولة مشابهة بتآمر من البابا، منذ وقت ليس ببعيد، يمكن أن يتعرض الآن للاساءة إلى سمعته، باتهامه بجريمة مماثلة.

موت أسقف سالسبري

وفي حوالي الوقت نفسه من العام، أي في اليوم التالي لعيد جميع الأرواح، مات المعلم روبرت رنغهام Ringham,صاحب الذكرى التقية، وأسقف سالسبري، وكان رجلاً أحيط بالفضائل، مليئاً بالسنوات، وكان مليئاً بالانجاز الأدبي، وقد ترك —على كل حال— بيته الرهباني مداناً بألف وسبعمائة مارك.

وفاة راعي دير ويستمنستر

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، أي أن تقول في الأول من كانون الأول، مات رتشارد دي بيركنغ Berking راعي دير ويستمنستر، وكان رجلاً حكيماً، ومتعلماً، ومتديناً، وهو الذي زاد أثناء حياته موارد بيته الرهباني، بحوالي ثلاثمائة مارك.

تطويب إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في يوم الأحد، التالي قبل عيد الميلاد، عندما يغنى بمزمور «ابتهج بالرب»، قام البابا بشكل مهيب بتطويب إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، وأدرج اسمه في لائحة القديسين لأنه خشي من أن يقوم القديس المذكور بمعاقبته من أجل إهمال تطويبه، ذلك أنه أجّل ذلك يوماً بعد يوم، بسبب النمائم وأعمال التآمر، وعندما

سمع الملك بهذا، سرّ سروراً كبيراً، ومـــا أن أعلم بذلـك، حتى أعطى أوامر بأن يقـوم جميع كهنة البيعة الملكية، بارتداء ثيابهم الاحتفـالية، وأن يتـولوا، مع عـدد من حـوامل الشمـوع المضـاءة، أداء قـداس، يبـدأونه بمـزمـور «دعــونا نبتهج» إلخ، إلخ، ولسـوف تكـون الوثيقـة الأصيلة لتطويبه في نهاية الكتاب.

كيف توقف البحر عن المدّ والتدفق لمدة ثلاثة أشهر (أيام؟)

لقد روي من قبل أشخاص موثوقين، أن البحر لم يتدفق على شاطىء البحر، كما هي العادة، وذلك لمدة أربعة أيام أو خمسة، وهي واقعة، شهد الذين يسكنون على الســاحل، والبحـارة الذين يسـافــرون فـوق الميـاه العظيمة، أنهم لم يروا مثلها من قبل بشكل مطلق.

انتخاب وليم أوف يورك أسقفاً لسالسبري

وفي حـوالي الـوقت نفســه، أيضــاً، وجـد كهنة ســالسبري، أنه من الصعب جـداً إيجاد واحـد يكون مقبـولاً من الملك، مـالم يكن شخصـاً عائداً إلى بلاطه، وفي سبيل الاحتراز ضد تعريض كنيستهم إلى المخاطر، ولكي يربحـوا رضـا الملك، انتخبــوا بالاجماع وليم أوف يورك، وكـان كـاهناً مقـرباً كثيراً من الملك، وقسيس بيفيرلي Beverley, وكـــان رجـــلاً بارعـــاً تمامـــاً في القـــانون، انتخبــوه ليكون أسقفهـم والراعي لأرواحهم، وكما كان معتقداً، كان هذا الانتخاب مرضياً للرب، وموافقاً للملك، وقد جـرى تثبيته من دون تأخير، وجرى أيضـاً، انتخاب المعلم سيلفستر Sylvester لكرسي كــارآيل، لأنه مـع أنه قـــد فكر من قبل، بنفســه، أنه غير أهل بهذا المنصب، ونتيجة لذلك لم يرض بالقبـول به، وبما أن الرب قـد دعـاه لتسلم رداء الأسقفيـة، استـولى عليـه رعب مقدس، وقبل بكل تواضع بالانتخاب المذكـور، خشية من التحرك ضد الرب، ولكي لايعد خارجياً.

موت بعض النبلاء الإنكليز

مات في هذا العام بعض النبلاء الانكليز، الذي عدّ موتهم خسارة كبيرة للمملكة، وكان من بين هؤلاء رتشارد دي أرغنتان Argentan, وكان فارساً شجاعاً، قاتل مخلصاً لمدة طويلة في سبيل الرب، في الأرض المقدسة، وفي المناطق الشمالية، وهنري دي بالأويل Baliol, ولامبرت دي ميولتون Lambert de Muleton, وكذلك الاسكندر سويرفورد Sewerford, وكان خازن كنيسة القديس بولص في لندن، وقد دفن بشكل مشرف في كنيسة القديس بولص، وهو لم يترك مثيلاً له في انكلترا، ذلك أنه كان شخصاً بهياً، جميل الوجه، وموهوباً في المعرفة في كثير من الفروع، وكان لامبرت دي ميولتون المذكور أعلاه فارساً، وقد حاز مؤخراً، بوساطة هدايا كبيرة، على امتياز مدهش من البابا، وهو أن ما من واحد يحق له حرمانه كنسياً لأي ذنب من الذنوب، مالم يكن ذلك بوصاية خاصة من البابا، وكأن ذلك أنه كان مسموحاً له باقتراف الذنوب مع حصانة، وبعدما آذى كثيرين، وظلم أكثر، استحق أخيراً ضربة تفقدية من الرب، لأنه عندما كان عائداً، بعد حضوره احدى الدعاوى، وكان لابساً بشكل متشامخ، وقد ترجل، أو بالحري لدى ترجله من على ظهر حصانه، اشتكى بأنه أصيب بمرض خطير، وبادر مسرعاً إلى مضجعه، وقبل أن يخلع مهمازيه، صار لونه شاحباً بسبب الموت، وكذلك رالف بريتون Briton, الذي كان من قبل صديقاً مقرباً جداً من الملك والملكة، ومفضلاً على كثير من النبلاء، كما كان مستشارالملك، وقد سقط على الأرض، وعاش مع ضربة غير متوقعة لسكتة دماغية، وجاء ذلك أثناء مشاهدته لبعض اللاعبين بالنرد، أثناء لعبهم، وجاء ذلك بعد مشاركته بوجبة طعام، وهكذا فإن الذي أفقر كثيراً من الأشخاص، وخاصة كهنة مسيديا Messedia, في سبيل أن يجمع ثروة كبيرة، ويتملكها لنفسه، فقد

فجأة حياته وما حصل عليه أيضاً، وكذلك نيقولا دين Danne, (عليه اللعنة)، وكان كاهناً، وخازناً، ومستشاراً خاصاً للايرل رتشارد، فهو كان مع صديقه وشريكه جون بريتاشي Bretasche, الذي كان فارساً، (والذي أصيب بانتقام مماثل) قد مارس أعمال الاستيلاء على المال من كل الاتجاهات، وتكديسه من أجل استخدام الايرل، ففي إحدى الليالي المظلمة، عندما كان مخموراً، ومتخماً من إحدى الحفلات، وكان ممتطياً من دون حذر لحصان حرون، سقط على الأرض سكراناً، فاصطدم بجذع شجرة على الطريق، فدق عنقه، وتمدد على ظهره، ولفظ أنفاسه، وتقيأ الخمرة التي كان قد شرب منها كثيراً، ولقد كتبت هذه الأشياء، من أجل أي واحد، قد يعهد الرب إليه بمقاليد أية سلطة مدنية، أن يقوم، بوساطة وضع قدميه في مكان واسع، وبتذكره قول النبي: «إنه أمر مرعب أن تقع بين يدي الرب»، يمكنه بذلك أن يخاف من العقاب في النهاية، إذا ما خان قضيته.

انتخاب رتشارد دي كروكسل راعياً لدير ويستمنستر

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى بالاجماع انتخاب المعلم رتشارد دي كروكسل Crokesle, رئيس شمامسة ويستمنستر، والذي كان رجلاً فصيحاً، وعالماً بالقانون، وصديقاً قريباً جداً من الملك، انتخابه راعياً لدير تلك الكنيسة من قبل جميع الرهبان، لأن الرهبان خافوا أنهم إذا تصرفوا بشكل معاكس، من أن يقوم الملك، الذي كان حاميهم الخاص، بترك نصف الكنيسة التي شرع ببنائها بشكل جميل، غير مكتملة العمارة، وقد جرى على هذا انتخاب رتشارد المتقدم ذكره، وقد كان دوماً معجباً بالقديس ادموند المعترف، ورئيس الأساقفة، لأنه في يوم تطويب ذلك القديس، أي في يوم الأحد ماقبل عيد الميلاد، كما تقدم الذكر أعلاه، استدعي إلى الاحتفال التكريمي لهذا التجمع الأسقفي السامي، وأمر على الفور ببناء بيعة تشريفاً للقديس المذكور،

حيث تقام فيها صلوات فخمة، حسبما هو لائق، وتقدم في مستقبل الأيام إلى الرب، وإلى المعترف المذكور، وبمبادرة من الملك أيضاً، عملت إضافة لتكريم راعي الدير المذكور، سمح له بموجبها بأداء القداس في أثواب حبرية، وأن يقدم مباركات مهيبة إلى الناس أثناء انشاد «حمل الرب».

خاتمة أحداث السنة كلها

كانت هذه السنة خلالها كلها منتجة للشكوك إلى الأرض المقدسة، والأذى للكنيسة بشكل عام، والعدوانية للامبراطورية، والسلب لمملكتي فرنسا وانكلترا، والعار والاضطراب للبلاط الروماني.

احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر

كان عام ١٢٤٧، هو العام الحادي والثلاثين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه في وينكستر، بحضور عدد كبير من نخبة نبلاء المملكة، ولدى وصوله إلى هناك، استقبل بالسرور من قبل أسقف وينكستر، الذي رجاه بحرارة بأن يتناول طعام الافطار معه، في الصباح التالي الذي هو صباح يوم عيد الميلاد، فقد اعتقد الأسقف أنه بعمله هذا، يمكن أن يعطي برهاناً إلى الجميع بأن مولاه الملك، قد نسي تماماً، جميع ذنوبه السالفة، ولكي يتمكن من أن يظهر أمام جميع الضيوف بأنه —أي الملك— أعاده —أي الأسقف— إلى صداقته الماضية، ولسرور الأسقف، تمت الموافقة على طلبه، وتمت تلبية رغباته.

عقد مؤتمر في لندن

وفي هذه الآونة، وبناء على وصاية مستعجلة من البابا، تتعلق بالمساهمة التي تقدم ذكرها والتي لايمكن التساهل نحوها، وهي المساهمة التي قام الأساقفة بالمؤتمر العام، لسوء الحظ فربطوا رجال الدين بها، بناء على ذلك قام الملك بموجب أمره الملكي، باستدعاء

نبلائه، وكذلك رؤساء الشمامسة في انكلترا، للقدوم إلى لندن، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا جميعاً، أي الأساقفة، قبل اليوم المتفق عليه، فغيبوا أنفسهم عن عمد، في سبيل أن يظهروا أنهم كانوا معارضين لأعمالهم، لأنهم كانوا يعرفون بأن قلوب الجميع كانت مليئة بالألم، ولم يكن هذا من دون سبب مسوغ.

حول مؤامرة بعض نبلاء فرنسا ضد البابا

في الوقت الذي كان فيه نهر الوقت يتدفق هكذا نحو الأمام، ضعفت التقوى لدى المسيحيين، وكذلك عواطف البنوة، التي من المتوجب على كل مسيحي أن يرعاها نحو أبينا الروحي، البابا، ذلك أنها كانت قد أصيبت بجراحة وماتت، ولم يكن هذا بلاتعريض أرواحنا للخطر، لابل في الحقيقة، تحولت هذه العواطف إلى كراهية شديدة، ولعنات خفية، لأن الجميع قد شاهدوا، ومع المشاهدة شعروا بأن البابا المذكور، استمر عازماً، على إلحاق الضرر والفقر بكثيرين، وعلى نهب المال، واعتقد كثيرون الآن، أنه بإمساكه للسلطات التي منحت من السماء إلى القديس بطرس، أي سلطة الحل والربط، قد برهن عن نفسه، بأنه لايشبه القديس بطرس بشكل مطلق، وانفتح فم المتحدثين بالشر والذم في كل مكان، وبشكل خاص في فرنسا، البلاد التي تآمر فيها كثير من النبلاء ضد البابا والكنيسة، وهي حالة لانتذكر قط أنها وقعت من قبل، ومن الممكن مشاهدة خصائص هذه المؤامرة في العرض الكتابي التالي، وقد وصلني باللغة الفرنسية، وفيه جاء:

«إلى جميع الذين سوف يرون هذه الكتابات، نحن الذين أختامنا مثبتة على الرسالة الحالية نعلن أننا نقسم بحق أجسادنا، بأننا قد تعهدنا، وتعاهدنا مع بعضنا، وذلك بالنسبة لأنفسنا، ولورثتنا بشكل أبدي، بأننا سوف نساعد أحدنا الآخر، وجميع الذين في بلادنا، وفي البلدان الأخرى، الذين يودون أن يكونوا في هذه الجماعة، وذلك في أن نستحوذ

على حقوقنا، وأن نحصل عليها، وندافع عنها، وعن ماهو خاص بهم، باخلاص صالح، ضد رجال الدين، وحيث أننا رأينا أنه سوف يكون عبئاً ثقيلاً علينا، أن نواجه هذا، اخترنا نيابة عنا ولصالحنا، بموافقة عامة، وبرضا منا جميعاً: دوق بيرغندي، وكونت بيريوم Perrum أوف بريتاني، وكونت أنغوليم، وكونت القديس بولص، وذلك من أجل أنه إذا ما أقدم أي واحد من جماعتهم على تقديم شيء إلى رجال الدين، مثل أية مساعدة، يقوم الرجال الأربعة المتقدم ذكرهم بتقدير الذي ينبغي أن ينزل به، ونحن علينا أن نفعل ذلك وننزل به، ونود أن يعلم الجميع، أننا في سبيل الدفاع والاستحواذ، والحصول على ماتقدم ذكره أعلاه، إن كل واحد من هذه الجماعة سوف يخصص مائة بالمائة، بموجب يمينه، مما يكسبه لمدة سنة، من الأراضي التي يمتلكها آنذاك، وسوف يقوم كل رجل غني من هذه الجماعة بجباية المفروض لكل سنة حسب أقصى قدرته، في عيد طهارة سيدتنا، وسوف يرسل هذا المال إلى أي مكان يحدد له بوساطة رسائل تحمل أختام الأربعة الذين تقدم ذكرهم، أو تواقيع اثنين منهم، وإذا ماقترف أي واحد خطيئة، ولم يكن من الممكن جعله يتخلى عن ذلك من قبل هؤلاء الأربعة الذين وردت أسماؤهم أعلاه، هو سوف لن ينال المساعدة من الجماعة، وإذا تعرض واحد من هذه الجماعة إلى الحرمان الكنسي، بوساطة ذنب معروف لدى هؤلاء الأربعة، وكان هذا الحرمان قد أنزل به من قبل رجال الدين، هو لن يتنازل عن حقه، وصراعه من أجل الحرمان الكنسي، ومن أجل أي شيء آخر من الممكن أن يعملوه له، ما لم يكن ذلك بموافقة هؤلاء الأربعة، أو اثنين منهم، وهو سوف يتابع العمل في سبيل حقوقه، وإذا ما مات اثنان من هؤلاء الأربعة، أو سافرا إلى خارج البلاد، على الاثنين اللذين بقيا، وضع اثنين آخرين، وتعيينهما مكان هذين الاثنين، ولسوف يكون لهذين السلطة نفسها، حسبما كان قد تقرر أعلاه، وإذا ما حدث أن ثلاثة، أو الأربعة غادروا البلاد، أو ماتوا، يتوجب على عشرة أو اثني

عشر من أغنياء هذه الجماعة، انتخاب أربعة آخرين، وسيكون لهؤلاء السلطات نفسها، مثلما كانت للأربعة الذين ذكرت أسماؤهم أعلاه، وإذا ماقام هؤلاء الأربعة، أو أي واحد من الجماعة، بأي عمل، بناء على أوامر هؤلاء الأربعة، وكان ذلك مما يخص هذه الجماعة، سوف تقوم الجماعة بتخليصهم منه».

كتابة أخرى ضد رجال الدين

«بما أن أوهام رجال الدين، غير متنبهة إلى أنه بوساطة الحروب وسفك دماء بعض الناس في أيام شارلمان وآخرين، جرى تحويل مملكة فرنسا من آثام الأمم إلى الإيمان الكاثوليكي، وأنه بوساطة نوع من التذلل ضللنا رجال الدين، ونأوا بنا، ورجال الدين هؤلاء يقفون ضدنا مثل ثعالب، فمن خارج بقايا هذه القلاع نفسها التي تعود بتأسيسها ووجودها إلينا، قاموا بخرق سلطات أحكام الأمراء العلمانيين، حتى صار أولاد الأرقاء، يقضون على الرجال الأحرار، وعلى أبناء الرجال الأحرار، تبعاً لشرائعهم، مع أنهم ينبغي بالحري، أن يحكموا من قبلنا وفقاً لشرائع المتغلبين الماضين عليهم، ولايجوز الانحراف عن ذلك، بوساطة مراسيم جديدة، ولا عن أعراف وعادات أجدادنا، ذلك أنهم يريدون أن يضعونا في حال أسوأ، مما أراده الرب، حتى بالنسبة للأمم، عندما قال: «أعط لقيصر ما لقيصر، وأعط للرب ما للرب»، ونرى نحن، أعيان الناس في هذه المملكة، ونقدر بتيقظ، بأن المملكة، لم يتم الحصول عليها بالشريعة المكتوبة، ولابرعونة رجال الدين، بل بجهود الحرب وعرقها، وبهذا المرسوم الحالي، الذي أصدرناه بناء على قسم من الجميع نقضي ونقرر، بأنه لن يقوم من الآن فصاعداً أي رجل دين أو أي علماني، بسحب شخص آخر إلى أمام قاض عادي أو قاض مناب، مالم يكن ذلك في قضية هرطقة، أو زواج، أو ربا، وفقدان جميع مناصبهم الشرفية، والحرمان من واحد من أعضائهم، ينتظر جميع

المعتدين، ولقد جرى تعيين بعض الناس ليكونوا وكلاء لنا، لمتابعة تنفيذ هذه القضية، وذلك في سبيل استرداد سلطاتنا القضائية، ولكي نتمكن من التنفس بحرية، ومن أجل أن هؤلاء الذين صاروا أغنياء على حساب افقارنا، والذين اختار الرب كشف نواياهم الخبيثة، بسبب عجرفتهم، من أجل أن يعادوا إلى أوضاعهم كما كانت في الكنيسة الأولى، ولكي يصبح ممكناً بعيشهم حياة تأمل، أن نشاهد نحن الذين نمارس الحياة الفعلية، من خلالهم، المعجزات التي غادرت هذا العالم، منذ زمن طويل».

وعندما سمع البابا بهذا، تنهد بروح قلقة، وبما أنه كان راغباً في ترضية نفوسهم، واضعاف ثبات مقاصدهم، قام أولاً بانذارهم، وسعى إلى تحذيرهم بالتهديدات، لكنه وجد أن هذا كان بلا فعالية، لذلك قام باضفاء عدد من المنافع اللاهوتية على عدد من أقربائهم، ومنحهم إذناً بالاستحواذ على عدد من المنافع، مع كثير من الأعمال الأخرى، كما قدم كثيراً من الهدايا إلى النبلاء أنفسهم وتمكن بهذه الوسائط من استرداد بعض الذين تقدم ذكرهم، ومن ثم اقلاعهم عن اجراءات مطالباتهم، وخاف —على كل حال— كثيرون من محتويات الرسالة، حيث ساد اعتقاد بأنها صدرت عن واحد ما، بموافقة فردريك، لاسيما وأن الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة تتوافق مع الرسالة التي كان قد أرسلها إلى كثير من الأمراء، وهي الرسالة التي قال في نهايتها: «لقد كانت نوايانا دوماً ورغباتنا، في أن نقنع الكهنة من كل طائفة، وبشكل خاص أصحاب المراتب العليا منهم، في أن يستهدفوا الوصول إلى غاية، تتماثل مع الذي كانوا عليه في الكنيسة في أحوالها الأولى، وأن يمارسوا حياة رسولية، وأن يقلدوا الرب في تواضعه، لأنه كان من عادة أولئك الكهنة ممارسة النظر إلى الملائكة، وأن يشعوا بالمعجزات»، إلخ، إلخ، وعد إلى الرسالة التي كان الامبراطور قد أرسلها إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين في عام١٢٤٥.

حول البارلمان الذي عقد في لندن وفيه تكدست الشكايات فوق الشكايات حول استخراجات البابا

وفي اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، عقد الملك محادثات دقيقة مع نبلائـه، ومدد المؤتمر لعـدة أيام، لأنه كانت هناك مسـائل مستعجلة، حيث كـان هناك خـوف كبير، مـن أن يقـوم الملك الفـرنسي بجعل غسكوني خاضعة له، فهذا ما روي إلى الملك على أنه أمراً حقيقياً، وكان فقدان تلك المقاطعة كما هو ظاهر بشكل واضح، فيه إهانة كبيرة للملك الانكليـزي، كما يشكل خسارة كبيرة له، لأنه يتلقى بالعـادة سنوياً ألف مـارك من بوردو وحدها، وكـان قـد اجتمع هناك أيضاً، كما ذكـرنا من قبل رؤسـاء شمامسـة انكلترا، وذلك إلى جـانب شطـر كبير من رجـال الدين والنبـلاء، وهؤلاء اشتكـوا بشكل جماعي من الاستخـراجـات البـابوية التـي لايمكن تحملهـا، وقـد تعـاطف الملـك معهم حـول هذه الشكايات وشـارك في أسـاهم، لأن الدولة كلها كـانت في حـالة خطر، وكانت القضيـة تهم المملكة كلها، وكـان لهذا هناك يأس وأسى لم يسمع بمثله من قبل، واضحـاً بين رجال الديـن، ولذلك جرى عـرض شكاية مبكية أمام الملك، الذي كان واجبـه حماية الصالح العام، ومنع مثل هذا الأذى وهذه المخـاطر، وأخيراً توفـر رأي جماعـي قضى بإعـداد رسـالة مستقيمـة، حتى يجري ارسالها إلى البـلاط الروماني، لتبيـان المظالم الجادة إلى البابا، وتقرر إرسـال الرسالة التالية باسم جماعـة الناس كلها ورجال الدين إلى البابا والكرادلة.

الرسالة التي أرسلت إلى البابا باسم جماعة إنكلترا كلها

«إلى الأب الأعظم قـداسـة في المسيـح والرب، والذي هو بمـوجب الحكمـة الـربانيـة الحبر الأعظم ترسـل جماعـة رجـال الدين والناس في مقاطعة كانتربري، قبلات تقوية إلى قدميه المقدستين:

بما أن الكنيسة الانكليزية، منذ التاريخ الذي جرى فيه منحها الإيمان الكاثوليكي للمرة الأولى، قد سعت لإرضاء الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، والتزمت دوماً بعبادة الرب باخلاص، من دون محاولة التخلي عن الواجب الذي حملته، واستفادت دوماً من مزيد من الرعاية، وهي الآن تلقي بنفسها عند قدمي قداستك، وترجو باخلاص، أنه بالنسبة لمطلب المال، الذي طلب منها، بطرق مختلفة، وبضغط شديد من أجل مساعدة شعوب متنوعة، بأن تتفضل بعواطفك وتتنازل بابداء الرحمة نحوها، لأن العبء المطلوب لايمكن حمله، وبسبب عدم كفاية الممتلكات، غير ممكن، لأنه وإن كانت بلادنا تنتج أحياناً محاصيل، لكن هذه يجري تخصيصها وصرفها لمعيشة شعبها، ثم إنها لاتنتج وفرة من المال، كما أنها منذ وقت طويل لم تنتج ما يكفي لتلبية المطلوب منها في الوقت الحالي، يضاف الى هذا أنه قد ضغط عليها، وأثقلت فيما مضى بعبء مشابه، لكنه لم يكن ثقيلاً جداً بالنسبة لما مضى من أيام، ولم يعد الآن بامكانها تحمل هذه الاستخراجات، وبالاضافة الى هذا،إنه بناء على أوامر قداستك، المساعدة مطلوبة في اللحظة الحالية،من رجال الدين الى مولانا وملكنا الدنيوي(الذي لاينبغي لنا ولايمكننا لكرامته أن نتخلى عنه في ضيقه)، من أجل أن نمكنه من صد هجمات الأعداء(نجانا الرب منها) وللدفاع عن ميراثه،ولاسترداد الذي انتزع منه.

ونحن بناء عليه،نرسل حاملي هذه العروض، مع التماسات الى حضرة قداستك، بأن تقدر مدى المخاطر والأضرار التي سوف تنجم عن مثل هذه الاستخراجات، كما تقدم الذكر أعلاه، والتي لايمكننا تحملها بأي حال من الأحوال، مع أننا مرتبطون بكم بكل رباط عاطفي، ولأن جماعتنا ليس لديها ختمها، نرسل هذه العروض إلى قداستكم، موقعة بعلامة جماعة مدينة لندن».

الرسالة التي أرسلت بإسم الجماعة نفسها إلى الكرادلة

«إلى أكثر الآباء تبجيلاً في المسيح والرب، كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من عبيدهم المخلصين، إلخ، صحة، واحترام صحيح لائق، وتشريف:

إلى أخوتكم، بحكم كونكم القواعد المستندة عليها كنيسة الرب، قد طرنا إليكم بالتماسات متذللة، ونحن نرجوكم بحرارة، أن تمنحوا الاهتمام، وأن تصغوا إلى المظالم التي نتألم في ظلها، وأن تعطونا العون، في سبيل أن تتمكن الكنيسة الانكليزية من أن تسترد أنفاسها، بعد اضطرابات متوالية واجهتها في الأيام الماضية، ونحن مقابل هذا ملزمون بأن نرد إليكم شكرنا المتوجب، فمنذ أيام مجمع اللاتيران الأخير، تعرضت الكنيسة الانكليزية إلى ضيق شديد، بسبب أوامر الكرسي الرسولي، التي قضت بدفع الأموال، بداية الجزء من عشرين من أجل عون الأرض المقدسة، وبعد ذلك الجزء من عشرة، من أجل مساعدة البابا، وفيما بعد أوامر متنوعة حول هدايا وأعطيات مختلفة، بطرائق متباينة، ولاستخدامات متنوعة، ومع ذلك صبت كل الذي تمكنت من جمعه بيدها، وبالاضافة إلى هذا، قدمت أيضاً بناء على أوامر الكرسي الرسولي، مراراً وتكراراً المساعدات إلى ملكنا وإلى الرعاة الدنيويين، وذلك بقدر ما توفر لديها من قدرات، والآن في هذه اللحظة الحالية، قد طلب منها، بناء على التماساتكم، تقديم مساعدة إلى الملك المذكور (الذي لايمكننا، ولايجوز لنا عدم تلبية مطالبه وقت الحاجة) في سبيل أن نمكنه من صد غارات أعدائه، ومن أجل حماية حقوق المملكة، ولاسترداد الذي حرمت منه، وأخيراً هناك مطلب جديد، قد عمل الآن، وفرض على الكنيسة نفسها، وهذا ما لايمكنها تحمله، لأن ممتلكاتها القليلة جداً لاتسمح لها بالاستجابة لهذا الطلب، وتلبيته، ولقد طلب من بعضهم نصف الممتلكات التي بحوذتهم، ومن آخرين الثلث،

ومن البقيـة جزئـاً من عشرين، وسـوف يخصص شطر مـن هذا كله لاستخـدامات الفـرنسيين، الذين يقـومـون دوماً باضطهـادنا وتعـذيبنا وإلحاق الأذى بدولتنـا، وذلك مـن أجل الاستيـلاء على امبراطـورية الاغـريـق، وشطر آخـر لمسـاعـدة الأرض المقـدسـة، التي من الممكن —حسبما أعلن العالم بصوت مـرتفع— استردادها من العدو، بمخاطرة أقل، وشطر ثالث إلى الاستخـدامات الأخـرى وفق ماقـد يراه الكرسي الرسولي ويأمر به، ويبدو في الحقيقة أنه صعب ومتناقض أن يكون هناك آخرون يمتلكون الكثير من مقتنياتنا وجهـودنا، وأن يتوجب على رجال بلادنا، وفقـراء مملكتنا —الذين الأعطيـة عـائـدة إليهم— الصـوم وأن يكونوا بلا مقتنيـات، كما أن ملكنا وجنوده أيضاً، لن يكون، وهـم معـه، قـادرين على صد الغـارات، والدفـاع ضد الأعمال العـدوانية لأعـدائنا، لاسمح الرب بذلك، كما أنه لن يكون من الممكن تقديم أية مساعدة إلى الذين يعـانون من العوز والحاجـة، وذلك إذا مـا جرى استهـلاك جميع أمـوال المملكة، وفي الحقيقة، إن كل شيء يمتلكـه رجال الدين، سـوف يكون عرضـة للبيع، ذلك أن مبلغ المال المطلوب حاليـاً، لايمكن توفره بيننا،ولسـوف ينجم العـديد من المصـائب عـن هذا الطريق، مثلما ينجم عن أعمال النهـب والسلب، وذلك إذا —لاسمح الـرب— تم الاصرار على ذلك، وفي سبيل ايضـاح هذه الأمـور إليكم، نرسل إليكم الحاملين لهذه العـروض، بمثـابة رسلنا بشكل عـام، ليمثلوا بحضرتكم، ولكي يلتمسـوا منكم بحـرارة، ومن أجل خـاطر الرب، والكرسي الرسـولي، حتى تتـولوا تذكير البـابا، ولكي توقفـوا أيـديكم وآراءكم عن مثل هذا الظلم، وأن تتعطفـوا، إذا كـان يرضيكم، بأن تتذكـروا تلك المدهشـات والتمزقات الحاصلة في الخارج، بالابتعـاد عن صدر الكنيسة الأم، وعن طاعتهـا، بطريقة لاتتفـرقـوا أنتم فيهـا في الخارج، ولكي لاتبعدوا عنهـا الذين تجمعوا من قبل مـع بعضهم بموجب عاطفـة الحب والاخلاص، وبما أن جماعتنا ليس لـديها ختمهـا الخاص، أرسلنا هذه العـروض إلى

اخوتكم المقدسة، ممهورة بختم جماعة مدينة لندن».

حصول الملك على إمتياز غامض من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، وقع الملك، دون أن يعرف بمصائد الرومان الخفية، بوساطة دهائهم وكلامهم المخادع، وحصل بوساطة بعض رجال بلاطه، الذين رغبوا في ارضائه، على امتياز ما، له شخصياً، من البلاط الروماني، جاءت صيغته كما يلي:

«مع أن البابا قد قام بناء على إرادته وبرغبة منه، في سبيل تخفيف مظالم الكنيسة الانكليزية، فأصدر مراسيم، في كل مكان، وقام من دون تمييز بتوزيع المنافع في انكلترا، لصالح الايطاليين، قد قام مع ذلك الآن، وقد هدأت العاصفة كثيراً، فأصدر أمراً قضى أنه إذا ما جرى إعطاء أي واحد من أقربائه، أو من أقرباء الكرادلة، عليه أن يحصل على اذن الملك وعلى رضاه على المنحة التي تمّ عملها»، وحصل أنه بموجب هذا الامتياز الغامض والمخادع، أن تمكن الأصدقاء الطفيليون للملك من تهدئة مشاعره، وربطوه بقوة أكثر بأدواتهم، لأن الموثقين والكتّاب العائدين للبلاط الروماني يستجيبون مثل الشمع للرشوى والاكتراء، وإذا ماقاموا بناء على أوامر البابا بكتابة رسائل مليئة بالعبارات الرنانة من أجل إرسالها إلى مولانا الملك، فعلوا ذلك لإغناء أنفسهم وللتلاعب به، فهل يمكن للمرء أن يتوقع إلاّ الأسوأ منهم؟ ولذلك نظرت أنا إلى الامتياز المتقدم ذكره، وعددته كلا شيء، غير أنه تعلق به وتأمل.

كيف جرى إحضار سيدات أجنبيات للزواج من نبلاء إنكلترا

قبل ارفضاض المؤتمر المذكور، وصل إلى بلاط الملك في لندن بطرس أوف سافوي، ايرل رتشموند محضراً معه من مناطق نائية بعض السيدات غير المعروفات، من أجل تقديمهن زوجات إلى نبلاء انكلترا، الذين رباهم الملك في حراسته، وهو عمل كان مغضباً بوضوح وغير

مرض لكثير من النبلاء المحليين في انكلترا، الذين أنفسهم قد أهملوا.

إرسال راهبين فرنسيسكان إنكليز من قبل البابا إلى إنكلترا لاستخراج المال

في الوقت الذي كانت فيه تقلبات الحظ تخدع العالم بمثل هذه المغالطات، جرى ارسال راهبين، من طائفة الفرنسيسكان إلى انكلترا، كان اسمهما: جون، والاسكندر، وكانا من أصل انكليزي، كما كانا قد حصلا من البابا على سلطة استخراج المال، من أجل الاستخدام من قبل قداسته، فلقد جرى بعثهما إلى انكلترا من قبل البابا نفسه، مسلحين بعدد من الرسائل، ممهورة بالختم البابوي، ومخفية نهم الذئب تحت صوف الشاة، وقد مثلا أمام الملك، بنظرات ساذجة، وبعينين تنظران نحو الأسفل، ورجواه بكلام لطيف، والتمسا اذنه ليتجولا في أرجاء المملكة، يطلبان الاحسان من أجل منفعة البابا، وقد أعلنا أنهما سوف لن يقوما بأي ضغط، وما أن حصلا على هذا الاذن من الملك، الذي لم ير أية نية شريرة في هذا الاجراء، حتى تحول الراهبان المذكوران فأصبحا نائبين بابويين خبيرين، وقد تشجعا بأعطيات كهنة الملك، لذلك انطلقا من البلاط الملكي، وقد امتطيا على مهرين أصيلين، مزينين بسرجين محليين بالذهب، وهما شخصياً قد ارتديا ثوبين جميلين جداً، وكان في أقدامهما أحذية مما يلبسه الفرسان مع مهاميز، من النوع الذي يعرف عادة باسم heuses (hose?)، وذلك في سبيل إيذاء طائفتهما، وإلحاق العار بمهنتيهما، وقد توليا وظائف النواب البابويين، ومارسا طغيانهم، وطالبا بالأموال، واستخرجا الأتاوات، وتنظرا باستخفاف إلى مبلغ عشرين شلناً طالبا به كل واحد ممن سنذكره، فقد ذهبا في المقام الأول إلى أساقفة أعلى الطوائف في انكلترا، وطالبا بشكل مهيب بالمال لاستخدامات البابا، تحت تهديد العقوبة، وسمحا بوقت قصير جداً للاجابة، أو من أجل الدفع، وعرضا عليهم رسائل تهديد البابا، التي

قدماها وكأنها قرون تخويف، ولدى قدومهما إلى أسقف لنكولن، الذي كان دوماً محباً خاصاً وتابعاً لطائفتهما، وذلك إلى حد أنه تصور مرة فكرة الدخول بطائفتهما، ولقد استولت عليه الدهشة لدى مشاهدته هذا التغيير الذي ألم بالرهبان الفرنسيسكان وذلك بالنسبة لكل من الملبس والسلوك، والوظيفة، لأنه بات الآن من الصعب اكتشاف إلى أي طائفة أو وضع كانا ينتميان، وعندما أقسما حول مايتعلق بمحتويات الولاية البابوية، بخاصة من أجل تصديقهما من قبل كثيرين، ثم طالبا بإلحاح وسرعة بمبلغ صغير، هو ستة آلاف مارك من أسقفيته، وقتها رد عليهما، وهو على درجة عالية من الدهشة والحزن، حيث قال: «حضرة الراهبين، إن هذه الأتاوة —مع احترامي للسلطة البابوية— مهينة وغير صحيحة، ولايمكن الاصغاء إليها، لأنه من غير الممكن تنفيذ مطلبكما، ثم إن المسألة لاتعنيني أنا وحدي فقط، بل تعني جميع جماعة رجال الدين، والشعب، والمملكة بشكل عام، وأنا أرى أنني سوف أكون طائشاً ومتهوراً ومتناقضاً، باعطائكما جواباً ايجابياً حول هذه المسألة، أو منحكما موافقة مؤكدة حول مثل هذا الإجراء الخطير، من دون التشاور مع جماعة المملكة بشكل عام»، وقاما بعد هذا الجواب بالمغادرة، وسارا وهما قد تحولا إلى رجلي بلاط وتغيرا (كما ذكرنا أعلاه) ومضيا إلى كنيسة القديس ألبان، ولم يباليا بالحط من كرامتهما إلى حد الذهاب إلى موضع الاقامة، مع الغرفة التي بنيت في داخل باب الساحة للاستخدام الخاص من قبل الدومينيكان والفرنسيسكان، ثم انحرفا وخرجا عن طريقهما وتوجها إلى المكان الأكثر سمواً المخصص لإقامة الأساقفة ولاستراحة الرجال أصحاب المراتب العليا، ولقد استقبلا باحترام هناك، ثم إنهما بالطريقة نفسها التي طالبا بها بمبلغ الستة آلاف مارك من الأسقف المتقدم ذكره، طالبا الآن بمبلغ أربعمائة مارك من راعي الدير، من أجل الاستعمال البابوي، وبكل غطرسة طالبا بوجوب الدفع في وقت قصير، تحت طائلة التهديد بأقسى العقوبات، لكن لدى

اجـابتهما والـرد عليهما من قبل الراعـي، وفق الطريقـة التـي قـام بها الأسقف المذكـور، إنما بشيء من التـواضع أكبر، ارتدى هذان الراهبـان ثياباً علمانية ومع حـركات علمانيـة، امتطيا فـرسيهما الأصيلين، وغادرا وهما يتمتمان ويزمجران، ويهددان.

البابا يسأل أساقفة فرنسا اقراضه مالاً

أرسـل البـــابـا في هـذه الآونة رسلـه الخاصين مـن الدومينيكـان والفـرنسيسكـان، وهم يحملون رسـائله الأصيلة إلى جميـع أسـاقفة فرنسـا، واحداً، واحـداً، يرجو كل واحـد منهـم، أن يقرضـه مبلغاً من المال، وفقاً لإمكاناته، واعداً أنه عندمـا سيسترد أنفاسه، سوف يدفع من دون شك لكل واحـد استحقـاقاته، وعنـدما أصبح هذا معـروفـاً لدى الملك الفرنسي، الذي كانت لديه شكـوكه حـول شره البلاط الرومـاني، منع كل واحـد مـن الأسـاقفـة في مملكتـه، تحت طائلة عقـوبة فقـدان ممتلكاته، إذا ما قـام بافقـار أراضيـه وفق هذه الطريقـة، وهكذا حـدث أن غـادر النواب البابويون البـارعـون الذين ألقي على عواتقهـم عبء هذا الواجـب، المملكة وهم خـالين الوفـاض، وسط اشمئزاز وازدراء جميع الفرقاء.

حول ترقية ورفع شأن جون مانسيل

عندما كـان الوقت يشع هكذا وسط هذه الأحـداث غير المرئية، تولى جون مانسيل Mansel مستشار كنيسـة القديس بولص في لنـدن، بناء على رغبـة الملك وطلبه (الملك الـذي طلبـاته لاترد وهـي مهيبـة) واجبات المسؤولية عن ختم الملك، في سبيل أن يتـولى مسؤولية وظيفـة المستشار، وبالاضـافة إلى هذا أضفيت عليه مـرتبة رئاسة كنيسـة بيفـرلي Beverley من قبل رئيس أساقفة يـورك، ومع أن الملك كان آسفـاً لأن هذا المنصب لم يمنـح إلى أخيـه من أمـه، لكن لأنـه وجـد جـون

المذكـور مخلصاً، ومحتاجـاً إليه كثيراً في دعم عناياته واهتماماته، لم يرغب أن يتعرض للحزن أو أن يفقد أياً من المناصب التي أضفيت عليه.

إرسال قسيس اسمه مارتن إلى إنكلترا

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يقوم باستمرار برفع المتدني إلى الأعلى، اعتقد مـولانا البابا، أن جـامعي الأموال المتنوعين الذيـن جرى ارسـالهم، غير كافين لجمع المال، فأرسـل إلى انكلترا رجلاً اسمـه المعلم مـارين Marin (هو مـارتن آخـر)، وكـان قسيســـه، والذي توحي أهميـــة اسمـه بأنـه قـد اختير ليكون صيـاداً، لكن ليس للرجـال، إنما لمقتنيـاتهم، في بحر العـالم هذا، وقد جـاء مع نيـة، أنـه في الوقت الذي كـان فيه الآخرون يصطادون، أن يقـوم باقتناص الانكليز من على بعد، أو أن يتمكن بخداعه لهم برميهم في شبكتـه بمهارة وحذر، وهو وإن لم يكن قـــد منح رسمِيـاً شـــارات نائب بابوي، مـع ذلك تسلح بقـــوة بسلـطات نائب بابوي، في سبيل التخلص من امتياز الملك.

إرسال غودفري الأسقف المنتخب لبيت لحم بمثابة نائب بابوي إلى سكوتلندا

وجرى في هذه الآونة أيضـاً، ارسال غودفـري، ابن مفتش السوق في رومـا، والأسقف المنتخب لبيت لحم، نائبـاً بابـوياً إلى سكوتلندا، وذلك من قبل البـــابا، لكن مـن أجل أي غــرض، هـذا غير معــروف، لأن العقيـــدة الكاثوليكية كـانت مزدهرة باستمـرار، وكان السـلام مؤسسـاً بشكل راسخ بين رجـــال الدين والناس، ولذلك من المعتقـــد، أنه بنـاء على ماهو معـروف عن العادات الرومـانية، أن مهمـة غودفـري المتقـدم الذكـر، الذي كـان قـاسيـاً ولـديه قـدرة حـديدية على الجـذب، سـوف يجـذب إلى نفسـه الموارد الماليـة الوافـرة للاسكوتلنديين، والمرغـوب بها كثيراً.

إرسال المعلم جون إلى إيرلاندا

وجرى في الوقت نفسه ارسال المعلم جون الأحمر إلى ايرلاندا، لجمع المال، مع صلاحيات كاملة، وكأنه كان نائباً بابوياً، مع أنه لم يمنح شارات تلك الوظيفة، وذلك خشية من أن يظهر البابا وكأنه يقدم سبباً للإساءة إلى ملك انكلترا، الذي كان فرحاً بأنه كان محمياً —عبثاً كما خيّل إليه— بامتياز، أنه ما من نائب بابوي يجوز أن يقدم إلى أراضيه، ما لم يكن قد سئل من أجله، وعلى هذا قام جون المذكور بنشاط بتنفيذ أوامر البابا، وصرف نفسه نحو منافعه وكسبه، إلى حد أنه استخرج ستة آلاف مارك من ايرلاندا، وقد أرسل هذا المبلغ إلى لندن يوم عيد القديس ميكائيل، بعهدة بعض رجال الدين، وذلك لاضافته إلى خزانة البابا وأمواله، لكن جميع هذه الإجراءات لم تنجَ من المعرفة بها من قبل فردريك.

هزة أرضية في إنكلترا

في الثالث عشر من شباط لهذا العام، أي في يوم عيد القديس فالنتاين Valentine كانت هناك هزة أرضية في عدة أماكن من انكلترا، خاصة في لندن، وأكثر شيء على شواطىء نهر التيمز، وقد هزت الأبنية، وكانت مؤذية جداً ومرعبة بنتائجها وتأثيراتها، هذا ومن المعتقد أن مثل هذه الواقعة كانت خطيرة، لأنها غير عادية، وغير طبيعية في هذه البلدان الغربية، لأن الكتلة القوية المتماسكة لانكلترا متحررة من الكهوف الموجودة تحت الأرض، والمغائر العميقة (التي فيها، تبعاً للفلاسفة يجري بالعادة انتاج الهزات الأرضية)، كما أنه من غير الممكن كشف أي سبب آخر لقيامها، ولذلك كان من المتوقع، وفقاً لتهديدات الانجيل، بأن نهاية الدنيا وشيكة، وأن حركة الأرض هذه تشير إلى أنها جاءت تجاوباً مع التحركات في هذا العالم، وبذلك من الممكن تحريك العناصر وازعاجها بوساطة تحركات متوالية، لأنه قبل عدة أيام مضت، كان المدّ

والجزر قليلاً جداً، إن لم نقل انعدم كلياً، وكان هذا قد حدث على طول مسافة طويلة من الساحل، وقد وقع خلال ثلاثة أشهر، وهي واقعة ما من أحد يتذكر أنه شاهد مثلها من قبل، كما أنه لم يكن هناك زلزال في انكلترا منذ عام ١١٨٦، [بالأصل ١١٣٣] وهي السنة الثالثة، قبل وفاة الملك هنري الثاني، وكان قد أعقب وقوع هذا الزلزال عواصف مديدة من الأنواء، وبقسوة شتوية جاءت في غير وقتها، وببرد مزعج، وأمطار، إلى حد أن الفلاحين والبساتنة قد اشتكوا من أن الربيع قد تحرك عائداً نحو الخلف وتغير إلى شتاء، وشعروا بخوف عظيم بأن آمالهم بموسم جيد، وبوفرة لثمار الأشجار، وللحبوب، سوف تحبط، واستمرت هذه الحالة المزعجة للمناخ بدون انقطاع، لو لاستراحة هدوء يوم واحد، حتى عيد انتقال القديس بندكت Benedict.

موت الفارس فولك

حدث في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، أن مات في لندن فولك أوف نيوكاسل، الذي كان فارساً متميزاً، وهو ابن عم للملك، وبسبب أصله النبيل، جرى دفن جسده بشكل مهيب ومشرّف في كنيسة ويستمنستر، وكان ذلك بناء على أوامر الملك، الذي صدف وجوده هناك في أعقاب عقد البرلمان الذي تقدم ذكره أعلاه.

إلغاء المرسوم المتعلق بالأشخاص الذين يموتون من دون وصية

وتواترت الأخبار في هذه الآونة، وتحدثت عن فضيحة لم يسمع بمثلها، انتشرت في الخارج خلال مختلف البلدان، حول قيام الكرادلة بفرض المرسوم الذي ألغي، وهو المرسوم الذي كان قبل وقت قصير قد عمل من قبل البابا، بموجب محرض من الشره كان واضحاً تماماً، والذي حتى يضعه موضع التنفيذ، قد كلف الرهبان الفرنسيسكان أن يكونوا وكلاءه، وذلك في سبيل خسارتهم وفضيحتهم وإلحاق الأذى

بطائفتهم، وهذا المرسوم هو الذي ادعى البابا بموجبه المطالبة بممتلكات الأشخاص الذين كانوا يموتون من دون وصية، لاستخداماته الخاصة، ونجم عن هذا المرسوم إلحاق الضرر وتسبيب الأذى لكثير من النبلاء، وفي سبيل زيادة ذلك الظلم، أضيفت إليه فقرة جديدة، مضادة لجميع الشرائع، وللتقوى كلها، وجاء نص هذه الفقرة الإضافية كما يلي: «إنما إذا كان هناك رجلاً مريضاً، وكان على وشك عمل وصيته، وصدف أن منع من ذلك بوساطة ضعف مفاجيء، حيث صار بشكل واضح غير قادر على التعبير عن وصيته، وتوجب عليه تعيين واحداً من أصدقائه ليقوم بالتعبير عنها له، وليعمل بمثابة وكيل له، فإن مثل هذه الوصية لاتعدّ قائمة، بل ينبغي عدّها لاغية، ومثل تلك الشهادة تعدّ شهادة انسان غير أهل»، وعلى زبانية البابا ابتلاع جميع ممتلكاته.

اكتشاف مؤامرة خيانية ضدّ حياة البابا

في الوقت الذي كانت فيه ثورات الأيام تتقدم وتسير هكذا نحو الأمام، قام واحد من الفرسان الذين كانوا في خدمة فردريك، واسمه رالف، وقد كان في حالة غضب، لعدم تسلمه أجره من الامبراطور في وقت الاستحقاق، فتخلى عن خدمة سيده مع تهديدات، وكان هذا الرجل صاحب عقل صلب، وقوة جسدية عظيمة، وبارعاً في الحرب، وبما أنه امتلك الرغبة في إلحاق الأذى بسيده الأخير فردريك، ذهب إلى ليون بحثاً عن سيد آخر، يمكنه أن يخدم تحته مأجوراً في سبيل تحقيق فائدة أعظم، وذلك بحكم أنه لم يكن لديه مكاناً ثابتاً للاقامة، ولدى وصوله اتخذ مكان اقامة له مع مضيف اسمه رينالد، وصدف أنه بعد عدة أيام كان المعلم ولتر دي أوكرا، الكاهن الخاص والمستشار لدى فردريك، عابراً لذلك الطريق، وقد اتخذ مكان إقامة لنفسه في البيت نفسه، ولدى رؤيته للفارس المذكور رالف هناك، سلم عليه بحكم كونه

واحداً من معـارفه المقربين، وناداه لقربه منه ولمعـرفته به بالاسم، وسأله عما كـان يفعل هناك، ولماذا تخلى هكذا عن سيـده، الذي خـدمـه لمدة طويلة، ولدى معرفته بكامـل تفاصيل القضية، سأله المعلم وولتر عما إذا كـان قد وجـد سيـداً آخر، وعلى سـؤاله أجـاب قائـلاً: «لا، لأنني غير معروف»، وعندها قال له المعلـم وولتر «عد ياصديقي إلى ولائك، وإلى خدمـة مولاي، الذي هو بحـاجة مـاسة لمثلك من الرجـال، وأنا سوف أعيـد لك جميع مستحقـاتك، لابل إنني سـوف أضيف إلى ذلك المزيد»، وعلى هذا وافق رالف وهو مبتهـج، ووقتهـا قـال له وولتر:«إن مـولاي سـوف يعد نفسـه سعيداً، لـولا أنه أزعج، لابل بالحري هوجم من قبل عـدوه المميت، ومضطهـده الذي لايعـرف الكلل، أي البـابا، وإذا كنت ترغب، وكان بإمكانك أن تنهي حيـاته المجرمة، أنا سـوف أهيل الجوائز عليك، والذي وعـدتك به سـوف أفي به من دون احبـاط، ولسـوف أضيف ثلاثمائـة طالن Talents [وحـدة نقـد قـديمــة] إلى الموارد الكثيرة التي وعـدت بإعـادتها إليك، كل ذلك مع حظوة مـولاي، التي سـوف تكون مصـدراً لكثير من المرابح لـك، لأنه بهذا سـوف تنتهي مشاكل مـولاي، لابل هيجان العـالم كله سوف يهدأ، ولاتظنن أن هناك أي ذنب في هذا العمل، بحكم أن البـابـا الذي ينبغي أن يكون أسـاس الدين كله، والمثل الأعلى له، أصبح ممارسـاً للربا بشكل مكشـوف، وهو أتون للسيمونيـة، ومتعطش بسعيه وراء المال وسلبـه، وبلاطه هو سوق للدعارة، أو بالحري وكـر للداعرات والبغـايا»، وعلى هذا أجابه رالف: «إذا مـابرهنت على كلامك بأفعـالك، وسـوف تعوض علي، أنا سـوف أعمل الذي طلبتـه مني»، وبناء على وعـود المعلم وولتر، وتقييـد نفسـه باليمين، وافق عى اقتراف الجريمـة، حيث تمّ الاستيلاء عليـه والتحكم به بوسـاطة الهدايا التي قـدمت الآن إليـه، والوعـد بـالزيادة، وتمكنا بوساطة مغـريات مماثلة، بعد لأي من جعل مضيفهما رينالد، يوافق على هذه الخطة السرية، وكـان رينالد هذا معـروفـاً من قبل الحبر الأعظم،

ومن قبل خدمـه، ولكي يقدم موافقتـه ومساعـدته، قيدوه بأن يكتشف، بوساطة الاختبـاء متخفياً في مكان مـا، الوقت والمكان الذي من الممكن قتل البـابا به، وأن يتـولى تقديـم القاتل، وبعـد هذا غـادر المعلم وولتر، وبعد مضي عـدة أيام، أصيب رينالد المذكور بمـرض شديد، ووصل إلى حافـة الموت، ولدى ادراكه أنه بات على حـافة الموت، قـام أثناء اعترافه بإباحة هذه الأمور كلها إلى كاهنـه، وبعد هذا تاب، وأعد نفسه لمواجهة منيته، وقام الكاهن عى الفور بـاخبار البابا بهذا الخطر العظيم، وبسرعة جـرى بعث رسل، ومن ثم جـرى اعتقـال رالف المذكور، وقـد قـام في البداية بانكار كل شيء متعلق بهذا، بكل اصرار، لكن بعـدما تعرض إلى أشد أنواع العـذاب، تقيأ بسم الخيانـة التي تقدم ذكرهـا أعلاه، وكشف الحقيقة عن القضية إلى البلاط البـابوي كله، وأودعت هذه الأشياء كلها كتابة، وختمت بالختم البابوي، لإلحاق الضرر بفردريك، ولكي يفتضح أمره بشدة أكبر، ويدان.

كيف جرى اعتقال اثنين آخرين للجريمة نفسها

وجـرى في حـوالي الوقت نفسـه أيضـاً، اعتقـال اثنين من الفـرسـان الايطاليين، في ليـون للذنب نفسـه، وقـد اعترفا بعـد اعتقـالهما، بوجـود حـوالي الأربعين فارسـاً جريئاً، قـد تآمروا فيما بينهم وأقسمـوا على إنهاء حياة البـابا، وكان هؤلاء قـد قرروا أنه حتى لـو كان فردريك ميتـاً، لن يقلعوا خـوفاً من أية عقـوبة، حتى وإن كانت الموت، ولن يتـوقفوا عن تقطيع البـابا إلى قطع، لأنـه مثير الاضطراب للعـالم، والملوث للكنيسـة، وقـد آمنوا من دون أي تردد، أنهم إذا مـا نجحـوا بقطع عنق مثل هذا الانسـان، فإنهم يكونـوا قـد أنجـزوا عمـلاً مـرضيـاً إلى كل من الرب والانسان، ومنذ ذلك الـوقت حافظ البابا على الالتـزام بغرفتـه، وأبقاها محروسة بخمسين رجـلاً مسلحاً نهاراً وليـلاً، ولم يتجرأ على الخروج من غرفتـه أو قلعته، أو قصره، ولاحتى لمسـافة قصيرة للقيـام بقداس، لأنه

بات من الضروري أن يخشى من كثيرين، يخشاهم الكثيرون، وأن المثير المتاعب لكثيرين لابد من أن تثار له المتاعب بطرائق كثيرة مضاعفة.

حول البرلمان العظيم الذي عقد بفرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي منتصف الصوم الكبير، دعا الملك الفرنسي، بوساطة صك ملكي نبلاء مملكته بشكل عام، ورجال الدين والعلمانيين للاجتماع في بارلمان، ليقوموا بكل دقة بالبحث ببعض القضايا الصعبة، التي تتعلق بحالة المملكة، لأنه كان قلقاً حول حمله الصليب بنفسه ومن قبل نبلائه، وواجب ذلك العهد المهم الذي لايمكن خرقه، وقد أعلن أيضاً أنه تلقى أمراً من ملك التتار، لأن يخضع له، وقد تجرأ ذلك الملك المذكور، على دعوة نفسه، بفم مدنس، في رسالته «بالخالد»، وأنه قد أعلن أنه هو وأتباعه كانوا هم الذين قد كتب عنهم بأن «الرب قد أعطى الأرض لأبناء الناس»، وترك الملك الفرنسي —على كل حال— هذه القضية كلها إلى القدر الرباني، وقام بعد ذلك. في المقام الأول، بشكل حكيم وعقلاني، بترتيب جميع القضايا المستحقة والتي تستاهل الاهتمام، وهي القضايا التي أبدعها الخصوم بمكر الشيطان، أو بمكر الانسان، فقد توجب احباطها، وتقرر بشكل قاطع وترتب أنه مع نهاية عام من عيد القديس يوحنا المعمدان، ثم في العيد المقبل، سوف —إذا بقي حياً— ينطلق إلى حجه، مع أتباعه الصليبيين، حيث سيقوم باخلاص بالوفاء بنذره، وليقوم في الأرض المقدسة بعبادة آثار أقدام المصلوب، الذي أعاد إليه الحياة، وقد أقسم بشكل علني أنه سوف يفعل هذا، وجعل نبلاءه يؤدون القسم نفسه، وذلك مالم يقع حادث غير مرئي، لايمكن للضعف البشري تجنبه، بإعاقته وتأخيره، وقد أعلن أن كل من يعارض هذا المرسوم الصحيح، ينبغي أن يعدّ محروماً كنسياً، وعدواً معلناً، وعندما وصل هذا إلى علم الخوارزمية والمسلمين الآخرين المعادين للصليبيين في الأرض المقدسة،

وفي حالة حرب معهم، وإلى الذين خضعوا مؤخراً لطاعة المسلمين، قاموا بتحصين قلاعهم ومدنهم بقوة.

وقام الملك أيضاً، بعدما وجد أن المال الانكليزي، كان مفيداً جداً إلى التجّار، بعدة طرق من العمل، وبسبب أن المعدن قد تناقص كثيراً في القيمة، وأنه أفسد كثيراً من قبل السماسرة المزيفين الذين اسمهم «قصاص— المال»، بسبب هذا كله أصدر أمراً، أن أي نقد سوف يتم العثور عليه، من الآن فصاعداً، في مملكته، ليس له وزن قانوني، تتوجب على الفور إذابته، وذلك في سبيل أن لاتعاني التجارة ولاالتجار أنفسهم أية مشاكل بعد الآن، بسبب مثل تلك النقود المغشوشة، وكانت هذه أيضاً مسألة مخشي منها في انكلترا، بسبب التناقص الحاد في قيمة الأموال، ولقد قيل أيضاً، وتبين أن هذا كان صحيحاً، أن النقود كانت قد تعرضت للقص من حولها من قبل المختونين، واليهود الكفار، الذين انحدروا الآن —بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم من قبل الملك— إلى حالة التسول، وقد قيل بأن جرائم أخرى أيضاً، قد صدرت عنهم.

قيام سلام بين كنيستي درم وسينت ألبان

وتمّ في هذا العام أيضاً إعداد سلام بين كنيستي درم Durham, والقديس ألبان، حول مايتعلق بالزيارات التفقدية للكنيسة الأبرشية في دير التانيماوث، التي حولها نشب خلاف، في أيام نيقولا، أسقف درم، وجون الثاني راعي دير القديس ألبان، وهي مسألة جرى عرضها بشكل أوفى، وشرحت في كتاب Additaments, وسوف يتم أيضاً تقديم مثل آخر عنها، سوف تجده بعد عدة صفحات.

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وجد فردريك أن العالم يتشكى منه ويثور ضده، فقام بموجب مشورة حكيمة، فتلطف بمنح السلام إلى

الميلانيين، السلام الذي طلبوه منه مع خضوع حقيقي واحترام، فقد أرغم سكان المدينة بشكل ملح وعاجل على التماس ذلك بتذلل، بسبب المعركة الأخيرة، التي حوربت بينهم وبين كونراد بن فردريك، فقد نالوا الخسارة الجسيمة في هذه المعركة، وسقط عدد كبير منهم، وذلك إلى جانب الكثيرين الذين أخذوا أسرى، بوساطة الهجوم على ساقتهم من قبل كتلة من الرجال كانوا جالسين في كمين، وعندما وقعوا بالأسر، وكانوا على وشك وضعهم بالسجن، قام فردريك بحكم أصالته التي فطر عليها، فأظهر الصبر نحوهم، ودعاهم إلى الخضوع بالإحسان، بعدما أخفق في اخضاعهم بالقوة، وأصدر أوامر، عندما دخلوا إلى مدينتهم، بوجوب إغلاق جميع الطرق ضدهم، وبذلك أصبح سكان المدينة، بناء على ذلك، وهم الذين أسباب عيشهم تصدر عن التجارة، مطوقين، وكأنهم محاصرين، أو سجناء، لأنه لم يعد بإمكانهم المرور بحرية إلى الأسواق، أو الموانيء، أو إلى المدن المجاورة، دون التعرض إلى الخطر بأشخاصهم أو بمواشيهم، أو بمقتنياتهم، وبما أن كثيراً منهم قد عادوا الآن إلى ولائهم إلى مولاهم القديم والصحيح، فتح فردريك لهم صدر الرحمة، وهكذا بعد صراع طويل، وأضرار جسيمة، تمكن بالحكمة من استعادتهم، حتى وإن كان ذلك ضد إرادتهم، إلى وحدة الامبراطورية، وإلى سلام نافع لهم وكذلك له نفسه، ولم يعد الميلانيون منذ ذلك الوقت فصاعداً يزعجون أنفسهم، بالوقوف إلى جانب البابا، الذي خدعهم بوساطة وعود كاذبة.

موت اللاندغريف الذي انتخب ملكاً لروما

وخلال الصوم الكبير نفسه، ولكي لايخفق الزلزال الذي تقدم ذكره في تهديداته المهمة، فكر البابا، الذي عبثاً وثق بمبالغ الأموال الكبيرة جداً، التي سلبها من كل اتجاه، وكان قد اقترح ورغب في ترقية صديقه اللاندغريف إلى المرتبة الامبراطورية، وفكر الآن بترقيته إلى مرتبة ملك

ألمانيا، والقيام بشكل مهيب بتتويجه، من دون معارضة من أي واحد، غير أن كونراد بن فردريك، كان قد علم بهذا من قبل جواسيسه، وقد عرف بجميع التفاصيل والخصوصيات، فقدم فجأة مع جيش كبير، جمعه من جميع الأرجاء، ووصل إلى مكان ترتيبات البابا، حيث كان اللاندغريف على وشك التتويج، وحيث كانت جميع الإعدادات الضرورية قد عملت من أجل هذا الاحتفال العظيم، وخشية من كونراد المذكور من أن يدخل في صراع مشكوك به، وضع خمسة عشر ألفاً من جنوده في كمين، في مكان ليس بعيداً جداً، حيث يمكنهم وقت الضرورة، القدوم إلى مساعدته في الوقت المناسب، على صوت البوق، ومن دون توقع انقطع سرور الاحتفال، وأعقب ذلك معركة كانت الأكثر عنفاً ودموية، وفي بدايتها فقد كونراد كثيراً من أعظم النبلاء من أتباعه، لأن ثقل القتال تحول ضده، لكن عندما بات الخطر عظيماً بتعرضه إلى الاضطراب، أعطيت الاشارة على سرعة، وجاء الجنود المتشوقين الذين كانوا ينتظرونها في موضع الكمين، وقدموا «مسرعين مثل سرعة الريح»، وبرجولة دخلوا إلى المعترك، وقاتلوا العدو الذي كان على وشك الحصول على النصر، وقتلوا كل الذين تصدوا لهم بحد السيف، ولدى وصولهم تنفس كونراد الصعداء بحرية:

وبسرعة هدأت روح

الذي بحرية شرب الإناء

وتجدد صراع الحرب الآن، وبدا أن الهواء نفسه قد انزعج بقرع السلاح، وبطعنات الرماح، وبضربات السيوف، وبصهيل الخيول، وبصراخ المتصارعين يحثون بعضهم بعضاً، وببكاء الجرحى، وأنين الذين كانوا يموتون، وتصاعدت سحب من الرمال، وانصبغ النهر من الأجساد النازفة، ومن جداول الدماء، وكان القتال شديداً وقاسياً إلى حد أن الألمان الذين كانوا مع اللاندغريف، لم يعد بإمكانهم الصمود،

وتخلوا عن القتـال، وهربوا بشكل مهين، أو أصيبـوا بجـراحـات مميتـة، ووقـع كثير منهم بـالأسر، حيث ألقـي بهم بالسجـن حسب رغبـــة أعدائهم، وأعقب ذلك مذبحة مـريعة، وذلك بعد خسارة لاتعوض من الدماء المسيحيـة، وقام اللاندغريف بالفـرار، وحمل نفسه إلى مكان آمن، حيث تلاشى هناك حـزنـاً، وتحقق الآن إلى أبعـد الحدود كـلام ثاديوس نائب فـردريـك، الذي قـاله في مجمع ليـون، عندمـا زجر البـابا بقـرار الحرمان الكنسي ضد مولاه حيث قـال: «واأسفاه، واأسفاه، حقاً إن هذا اليوم هو يوم الغضب، يوم التعاسة، ويـوم المأساة»، فاللاندغريف الذي كان حسب تقديراته سوف يتوج في الغد ملكاً على ألمانيا، قد شاهد الآن كيف تبـدل مجده إلى اضطراب وغارٍ، فقد انهزم أقـرباؤه وأصدقـاؤه مع أتباعهم وقتلوا، والمال الذي سلف وأرسـل إليه من قبل البابا، قـد أخذ منه من قبل أعـدائه، وقـد أصيب بالحزن حتى القلب، ففقـد شجاعتـه، وأصيب ليس بضربة غريبـة، بل فقط بوساطة أسـاه، ولفظ روحه، دون أن يبكيـه أحد، وامتلك كـونراد الآن الرغبـة بعمل انتقام كـامل للأذى والخسارة التي عانى منها في قتاله الأخير، بعـدما هزم في ألمانيا، فقام إما بشنق جميع الأسرى بشكـل شـائن، الأسرى الـذين نجـوا من السيف، وبشكل خـاص أقـرباء وأصـدقـاء اللاندغـريف، أو أمـر بهم بالسجن بالأغلال، في سبيل فدائهم مقابل مبلغ كبير».

البابا يرسل أربعة كرادلة نواباً بابويين إلى جميع مناطق أوروبا

ولدى سماع البـابا بهذه الحوادث استولى عليه الحزن، وقهـره الأسى، فأرسل أربعة من الكرادلة، بمثابـة نواب بابويين للتجول في جميع أرجاء العـالم المسيحي، من أجل الإســاءة إلى فـردريك المذكـور، والتشهير به، وبابنه كونراد، لأنه تجرأ فأقـدم على تلك الإجراءات، ومن أجل تشجيع جميع المسيحيين، بوســاطة التحليل من الذنـوب، بمهــاجمة فــردريك المذكور، ومضايقته، وإذا أمكن سحقه، وأيضاً لكي يسعوا بوساطة جميع

الطرق التي كـان فيهـا البـلاط الرومـاني بارعـاً تماماً، وبدهاء الشره، وبشراهة الدهاء، لإستخراج المال، من أجل اخضـاع فردريك الممقوت، وبناء على هذا، أرسل واحـداً منهم إلى ألمانيا، وأرسل الثـاني إلى إيطاليا، وأرسل الثالث إلى اسبانيـا، وأرسل الرابع إلى النروج، كل هذا بالاضافة إلى الآخرين من النواب البابويين البـارعين، المزودين بصلاحيات كبيرة، الذين أرسلهم بشكل سري إلى انكلترا من دون شاراتهم الرسمية، حتى لايبـدو أنه كان يتجـاوز امتياز الملـك، وكان مع هؤلاء وبينهم الرهبـان الفـــرنسيسكان والـدومينيكان، الذيـن عملهم لم يكـن من دون إلحاق الأذى والفضيحـة بطائفتهما، جبـاة للضرائب، ورجـال مـراسم، وكـان النائب البـابوي الذي أرسـل إلى النروج، هو أسقف سـابينا Sabina, وقـد أرسل أيضـاً ليمسح وليتـوج هاكـو Haco ملك النروج، وليمارس أعمال النائب البـابوي في تلك البـلاد، وفي بـلاد السـويد، ولإلحاق الأذى بفـردريك المتقـدم ذكـره، لكـن ليس من دون توقعـات كبيرة للربح.

كيف جعل فردريك الأبولين والصقلين والكلبريين يقدمون الولاء لابنه هنري من إيزابيلا

وفي الوقت نفسه، قام فردريك صاحب الذكرى المشكوك بها، والذي محظور علينا أن نـدعـوه امبراطوراً، بجعـل جميع الأبولين، والصقلين، والكلبريين، يقـدمـون الولاء إلى ابنه هنري، من زوجتـه المحبـوبة، الامبراطورة إيزابيـلا، أخت ملك انكلترا، وعندمـا سمع بذلك الأخير، أي خال الصبي، كان مسروراً كثيراً، ولم يكن ذلك من دون سبب جيد.

وعندما سمع فـردريك، بأن النواب البابويين المذكـورين، قد أرسلوا إلى مختلف أرجاء العـالم، لإلحاق الأذى بسمعته وبمكانتـه، أرسل رسالة إلى ابنه هنسيـوس Hensius, ملك سردينيـا، بأن ينصب المصـائـد

للجنويين، لابل حتى أن يقـدم على قتلهم، ولاسيما آل البـابا، وأقربائـه، وأصدقائـه، وقام هذا بتنفيذ ذلك بشكل فعال، وذلـك حتى يظهر نفسه مطيعـاً لوالده، ونتيجة لذلك اعتقل وشنـق أقرباء البـابا المقربين، وكـان واحـداً منهم، قـد أحبه —مع أنه أحـب الجميع بلاحدود— قـداستـه، وقدّره بعـاطفة أعظم مـن البقية، وعندما سمـع البابا بهذا الإجـراء كان غضبـه بلا حـدود، فقـام في يوم الإعداد، فحـرم كنسيـاً فـردريك وابنه هنري، مع شجـب مـرعب، إلى حـد أنه ألقى الرعـب في قلوب جميع الذين رأوه وسمعوه، وعندمـا سمع فردريك بذلك تنهـد وقال: «هكذا فعل اليهـود الذين صلبـوا المسيح، فبعـدمـا تعـرض للصلب، طعنوه برمح».

قوانين جديدة عملها ملك إنكلترا

حـذا في هذا العـام الملك الانكليـزي حـذو البـارونات، الذين سنوا قـوانين في فرنسـا، وكـان ملك تلك البلاد، قـد أعطى مـوافقته عليهـا، ووضع عليها ختمـه، فعمل القوانين التـالية، التي توجبت مـراعاتها من دون إحبـاط، في جميع أرجـاء انكلترا، في سبيـل وضع بعض الضـوابط لشره البلاط الروماني المستمر.

فقد منع الملك النظـر في جميع قضايا نقض الوعـود والحنث بالعهود، عندمـا يجري دعـوة العلماني للمثـول بمثل هذه القضـايا أمـام قـاض لاهوتي، وتمّ منع القضـاة اللاهوتيين من إجراء أية محاكمـة ضد علماني، إلاّ في قضـايا الزواج أو الوصـايـا، وكـانت احـدى المواد التي وضعهـا الملك حديثـاً، للأساقفة، هي صيغـة تتعلق بالأبناء غير الشرعيين، سواء أولد الطفل قبل الزواج أو بعده، وجـرى منع الكهنة، بموجب مـذكرة ملكية، من عرض أعمالهم المتعلقة بالعشـور، أمام قاض لاهوتي، ووضع في تلك المذكرة تعريفـاً يتعلق بالأيمان التي تؤخذ من الكهنة، بألاّ تؤخذ أمـام رجـال العدالة الملكيين، لأن من المفهـوم أنهم يسيرون بإجـراءات

قضـايـا تهمّ بشكل معـاكس لتحـريم الملك، وكـذلك لأن الكهنة غير ملزمين بحلف أيمان، إلاّ أمـــام قــاض لاهوتي، ولاسيما في القضـــايا الروحية، وكان هناك بند يتعلق بقضية الكهنة، الذين تولى موظفو الملك وضعهم بالسجـن، على أسـاس تقـرير جلب ضـدهم مـن قبل رجل علماني.

كيف أقيم السلام بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان

وأنهي في هذا العـام الخلاف الذي كان قـائماً بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان، وفق الشروط التالية:

«إلى أبناء الكنيسة الأم العـالمية والمقدسـة، إلى جميع من سوف تصلهم هذه العروض، مـن مايكل رئيس شمامسـة ستو Stow, وهو قاض مناب من قبل مولانا البابا، ومن نيقولا مستشار لنكولن، الذي هو نائب مفـوض لرئيس شمامسـة نورثأمبتون، وقـاضي وزميل لرئيس الشمامسـة المذكور، صحة في الرب: ليكن معلوماً من قبل الجماعة كلها، بأن قضية عرضت أمامنا من قبل السلطات الرسـولية —خازن لنكولن، واحد منا القضاة الثلاثة، قد قبل عذره تماماً— بين الأب المبجل نيقولا، الذي هو بنعمـة الرب أسقف درم، باسم كنيسته في درم، من الجهـة الأولى، وبين جون، الذي هو بالنعمة نفسها راعـي دير القديس ألبان، ورهبان المكان نفسه، ورئيس التجمع الرهباني في التاينماوث، باسم دير التاينماوث، من الجهـة الثانيـة، وذلك فيما يتعلق بالزيارات التفقـدية للكنيسة الأسقفيـة للتاينماوث، والطاعة المفروضة من قبل الأسقف نفسه، والمستخرجة من رئيس رهبان التاينماوث، والكنائس الأسقفية الأخرى في أبرشيته، والتي هي بأيدي رهبـان التـاينماوث، أخيراً بناء على مـوافقـة الهيئة الكهنوتيـة لكنيسة درم، وجلـب الصراع إلى صيغة مصالحة أبديـة كما يلي: أن تقول بأن أسقف درم المتقـدم ذكـره، وخلفـائـه، إمـا بأنفسهـم، أو بوسـاطة مــوظفيهم، ســوف يمارس تلك الوظيفــة، في ذلك الجزء من كنيســة

التاينهاوث، التي تقام بها القداسات، لصالح الأبرشيات، من دون فرض لأتاوات، وعلى شرط أن لايقحموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال، بين الرهبان، أو في أي جزء آخر من الكنيسة؛ ولا حتى في الخلوة نفسها، باستثناء في جميع الحالات، الامتيازات الأخرى والغفرانات الممنوحة إلى الرهبان المتقدم ذكرهم، لكن تعيين رئيس خلوة التاينهاوث وعزله هو من قبل الراعي المتقدم ذكره، أو إذا كان كرسي راعي الدير شاغراً، يجري ذلك من قبل رئيس رهبان دير القديس ألبان، مع موافقة هيئته الرهبانية، وفقاً لفحوى امتيازاتهم، وعلى الذين سوف يجري تعيينهم الذهاب إلى الأسقف، وأن يقدموا له، وأن يتعهدوا بالوقت نفسه بطاعة قانونية له، مع الاحترام للكنائس الأبرشية، وبقدر ما تسمح الامتيازات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، على شرط هو أن رؤساء رهبان التاينهاوث، سوف لن يجري —بحجة تلك الطاعة— استدعاءهم من قبل أي مجمع، أو هيئة كهنوتية، أو أي تجمع لاهوتي، بما يتعارض مع فحوى امتيازاتهم، ولسوف يجري تعيين القساوسة في كنيسة التاينهاوث بالتوالي من قبل رئيس الديرة، والتجمع الرهباني للتاينهاوث، مع موافقة راعي ديرهم، وسوف يقدمون إلى الأسقف المتقدم ذكره وإلى خلفائه، والذين جرى قبولهم سوف يجيبون الأسقف المتقدم ذكره في المسائل الروحية، ويجيبون الرهبان المذكورين في المسائل الدنيوية، وكشهادة على ماتقدم، وعلى هذه الوثيقة، التي كتبت بشكل قانوني صحيح، أي أن تقول، بالنسبة للحصة التي تركت مع راعي الدير المتقدم ذكره ورهبان دير القديس ألبان، ورئيس ورهبان التاينهاوث، وبالنسبة للحصة التي تركت بأيدي كنيسة درم، قام الأسقف المتقدم ذكره، والهيئة الكهنوتية لدرم، وراعي دير القديس ألبان، ورهبان هذا الدير نفسه، ورئيس رهبان، ورهبان التاينهاوث، قام كل واحد منهم بدوره فوضعوا أختامهم، مع أختامنا. أبرم في عام ألف ومائتين وسبعة وأربعين لتجسيد ربنا، بحضور الأسقف المتقدم ذكره

أعـلاه، وكـذلك راعي الدير، وكـان أيضـاً حاضراً: رعـاة النيـومنستر، ورؤسـاء شمامسة نونتغهـام، والقديس ألبـان،، وشروبري، والمعلم هوغ دي ستــانبردج Stanbridge, والمعلم وليم دي بورغ Bourg, والمعلم أودو أوف كيلكني Kilknny, والمعلم جـون الذي كـــان فرنسياً، وعدد كبير آخر».

فرض الأتاوة البابوية من قبل إنكليزي فرنسيسكاني اسمه جون

في العام نفسه، عند بداية الصوم الكبير، أي أن تقـول بعد عيد إعدام القــديـس يوحنا المعمــدان، وصـل إلى لندن، واحــد من طـائفــة الفـرنسيسكان، اسمــه جـون، وهو الذي تقـدم ذكــره في الصفحـات الماضية، وهو الذي استخـرج مائـة مارك من راعي دير القـديس ألبان، بموجب السلطة الرسولية، وبسبب أن الراعي المذكور تقدم بالتماس إلى الكرسي الرســولي، وإلى الكرادلة، حــول ذلك الظلم الـذي لايمكن تحمله، صار الآن الحامل لـولايات جديدة، تم الحصول عليهـا من ذلك الكرسي الرســولي، وذلك وفقــاً لرغبــاته، وبناء على سلطـات الولاية الجديدة هذه، استدعى الراعي المذكـور، وطلب منه القدوم إلى لندن، في اليوم الثالث مـن ذلك التاريخ، أي في اليوم التالي لعيد القـديس جايل، أو أن يرسل نائبـاً قـديـراً، لديه تعليمات كـاملة حـول القضيـة، ليتـولى ترضيته، أي ترضية جون المذكور، حول قضيـة إعانة مالية، جرى طلبها من قبل البابا، منذ زمن طويل مضى، وبناء عليه، أرسل راعي الدير، في اليـوم المحدد، رئيس شمامستـه بمثابة نائب له، والذي طلب على الفـور نسخـة عن الولاية الجديدة، وقـد حصل عليهـا بعـد بعض المصـاعب، وتولى نسخها، حيث جاء نصها كما يلي:

«من أنوسنـت، أسقف، إلخ، إلى ابنه المحبــوب، جــون راعــي دير القـديس ألبـان، في أسقفيـة لنكولـن، صحـة ومبـاركـات رسـوليـة: إن حـوادث الاضطهــاد اليـومي ترغمنا بقســوتها، وفي مقـاومتنا لها، على

اللجـوء إلى عـون الذين هـم رعيـة لنا، لنجـدة الكرسي الرسـولي، وبناء عليـه، إننا بمـوجـب نصيحـة إخـوانـا نسألكم، ونـنـذركم، ونحثكم، وبوسـاطة هذه الكتابات الرسـوليـة نأمركم، بأن تمنحـوا ثقة كـاملة إلى ولدنا المحبوب كثيراً جون، الذي هـو انكليزي، وهو المسؤول الاقليمي للرهبـان الفـرنسيسكان في بروفـانس، وهو الحامل لهذه العـروض، ورسـولنـا، وهو الذي سيبين لكم باسمنا مـايتعلق بالمساعـدة الماليـة المطلوبة إلى الكرسي الرسـولي، وانتبهـوا إلى أن الكنيسـة بهذه المقـاومـة، تدافع عن المصلحة العـامة لجميع الكنائس، ولرجـال الكنيسة، وعليكم أن تفعلوا كل الذي سـوف يبينه لكم، فبـذلـك يمكن اعطاء الرضـا لنا وإلى إخواننا، ويمكـن أيضاً أن يظهر إخـلاصكم بهذا العمل، الذي هو أفضل وسيلة للبرهنة على الصدق. صدر في ليون في هذا الثاني عشر من تشرين الأول، في السنة الرابعـة من حبريتنا»، وبوسـاطة سلطات هذا الراهب جون، التي فرضها على أولئك الوكلاء بالظهور في اليوم الثامن من ذلك الموعـد، طلب منهم في المكان الذي ظهروا فيـه بشكل رسمي أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائـة مارك، وإلاّ فهو سوف يتولى تنفيـذ أمر البابا بحرمـانهم كنسياً، وبتعليق كنائسهم من شراكة المؤمنين، فأجـابه الوكلاء بأن راعي الدير كان على وشك ارسال رسله الخاصين إلى البابا، بغية أن يوضحـوا له المظالم، ولكي يرضـوه وفقـاً لإمكانات كنيستـه، والذين خـاضعين له، دون التنازل —على كل حـال— عن الالتماسـات التي صنعت من قبل، ووقعت هذه الأحداث عندما كـانت السنة قد تقدمت كثيراً، وبذلك فإن عـرضنا المنظم للأحداث قـد اضطرب بعض الشيء، لكن كنا مكـرهين على ذلك، لأنه حيث يكن هنـاك ألم، من المؤكـد أن تقوم الاصبع بالاشارة إليه.

ازدياد سلطة الراهب جون بسبب التفويض البابوي

مع ازدياد يأس الانكليـز وأذاهم، ازدادت سلطات الراهـب جـون

المذكور، وقد جرى حثه من قبل البابا على القيام بضغوط أكبر لدفع الأتاوات، بوساطة الرسالة التالية:

«من أنوسنت، إلخ: تقديراً منا للمسائل التي أبلغتني عنها برسائلك، نحن نأمرك بوساطة سلطة هذه العروض، حول مسألة تزويد الكنيسة الرومانية بالمساعدة المالية، التي تم طلبها من قبلك بموجب سلطاتنا، لوحظ من ردود أكثرية الأساقفة اللاهوتيين الانكليز بأنهم معفين ومحررين منها، عليك أن تجعلهم يدفعون لك الذي سوف تختاره، وفي مدة موائمة، أي أن يدفعوا المبالغ الأكبر من المال من أجل المساعدات التي طلبتها منهم من قبل، واضبط جميع المتمردين بوساطة الروادع الكنسية، مع إلغاء جميع الالتماسات، وبدون الاهتمام بأي من الامتيازات، أو الاعفاءات، مع أن هذه العروض لم تقم بذكرهم. صدر في ليون، في اليوم السابع من تموز، في السنة الرابعة من حبريتنا».

وكل من يرغب أن يرى السلطات السالفة الذكر التي منحت للراهب جون، يمكنه أن يعثر عليهم في كتاب الرسائل [من تصنيفنا].

خوف رجال اللاهوت وخشيتهم من فقدان ممتلكاتهم

عندما بلغ العلم إلى كثيرين، بأن هذه الاستخراجات الاجبارية المتوالية قد مورست من قبل البابا ومن قبل نوابه المجربين والمنحرفين، وأن امتيازات وغفرانات واعفاءات الآباء المقدسين كانت بلا فائدة للدفاع عنهم، باتوا في خوف عظيم، لأنهم خشيوا من أن يقوم العلمانيون والأمراء المدنيون والنبلاء، الذين تولى أجدادهم تقديم عطاءات إلى الكنائس وأغنوها، حيث كانوا قد أنقصوا ممتلكاتهم، وأعطوا صكوكهم حول ذلك، من أن يقوموا الآن بسبب ما أقدم عليه البابا، باسترداد امتلاك مقتنيات الكنائس، ذلك أن البابا قد قام هو وأتباعه الذين اختارهم، باللامبالاة، بفحوى الامتيازات، ولاسيما

سلوكــه المخـالف لنـوايا المؤسسين، ولقـد استعــان البــابا بالايطاليين وبالأجــانب الآخـرين الذيـن سمنوا على منح المؤسسين، في حين بات أهل البلاد جائعين.

ظلم لم يسمع بمثله

وعندما رأى أعضـاء التجمع الكهنوتي للكنيسة المذكـورة، أي كنيسة القـديس ألبان، أنهم معـارضون من جميع الجهـات، تقدمـوا —بناء على نصيحة راعي الـدير— بالتماس إلى الكرسي الرسولي، الذي كـان واجبه تحرير المظلومين من أعبائهم، وأرسلوا واحداً من رهبانهم، واسمه جون بـولـوم Bulum والمعلـم آدم دي بيرن Bern, إلى الكـــرسي الرســولي، أي إلى ليـون، لكن قبل أن يعــودوا، سلم الراهب جــون المذكور، ولاية إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«إلى جـون المبجل، الذي هو بنعمة الـرب، راعي دير القديس ألبـان، يرسل جون، رسول مولانا البابا في انكلترا، تمنيات الصحة في الرب: مع أننا كتبنا الآن إليكم مـراراً، لقـد تلقينـا أمـراً حتميـاً بأن نفعل ذلك، ولذلك قـررنـا أن نكتب إليكم مرة أخـرى، وبناء عليـه، نحن نطلب منكم، وننصحكم، وبموجب سلطات مـولانا البابا نأمركم، أن تقـوموا بمـوجب فضيلة طاعتكم، بإزالة جميع الاعتـذارات وأن تقدمـوا في يوم الثلاثاء المقبل، قبل عيد القديـس توما الرسول، إلى بدفورد Bedford, إلى بيت الفرنسيسكـان هناك، لتقديم ترضيـة كاملة، من أجل المسـاعدة المالية إلى الكنيسة الرومـانية ويتوجب عليك العمل بطريقـة لانجد معها أنفسنا أنه من الضروري اتخاذ إجـراءات، نحن غير راغبين بها، متماشيـة مع محتـويات الولاية المتقـدم ذكرها، وعليـك عدم التفكير بأن لاتقـدم، على أساس **الالتماس الذي عملتموه، لأننا تلقينا أمـراً خاصاً، فيما يتعلق** بذلك. وداعاً. **إن الـذي تنوي فعله بالنسبة لهذه القضية، أرسلـه برسالة ايضا لنا، لإخبارنا، بوساطة حامل هذه العروض».**

-٧٧١٠-

الالتماس المرفوع إلى البابا

وبناء عليه تم عمل التماس لرفعه إلى البابا، لأن راعي الدير، وكذلك التجمع الرهباني، فضلوا سلوك طريق الاحتكام إلى أفضل رجال البابا، على الرضوخ والوقوع تحت قبضة التذلل والفقر المخفية لمثل هذه القسوة الحادة، لكن خلال الوقت الذي أرسل فيه الرسل إلى البلاط الروماني، في أسبوعي عيد القديس ميكائيل، تهددهم المعلم جون، وضغط عليهم بشدة أعظم، وبناء عليه أرسل إليه رئيس شمامسة القديس ألبان مع بعض الرهبان، لتلطيف قسوته، لكنه أجاب بأنه سوف يمارس أشد أنواع العدالة، وأقصى ماتسمح له سلطاته، لأنه عندما كان في دير القديس ألبان، لم يقدم له الرهبان الاحترام اللائق به كنائب بابوي، أو حتى رسول بابوي، لابل إنه بالحقيقة تعرض لملامة بعضهم، لأنه خرق أحكام طائفته، ولأنه غيّر زيه، مع أنه استقبل باحترام وأدب بما فيه الكفاية، فيما يتعلق بمأكله ومشربه، مع كلام ناعم ومستقيم، ثم إنه مع شيء من الصعوبة، وعلى ركب جاثية، وبكلام استعطاف، حصلوا أخيراً على فرصة، إلى أن يتم سماع ما هو مؤكد من الرسل الذين أرسلوا إلى روما، وفيما يتعلق، بمسألة نجاح عملهم هناك، أكد الراهب جون لهم بأنهم لن يحصلوا على أي شيء مفيد أو نافع، لأنه قد كتب إلى البابا مثيراً غضبه، ومعلناً بأن راعي دير القديس ألبان، كان الوحيد بين جميع رعاة الديرة في انكلترا، الذي تحرك ضد الولاية البابوية وهو سوف لن يطيعها، وهذا أمر واضح وجلي بوساطة ارساله رسله إلى البابا، ولهذا السبب واجه الرسل الذين بعثوا إلى بلاط روما كثيراً من المثبطات، والمعيقات التي رميت على طريقهم، وتأخروا كثيراً في البلاط، ووجدوا المزيد من المصاعب في انجاز أعمالهم، وتمكنوا أخيراً عن طريق وساطة بعض الأصدقاء المرتزقة والمستأنفين في ذلك البلاط، من الوصول إلى تسوية للقضية، ودفعوا غرامة مائتي مارك إلى البابا،

وهكذا إذا حسبنا الهدايا والنفقات التي ابتلعها نهم ذلك البلاط الذي لايعرف الشبع، نجد أن الجميع صار ثلاثمائة مارك، لكن حدث أن كنيسة القديس ألبان التي كان من المتوجب أن تتنفس الآن بحرية أكبر وبسلامة أعظم، تحت الحماية الخاصة للجناحين البابويين، أكثر من الكنائس الأخرى، حدث أن تعرضت لمزيد من المضايقة، وبحدة أكبر، بوساطة مظالم مستمرة، صدرت عن الأساقفة، الذين كانت ديرتنا موجودة في أسقفياتهم، فهم لم يروا أن الرسائل البابوية لها فعالية، وقاموا بمضايقة رؤساء رهبان الديرة، حيث لم يقدروا، أو بالحري تعاموا وأظهروا أنهم لايعرفون محتويات الرسائل، التي عبرت بكل وضوح، أنهم كانوا معفين من دفع ضريبة الأحد عشر مارك، المتقدم ذكرها، واحتفظوا كذلك بثلاثة محاسبين، ليقوم البابا وحده بافقارهم، ولقد جرى تقديم محتويات هذه الرسائل في كتاب الـ Additaments, وأخيراً أمكن ضبطهم بمحتويات تلك الرسائل، وبرسائل من الراهب جون المذكور، فأقلع الأساقفة، وتوقفوا مكرهين، عن الاستمرار عن ظلم الديرة، لكنهم —على كل حال— لم يعيدوا الذي سلبوه منهم من قبل.

حول دعوة نبلاء إنكلترا إلى بارلمان

وفي هذه الآونة، عندما وجد الملك أن مملكته كانت عرضه إلى خطر عظيم، أمر باجتماع جميع نبلاء المملكة في اكسفورد، في اليوم الذي ينشد فيه Quasinodo geniti, لبحث أحوال القضايا في وضعها الخطير الحالي، ودعا إلى هذا البارلمان بشكل خاص وبدقة الأساقفة، بسبب أنه رأى أنهم تعرضوا للافقار بشكل مستمر بوساطة أتاوات البابا، ولأن أموال انكلترا غالباً مانقلت منها إلى الخارج، في حين لم تتحقق أية منافع للكنيسة من جراء ذلك، بل إنها كانت مصدر خسارة وإضرار، ولهذا السبب فإنهم عن حق اعتقدوا بأن تلك

الأتـاوات قـد سببت أعظم الازعـاج الممكن إلى الخالق الأعظم، وقـد أملوا مع أعظم الثقـة بأن يكون من الممكن في هذا البـارلمان التوصـل إلى بعض المقـــررات، لكن الـذي حـــدث هـو أنه مـع أن بعض الأساقفــة، كانـوا قد قرروا من قبـل معارضة الاسهام المتقـدم الذكر، قـاموا كلهم، باستثناء رعـاة الديرة المعفيين، والمحاسبين الثـلاثة، في هذا المؤتمر، فـوافقـوا على الاسهام بأحـد عشر ألف مـارك، وبهذا الامتيـاز جعل المحـاسبون أنفســهم هنا عـرضة للشك والريبـة من قبل المملكة كلهـا، ثم جـرى دفع المال المذكـور، وقـد تسلمــه أسقفـا وينكستر ونورويـك، اللـذان كانا مسلحين بالسلطة البابوية، وأرغـم رجال الدين على دفع الشيء نفسـه كاملاً، وبات رعـاة الديرة المعفيين عـرضة لإرادة البابا، الذي أظهر قليلاً من الرحمة نحـوهم، بل أنهكهم بخسائر متوالية، وبأضرار مستمرة، بوسـاطة نيابة الراهب جون، حسبما تقـدم الذكر، كما أنه لم يظهـــر أي لطف زائـد نحـو راعـي دير القـديس ألبــان، نتيجـة لإرســاله له ثمـانين مـاركـاً في العـام الأخير المنصرم، وروعيت أيضـاً مخاوف من أن يقوم الملك نتيجة الاذن المتبادل، والتوافق بينه وبين البابا، بارغام الكنيسة والمملكة بالاذعـان لهذه الأتاوة، حيث أن البابا قد كتب مـؤخراً إلى نبـلاء انكلترا لصـالح الملك، ليرفع من شأن قضيتـه في جمع المال.

إرسال رسل إلى برابانت

وجـرى في هذه الآونة إرسـال راعي دير ويستمنستر، والمعلم جـون مونسيل Maunsell بمثـابة رسولين من قبل الملك إلى ألمانيـــا، ليقومـا بترتيبات أوليـة مع دوق بـرابـانت، لعقد زواج بين ادوارد ابـن الملك، و بين ابنة الـدوق المذكـور، وبسبـب بعض المعيقـــات السرية عـادا آسفين، وخاليي الوفاض، وكان كل واحد منهما حزيناً، لأنه تعب من دون فائدة، وكذلك لما أنفقه.

-٧٧١٣-

البابا يتدبر انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً لألمانيا

اشترى البابا في هذه الآونة، بوساطة مبلغ المال الكبير الموعود، الذي استخرجه من جميع الأرجاء، وجمعه من أجل تدمير فردريك، انتخاب وليم كونت هولاندا، وكان رجلاً في مطلع حياته وقوته، ومن أصل مشهور، إلى منصب ملك ألمانيا، وكان الكونت المذكور وأسقف لييج أبناء عم (خال؟)، وكان دوق برابانت عمه (خاله؟)، وكان رئيس أساقفة كولون صديقه القريب كثيراً، ومتحالفاً معه بوساطة بعض المصاهرة، هذا وكان البابا قد قدّر، انه بانتخابه لاندغريف ثورينجيا،، الذي مات فجأة، كما ذكرنا من قبل، قد فقد مبلغاً كبيراً جداً من المال، وكان بالحقيقة مدهشاً إلى درجة أنه يسبب العجب إلى عقول الذين سمعوا به (لأنه لم يكن بالحقيقة أقل من خمسين ألف رطلاً من بنسات البندقية، التي كل واحد منها يساوي ثلاثة أرباع بنس استرليني، وجميع هذه الأموال وقعت تحت سلطة أعدائه)، ولذلك سعى الآن لتدبر القضايا بحذر أكبر، وبناء عليه أرسل المال الذي وعد به إلى الملك المنتخب حديثاً، أي الكونت وليم على أيدي رسل عقلاء، لم يشك بهم ولم يرتب، وقد عيّن الكاردينال أوكتافيانوس Octavianus لمتابعة تنفيذ هذه الأعمال، وأرسل أيضاً رسلاً استشاريين إلى الميلانيين، والبارميين Parmese, وإلى آخرين اعتقد أن قلوبهم متقلبة، وحرضهم على التخلي عن جميع مشاعر الثقة والأمل، ولكن بما أن بهجة هذه الدنيا لايمكن أن تأتي غير مزيجة بالأحزان، كان هناك كونت سافوي، الذي كان عدواً مكشوفاً للكنيسة، وكان منتظراً تحت خداع التظاهر بالسلم، حتى قضي على رسل البابا، الذين كانوا مرافقين بجنود، بالمرور خلال الوديان وأن يجتازوا الممرات الصعبة للجبال، وقد سمح لهم بفعل ذلك دونما أذى، ولكن عندما بات تراجعهم ووسائل نجاتهم قد قطعت، حدث هكذا بشكل خياني، أن تم فقدان المال

البابوي، والجنود الذين تسلموا إلى جانب متأخرات مدفوعاتهم، مبلغاً كبيراً من المال مقابل عطاء شهرين سلفاً، هؤلاء الجنود تفرقوا، وأرغموا على الفرار، وهكذا حدث ثانية، وبشكل مهين بما فيه الكفاية، أن جميع الموارد جرى تحويلها لصالح استخدامات العدو.

وفي العام نفسه حصل الرهبان الدومينيكان على امتياز من البابا، قضى بعدم السماح إلى أي واحد من رهبانهم بالانتقال من طائفتهم إلى أية طائفة أخرى، وأنه لايجوز لأي راعي دير أو رئيس رهبان استقبال أي من هؤلاء الرهبان، مع أنهم أنفسهم استقبلوا رهباناً متخلين عن طوائفهم، وهذا الإجراء —كما هو واضح— لايتماشى مع المنطق، ومخالف لنظام القديس بندكت، وكذلك إلى القاعدة الطبيعية التي تقول: «لاتعمل مالا تتمناه أن يعمل لك»، وحدث أيضاً أن كثيراً من الأشخاص، كانوا متميزين لأخلاقهم ولعلمهم، ولأصلهم الطيب، كانوا قد انسحبوا من هذه الدنيا، إلى طائفتهم، لكنهم وجدوا أن ذلك ليس شكل الدين الذي أملوه، بل وجدوا العالم بطوله وعرضه، عوضاً عن الدير (خاصة وأن القديس بندكت قد شجب في مطلع أحكام نظامه ذلك النوع من الرهبان الذين قاموا يتجولون حول البلاد) ولذلك بدأوا يأسفون ويحزنون لأنهم دخلوا إلى مثل هذه الطائفة، وبحثوا عن ذريعة تمكنهم من التحول إلى اتجاه معاكس، ولهذا السبب، فإن الأشخاص الذين يعدّون الأعظم في طائفتهم، هم الذين يرعون الطريق الوسط والمعتدل.

كيف جاء بعض النبلاء إلى إنكلترا لطلب هدايا من الملك

ووصل في هذه الآونة إلى انكلترا أيضاً بعض النبلاء الأجانب المفلسين والجياع، فاتحين أفواههم لالتهام أموال الملك، وكان من بينهم بلدوين، الذي يعرف باسم امبراطور القسطنطينية، ومعه بعض المؤيدين الذين طردوا بالقوة من الأراضي الاغريقية، وكان قبل عدة سنوات

مضت، بلدوين هذا المذكور، قد باع جميع الآثار المقدسة التي أمكنه أن يستولي عليها، واقترض من حيثما استطاع، ثم بعد ذلك هرب بشكل معيب من تلك البلاد، وهو رجل فقير، ومنفي، ومجرد من جميع ممتلكاته، مع أن البابا قد تبنّى قضيته، وقدم إليه مساعدة فعالة، عندما شن الحرب ضد بتاكيوس، زوج ابنة الامبراطور فردريك، وظهر الآن أنه محتاج فعلياً، وقد طلب مساعدة مالية من ملك انكلترا، الذي عرف عظمته من قبل، ولكي يحصل على حظوة أكبر منه، أعلن بأن الملك كان قريباً له.

وصول أسقف سابينا إلى إنكلترا بمثابة كاردينال— نائب بابوي

وصل أيضاً إلى انكلترا أسقف سابينا Sabina, الذي هو كاردينال للكنيسة الرومانية، وقد كان على طريقه إلى البلدان الشمالية: النروج، والدانمارك، والسويد، وقد قدم بمثابة نائب بابوي، ومن أجل مسح وتتويج هاكو Haco ملك النروج، وعندما كان على وشك القدوم إلى انكلترا، واجه في البداية بعض المصاعب في الحصول على اذن من الملك، بسبب أن جميع النواب البابويين مهما كانت مراتبهم، وجميع الرسل البابويين، مارسوا دوماً سياسة افقار المملكة التي مروا في طريقهم بها، أو اثاروا الاضطراب بها، بطريقة أو بأخرى، ولم يسمح له حتى حلف أخيراً بروحه أنه قادم إلى انكلترا، وليس في نيته تسبيب الأذى إلى الملك، أو المملكة، أو الكنيسة، بل ليمر بسلام فقط من خلال البلاد، من ميناء دوفر إلى لين Lynn, وأنه سوف يغادر إلى الممالك النائية، التي كان قاصداً إليها، عندما يواجه مناخاً موائماً، وريحاً مناسباً، وبعدما حصل على الاذن وفق هذه الطريقة، دخل إلى المملكة من دون خوف، وبعدما قدم احتراماته إلى الملك، وتلقى بعض الهدايا منه، أسرع برحلته إلى لين، حيث أقام لمدة ثلاثة أشهر، وفي أثناء اقامته لم يستطع التمنع عن ممارسة الشره الروماني، بل أرسل بشكل سري، رسلاً إلى

الأساقفة وإلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، يطلب مبالغ مالية كبيرة، وهدايا ثمينة، وكان بين البيوت والعزب العائدة إلى أسقف النروج مكاناً اسمه غيوود Gaywood, وكان غنياً إلى درجة كانت مرابحه تصل —كما قيل— إلى أربعة آلاف مارك، ومع ذلك وفي سبيل أن يغطي جميع إجراءاته بمظهر من القداسة، غالباً ماتولى وعظ الناس، وعندما كان على وشك المغادرة في سفينة، كان قد شحنها بثراء بكمية كبيرة من القمح، وعدد كبير من الدنان كانت مملوءة بأفضل أنواع الخمرة، وبالمؤن الأخرى، أمر راهباً من طائفة الدومينيكان، بأن يقيم قداساً فيها، وهذا ماحدث، مما أثار دهشة كبيرة بين كثيرين، حيث أنهم لم يشاهدوا من قبل قداساً من هذا النوع، وكان على ظهر تلك السفينة —كما قرأنا في قضية سفينة نوح— ممرات، وسقف فوق آخر، وحجر، وغرف طعام، بنيت خصيصاً من أجله، وبناء عليه، ووفق هذه الحالة، وبعدما أصبح غنياً، عهد بنفسه إلى بحر الشمال مع هبوب ريح طيبة، وذلك بعدما ألقى المباركة على انكلترا، وعلى الانكليز الأسخياء.

وصول ثلاثة أخوة وأخت للملك من أمه إلى إنكلترا

ووصل بالوقت نفسه إلى انكلترا، وبصبحة النائب البابوي المذكور، ثلاثة أخوة لملك انكلترا من أمه، وذلك بناء على دعوته، وذلك في سبيل اغنائهم من مباهج انكلترا وثرواتها، وكان هؤلاء هم: غي دي لوزنغنان، وهو الأكبر سناً، وكان فارساً، ووليم دي بلنسية، وكان هو الأخ الأصغر، ولم يكن قد عمل فارساً بعد، وايثيلمار Ethelmar, وكان كاهناً، وبالاضافة إلى هؤلاء جاءت أخت لهم وللملك اسمها ايليزا Eliza, وكانت ابنة ايزابيلا، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكونتسة بروفانس بوساطة هوغ برن Hugh Brun ايرل التخوم، لأنهم كانوا قد تعبوا وأهينوا في الإقامة في بواتو، التي شرع الفرنسيون يدوسون عليها بطريقة تعيسة، وبازدراء السكان، الذين كانوا

من قبل تحت حماية ملك انكلترا، ولقد أرادوا العيش بحرية، وأن يتمتعوا بجميع صنوف الازدهار، وقد دعاهم الفرنسيون باسم خونة، وأشاروا إليهم بالأصابع، وسط الضحك والاستخفاف، ولدى وصول إخوته وأخته، ذهب الملك إلى استقبالهم، مع كل مظاهر الفرح، وأسرع لمنحهم العناق والقبلة الأخوية، ووعدهم بهدايا رفيعة، وبممتلكات وافرة، وقد وفى بهذا الوعد باخلاص، لابل أعطاهم أكثر مما وعدهم به، حسبما توضح الرواية التالية بشكل كامل:

كيف تزوجت بعض السيدات البروفانسيات من نبلاء إنكليز

في بداية شهر أيار، كان الملك مقيماً في وودستوك Woodstock, واستمرت إقامته من عيد القديس فيتال Vitalis حتى اليوم التالي لعيد الرسولين: فيليب، وجيمس، وآنذاك جرى بتدبير وترتيب من بطرس أوف سافوي، زواج سيدتين من بروفانس من شابين نبيلين، كانا هما: ادموند ايرل أوف لنكولن، ورتشارد دي بورغ Bourg, الذي كان الملك قبل عدة سنوات قد رباه في قصره، وبسبب هذا الزواج سمعت أصوات بعدم الرضا والغضب وانتشرت في جميع أرجاء المملكة، لأنهم قالوا بأن هاتين المرأتين، قد تزوجتا —على الرغم من كونهما ليستا معروفتين— من نبيلين، ضد ارادتهما.

زواج جوهانا ابنة وارين من وليم أخي الملك لأمه

وفي العام نفسه، وفي الثالث عشر من آب، وبناء على رغبة الملك واقتراحه، تزوجت جوهانا Johanna ابنة وارين دي مونتشيزنيل Warin de Muntchenil, من وليم دي بلنسية، أخي الملك لأمه، ولأن الابن الأكبر والوريث لوارين المذكور كان متوفى، فإن ميراثاً غنياً جداً كان ينتظر جوهانا هذه، التي كانت ابنته الوحيدة الباقية، وبذلك شعر النبلاء الانكليز إلى درجة كبيرة بأنهم

أصبحوا من حصة الأجانب، مع أشخاص غير معروفين، وتزوجت ايليزا أخت الملك لأمه، أيضاً من الشاب جون ايرل وارني Warrenne.

وفاة أودو رئيس أساقفة روان

وفي الوقت نفسه من العام مات أودو Odo رئيس أساقفة روان Rouen, الذي كان من قبل راعي دير القديس دينس Denies, وجاءت وفاتهُ فجأة، لأنه ضرب —كما قيل— بحكم رباني، لأنه بالكاد قد ترأس على كرسي رئاسة أساقفته لمدة سنة، حيث اغتصب لنفسه الاسم فقط والمنصب وأحال جميع إجراءات رئاسة الأسقفية إلى سلفه بطرس، وقد كان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان من قبل راعي دير القديس دينس، لكنه تخلى عن ذلك وابتعد لرغبته بالحصول على منصب رئاسة الأساقفة، وقد ترك ديره تحت دين لايمكن سداده، ولدمار نفسه حصل على المنصب المتقدم ذكره من خلال السيمونية.

حمل الصليب من قبل وليم لونغييسبي وبعض النبلاء الآخرين

في حوالي أسبوع الابتهالات من هذا العام، حمل الصليب أسقف ووركستر مع وليم لونغيسبي Longuespee, وغودفري دي لوسي من أسقفية ووركستر، مع كثير من نبلاء مملكة انكلترا، فقد تشجعوا على هذا بوساطة المثل الذي ضربه ملك فرنسا مع نبلائه، وجمع وليم لونغيسبي المال من الذين حملوا الصليب، مثلما فعل الايرل رتشارد، وبعقلانية ذهب إلى البلاط الروماني، وخاطب البابا حول مسألة الحملة الصليبية، وقال له: «مولاي، إنك كما ترى، إنني قد حملت شارة الصليب، وأنا على استعداد للسفر، والالتحاق بملك فرنسا في حجه، وأن أقاتل في سبيل الرب، وأنا أحمل اسماً عظيماً، وهو معروف

بشكل جيـد، أي وليم لونغييسبـي، غير أن ممتلكاتي صغيرة، فقـد أخـذ ملك انكلترا، الذي هو قـريبي، وهو مـولاي، مني لقب ايرل، مع جميع ثروتي، وهو —على كل حال— فعل هذا بشكل عـادل، وليس بوساطة غضبـه، أو بوســاطة أي عنف أمـلاه عليّ، ولذلك إنني لاألـومـه، وأنا مرغم على الالتجاء إلى الصدر الأبوي لعطفكم، لأطلب العون منكم في حــالة الضرورة هـذه، ونحن نفعل هذا اقتــداء بقضيــة النبيل الايرل رتشـارد، الـذي، مع أنه لم يحمل الصليب، قـد نـال الحماية من فضلكم، وهو فضل كان وافراً، وخصباً في قضيته، حيث جمع مبلغاً كبيراً من المال في انكلترا، من الناس الذين حملوا الصليـب، وأنا الذي حملتُ الصليب، وفي حاجة، استمد الأمل من قضيته، وأسأل أن يجري منح الفضل نفسه لي»، وبناء عليـه، قدر البابا فصـاحة المتكلم، وقـوة المنطق لديه، وليـاقة شخصه، فأظهـر نفسه متعاطفـاً مع الملتمس، ومنحه جزئيـاً الذي طلبه، يعني أن تقول شوكة من جلد رجل آخر.

تعيين وليم بويلي حاكماً على غسكوني

وعهــد في هذا العـام بالمســؤوليـة عـن غسكوني إلى وليم دي بويلي Buales, وهو فـارس كـان من قبل مارشـال البيت الملكي، وقـد كان تبعـاً لعادة بلاده —كـونه من نوستريا Neustrian- عظيماً بالكلام، بطيئاً بالفعل، وجباناً، ولذلك فإن المقاطعة بدأت في ظل عنايته تتعـرض إلى الخطر، وقـد اضطربت كثيراً بالحروب، وكـان أكثر أعـداء ملك انكلترا نشـاطاً هـو غـوستـو Guasto ابن كـونتسـة بيــــارد Biard الذي كـان أكثـر الناس عقـوقـاً، بين الـذين أعطاهـم الملك الكثير وأغناهم.

حول نقل القديس إدموند المعترف

وجرى خلال هذا العام نقل القديس ادموند المعترف، الذي كان من

قبل رئيس أساقفة كانتربري، وقد جرى نقله في بونتغناك Pontignac, مع تشريف عظيم، في الكنيسة الديرية لرهبان طائفة السسترشيان، بحضور لويس الملك المسيحي العظيم الإيمان، لفرنسا، مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة، وكذلك بحضور آخرين، كان بينهم من الجنسين الحضور، السيدة بلانشي، أم ملك فرنسا، ولقد كانت الأكثر وضوحاً في اخلاصها للرب، ولذلك القديس، فقد داومت على السهر مع الصيام والصلاة، مع كميات وافرة من الشموع المضاءة، وغالباً مارددت في صلواتها الكلمات التالية: «أيها الأب المعترف والأعظم قداسة، عندما كنت حياً وفي المنفى، قمت بناء على رجائي بمباركتي ومباركة أولادي، وبناء على طلبي عبرت إلى فرنسا، وأكملت فينا، الذي كنت قد بدأت فيه، وأسست مملكة فرنسا على سلام ثابت، وعلى النصر»، وكان اليوم التالي، الذي كان السابع من حزيران، متوافقاً مع اليوم نفسه، الذي كان قد جرى فيه نقل جسد الأسقف الأعظم مباركة، والمعترف: وولستان Wulstan أوف ووركستر (وأنا أعتقد أن هذا قد حدث الآن بموجب ارادة ربانية)، والآن جرى نقل جسد ادموند المجد في بونتغناك، وذلك على الرغم من عدد السنين التي مرت بين الحادثتين، وينبغي أيضاً أن يكون معلوماً، لابل بالحقيقة أن ينشر في جميع أنحاء العالم، بأن جسده قد وجد كاملاً، غير متفسخ، وله رائحة جميلة، والذي هو أكثر ادهاشاً بالنسبة لجسد ميت هو الليونة في كل أطرافه، مثلما هو الحال مع شخص نائم، وكان شعره وثيابه غير متغيرين باللون والتكوين، وقد تقرر أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً —وذلك بناء على اقتراح أول من ملك فرنسا— وجوب اعطاء الانكليز، الحرية أكثر من الشعوب الأخرى، بالقدوم لزيارة جسده، ولتقديم صلواتهم هناك، وتقرر أيضاً تشريف المكان بحوامل شموع مضاءة، ومع صور معمولة بشكل محكم، وبشأن تفاصيل إجراءات هذه المسألة، قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

كيف نذر الإيرل رتشارد بناء
الجزء الرابع من مزار القديس إدموند

وعندما غدت هذه الوقائع معروفة من قبل الايرل رتشارد، من خلال تقرير موثوق، وعن طريق أشخاص صادقين، قال وهو يتنهد: «واأسفاه، أنه لم تجر مباركته بشكل عال من أجلنا، أي أن يكون الملك أخي وأنا شخصياً، حضوراً أثناء هذا النقل المجيد والمهيب، لأنه كان قديسنا بالمولد، والتعليم، والترقية، على الرغم من أنه —بسبب ذنوبنا— قد انسحب من انكلترا، وعلى كل حال إن الذي كنتُ سأفعله لو كنت حاضراً هناك، سوف أفعله وأنا غائب، إنني سوف أقدم له الاحترام المتوجب، والتشريف اللائق له»، وبدأ منذ ذلك الحين يحب القديس باخلاص أعظم، وبتشريف أكبر، وبتقوى أعمق، فقد حدث أنه أصيب بمرض سري وحاد، هدّد حياته، فطلب مساعدته مع الثقة، وبسعادة تحرر من مرضه، وامتناناً منه للرب وللقديس أخذ على نفسه عهداً بأن يبني المزار، أي واجهته.

كيف فسدت النقود الإنكليزية

وفي العام نفسه نقصت قيمة النقود الاستيرلينية، فبسبب جودة المعدن الذي تألفت منه، قطعت أطرافها من حولها بوساطة عمل ممقوت، ولذلك لحقها الزيف، ومرد ذلك إلى مزيفي المال والنقود الذين ندعوهم «القصاصين»، وقد قصوا النقود كثيراً إلى حد أن الذي بقي منها الدائرة الداخلية فقط، ذلك أن الدائرة الخارجية قد قصت كلياً، وكان الذين تولوا عملية التزييف هذه هم تجار البلدان المجاورة لانكلترا، وبشكل خاص الفلمنكيين حيث جرى الاكتشاف بشكل واضح أنهم يمارسون هذا في القارة أكثر من فعلهم ذلك على هذا الجانب من القنال، ولذلك قام الملك الفرنسي بمعاقبة هؤلاء الناس

بقسوة أعظم في أراضيه مما فعله الملك الانكليزي في بلاده، ولكن بما أن النقود قد تشوهت الآن وتزيفت إلى أبعد الحدود بدأ الملك يبحث عن مخرج لهذا، وفيما إذا كان من الممكن والأنفع تغيير النقود بالشكل أم بالمعدن، وقد بدا لكثير من الناس العقلاء أنه سوف يكون مفيداً أكثر تغيير المعدن، من تغيير الشكل، لأنه من أجل المعدن، وليس من أجل الشكل، كانت تلك النقود قد خضعت لذلك الإفساد والأذى، ومصداقاً على هذا، فإن النقود الفرنسية، ونقود كثير من الأمراء الأجانب تقدم شهادة واضحة وبرهاناً.

مبارزة بين إيرل غلوستر وبين غي أخي الملك

وفي حوالي الوقت نفسه جرى الترتيب لمبارزة، مع أنها كانت رياضة دموية جداً، تجري في بقعة بين دنستيبل وليوتون، وذلك بين رتشارد ايرل غلوستر، وغي دي لوزنغنان ابن كونت التخوم، وكان الملك الذي أظهر المزيد من الحظوة نحو أخيه ونحو البواتيين الآخرين من الأتباع، وكان ذلك أكثر مما أظهره نحو رعاياه الانكليز الطبيعيين، قد بدأ —الملك— يشعر بخوف كبير خشية أنه إذا جرت هذه المبارزة، فإن أخاه وأتباعه سوف يقطعون إلى قطع، ولذلك منع المبارزة تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وقد تحمل الانكليز هذا المنع بصبر، لأن كثيرين قد أحبوا غي المذكور باخلاص، فقد قيل بأنه كان هو الذي حذر ملك انكلترا عندما كان في سانتونغ Santonge, وطلب منه القيام بالفرار على الفور في ذلك الوقت، لأن والد غي، كونت التخوم كان قد باع الملك المذكور إلى ملك فرنسا، وهكذا فإن هذا الاضطراب، الذي كان في البداية خطيراً جداً، قد أنهي بإرادة الرب، واستقر.

تدمير الخوارزمية

في هذا العام نفسه أيضاً، تعرض شعب الخوارزمية الممقوت كله إلى

الضعف، وكـان ذلك بعـدمـا نشر النار والقتل، وجلب عـدة أنواع من الدمـار المضاعف للأرض المقـدسة، وبعدمـا أنزل عكا إلى حالـة الفقر، بعـد هذا تعرض الشعب كله —أقـول بفضل انتقـام الرب— إلى وهن شديد وضعف عظيم حتى أنهم أنهكـوا أنفسهم، وكان ذلك بسبب أنهم شرعوا بالعمل ضـد سلطان مصر، وبذلك حرموا من معونتـه، فأخفقوا في الحصول على الذي احتـاجوا إليه، فقهروا وهزمـوا من قبل أعدائهم، الذين تضاعفوا وتكاثروا من كل اتجاه، ولذلك حصل أخيراً أن اسمهم محق تمامـاً من على وجه الأرض، ولم يعـد هناك أثر منهم مـرئياً، سـوى أنهم لوثوا الأرض المقـــدســـة بشكل لايمكن جبره، بروائحتهم القـــذرة وبآثار أقدامهم.

حول فرار كونراد من ألمانيا

وهرب في هذه الآونة أيضـاً كـونراد بـن فـردريك —الذي كـان ابناً شريراً لأب شرير— من ألمانيا إلى أبيه في ايطاليا، لأنه لم يستطع الصمود أمام هجمات أعدائـه، والزيادة اليومية في قوة الكنيسـة، لأن نائباً بابوياً، اعتمد على مسـاعدة رئيس أساقفة كـولون، قام بعدمـا جبى مبلغاً كبيراً جداً من المال من الكنيسة من ألمانيا، فجلب معـه جيشاً مؤلفاً من حوالي عشرة آلاف جندي، وواصل بـدون توقف مهـاجمة أعـوان فـردريك المذكـور، وانخـرط في أعمال النار والقتل، وتمكن هذا النائـب البـابوي بوساطة انزال عقـوبة الحرمان الكنسي الآن ضـد بعضهم، ثم الآن ضد آخرين، من جمع المال لتـزويد الجيش الكبير العائد إلى رئيس الأسـاقفة، وجـاء استخـراجـه للمال من حيثما استطاع: من الأسـاقفـة، ومن رعـاة الديرة، ومن رؤسـاء الرهبـان، ومن رجال الديـن الآخرين، إلى درجـة أنهم أرغمـوا فيهـا على دفع فـدية حتى عـن أجـراسهم، وعندمـا سمع فـردريـك بهذا انزعج كثيراً، إلى درجـة المرارة بالقلب، وشعـر بالخوف حتى الناس العقلاء الذين وزنوا مخاطر المستقبل بميزان العقل، وقدروا:

أن يرغم فردريك فيقوم بسبب الغضب والدفاع عن نفسه، باللجوء إلى الردة، أو أنه سيطلب عون التتار من روسيا، أو سيقوم بشكل خياني فيسمح لسلطان مصر، الذي كان معه على وفاق تام، بالقدوم إلى الامبراطورية، مع جيشه وأتباعه من المسلمين، مما سيسبب اضطراباً مخيفاً إلى المسيحية كلها، وكان من الممكن أن يرى بوضوح التعاسة المخبأة لهم، لأن الفضائح تكدست فوق الفضائح، وتوجت الشرور فوق الشرور، إلى حد أن بعضهم وقف إلى جانب فردريك، وكأن ذلك في سبيل صالح الامبراطورية وازدهارها، ووقف آخرون إلى جانب البابا، وكأن ذلك لصالح الكنيسة، وبها أنهم أثاروا الآن حروباً بغيضة ودموية، نشبت حتى في ألمانيا، وكذلك في صقلية وكالبيرا، وجميع ايطاليا، فإن الأساقفة والرجال المقدسين الآخرين، الذين سلف للكنيسة أن رعتهم بحنان أمومتها، قد أرغموا بشكل مهين على التسول وعلى طلب ضروريات الحياة بوساطة الوعظ في بلدان أجنبية ونائية، لكن حتى آنذاك أهانهم الناس، ورفضوا الاستجابة لمطالبهم قائلين:

«اذهبوا إلى باباكم، اذهبوا إليه فهو الذي يمتلك وفرة هائلة من مبالغ الأموال التي نهبها»، وفي الحقيقة لم يتوقف البابا عن جمع المال، سواء في بلاطه أو في البلدان النائية، جاعلاً من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان —على الرغم من عدم رغبتهم— صيادين، ليس للرجال، بل للمال، لكن كيف راوغوا في أداء هذه الأعمال، إن هذا مايمكن الوقوف عليه في كتاب الـ Additaments.

كيف جمع الإيرل رتشارد المال من الذين حملوا الصليب

وجمع في هذه الآونة الايرل رتشارد، بموجب سلطات البابا —الذي كان قد لبى مطالبه وأرضاه بشكل سري وعقلاني— مبلغاً ضخماً من المال، من الذين حملوا الصليب، وفي الحقيقة حمل —كما قيل— من رئاسة شماسة واحدة، وجبى ستمائة باوند، معتمداً على سلطات رسائل

البابا، وفي ظل الحماية نفسها، حسبما تقدم الذكر، جمع وليم لونغيسبي ألف مارك، لا بل أكثر من الصليبيين.

حول استخراج المال من قبل بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت نفسه، علق بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، بموجب سلطات الكرسي الرسولي، بعض أساقفة منطقة كانتربري، لأنهم رفضوا الخضوع لتقديم اسهام جديد، لم يسمع به من قبل، حيث كان قد حصل على امتياز جبايته من البابا، وتعلق ذلك بمرابح موارد الكنائس الشاغرة، المتوجبة خلال السنة الأولى من شغورها، فقد توجب الآن تقديم هذه المرابح إلى رئاسة الأساقفة المذكورة، لتحريرها من ديونها، وهي الديون التي كان أسلافه قد حمّلوها لكنيسة كانتربري مع فوائدها، وكان هذا الكلام زائفاً بشكل واضح موثق، وقد قيل لالحاق الأذى بسلفه المباشر ادموند، وبرجال مقدسين آخرين، وقام الأساقفة، بناء عليه مرغمين، لأنهم كانوا غير قادرين على التمرد ضد ولاية البابا وسلطته، قاموا بعد لأي فوافقوا، وهم غير راضين، ومع مرارة بالقلب، وجاء ذلك في سبيل التمكن من التحرر من تعليقهم، وتسلموا فيها بعد، مرة أخرى، ولاية من خلال عمدة بوفيا Beauvais, الذي كان الوكيل في هذه القضية، وقضت أوامر هذه الولاية بأن يتم الحرمان كنسياً من قبل البابا لجميع الذين انتقدوا، وكل الذين ضلوا، ولأي واحد مارس الغش في قضية الامتياز المتقدم ذكره الذي منح بفضل من البابا، وأعلن الحرمان الكنسي على جميع أرجاء منطقة كانتربري،باستثناء الملك وزوجته وأولاده، والنبيل رتشارد أوف كورنوول.

حصار بارما من قبل الإمبراطور

عندما كانت الشمس تسير نحو الاعتدال الخريفي، عبر فردريك

جبال الألب، وبادر مسرعاً مع جيش كبير نحو ليون حيث كان البابا مقيماً، ومن هذا التحرك خيف كثيراً من قيامه بهجوم عدواني على أشخاص: البابا، والكرادلة، واللاهوتيين الآخرين، لكن حدث بفضل الادارة الحكيمة للبابا، الذي شجع أهل بارما Parma, ووعدهم بمبلغ كبير من المال، وبمساعدة فعالة، أن دخلت هذه الدولة بمجملها فجأة بتحالف مع الميلانيين والآخرين الذين كرهوا الامبراطور، وبجرأة عملت الترتيبات لمقاومته، وذلك بعدما كانت من قبل واقفة بثبات إلى جانب فردريك.

ولدى سماع فردريك بهذا، بات من الصعب عليه ضبط نفسه، واستبد به الغضب لأنه صرف عن مقاصده بوساطة هؤلاء العصاة، فعاد مع جيشه من أجل حصار البارميين، ولكي ينزل بهم أقسى انتقام، وتحرر البابا بعض الشيء من الخوف العظيم الذي استولى عليه، ووضعت مدينة بارما تحت الحصار، وقام الامبراطور بالشروع ببناء مدينة واسعة ومكتظة بالسكان خارجها، حتى أنها بدت معادلة لمدينة بارما نفسها، وقد منحها اسم «فيتوريا» "Vittoria", [المنصورة] كما أنه أقسم أنه سوف لن يغادر من هناك حتى يتمكن من اخضاع المحاصرين، ويستولي على مدينتهم، وتمكن خلال وقت قصير من منعهم من الافادة من النهر، كما لم يتمكن الميلانيون أو أية جماعة أخرى، وضعوا ثقتهم بها، من تقديم أية مساعدة إلى المحاصرين، وفي ظل هذه الظروف، باتوا راغبين خلال ثلاثة أشهر بإعطاء يد المصالحة إلى فردريك، وطلبوا منه المصالحة، ولكن بما أنه كان غير واثق من سكان المدينة، رفض القبول بتذللهم، ثم إنهم بدأوا يشعرون بحراجة وضعهم، وقالوا فيما بينهم، «هذه النوازل وقعت علينا بشكل عادل، لهجومنا الخياني ضد مولانا الذي وثق بنا، ولقد عوقبنا، ولكن ليس من دون سبب مسوغ صحيح، فمدينتنا في خطر

عظيم، وهي المدينة التي سلب فيها بشكل وحشي روجر المقدس، أسقف لندن، الذي قيل بأن الرب قد شرفه الآن بعمل معجزات له، وجاء سلبه من حاجاته الضرورية لرحلته، ومن المقتنيات التي كانت ذات قيمة لديه، عندما كان متوجهاً في حجه إلى البلاط الروماني، ولم تردّ إليه مقتنياته، لذلك قام لدى مغادرته في اليوم التالي بانزال اللعنة على المدينة وعلى سكانها.

كيف أعطى ملك فرنسا ترضية إلى جميع الذين عانوا من الأذى

خلال الخريف نفسه، أرسل لويس التقي، ملك فرنسا، رهباناً من الدومينيكان والفرنسيسكان ليجولوا في جميع أرجاء مملكته، وليقوموا بأبحاث يقظة، كما أنه أمر بإجراء فحص يقوم به نوابه، من أجل أنه إذا كان هناك أي تاجر أو شخص آخر قد عانى من الضرر بوساطة سلف إجبارية، أو استخراج للمال، أو مصادرة للمقتنيات، الأمر الذي غالباً ما وضع قيد الممارسة من قبل الوكلاء الملكيين، وأمكنه تقديم تصريح مكتوب، أو لائحة بما تعرض له من أضرار، أو قدم بينة على ذلك، وإذا ما حلف على صدق ذلك، أو قدم أي برهان قانوني حول ذلك، فإن الملك كان جاهزاً لتقديم تعويض كامل حول كل شيء، وهذا ماجرى تنفيذه.

مرض إدوارد الابن الأسن للملك

في عشية عيد القديس متى، وقع الابن الأسن للملك، ووريثه ادوارد مريضاً، فكتب الملك إلى جميع رجال الدين المقيمين في لندن وبقربها، أن يصلوا من أجل حفظ ابنه، وكان من الذين كتب إليهم بشكل خاص راعي دير القديس ألبان والرهبان فيه، يرجوهم.بأن يخصصوا صلوات لصالحه، وأن يقوم جميع الرهبان بانشاد مزمور «القدير والرب الدائم، هو الأمل الباقي للذين يؤمنون» إلخ، بشكل

مهيب، وأن يكون الشطر الأول من هذا لصالح القديس ألبان، وأن يكون الشطر الثاني لصالح الشاب المريض، وبفضل الرب، عاد الشاب إلى الصحة، وقد قلت كثيراً حول هذا، بسبب إشاعة راجت بين الناس، الذين أبدوا دهشتهم قائلين: «انظروا لقد صلى رجال علمانيون إلى الرب، وقد استجيب إلى صلواتهم، فلماذا على هذا لايقوم البابا بالصلاة، والعمل لصالحه، لابل لصالحنا، ولصالح الكنيسة العالمية؟ لكن بدلاً عن هذا هو متشوق من دون كلل بالسعي وراء المال»، ولقد قيل أيضاً، وتأكد الذي قيل، الأمر الذي كتبته ليس من دون دموع، بأنه وضع ثقته في مخازن المال أكثر من وضعها في الصلوات وتقديم الصدقات إلى المسيحيين.

كيف جرى انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً للرومان

في اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل، انتخبت أكثرية نبلاء ألمانيا الذين لهم يعود حق الانتخاب، ملكاً لألمانيا، هو وليم كونت هولاندا، وكان شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، كما كان وسيماً في مظهره، ومن أصل نبيل، وبعد انتخابه قدموا الولاء له، ولم يوافق دوق سكسوني وبعض النبلاء الآخرين على هذا الانتخاب، ونتيجة لذلك حدث انشقاق عظيم بين الناس، الذين وجدوا متنفساً للتعبير عن مشاعرهم بهذه الكلمات: «انظروا الفرسان واقفون ضد الكهنة بسبب التجبر، وللسبب نفسه الكهنة مخاصمون للفرسان».

جلب بعض دم المسيح إلى لندن

وفي تلك الآونة، كتب ملك انكلترا إلى جميع نبلاء المملكة، يأمرهم بالاجتماع [في لندن] في يوم عيد القديس ادوارد، أي في يوم عيد تحويله، الذي يحتفل به خلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، لسماع أعظم الأخبار، حول منفعة مقدسة، أضفيت من قبل

السماء مؤخراً على الانكليز، وثانياً من أجل تقديم التشريف إلى تحويل ذلك الملك المجيد والشهيد، وثالثاً حتى يتمكنوا من أن يكونوا حاضرين احتفال أخيه لأمه، وليم دي بلنسية، الذي سوف يضفى عليه في ذلك اليوم شرف الفروسية، وكذلك على بعض الشباب النبلاء الآخرين، ولكي يكون هذا العيد المضاعف أكثر قبولاً، أفعم بحضور النبلاء والأساقفة مع آخرين كذلك، في سبيل تشريف الملك والمملكة.

وبناء عليه، اجتمع النبلاء في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، في ويستمنستر، وبعدما أخبروا بأن ذلك اليوم كان يوم عيد القديس ادوارد، والاحتفال بوليم المذكور، سألوا عن الأخبار المرضية، التي جاءوا إلى هناك من أجل سماعها، والتي قيل بأنها صحيحة وجديرة بالقبول كله: لأنه بشهادة مقدمي الداوية والاسبتارية، مع شهادة أختام كثيرة، وبشكل خاص أختام: بطريرك القدس، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين الآخرين، ونبلاء الأرض المقدسة، جرى ارسال بعضاً من دم ربنا، الذي سفحه على الصليب من أجل خلاص العالم، وكان محفوظاً في وعاء جميل من الزجاج الصافي (الكريستال) وقد عهد به إلى عناية راهب معروف بشكل جيد، من رهبان الداوية، وأن الملك، بحكم كونه أعظم أمير مسيحي، قد حصل عليه من الأغسطس هرقل، أعظم الأباطرة انتصارات وقوة، وبذلك سار على منوال الملك الفرنسي الذي كان حياً آنذاك، والذي كان يبدي كل تشريف في باريس، نحو صليب الرب نفسه، كما ذكرنا من قبل، وقام بروح تقية وتائبة بالبقاء ساهراً ليلة عيد القديس ادموند [اقرأ: ادوارد]، وكان صائماً على الخبز والماء، وذلك مع شموع مضاءة، وصلوات خالصة، وقد أعد نفسه من أجل مهابة اليوم التالي.

كيف حمل الملك دم المسيح إلى
كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر

ثم أصدر الملك أوامر، قضت بوجوب اجتماع جميع الكهنة في لندن، في نظام لائق واحترام في كنيسة القديس بطرس، في الصباح الباكر لليوم التالي، الذي كان يوم عيد القديس ادوارد، وأن يرتدوا ثيابهم الاحتفالية مع أرديتهم الكهنوتية وأغطية الرؤوس، وأن يكونوا محاطين بأتباعهم من رجال الدين، الذين عليهم أن يكونوا مرتدين لملابسهم ولشاراتهم، وللصلبان، والشموع مضاءة، وإلى هناك ذهب الملك أيضاً، ولدى تسلمه للوعاء الحاوي للكنز المتقدم ذكره، قام بتشريف عظيم، واحترام، ومهابة، فحمله فوق رأسه، وسار على قدميه وهو لابس لثياب متواضعة، مؤلفة من رداء بسيط من دون غطاء رأس، وسار مع الكهنة اللابسين كما قلنا من قبل، وقد سار من دون توقف إلى كنيسة ويستمنستر، التي كانت على بعد حوالي الميل عن كنيسة القديس بولص، ويتوجب علينا عدم اسقاط ذكر، أنه حمل الوعاء بيديه معاً، وعندما كان يصل إلى أي مكان وعر، أو جزء غير مستو من الطريق، بقي دوماً مثبتاً عينيه نحو السماء، أو على الاناء نفسه، وجرى حمل الطيلسان على أربعة رماح، وتولى مساعدان دعم ذراعي الملك، خشية أن تتهاوى قوته، أثناء هذا الجهد الكبير، ولدى وصوله إلى باب ساحة أسقف درم، استقبل من قبل التجمع الديري لويستمنستر، مُرافقين من قبل جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، والرهبان الذين احتشدوا (والذين أحصي عددهم فتبين أنهم كانوا أكثر من مائة)، وهم يغنون، بفرح وسرور في الروح القدس، وذلك مع الدموع، ثم إنهم عادوا بمسيرة كما قدموا، إلى كنيسة ويستمنستر، التي تمكنت بصعوبة من استيعابهم جميعاً، بسبب الجماهير التي احتشدت، ولم يتوقف، بل حمل الوعاء من دون تعب، كما فعل من قبل، وقام بطواف في الكنيسة، وفي القصر، وفي غرفه الخاصة، وأخيراً

قـدم الوعـاء، وأهداه، كهـدية لاتقـدر بثمن، وهي هدية جعلت انكلترا مشهــورة، وجـاء التقــديم إلى: الرب، ولكنيســة القــديس بطرس في ويستمنستر، وإلى حبيبـه ادوارد، وإلى الرهبـان المقـدسين في ذلك المكان المكرسين للرب ولقديسيه.

أسقف نورويك يعظ بقداس إلى الناس حول فضائل دم المسيح

وأقام أسقف نورويك قـداساً في ذلك اليـوم، وهو نفسه قدم قـداساً للناس، فيه ذكـر أنه بين الأشياء التي نظر الناس إليها أنها مقدسـة، يعد دم المسيح هو الأكثر قداسة، لأنه كان ثمن العالم، وسفكه كان الخلاص للعالم، ولكي يظهر عظمة الواقعة أكثر، أضاف قول الفيلسوف التالي:

كل نهاية أعلى من وسائطها

وفي الحقيقـة إن الصليب هو أكثر الأشيـاء قداسـة، بسبب دم المسيح الذي سفك عليـه، الذي هو الأكثر قـداسـة، وليس سفك الدم مقدسـاً بالنسبـة لعمليـة الصلب، وقـال: إن هذه الأشيـاء، كما نعتقـد يمكن أن تجعل انكلترا تشعر بكثير من السرور والفخار، وذلك نظراً لتملكها لهذا الكنز العظيم، مثلما شعرت فـرنسا في امتلاكهـا للصليب المقدس، الذي بجله ملك فرنسـا —وليس ذلك من دون سبب صالح— وأحبـه أكثر من الذهب والجواهـر، وأضـاف أنه نظراً للاحترام العظيم، ولقــداسـة ملك انكلترا، المعـــــروف بأنـه أعظم المسيحيين، بين جميـع الأمـــــراء المسيحيين، أرسل إليـه هذا الكنز الذي لايقـدر بثمـن، من قبل بطريرك القـدس (والذي تبرهن على حقيقتـه وتأكـد بها فيـه الكفـاية)، من أجل امكانية تقـديم الاحترام إليه في انكلترا أكثر منـه في سورية، التي تركت الآن مهجورة تقـريباً، لأنه في انكلترا، كما يعلم العالم، الإيمان والقـداسة مزدهران أكثـر من أي بلد آخر في جميع أرجاء العالم، وبالنسبـة لفحصه، لأن كثيرين كـانوا مـايزالون بطيئين بالتصديق، ولكـون ذلك قد جـرى

الدخـول به، قـام ثيـودورك، رئيـس الاسبتـارية في القـدس بمخـاطبـة الأساقفـة والآخرين الذين كانوا جالسين هناك، بالكلمات التـالية: «لماذا ماتزالون مترددين ياسـادتي؟ هل طالب أي واحد منا، نحن الداوية، أو الاسبتارية، أو حتى الراهب الذي جلبه، بأية منفعة من أجله؟ هل سأل أي مكافأة بالذهب أو الفضة من الملك، أو من أي واحد آخر، أو حتى لو بجائزة صغيرة جداً؟» وعلى هذا أجاب الملك: «لامطلقاً»، ثم أضاف الراهب: «لماذا يعـرض عـدد كبير من النـاس من ذوي المراتب العـاليـة أنفسهم إلى ادانة، أرواحهم، ويقـدمـون شهـادة على صحـة هذا الأمـر، ويثبتون أختـامهم على الشهادة، التي هي واضحـة، ويقسمون على ذلك بإيمان صـالح»؟، ومع أن هذه الكلمات قـد تفـوه بهن رجل علماني، قـد قبل بهن الأساقفة وكذلك قبلن من الآخرين.

لكن دعونا نعود الآن إلى سياق روايتنا، فبعـدما فرغ الأسقف المتقدم ذكـره من قـداسـه الفصيح، أعلن —لسرور النـاس— بأن كل من يأتي لتعبـد الدم الأعظم قداسـة، والمحفـوظ هناك، سوف يحصل، بمـوجب اذن مفضال من جميع الأسـاقفة، على اعفاء حر من العقوبـات المفروضة عليهم، لمدة سـتـة أعوام، ومـائة وأربعين يـوماً، وبعـد مناقشات جـرت هناك، ثابر بعض الجالسين هناك على التمسـك باصرار بعناد بشكوكهم، وطرحوا السؤال التالي: «كيف أتيح للرب، عندما قـام ثانية تاماً وكاملاً في الجسم، وذلك في اليـوم الثالث بعـد آلامه، ترك دمـه على الأرض»؟ وهو سـؤال أحكم الإجـابة عليـه على الفـور أسقف لنكولن، وجـرى تدوين المناقشـات في كتاب الـ Additaments, وذلك كما سمعها كاتب هذا العمل، فقد دونها كلمة كلمة بكل دقة.

كيف عمل وليم دي بلنسية فارساً بحزام

أثناء القيام بهذه الإجـراءات المهيبة في كنيسـة ويستمنستر، كان الملك مرتدياً ثوباً مصنوعـاً من أغلى أقمشة القطيفة، وكان منسـوجاً بالذهب،

وكـان مرتـدياً تاجاً صغيراً، يعـرف عـادة باسم إكليل، وقـد جلس على عرشه الملكي، حيث أمر بمثول أخيـه لأمه أمامه، وقد حضر على الفور برفقة عدد كبير مـن معاونيه، الذين جاءوا معـه لتسلم أسلحته ودروعه بأبهة عظيمة، وبشكل مهيـب، ومنحه الملك وقتها مـرتبة الفـروسية، كما منحها لبعض رفاقه.

الملك يأمر بإيداع جميع هذه الإجراءات كتابة

عندما كان الملك جالساً على عـرشه الملكي، شاهد كاتب هذا العمل، فدعاه إليه، وجعله يجلس على الدرجة الـوسطى بين عرشه وقاعة البناء، وقال له: «لقد شاهدت جميع هذه الأشيـاء، فهل مارأيته قد انطبع بثبات في عقلك»؟، وعلى هذا أجبتـه: «نعم يامولاي، لأنهم جـديرين بالحفظ، فإجراءات هذا اليوم هي بالفعل رائعة»، وقـد أضاف قائلاً: «إنني أؤكد كحقيقة بأن الرب قـدم عربوناً على لطفه الوافـر، وعلى أعماله المستقبلية الجيـدة، تفضل بلطفـه فعمل معجـزة هـذا اليـوم، فقـد حـدث هذا في الصبـاح البـاكـر، وأتمنى أنك سررت في هـذه القضيـة، ولذلك ألتمس منك وآمـــرك أن تكتب رواية واضحـــة وكـــاملة حـــول جميـع هذه الإجـراءات، وأن تدخلهم بشكل لطيف السمات في كتـاب، حتى يمكن تذكرهم من قبل كثيرين، ولكي لاتضيع فائدتهم وليكونوا نافعين في كل عصر في المستقبل»، ثم دعـا الملك الشخص الذي تحدث إليـه إلى تناول طعام الافطار، مـع ثلاثة من رفاقه، وأمـر أيضاً في اليـوم نفسه بضيـافة جميع الرهبـــان الذين جـاءوا إلى هناك بشكل غنـي في مطعم الدير، على حسابه، وذلك مع رهبان دير ويستمنستر، وبعض الآخرين.

تكريس سيلفستر أسقف كارآيل

وجـرى في هذا العـــام تكريس سيلفستر Sylvester الأسقف المنتخب لكارآيل، كأسقف في يوم عيد القديسة أغاثا.

ووصل في يوم عيد القديس ادوارد ايرل أوف ليستر من القارة، إلى حيث كان قد ذهب للقيام بعمل سري من أعمال الملك.

إرسال سفراء من قبل الملك إلى برابانت

وفي هذه الآونة جرى ارسال راعي دير ويستمنستر، وجون مونسل Mauncell نائب أسقف بيفرلي، إلى القارة، حول العمل السري نفسه، الذي كان عائداً إلى الملك، وكان هناك سبباً للتخمين، أن الارسال كان من أجل القضايا المرتبطة بحديث الزواج بين ابنه وولي عهده ادوارد، وابنة دوق برابانت، وهو حديث لم يتوصل بعد إلى الترتيب النهائي.

عودة الإيرل رتشارد من القارة

وفي يوم عيد القديسين: سمعان، وجود، عاد الايرل رتشارد من القارة، مرافقاً بابنه هنري الذي كان قد أخذه إلى هناك معه، وقد قيل بأنه عقد مؤتمراً طويلاً وودي مع الملك الفرنسي، فقد عقد الأخير العزم بشكل أكيد على الانطلاق إلى حجه، في عيد الفصح المقبل، وقام بشكل عقلاني بصنع جميع الترتيبات بشأن كل من القضايا الروحية والدنيوية، وأعاد الحقوق إلى كل واحد توفر لديه إدعاء صحيح، وبناء عليه طلب الايرل إعادة جميع حقوق ملك انكلترا، بما أنه جاهز ولديه الرغبة بفعل الذي ينبغي أن يفعله، وكان من الممكن أن يستجيب الملك الفرنسي بسهولة لهذه المطالب، لولا بعض العوائق التي ألقيت على الطريق، من قبل بعض الحاسدين والشرهين من النبلاء الفرنسيين، الذين كانوا مستشاريه وكانوا مفطورين على التجبر، ولذلك جرى اخبار الرسل الانكليز مواجهة، خاصة حول قضية نورماندي، بأن ملك فرنسا قد استمر بتملكها بشكل متواصل وسلام لمدة طويلة من الزمن، هي حوالي الأربعين عاماً، لم تتوفر خلالها مطالبة بإعادتها بشكل فعال

لصالح ملك انكلترا، كما لم يتوفر أي استدعاء حولها إلى البلاط الروماني، حيث يجري بالعادة اقرار القضايا الصعبة والشائكة، ولذلك وضح إلى الملك الفرنسي، أن الملك الانكليزي يتوجب تجريده من ادعائه، وعلى كل حال لم يكن الضمير الصافيُ للملك الفرنسي راضياً بهذه الأسباب، لذلك أحالها إلى أساقفة نورماندي، حتى يمكن التوصل إلى الحقيقة بوساطة البحث في هذه القضية المشكوك بها، وقد أعلنوا أن اعتقادهم المؤكد، هو أن الملك الفرنسي يمتلك الادعاء الأقوى بنورماندي، وليس ملك انكلترا، لاسيما وأن الأخير قد جرى خلعه من قبل نظرائه، وهذا —على كل حال— واضح التناقض ولايتوافق مع أية عدالة ومنطق، فكيف يمكن لملك انكلترا أن يحكم عليه ويدان من قبل أعدائه، خاصة وأن الرب يقول: «إذا لم يقلد الابن أباه، ينبغي أن لايعاني من أجل ذنوب أبيه»، وعندما وجد الايرل المذكور القضايا على هذه الصورة، ارتدى زي حاج، وذهب إلى بونتغناك ليصلي للقديس ادموند، وليكرم مزاره بأعطيات وهدايا، وليقدم له الشكر من أجل تحسين صحته الجسدية، ولدى وصوله إلى هناك، قدم بالاضافة إلى الهدايا التي عملها من قبل، وللذي وعد به، ونذر أنه سوف يفعله في وقت ما في المستقبل، أهدى ياقة جميلة جداً، عرضها أكثر من كف إنسان، ومرصعة بجواهر ثمينة، مثلها لايمكن العثور عليه في خزائن الملوك.

حول الأحوال البائسة التي ضغطت على الويلزيين

كانت ويلز في هذه الآونة في أحوال تعيسة جداً، بسبب توقف الأعمال الزراعية، والتجارة، وتربية المواشي، وبدأ السكان يتلاشون بسبب العوز، فقاموا —غير راغبين— بالانحناء لنير الشرائع الانكليزية، فقد بهت جبروت نبالتهم القديمة، وبلغت الأمور حداً أن قيثارة اللاهوتيين تحولت إلى حزن ونحيب، ومات أسقف ميناي

أو القـديس داود، ذلك أنه تلاشى حـزناً، وأصيب وليم Menai, أسقف لـلانداف Llandaff بالعمـى، ونظراً لتعـــــرض أسقفتي أسقفي القديـس أساف Aasaf وبانغور Bangor للدمار بالنار والقتل، أرغما على التسول حتى يعيشا على ممتلكات الآخرين.

انتخاب توماس وهو ويلزي إلى أسقفية القديس داود

وهكذا بات كـرسي ميناي شـاغـراً، وبعـد عـدد لايحصى من الآلام عـانى منهـا الويلزيون، وذلك بسبب الحرب ومـوت زعمائهم، جـرى انتخـاب المعلم تومـاس، الذي يلقب بالـويلزي، والذي كـان رئيس شمامسة كنيسة لنكولن، جرى انتخابه لذلك الكرسي، لأنه كان من أبناء ويلز، وقـد وافق على هذا الانتخـاب لسبب أول هو أن أسقف لنكولن امتلك السلطة العليا على رهبانه، وكان السبب الثاني هو أنه دعي لشفاء الأرواح في موطنه الأصلي، بحكم أن كل واحـد منجذب إلى الذكريات الحلوة لمسقط رأسه، وأيضاً أنه بحضوره، ونصـائحه، ومساعدته، يمكنه أن يواسي أبناء بلده التعساء، وقـد قبل بهذا الانتخاب الأسقفي دون أن يثير كثيراً من المتاعب في القضية، لأنه رأى أنها أسقفية ضعيفة فقيرة.

آلام البارميين

خلال هذا الوقت كله حوصرت مدينة بارما من جميع الجهات، وكانت تعـاني بشكل مميت من المجـاعة والعـوز بشكل مضـاعف، لأن سكانها لم يكن بإمكانهم مغـادرة المدينة مـن الجانب، حيث بنى المحـاصرون مـدينة كبيرة وذلك بدلاً من نصـب معسكر، وهي المدينة التي أعطاها فـــردريك اسم فيتـــوريا [المنصـــورة]، كما لم يمكنهم الخروج بوســاطة النهـــر، لأن فردريك قد حرسه بكل دقـة، كما لم يمكنهم الحصول على أية مساعدة، أو مشورة تصلهم من البابا، الذي شجعهم على العصيان لأن الطرقات كانت محروسـة بكل شـدة، ولأن فـردريـك قـد استعـد لتمضيـة الشتـاء هناك،

ولإطالة إقامتـه حتى ينتصر على أعدائه، فـإن آمال المحاصرين قـد ماتت، وقرروا في أحـد الأيام، وقد أرغمـوا بالعـوز، على القيام بهجوم مفـاجىء على جيش الامبراطور، حتى لايظن أنهم كســالى، وبناء عليـه قـام مـائـة وأربعـــون من أعلى المراتب مـن السكان بتسليح أنفسهم، وحملـوا بشكل مفاجىء، ولكنهم جعلوا هجومهم من دون حذر، ولذا تمّ استقبالهم بحد السيف من قبـل الجيش، الذي كـــان محذراً من الهجـــوم مـن قبل، ولدى سعيهم إلى العودة إلى مـدينتهم، تمّ قطع طريق تراجعهم من قبل الأعداء، ووقع بعضهم بالأسر، وجـرى قتل البقية، وإثر ذلك تقـرر بشكل اجماعي في بلاط فـردريك —بناء على رغبة القـاضي ثاديوس ونصيحتـه— أنه في المستقبل ينبغي عدم ابقاء أي أسير بالسجن من أجل فديته، بل ينبغي على الفـور اعدامـه، واشتعل غضب فـردريك الآن أكثر، وبحـدة أعظم، لأنه جرى انتخـاب ملك جديد في ألمانيـا، ورأى سكان المدينة المرهقين —بناء عليـه— أنفسهم، قـد تمّ التخلي عنهم من كل جـانب، وأحبطت آمـالهم كليـاً، بعـدم وصول النجـدة التي وعـدهم بها البـابا، فأرسلوا سفـارة إلى الامبراطور، يطلبـــون القبـول بمنحهـم السـلام، ويسألـون الرحمة وليس الحكم القضـائي، وكـان فردريـك —على كل حال— قـد اشتعل غضبـاً، وامتـلأ عجـرفة، فأغلق أوعيـة الرحمة ضـد التماسـاتهم، ورفض منح إذن اللطف والاحسان إلى هؤلاء القوم التعساء، وبذلك أثار عدم رضا الرب، ذلك أنه تصرف بناء على نصيحـــة سرية وقـاسيـة، فأرسل إليهـم رسـالة متعجرفة، بأن عليهم استخدام قمحهم باقتصاد وعقلانية، لأنهم سوف لن يحصلوا على أي مزيد ليأكلوه مـادام هو —فردريك— حيـاً، ومن المعتقد أن هذه الرسالة القاسية قد صدرت عن ثاديوس.

الاستعدادات للمبارزة التي جرى منعها من قبل الملك

في حوالي عيد القديس مـارتين من هذا العام، قام ر. R ايرل أوف غلوستر، اعتماداً منه على الموافقـة التي كان قد حصـل عليها من

الملك، وعلى ما أعلنه في اليوم الذي جعل فيه من أخيه وليم فارساً، أي السماح الكامل والحر في عقد مبارزة عامة، تحدى فيها وليم المذكور، في أن يقابله في الحلبات في نورثأمبتون، في الأسبوع الذي يأتي قبل الميلاد، من أجل أن يتمكن وليم المذكور وأتباعه الجدد من الحصول على الخبرة في الفروسية، لأن البواتيين، الذين استمدوا شجاعتهم من صلاتهم الوشيجة بالملك، واعتمدوا بالتالي على حمايته، بدأوا يضعون أنفسهم على قدم المساواة مع الانكليز، لابل قاموا حتى بالاستخفاف ببعضهم، وعلى كل حال بما أن مخاوف قد انتشرت المشاعر بها، من أن يقوم هؤلاء الرجال المتفاخرون المتجبرون مع بعض الآخرين من القارة باثارة صراع وقتال، وأنه بعد قصف الرماح، يمكن أن تشاهد بارقة السيوف الدموية، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة المستشارين العقلاء، بتحريم المبارزة، مع الإعلان بأن ورثاء الخارقين لهذا المنع، يمكن أن يجردوا من التمتع بمواريث آبائهم، ولذلك عندما قدموا إلى المكان المحدد من أجل المبارزة، وجدوا أنفسهم أنهم قد خدعوا بتوقعاتهم، وأنهم أنفقوا الكثير من الأموال من دون محصلة، ولذا انصرفوا وهم غاضبين، وقد ازدروا ضعف الملك وتقلبه بكلامه، ثم إن هذا التحريم لم يكن ضرورياً، لأن تجبر وعجرفة هؤلاء الأجانب قد أثارت الكراهية الانكليزية، وسببت تأكيدها.

زواج توماس أوف سافوي من ابنة فردريك

وفي هذه الآونة، أعطى فردريك ابنته بالزواج إلى توماس أوف سافوي، أخو رئيس أساقفة كانتربري، وقد أعطاه أيضاً فيرسيلي Vercelli وتورين Turin مع المناطق المجاورة، وعهد إليه بالحواجز التي أعدت لمنع البابا وأعوانه، الذين يمكن أن يمروا في هذه المقاطعات.

كيف أغنى الملك إخوته جميعاً

عندما قام غي دي لوزنغنان، أخو الملك، بمغادرة انكلترا، ملأ الملك حقائب خيوله بكميات ثقيلة من المال، إلى حد أنه كان مرغماً على زيادة عدد خيوله، وأعطى إلى أخيه الآخر، وليم دي بلنسية، قلعة هارتفورد مع المناصب الشرفية المتعلقة بها، ومبلغاً كبيراً من المال، ولذلك بدا الملك نفسه أنه بات بحاجة، ولأن يقوم بسلب طعامه أو استجدائه، ولذلك فإن الذين أحبوا الملك عن صدق، ومن دون تظاهر، كانوا خائفين كثيراً، خشية أن تكون صدقاته من دون تأثير، لأن الفقير كدس اللعنات على رأسه، وخشية من أن تكون صلواته في الكنيسة سوف تحسب —لاسمح الرب— بمثابة ذنوب، وبالنسبة إلى ايثيلمار، الذي كان الأخ الثالث له، فقد زوده بموارد ثرية ووافرة مما امتلكه، وبوساطة التماسات ملكية مهيبة، استخرج له من كل أسقف وراعي دير، واحداً بعد الآخر، حتى أنه بدا الآن قد تفوق على الرومان في الجشع، وبذلك جعل من ايثيلمار المذكور متفوقاً على الأساقفة بثروته.

تتويج هاكو ملك النروج

في هذا العام، وفي التاسع والعشرين من تموز، الذي هو عيد أولافوس Olavus الشهيد، وأعظم الملوك قداسة، وأعلى القديسين تميزاً بين مناطق النروج وجزرها، في هذا اليوم جرى تتويج ومسح هاكو بشكل مهيب في بيرجن Bergen, من قبل أسقف سابينا، الذي كان آنذاك نائب الكرسي الرسولي في تلك المناطق، ومن أجل هذا التكريم واللطف دفع هذا الملك خمسة عشر ألف مارك من النقود الاستيرلينية، أما بالنسبة إلى النائب البابوي، فإنه بالاضافة إلى حصوله على كثير من الهدايا الثمينة، استخرج خمسمائة مارك من كنائس تلك المملكة، وحمل الملك المذكور الصليب، وحصل على تفويض من البابا بأخذ ثلث الموارد من اللاهوتيين في مملكته، لتأمين حاجاته

الضرورية مـن أجل حجه، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة —بواسطة تقـرير— إلى علم الملك الفـرنسي، كتـب رسـالة بصيغـة ودودة إلى الملك هاكـو، رجاه فيهـا بعطف، وتمنى عليـه من أجل تقـدم مصالح الكنيسـة، وتشريفـاً للصليب المقدس، الرمـز الذي حمله، أن يسير من دون تأخـر إلى الأرض المقدسـة، وأن يكون ذلك برفقته —أي الملـك الفرنسي— وذلك من أجل أن يسند إليه تدبير وإمـرة الاسطول الفرنسي كله، بحكم أنه أمير بارع في المسـائل الروحية، وأيضـاً أنه بذلك سوف يكون الجيش الفـرنسي من ذلك الحين ميـالاً إلى حد كبير لتقـديم الطاعة لإرادته، وعندمـا وصل المكتـوب الحاوي لهذه الرسـالة إلى ملك النروج، والذي كـان كـاتب هذا الكتاب هو الحامل له، قام الملك النروجي بعد قراءة المحتويات، بالرد على الشخص الذي سلمـه إياه، لأن روحــه وثقت به، وتفـوه بهذه الكلمات: «أرسل شكري الوافـر إلى الملك التقي، ملك فـرنسـا لرغبتـه في أن أكـون برفقته في هذا الحج، لكنني مـدرك إلى حد كبير طبيعة الفـرنسيين، كما قال الشاعر:

كل واحد في السلطة يغار من تابعه

لكنني قلت:

كل متكبر يغار من تابعه

ثم استطرد يقـول: قومي متهـورين، وطائشين، لايعرفـون الصبر تحت أي نوع من الأذى، وكذلك لايصبرون على الضوابط، ولذلك إذا ما نشب أي صراع بين مثل هؤلاء الناس وبين شعبه، فإننا معـاً سوف نجني ضرراً لايمكن رتقـه، لذلك دع كل واحد منا يذهب لوحـده، وليعمل ماقسمـه الرب له، وإنني على كلِ حال قد كتبتُ إلى الملك المذكور، أرجوه بموجب لطفه أن يمنحني امتيازاً، برسـائله المعتمدة، هو أن يسمح لي أثناء ابحاري على طول شاطىء مملكتـه، أثناء حجي، أنه إذا مامـرضت أنا أو أي واحد

من قـومي، أو إذا ما كنتُ أنا بحـاجـة إلى امدادات أو أية أشيـاء ضرورية أخرى، أن أرسو بسـلام في أراضيه، لتزويد نفسي بالذي أنا بحـاجة إليه»، وبناء عليه، فإن الشخـص الذي كان عاقـداً للمقابلة معـه، أي كاتب هذا العمل الحالي، أعطاه الرسائل المعتمدة التالية:

رسالة الملك الفرنسي إلى ملك النروج

«من لويس الذي هو بنعمـة الرب ملك فـرنسا، إلى جميع أصـدقائـه، ورعاياه المخلصين، والنواب الملكيين، والعمد، والقساوسة، وإلى كل من تصل إليه هذه الرسائل الحالية، تحيات:

بما أن صديقنا المشهور هاكو، ملك النروج اقترح —حسبما بعث إلينا يلتمس منا برسالة— أن يبحر إلى مساعدة الأرض المقدسة، نأمركم، أنه إذا ماحـدث وقام الملك المذكور أو أسطوله، بأخذ طريقهم فـوق البحر على مقـربة مـن سـواحل أراضينا، أو حـدث ووصل إلى أي مكان من ممتلكاتنا، عليكم استقباله واستقبال قومه بلطف وتشريف، والسماح لهم بشراء الامـدادات في أراضينـا، وتزويد أنفسهم بالضروريات بمـوجب ابتياع مشروع.

صنع في سينت جيرمين Germains في سنة ربنا ألف ومائتين وثمان وأربعين».

وعندما قـرأ ملك النروج، الذي كان لبيباً، ومعتـدلاً، ورجلاً متعلماً، هذه الرسالة، كان مسروراً جداً، فكـرر الشكر لحاملها، وذلك بالاضافة إلى مكافأته بجوائز ملكية وغنية.

الخطر الذي تعرض إليه إيرل وينكستر

وفي هذه الآونة، عندما كان روجـر، ايرل وينكستر مترئساً في أراضيه في غالوي Galway التي عادت ملكيتها إليه بموجب حق زوجته

ابنة آلان Alan صاحب غالوي، وأثناء ممارسته طغياناً أكثر من المعتاد ضد نبلاء تلك البلاد، وقع فجأة تحت الحصار في إحدى قلاعه، عندما لم يكن مستعداً لذلك، ومن دون امدادات، أو وسائل للدفاع، وعندما رأى آنذاك أنه كان معرضاً لموت مهين، آثر أن يقتل في المعركة على أن يتلاشى من الجوع، فامتطى فرساً ثميناً، مسلحاً تمام التسليح، وفتح فجأة أبواب القلعة، واندفع مع عدد قليل من الأتباع الجريئين، وتابع انقضاضه على وسط الأعداء، حيث فتح طريقه بالسيف، وسقط عدد من حول يديه، ونجح أخيراً في شق طريقه، وفرق الأعداء، وبصعوبة نجا بحياته، وقد تابع سيره دون أن يرخي عنانه، حتى وصل إلى ملك سكوتلندا، الذي إليه قدم الشكاوي، وبناء عليه قام الأخير بمعاقبة العصاة، وبسلام أعاد الايرل إلى ممتلكاته.

كيف لم يسمح لوليم الملك المنتخب بالدخول إلى اكس لى شابيل

وجرى في هذه الآونة منع وليم كونت هولاندا، الذي انتخب مؤخراً ملكاً لألمانيا من الدخول إلى مدينة اكس لى شابيل (آخن)، حيث كان سيجري تتويجه، وحيث كان متوقعاً أن يستقبل، ويشرّف بالتاج الملكي، وفقاً لعادات الألمان، لأن كونراد ابن فردريك، ملك ألمانيا المخلوع، قد عارضه بفعالية، وكان —على كل حال— قد تلقى رسالة ودودة، أرسلت إليه من قبل أوكتافيان، النائب البابوي هناك، ومن رئيس أساقفة كولون، ومن بعض آخر من نبلاء ألمانيا، نصحوه فيها بأن لايسير مقلداً لأبيه، وأن لايتبع طريق رجل محروم كنسياً ومخلوع، حتى لايتورط بعقوبة مماثلة، وردّ كونراد على هذه الرسالة قائلاً: «إنني سوف لن أتخلى عن أبي من أجلكم، ذلك أنكم خونة»، ولذلك وضعت المدينة تحت الحصار، وبدأت معركة هي الأكثر دموية بين مؤيدي الحزبين، وقد ازدادت —على كل حال— قوة الكنيسة بفضل جهود الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، والمال الذي جمع، وأرسل من قبل البابا،

ومن المناطق الألمانية، والمناطق المجاورة لها، وتناقصت قوة جيش كونراد يومياً، لأن الملك المنتخب المتقدم ذكره كان متحالفاً بصلة النسب والقرابة مع كثير من أعلى النبلاء مرتبة في ألمانيا، فقد كان هو وأسقف لييج أبناء عم (خال) وكان دوق برابانت خاله (عمه)، وكان نبلاء آخرون مرتبطون به بروابط متنوعة، وكذلك بوساطة الهدايا.

حول طاعون انتشر في هذه الآونة

في أيام برج الكلب، وعندما كانت الشمس مائلة في دائرة البروج، خاصة في شهر أيلول، بدأ طاعون واستعر مع موتان بين الناس، واستمر ذلك لمدة ثلاثة أشهر، وكان شديداً إلى حد أن تسعة جثث أو عشرة دفنت في يوم واحد في مقبرة كنيسة واحدة، هي كنيسة القديس بطرس في بلدة القديس ألبان.

موت إيرل فيرار مع بعض النبلاء الآخرين

مات في هذا العام بعض النبلاء في انكلترا، وكان من بينهم وليم ايرل فيرار Ferrers, وكان رجلاً مسالماً وصالحاً، وقد مات عن عمر متقدم، وكان ذلك في حوالي عيد القديسة كاترين، بعدما عانى طويلاً من آلام الأمعاء، وجرى زواجه من زوجته الكونتسة، بشكل مهيب على يدي القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري، وماتت في الشهر نفسه زوجته م. M كونتسة فيرار، بالعمر نفسه وبشهرة مساوية وصلاح، وبناء عليه خلف الايرل المذكور في ايرليته من قبل ابنه وليم، الذي كان أسن أولاده ووريثه، وكان رجلاً صالحاً ولبيباً، لكنه كان مصاباً بشكل تعيس بالمرض نفسه الذي عانى منه والده، ومات أيضاً أسقف كنيسة القديس داود، وكان رجلاً مقدساً وتقياً، وكان من قبل راهباً في طائفة الفرنسيسكان، وكان كريماً جداً، لابل الأكثر كرماً بين جميع نبلاء ويلز، حيث ولد، كما كان شخصاً جميلاً، وقد هلك

بعـدما أنهك بوسـاطة الاضطراب، والحزن لدى مشـاهدته نهب مـوطنه الأصلي ودماره، وبالاضافة إلى هؤلاء مات نبلاء آخرون، كان من بينهم الفارسان: رتشارد دي بورغ، ووليم فتز— هام.

وصف مختصر للعام كله

هذا العام مع أنه كان وافراً جداً بالحبوب، كان جدباً بالفواكه، وكان عاماً أنتج الأذى لانكلترا، والطغيان لويلـز، والعدوان للأرض المقدسة، والاضطراب والفـوضى للكنيسـة، وكـان مصـدراً للدمـاء في ايطاليـا، والحروب والعـدوان إلى الامبراطورية وإلى البـلاط الرومـاني، وبشكل خـاص لمملكة ألمانيـا، والشعـور بالكراهيـة في القلوب لدى الأسـاقفـة ولدى عدد كبير آخر، ضد البابا، بسبب أنه أفقر بالقوة حماتهم، وعلقهم مـانعاً إياهم مـن جباية منافعهم، وهي واقعـة لم يسمع بمثلهـا من قبل، وضد الملك لأنه تساهل تجاه مثل هذه الإجراءات.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٤٨، هو العام الثاني والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، وكـان الملك المذكـور في وينكستر في أيام عيـد الميـلاد، وفي ذلك المكان تولى الاحتفـالات لذلـك الموسم، برفقـة عـدد كبير جـداً من النبـلاء، وتناول في اليوم التـالي لعيد الميلاد، طعـام الافطار مع وليم أسقف تلك المدينة.

كيف حمل إيرل ليستر مع كثير من النبلاء الآخرين الصليب

وحمل في هذه الآونة نفسهـا ايـرل ليستر شـارة الصليب المقـدس، في سبيل أن يتحـرر من ذنوبه، وينال الـدخـول إلى الجنة، فنتيجـة التفكر بنفسه، كان خـائفاً جداً، حول مايتعلق بـالزواج الذي عقده مع زوجته، التي كانت من قبل، قد نذرت نفسهـا، بحضور القديس ادموند، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، للرهبنة، قـامت الكونتسـة التي وقعت، أيضـاً تحت

التأثير نفسه، فاعتقدت بالروح نفسها وآمنت، لذلك ما أن رأت زوجها يحمل شارة الصليب، حتى طارت بكل سرعة لحملها أيضاً، وتسلم كثير من الفرسان مع آخرين أيضاً من حواشيهم الشارة المقدسة نفسها، للحصول على مكافأة الخلاص الأبدي، وبالاضافة إلى هؤلاء فعل عدد من النبلاء الشيء نفسه، واقترحوا بأن ينطلقوا برحلتهم مع أعظم المسيحيين، الملك الفرنسي، الذي تنازل الرب من أجله بشكل اعجازي، وأعاده من أبواب الموت، أو بالحري من الموت نفسه، الأمر الذي عمل ليس من دون قصد، لأنه قد قيل من خلال الكهانة، لابل بالحري من خلال روح التنبؤ، وتأكد ذلك في كل مكان بمثابة حقيقة، بأن الرب قد أعاد الملك المذكور إلى الحياة، حتى يتمكن بالقوة من انتزاع ميراثه من أيدي أعداء الصليب.

فرار أسقف بانغور إلى راعي دير القديس ألبان

وفي حوالي الوقت نفسه، وصل رتشارد أسقف بانغور Bangor, إلى راعي دير القديس ألبان، يرجو ذلك الراعي أن يفتح صدر الرحمة إليه في فقره، وأن يتمكن من الإقامة معه حتى تتمكن أسقفيته، التي تدمرت في الحرب من استرداد عافيتها قليلاً، ومن أجل أن يتمكن هو وكهنته من استرداد أنفاسهم، بعد الاضطرابات والمظالم التي أحاطت بهم، وذلك وفق الطريقة نفسها مثلما فعل أسقف هيرفورد، الذي مكث هناك، وأنفق عليه بكرامة لحوالي العشرين عاماً.

مرض رتشارد سيوورد الخطير

وفي تلك الآونة نفسها أصيب رتشارد سيوورد Seward, الذي كان فارساً متميزاً، والذي تقدم ذكره كثيراً من قبل في هذا الكتاب، بشلل غير قابل للشفاء، وحمل إلى فراشه في حالة ميئوس منها، وكان يأمل أن يتمكن أثناء مرضه الطويل، من التحرر من ذنوبه

الماضية، ومن ثم أن يطير إلى الحياة السرمدية.

وصول بيتزايس كونتسة بروفانس إلى إنكلترا

ووصلت في هذا العام أيضاً بيترايس، أرملة ريموند كونت بروفانس المتوفى، إلى انكلترا، مرافقة بتوماس أوف سافوي، الذي كان كونت فلاندرز من قبل، وتظاهرت أنها أرادت زيارة أصدقائها وأقربائها، أما السبب الحقيقي لقدومها، فمن الممكن تبيانه إلى الذين يرغبون في معرفته، فهي قدمت مع توماس، لأنهما كانا متعطشين، ويريدان اللجوء إلى النبع نفسه، على أمل الارتواء من ثروات الملك الوافرة، وأن يملأ من سخائه حقائب خيولهما الفارغة والفاغرة، أثناء مغادرتهما.

وفاة روبرت أسقف باث

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في حوالي عيد القديسة هيلاري، غادر روبرت أسقف باث طريق الجسد، وبناء عليه، وضع الملك —كما جرت العادة— يديه الجشعتين على ممتلكات تلك الأسقفية، حتى ينهب منها كل مايستطيع جرفه وجمعه.

قيام الملك الفرنسي بإعادة حمل الصليب

وتعرض الملك الفرنسي في هذه الآونة إلى ملامة حادة ونقد شديد من نبلائه، فهو كما معروف بشكل جيد قد حمل الصليب، وجاء توجيه النقد إليه، لأنه —بناء على نصائحهم— لم يحرر نفسه وينقذها من نذره بأية طريقة من الطرق، وكان بين الذين لاموه أمه السيدة بلانشي، وأسقف باريس الذي كان مدركاً لسذاجته، لذلك أصبح أكثر إلحاحاً، وقد ثابرا معاً على مناقشته، حيث قال الأسقف له: «تذكر أنك عندما حملت الصليب، عملت نذرك فجأة ومن دون مشورة، فلقد كنت مريضاً، وإذا أردت الحقيقة، كنت محروماً من مداركك، فقد انتقل دمك إلى عقلك، ولم تكن بذي عقل سليم، ولذلك فإن الكلمات التي تفوهت

بها، كانت فارغة من وزن الحقيقة والتأثير، وقداسته سوف يمنحنا بلطفه تحليلاً، عندما سيعرف أوضاع المملكة الضرورية، والوضع الضعيف صحياً لجسدك، ونحن في الجانب الأول نخشى من قوى فردريك المنشق، ومن الجانب الثاني دهاء ومكر ملك انكلترا الغني، ونخشى هنا من خداع الخونة البواتيين، علماً بأنهم قد قهروا مؤخراً فقط، وهناك اعتراضات الألبينيين، التي هي مسألة ذات ريبة، وألمانيا في حالة اضطراب، وايطاليا غير مستقرة، وسبل الوصول إلى الأرض المقدسة صعبة، ومن الصعب إيجاد مكان لاستقبالك فيه، وأنت أيضاً تترك وراءك الكراهية الشديدة، والعداء المميت بين البابا والامبراطور فردريك، فإلى من تتركنا معزولين؟ وضغطت عليه أمه أيضاً بفعالية أكبر، وتعاملت معه بعاطفتها، فقالت له: «ولدي العزيز، استمع، وأصغ إلى نصائح أصدقائك العقلاء، ولاتكافح ضد حكمتك، وتذكر فضيلة اطاعة أمك والاستجابة لرغباتها وكم هذا يرضي الرب، امكث في مملكتك، فالأرض المقدسة سوف لن تعاني ولن تتدهور من عدم ذهابك، ومن الممكن ارسال جيش كبير، يكون أكبر مما لو ذهبت إلى هناك شخصياً، فالرب ليس مفتري، أو مثير للاعتراضات التافهة، فأنت ولدي، وأنت معذور لفقدانك لعقلك، وعانيت من بلادة جميع مشاعرك أثناء مرضك، لابل أثناء ذلك حتى الموت أو ضلال العقل»، وانزعج الملك من هذه الحجج كثيراً، وأجابهما قائلاً: «لقد احتججتما بأن فقداني لمداركي كان السبب في حملي الصليب، وبناء عليه، وأخذاً بنصيحتكما وتماشياً مع رغبتكما، سوف ألقي الصليب جانباً، وأتخلى عنه لكما»، ثم رفع يده نحو كتفه، ونزع الصليب من عليه قائلاً: «مولاي الأسقف، هاكم الصليب الذي حملته، إنني عن طواعية أتخلى عنه لك»، ولدى فعله ذلك استولى سرور لايمكن وصفه على جميع الذين كانوا جالسين هناك، إنما فجأة قال الملك وقد تغيرت ملامحه ولهجته: «أصدقائي.إنني الآن لست مفرغاً من العقل أو الادراك، وأنا لستُ

ضعيفاً وبلا قوى، وبناء عليه إنني أطلب الآن صليبي حتى يعاد إليّ، لأن الذي ليس بجاهل بأي شيء، يعرف أن ما من شيء يؤكل يمكن أن يدخل إلى فمي، حتى أقوم ثانية بحمل شارة الصليب»، وأعلن الذين كانوا جالسين هناك، لدى رؤيتهم هذا، أن اصبع الرب كانت في هذه الاجراءات، وأن القدرة اللاهوتية، قد تولت صنع هذا من السماء، ولذلك ما من واحد تجرأ على إثارة المزيد من النقاش حول القضايا التي تقدم ذكرها، ولقد قمنا بتدوين كل شيء، وذكرنا جميع الأشياء، حتى يكون كل واحد مدركاً لمثابرة أعظم المسيحيين، أي الملك الفرنسي في استمراره في خدمة المسيح.

حول البارلمان العام الذي عقد في لندن

في حوالي بداية العام، وفي ثمانية عيد الطهارة، جرت دعوة جميع نبلاء انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث مع الملك، حول شؤون المملكة، التي كانت الآن مضطربة كثيراً، وفقيرة، ومتضررة، وتماشياً مع هذه الدعوة، قدم إلى هناك تسعة أساقفة، وتسعة إيرلات، بالاضافة إلى عدد كبير من البارونات والفرسان، ونبلاء آخرين، وكذلك رعاة ديرة، ورؤساء رهبان، وكهنة، وكان من بينهم رئيس أساقفة يورك، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، ونورويك، ووركستر، وشيستر، وإيلاي، وروكستر، وكارآيل، والايرل رتشارد، وايرلات: غلوستر، وليستر، وووينكستر، وهيرفورد، وروجر بيغود، والايرل مارشال، وايرل اكسفورد، وبالإضافة إليهم: ايرل لنكولن، وايرل فيرار، وايرل وارني، وب. P أوف سافوي، وايرل رتشموند، أما الأساقفة الذين لم يكونوا حاضرين في هذا الاجتماع الكبير فهم: بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان يقاتل لصالح البابا في القارة، وأسقف درم الذي كان مريضاً في مكان بعيد، وأسقف باث، الذي مات مؤخراً.

ثم شرح لهم الملك مقصده، الذي لم يكن في الحقيقة سراً بالنسبة

للجماعة بشكل عام، فقد طلب مساعدة مالية منهم، وبناء عليه نقد بشكل حاد، ووجهت الملامة إليه، فهو لم يخجل من طلب مثل تلك المساعدة في ذلك الوقت، خاصة وأنه أثناء الاستخراج الأخير لمثل هذا النوع، والذي وافق عليه نبلاء انكلترا بصعوبة كبيرة، وقتها أعطى صكه، بأنه لن يقوم ثانية بمثل هذا الاستخراج، كما وجّه اللوم إليه بحدة بالغة (ولاعجب) للطريقة غير الحكيمة، التي دعا بها الأجانب إلى المملكة، ولتوزيعه ببذخ وبشكل غير معقول ممتلكات المملكة بينهم، وأيضاً لتزويجه نبلاء المملكة من أجنبيات وضيعات، وبذلك ازدرى أبناء بلده، ورعاياه الطبيعيين، وأقصاهم، وعمل الزواج من دون طلب موافقة الطرفين، الذي هو ضروري لإكمال الزواج، وقد ليم أيضاً —لكن ليس من دون سبب— لأنه استولى بالقوة على كل شيء استخدمه، مثل اللحوم والشراب، ولاسيما الخمرة، لابل حتى على الملابس، ضد إرادة الذين يتولون بيع هذه الأشياء، وكانوا الملاكين الحقيقيين لها، ولذلك انسحب الباعة، وأخفوا أنفسهم، ومثلهم فعل الأجانب، الذين لم يعودوا يجلبون بضائعهم للبيع في تلك البلاد، وهكذا جرى ايقاف التجارة، التي منها حصلت شعوب بشكل متبادل على الثروة والقوة، وبذلك ساءت سمعتنا، ولحقنا الفقر، لأن الباعة والتجار حصلوا على لاشيء من الملك سوى قضايا قانونية وغضب، وبفعله هذا حصل الملك على لعنات رهيبة، من أعداد لاتحصى من الناس، مما ألحق الخطر به والعار، وبكل المملكة، وعلاوة على ذلك، وفي سبيل أن يقوم بإعطاء الصدقات بشكل غير مستقيم، ولكي يحصل على شهرة واسعة، استولى بالقوة على الشمع، والحرير، والأقمشة، وعلى أشياء أخرى، من دون تقديم أية شروط للترضية، وبذلك جلب الفضيحة لنفسه، ولمملكته، وإلى جميع سكانها، و لم يكن ذلك من دون اغضاب للرب بشكل جدي، الذي يعدّ السلب مقرونا مع المقت، عندما يربط بأعطية، وفي ممارسته لهذه الإجراءات اعتمد على الطغيان والظلم إلى درجة بلغ

فيهـا أنه لم يسمح على شـاطىء البحـر، بتـوزيـع سمك الرنكة والأنواع الأخرى من السمك، بناء على رغبة صيادي السمك الفقراء، كما أنهم لم يتجـرأوا على الظهـور في أمـاكـن مجاورة لشـاطىء البحـر، أو في المدن، خشيــة من أن يتعــرضــوا للسلب، وعلى هذا عــدّوا أنه أسلم لهم أن يعهدوا بأنفسهم إلى الأمـواج العاتية، وأن يذهبوا إلى الشـواطىء النائية، وتعرض التجّار التعسـاء إلى الظلم الوحشي، واسيئت معاملتهم من قبل وكلاء الملك، وبهذا أضيفت العقـوبات إلى الخسارة، وتكدست الأضرار فـوق الأضرار، فيما يتعلق بكل مـن أشخـاصهـم، وكــذلك بالنسبــة لبضـائعهم المحمولة، وانهاك خيـولهم، وعـلاوة على ذلك استحق الملك الشجب، لأنه تصرف على عكس يمينـه الأول والرئيسي الذي أداه عند تتويجه، فقـام بافقار الأسقفيات ورعايات الديرة إلى حـد الدمار، وعمل الشيء نفسه بالنسبة للأوقاف الشـاغرة، التي كانت قد تأسست من قبل النبلاء والآباء المقدسين، حيث احتفظ بها لوقت طويل بين يديه، مع أنه كان من المتوجب عليـه أن يكون الحامي لها والمدافع عنها، ولهذا قد قيل إنهم بحكم كـونهم بين يديه، هم تحت حمايتـه، وعملت شكوى أخـرى ضـــده، من قبل كل واحـــد، ولم تكـن شكوى خفيفــة، وكــانت هذه الشكوى، هو أنه كـان على عكس أسلافـه النبلاء، هو لم يعين لارجـال عـدالة، ولا مستشـارين، ولاخـزنة، لتسير المملكـة بالتـوافق العـام مع نصـائحهم، كما ينبغي وحسبما هو مـوائـم، وعيّــن فقط أناسـاً مطيعين لرغبــاته في كل شيء، شريطة أن يكون ذلـك مفيـداً له شخصيــاً، وأن لايستهـدفوا فـائدة المصلحـة العـامة، بل منفعتهم الخاصـة بجمع المال، والحصول على الإدارات، والموارد لأنفسهم.

الملك يسعى لتهدئة جماعة إنكلترا بالوعود

وعندمـا سمع الملك جميع هذه الشكايات اضطرب واستحى بنفسـه، لأنه عرف بأن جميع هذه التهـم كانت صحيحة، ولذلك وعـد باخلاص

شديـد، بأنه راغب باصلاح هذه المسـائل، وكان يأمل أنه بهذا التـواضع —مع أنه ظـاهري— سـوف يكون أسهل عليـه إلانـة قلوب الجميع ليـوافقوا على طلبـه، وعلى هذا، حـدث على كل حال، أن الجماعـة التي غالباً ما وقعت بمصيدة مثل هذه الوعود، أجابت قائلة: «إن هذا سوف يظهر بشكل واضح بما فيـه الكفاية، وخـلال وقت قصير، ونحن سوف ننتظر بصبر، وحسبما سيتصرف الملك، ويوجّـه نفسـه نحـونا، وعلى هذا نحن سـوف نطيعـه في جميع المسـائـل»، وهكذا وضع كل شيء جـانبـاً، وسوف يعاد النظر به وبتقديـره، وسوف يمتد الانتظار حتى أربعة عشر يوماً من ميلاد القـديس يوحنا المعمدان، وأصبح الملك في الوقت نفسه، إما بمبادرة منه شخصياً، أو بناء على تحريض من رجال بلاطه، الذين لم يرغبـوا باضعـاف سلطاتهم، أصبح أكثـر فظاظة، وأشـد سخطاً ضـد رعـاياه، واهتم قليـلاً بعمـل أي تعـويض أو اصـلاح لهم، مقـابل التجاوزات التي تقدم ذكرها أعلاه، وذلك حسبما وعد أن يفعل.

كيف ظلم أسقف درم كنيسة التاينماوث

قام في هذه الآونة، نيقولا، أسقف درم، بطريقة غير موائمة، وبسلوك غير صحيح، لايتماشى مع كرامته، ومع الأخوة التي تأسست بينه، وبين بيت دير القديس ألبان، بعد ترتيبـات السلام بينهما، حول مسألة الزيارة التفقـدية لكنيسة التـاينماوث، قـام بالشروع بمضـايقة تلك الكنيسـة في القضايا الدنيوية، إلى أقصى مـا امتلكه من طاقة، مما سبب الأذى، ودفع النفقـات من قبـل الفئتين، وليضيق امتيـازاتها، الممنوحـة لها، بمـوجب صكوك الملوك النبـلاء، والتي تمتعت بها لسنوات طوال، ولذلك جـرى ارسال واحـد من رهبان كنيسة القديس ألبـان، ليلتمس منه الاقلاع عن مثل هذه المنغصـات، لكنه استخف بكل من الانذار والالتماسـات التي تقدم بها الراهب المذكور، وأبدى الشيء نفسـه نحو الرسالة التي جلبت إليـه من راعي دير القـديس ألبـان ومن التجمع الديـري، وأعلن أنه

يمتلك سبباً صحيحاً في مناقشة مثل هذه القضية، التي كانت —على كل حال— مزيفة بشكل واضح، مع أنه أعلن أنها تقررت من قبل اثني عشر فارساً، جرى اختيارهم بالاجماع وبموافقة كلا الفريقين، وبما أن هذا يمكن مشاهدته بكل وضوح من قبل كل واحد يمكنه أن يتفحص بدقة امتيازات كنيسة القديس ألبان، وهي امتيازات أنقصها إلى حد كبير في المسائل الروحية، والتي يقوم الآن بانقاصها وخرقها في المسائل الدنيوية، ولذلك نحن نعتقد أنه من المفيد تقديم عرض مختصر عنهم في هذا الكتاب.

حرية وامتيازات كنيسة القديس ألبان

«سوف تكون كنيسة القديس ألبان، وديرتها، وكل شيء عائد إليهم، معفية من دفع جميع الضرائب إلى: الملك، والأسقف، والايرل، والدوق، والقاضي، أو الوكيل، ومن جميع الخدمات التي تفرض بالعادة، وتقضي ارادتنا، بأن لايكونوا ملزمين بتقديم الإجابة حول أية قضية، إلى أي واحد، باستثناء الحبر الروماني.

بند: نحن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف من الإقدام على عمل أي استخراج أو فرض أتاوة، أو أي ادعاء، أو ممارسة أية أعمال أسقفية في ديركم.

بند: إن الأماكن التي ليس لكم فيها حقوق حبرية، سواء أكانوا بيعاً أو مقابر، وسيكونون معفين من جميع الاستخراجات، وفي مثل هذا الكنائس أو البيع، لك ولرهبانك الحق في اختيار كهنة، على شرط أنهم سوف يتسلمون مهمة معالجة النفوس من الأساقفة أنفسهم، أو من نوابهم، من دون أي شراء، وبعد أن تقوم بتعيين مايكفي لهؤلاء الكهنة، بتجهيز أنفسهم بالضروريات من الطعام واللباس بشكل لائق، إنك سوف تمتلك الحرية في تحويل المتبقي لاستخداماتك الخاصة.

وكنا قد بعثنا إليكم، بوساطة رسائلنا الرسولية، أوامر إليكم، وإلى الأساقفة الآخرين، لتقديم المساعدة من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وقد تأثرت أنت —كما سمعنا— بما ذكرناكم به، فأوقفت جزئاً من عشرة من موارد كنيستكم وديرتكم، ومن موارد الخاضعين إليكم، من أجل ذلك الهدف التقوي، وبناء عليه نحن نقدر احسانكم بالرب، ونطريه ونثني عليه، وننظر إلى مقاصدكم الرفيعة نظرة رضا وموافقة، وبموجب سلطات هذه العروض، واعتماداً على هذا العمل الضروري والتقوي، نحن نمنع —تحت طائلة عقوبة التكفير— أي شخص لاهوتي أو مدني من الآن فصاعداً، من القيام بارغامكم أو ارغام كنيستكم، أن يتعرض إليكم بمثل هذا، أو بقضية مماثلة، أو مضايقتكم أو مضايقة كنيستكم أو ديرتكم، في أية طريقة مهما كانت، خشية (لاسمح الرب) أن تجبروا في يوم أو آخر، على الرغم من أنفسكم، أن تكرروا عملاً كنتم قد عملتموه خروجاً عن الحرية المخلصة، أو «الخير الخالص» . (وعلى كل حال أرغم الأسقف المذكور كنيسة التاينماوث على الاسهام في بناء كنيسة درم، وفق الطريقة نفسها، كما فعل جميع اللاهوتيون في جميع أرجاء أسقفيته).

«إلى جميع الأساقفة في جميع أرجاء إنكلترا، إلخ:

«بما أن كنيسة القديس ألبان هي عائدة إلى القديس بطرس، وملكاً له، إلخ، إلخ، إذا ما رفض أي من الناس أو الكهنة العائدين إلى الكنائس الاستجابة إلى راعي الدير المتقدم ذكره أو الرهبان حول مايتعلق بالمسائل الدنيوية، أو أن يدفع لهم المعاش المستحق، نحن نمنح راعي الدير المذكور والرهبان السلطة الكاملة لأن يأخذوا منهم من دون أية معارضة أو إجازة استدعاء، أي شيء عندهم في كنائسهم، أو بيعهم، والذي احتفظوا به وهو عائد لهم، وذلك حتى يتم ارغامهم، ولو كان ذلك دون إرادتهم، على الاستجابة لهم، فيما يتعلق بالقضايا الدنيوية،

وأن يدفعوا لهم معاشاتهم». (منع الأسقف المذكور على كل حال بعض القساوسة من دفع المعاش المستحق إلى كنيسة التاينماوث).

«ونحن عن رغبة وطواعية قابلون لمطالبكم العادلة، وذلك بموجب السلطات الرسولية، وبحماية هذه الوثيقة الحالية، ونؤكد، ونوثق لكم ومن خلالكم لكنيستكم، بحكم أنها جزء من الدير المذكور، الممتلكات التي أضفيت عليكم بكرم تقوي من قبل أهل الإيمان، وأيضاً المنح والامتيازات والمنافع الأخرى التي منحت إلى كنيستكم من قبل الملك رتشارد صاحب الذكرى اللامعة، ومن قبل ولدنا المحبوب في المسيح جون الملك المشهور لانكلترا، حسبما أنت متملك لهم بسلام وعدل، وبشكل كامل تبعاً لما ورد في صكوكهم، وأيضاً هذا فيما يتعلق بالكنائس ومعاشاتها، المؤكدة في رسائل من قبل المطران ومن قبل أسقف المنطقة، وكذلك امتيازاتهم مع الإعفاءات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، ولصالح ديرته، إلخ، إلخ».

لكن بعد إعادة تأسيس السلام وفق البنود التي تقدم ذكرها، بين الأسقف المتقدم ذكره —الذي أقدم بطيش على خرق الامتيازات التي تقدم ذكرها— وبين رئيس رهبان التاينماوث ورهبان الدير، الذين تعرضوا إلى المضايقة والأذى من قبله بطرق مضاعفة كثيرة، قام الأسقف المذكور بالاقدام شخصياً على اغضاب رئيس الرهبان المذكور وايذائه، ومعه رهبانه، في مسائل دنيوية، وفي خرقه للامتيازات الخاصة، التي منحت إليهم من قبل هذين الملكين التقيين، وسوف يظهر مدى ايذاء هذه الممارسات الطائشة في رسالة الملك التالية، الذي وصلت إليه صرخة شكوى الكنيسة.

رسالة ملك إنكلترا إلى أسقف درم

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلخ، إلى أسقف درم: نحن

لايمكننا إلاّ أن نعجب، أننا على الرغم من قيامنا بعاطفة كاملة، برجائكم، مرة أولى، ثم مرة ثانية، بالاقلاع عن ايذاء رئيس رهبان التاينهاوث، المحبوب كثيراً لدينا في المسيح، والذي —كما أنت تعرف— يقاتل تحت حمايتنا ودفاعنا، وأنت لم تزعج نفسك بالاستجابة لالتماساتنا لصالحه، ونحن مرغمون على أن نعيد إلى ذاكرتكم، أننا صدوراً عن الاحترام لكم قد أحلنا هذه المسألة إليكم، بحكم أننا نعتقد بشكل ثابت، ونأمل بأن تقنعكم حكمتكم ولطفكم بأن تفعلوا طائعين متطوعين، الذي سوف تكونوا مرغمين على فعله بموجب شريعة المملكة، وبموجب السلطات الملكية، وفي سبيل أن تكون الأمور واضحة بيّنة إليك، بأننا قمنا للمرة الثالثة بتحويل هذه القضية إليكم، ولقد قررنا للمرة الثالثة أن نلتمس منكم باخلاص، وصدوراً عن التماساتنا، وللاحترام المتوجب عليك نحو أميرك، أن تتخلى بحرية، ومن دون تأخير، عن الممتلكات العائدة لرئيس الرهبان المذكور التي استوليت عليها، بشكل مضاد لشريعة البلاد، والتي أنت تحتفظ بها بشكل غير عادل، وهو مايمكن البرهنة عليه بوساطة امتيازاته، التي يمتلكها بموجب صكوك من ملوك انكلترا من أسلافنا، وبشكل خاص صك عمنا الملك رتشارد، وهي الامتيازات التي تمتعوا بحرية بها في أيام أسلافنا، وكن على يقين أنك إذا لم تنفذ مطلب التماساتنا تنفيذاً كاملاً قبل ثمانية عيد القديسة هيلاري المقبل، كل الذي أحلناه إليك، ورغبنا الآن باحالته إليك، سوف نقوم بعد ذلك (دون المبالاة بامتيازك، تحت حجة ماينبغي علينا أن نفعله لك، وفي أن لانسمح بإلحاق الأذى بك من قبل الآخرين، من دون التصحيح بموجب السلطات الملكية) بجعل الممتلكات المتقدم ذكرها تعطى إليك، وبالنسبة للخسائر، التي عانى منها رئيس الرهبان المذكور، بسبب الأذى الذي اقترف بحقه، أن تقوم بالتعويض عنها بشكل صالح، ولسوف نرغمك على تقديم عدالة كاملة له. شهدت بنفسي، إلخ، إلخ».

لقد اتضح تماماً بموجب الرسالة المتقدمة، الأذى الذي اقترف بحق رئيس الرهبان المذكور مع ديره، والذي تمتع بالامتيازات والمنح والحقوق نفسها، مثل كنيسة القديس ألبان، وقد جرى منح الكنيسة المذكورة القدر نفسه من الامتيازات، مثلما يمكن قانونياً منحه إلى أي راعي دير، وذلك من قبل الحبر الأعظم، في القضايا الروحية، وفي القضايا الدنيوية، كل الذي يمكن للسلطات الملكية أن تمنحه، وكل الذي جرى منحه لهذه الكنيسة وأضفي عليها من قبل مؤسسها أوفا Offa التقي، ومن قبل الملوك الآخرين لانكلترا.

الانقضاض الذي عمله البارميون والنصر الذي نالوه

بينما كان الحظ يتسابق هكذا مع الشؤون الدنيوية، قام البارميون بالدعوة إلى اجتماع حول قضيتهم العامة، وتذللوا بأنفسهم أمام الرب، وأمام روجر المبارك، أسقف لندن، الذي خصه الرب، وميّزه بشكل مجيد بالمعجزات، وكان هذا الأسقف، قد تعرض عندما كان من قبل مقيماً إقامة قصيرة في مدينتهم عندما كان في طريقه إلى البلاط الروماني، فسرق من قبل البارميين في الليل وسلب من ماله كله، ولذلك غادر المدينة، وفي طريق عودته من روما، لعنها بألم شيد في القلب، وعندما قام سكان المدينة بالتقصي حول المسألة، وجدوا أن مبلغ المال، الذي ذكر أنه قد سرق منه، قد وصل إلى عدد كبير جداً من الماركات، ولذلك تعهدوا بأنهم سوف يعطون بكل تذلل ترضية بذلك العدد نفسه إلى الرب، وإلى قديسه، أي بالقيام ببناء كنيسة بلندن، عن طريق الصدقات أو بأية طريقة أخرى سوف ترضي القديس المذكور.

ولقد قلت هذا بمثل هذا التفصيل، لأنهم سمعوا بأن فردريك، الذي ثابر على حصار المدينة، قد غادر منذ بعض الوقت، لقضاء بعض الأشغال، وترك —على كل حال— جيشه كله تقريباً هناك، وبناء عليه، بما أن الجيش قد نقص عدده، وبما أن قائده كان غائباً، بدا أنه مفيداً لهم

القيام بهجوم مفاجىء على أعدائهم، وقاموا بناء عليه، في أحد الأيام، بعدما طلبوا العون من عليين، وبعدما عملوا التعهد المذكور بكل اخلاص من القلب، استعدوا جميعاً للقتال، وبعدما جرت تعبئة القوات وصف العساكر بشكل منتظم، فتحوا الأبواب بشكل مفاجىء، واندفعوا بصورة غير متوقعة، وانقضوا مثل البرق على العدو، مفضلين الموت في القتال على الهلاك والتلاشي بوساطة جوع مديد، وعندما شاهد ثاديوس هذا، الذي كان المستشار المقرب من فردريك، والذي بثقة عهد إليه بالمسؤولية عن جيشه وأمواله، صرخ تعجباً لكن بعجرفة واستخفاف قائلاً: «تجرأ أخيراً هؤلاء الجرذان على الخروج من جحورهم»، وقام سكان المدينة بهجوم فعال شديد، فتمكنوا في وقت قصير من إلحاق الهزيمة بجيش فردريك كله، وحصلوا على نصر مجيد، وأنزلوا هزيمة مهينة بآلاف الأعداء، وبعد هذا هدموا القلاع التي بناها فردريك حول المدينة، من أجل متابعة الحصار وأحرقوها،وأسروا أيضاً ثاديوس، قاضي القصر الامبراطوري، الذي كان من أكثر الناس فصاحة في مرافعات القضايا الصعبة، وكان حكيماً في تقريرهم، كما استولوا أيضاً على مبلغ كبير من المال، كان قد ترك بعهدته، وقد رفضوا الاصغاء إلى أي من كلماته المعسولة واللينة، خشية الوقوع في أي زيف، فقطعوه إلى قطع، وأنزلوا الهزيمة أيضاً بالكريمونيين Cremonese, الذين وقفوا إلى جانب فردريك أثناء الحصار، ولإلحاق العار والخزي بمدينتهم استولوا على رايتهم، وبعدما تمكنوا هكذا من تمزيق جيش فردريك كله وإلحاق الفوضى به، عاد المنتصرون مسرورين إلى مدينتهم، جالبين معهم أسراهم، وكمية من السلاح، والمال، والامدادات، والخيم، وأشياء أخرى نافعة، وذلك دون أن نتحدث عن الكميات الكبيرة جداً، من الأسلاب الأخرى، واستولى المنتصرون من سكان المدينة على حوالي خمسة عشر ألف رأس من الماشية، بما في ذلك خيولاً ثمينة، ومهرة، وخيول تحميل، وبغال،

وثيران، وكان ذلك كـله على عكس ماتوقعـوه، فقد امتـلأت مدينتهم بجميع الأنواع من الثـروات، وعندمـا وصلت هذه الأخبار إلى البـلاط الروماني، استولى على البابا الفـرح واستبدت به البهجة، وتفوه بالكلمات التالية:

منصورتك، زالت باسم المسيح

لأن فردريك كـان قد منح ذلك الاسم لقلاعه حـول المدينة، وعندما غـدت هذه الواقعة معلومـة لدى فـردريك، تأوه بروحـه، وأخذ يتنهـد بشكل متـواصل وكأنه أصيب بجرح عميق، لأن مـوت ثاديوس وإهانة البابا له جـرحت قلب فردريك، وآلمته بحـدة أكثر من أي من الحوادث والخسائر الأخرى، لأننا نحن الذين نقرأ حوليات التاريخ ونتفحصها لم نجد مثل الكراهية القاتلة التي وجدت بين البابا وبين فردريك، ثم أعاد فردريك تجميع قواته، ومن ثم شرع بمـزيد من التهديدات بالضغط على سكان المدينة بمزيد من الحدة أكثـر من المعتادة، وقـد جرى وصـف هذه الوقائع بتفاصيل وافية أكثر في كتاب الـ Additaments.

إصلاح الأموال الإنكليزية التي فسدت بالنقود المزيفة

وفي هذه الآونة كـانت النقود الانكليـزية قد فسـدت بشكل لايمكن احتماله، بوسـاطة قصاصي النقـود والمزيفين، حتى صـار لايمكن لأهالي البلاد والأجانب أن ينظروا إليها إلاّ بعينين غـاضبتين وبمشاعر انزعاج، لأنها قد تعرضت للقص من حولها حتى وصل القص إلى الجزء الداخلي من الدائـرة، والاطار الذي حمل الكتـابات، إما جـرى تدميره تمامـاً، أو تشـوه بشكل كبير، وبناء عليـه جـرى الاعـلان بوسـاطة المنادين، باسـم الملك، في جميع المدن،والمناطق، والأسـواق، بعـدم أخـذ أي بنس إذا لم يكن قـانوني الوزن، والإطار، ولايجوز تسلمــه، لافي بيع، أو شراء، أو تبديـل، وأن جميع الخارقين لهذا الأمر سـوف يعاقبون، وصرفـت جهود

كبيرة لاكتشاف المتعاملين المزيفين الذين تقدم ذكرهم، حتى إذا وجدوا مذنبين باقتراف هذه الجريمة، سوف يواجهوا العقوبة المستحقة، وفقاً لقرار المحكمة، وجرى بحث دقيق حول هذه المسألة، وبناء عليه تبين أن المجرمين المقترفين لهذه الجريمة هم بعض اليهود، وبعض القراصنة الفاسدي السمعة، وبعض تجّار الصوف الفلمنكيين، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بجميع الأشخاص المقترفين لهذه الجريمة، الذين وجدوا في مملكته، فعلقوا على المشانق وصاروا عرضة للرياح.

موت وولتر موكليرك واثنين آخرين من الرهبان الدومينيكان

وفي الوقت نفسه من العام، في حوالي عيد القدسين: سمعان وجود، أكمل وولتر موكليرك Mauclerc, الذي كان من قبل أسقف كارلآيل، حياته الدنيوية بشكل موائم ورمى عن عاتقيه أعباء العناية بالحياة الدنيا والثروات، وغادر طريق الجسد، وغادر هذا العالم أيضاً في العام نفسه، في الرب، الراهبان الاثنان اللذان كانا من الطائفة نفسها (الدومينيكان)، واللذان من المعتقد أنه لامثيل لهما، وفي الحقيقة لامعادل لهما، عندما كانا حيين، في اللاهوت، وفي العلوم الأخرى، وهذان الراهبان كانا: روبرت بيكون Baconورتشارد فيشكيلي Fishkele, واللذان كانا يحاضران في الكلية نفسها لسنوات طوال، وكانا متميزين بالتبشير بكلمة الرب إلى الناس.

حول زواج فردريك وابنه كونراد

قام فردريك في هذا العام، في سبيل تقوية قضيته في الصراع الذي كان منشغلاً به ضد البابا، فدخل في تحالف مع بعض الزعماء، وتزوج من سيدة ثرية الأموال، وذات مظهر جميل، وأصل مشهور، وتأثر ابنه أيضاً بنية مماثلة، فاقترن بابنة دوق بافاريا، ولدى معرفة هذا من قبل رئيس أساقفة كولون، والذين وقفوا إلى جانب حزب الملك المنتخب

حديثاً لألمانيا، ألحا أكثر من المعتاد وحرصا على ضرورة أن يتم تتويج وليم، الملك المنتخب المذكور، بشكل كامل ومهيب في اكس لى شابيل (آخن)، لكن بسبب معارضة فردريك المذكور، وابنه كونراد حيل بينه وبين إمكانية الوصول إلى تلك المدينة، ولذلك تولى رئيس أساقفة كولون، والنائب البابوي، بالتعاون مع عدد لايحصى من الأساقفة والنبلاء، الذين آثروا قضية الكنيسة (وكان الشطر الأكبر منهم قد تلقى شارة الصليب على أيدي الدومينيكان والفرنسيسكان) تولى بمزيد من النشاط والفعالية، حصار مدينة اكس لى شابيل المذكورة، حيث جرت معارك كثيرة مع نجاحات مختلفة، بين الفئتين، وسقط كثيرون من على الطرفين، واستمر الحصار وتمت متابعته مع كثير من سفك الدماء والخسائر على الجانبين، وتزايد عدد الذين يتولون الحصار يومياً، مثلما يزداد النهر بالفيضانات، ومع ذلك استمرت ثقة المحاصرين عالية، بوساطة رسائل أرسلت بشكل متواصل من قبل فردريك، وابنه كونراد، يحثونهم على عدم فقدان الشجاعة، لأن خلاصهم —كما أعلنا— بات وشيكاً.

حول مبارزة عقدت في نيوبري

عقدت مبارزة كبيرة جداً، يوم أربعاء الرماد، في نيوبري Newbury, وقد عقدت بين فرسان انكلترا لتجريب قدراتهم في ميدان الفروسية وقوتهم، وبما أن الملك كان مؤثراً لها، فقد بدأت بشكل جيد وانتهت كذلك، وتصرف في هذه المبارزة وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، مبدئياً بشكل جريء جداً، فهكذا قاد نفسه من أجل الحصول على اسم مشهور بالفروسية، ولكن بما أنه كان في عمر غض، وغير قادر على تحمل قوى وشدة وحملات الفرسان، فقد رمي على الأرض، ومن ذلك عانى من خسائر كبيرة، وضرب بشكل جيد، من أجل أن يتمكن من تلقي احترافه بالفروسية.

- ٧٧٦١ -

حول اضطرابات الناس وآلامهم نتيجة لتبديل النقود

اضطرب الناس كثيراً في هذا العام، بسبب أوامر الملك المتنوعة، فيما يتعلق باستلام النقود، فقد جرى الإعلان بوساطة صوت المنادي، في جميع أرجاء مدن انكلترا بأن معياراً واحداً من القمح سوف يكلف أكثر من عشرين شلناً، لأن التبديل جرت متابعة تنفيذه في عدد قليل فقط من المدن، وعندما جاءوا إلى هناك تسلموا وزناً محدداً من النقود الجديدة، مقابل وزناً محدداً من القديمة، وأرغموا على دفع ثلاثة عشر بنساً لكل باوند، مقابل عمل الصائغ، أو عامل المال، الذي كان يدعى بشكل عام باسم المبيض، واختلف شكل هذه النقود عن القديمة، حيث كان هناك صليباً مضاعفاً مرّ عبر الاطار الخارجي، في المكان الذي كانت هناك فيه كتابات، إنما في المجالات الأخرى، أي بالنسبة للوزن، والطبع، ولشكل الحروف، فقد بقي ذلك، كما كان من قبل، ولذلك آل مآل الناس إلى ضيق شديد، وعانوا من أضرار كبيرة، حتى بات من الصعب الحصول على عشرين شلناً من على مائدة مبدل النقود، مقابل ثلاثين، وذلك ليس من دون اضطراب، ونفقات لعدة أيام مستمرة، ومتاعب وتوقعات مزعجة، وبما أن الملك حصل على مرابح كبيرة من هذه المسائل، جاء إليه أخوه رتشارد، وكان الملك مداناً إليه كثيراً، وكان قدومه مثل يعقوب آخر، وقال له بذكاء وبراعة: «مليكي وأخي ادفع لي الدين المستحق لي عليك»، وتابع باستمرار الضغط بطلبه، فأجابه الملك قائلاً: «أخي الوحيد من الأبوين نفسهما، أنت ترى حاجتي القصوى من جميع الجوانب، والحصة الصغيرة من الأراضي التي بقيت لي في القارة هي عرضة للمخاطر وللأذى، فغسكوني محمية بترس بوردو وحده، ولتحرير هذه المقاطعة، الأمر الذي وجدته ضرورياً، اقتضى انفاق مبلغ كبير من المال»، وقام الايرل على كل حال، بالمطالبة بصوت مرتفع ووقح بتقديم ترضية له مقابل ديونه، من الأرباح الناتجة

عن ضرب النقود، وكرر طلبـاته من دون توقف بوقاحة، ونظراً لذلك، حصل على وعـد بـأنه سـوف يتسلم المرابح النـاتجة عن ضرب النقـود، والتي سوف تستمـر —تبعاً لمبـدلي النقود— لمدة سبعة أعـوام، وسوف تصل الأرباح نفسهـا إلى عشرين ألف بـاوند، وحصـة الثلـث من هذا الإجراء سوف تحفظ للملك، وبذلك تحرر من ديونه إلى الايرل، وبعدما حصل الايرل على هذا، حصل أيضاً على رسائل توصية من الملك، بمنع تداول جميع النقود التي تعرضت للقص في انكلترا، وفي الحقيقة يتوجب ثقب جميع النقود المقصوصة، وإذا ما جرى اكتشاف أي مبدل للنقود في أي مكان، وقد أعطى بنسين مقابل بنـس واحد، أو ثلاثة مقابل بنسين، ينبغي اعتقاله، ومعاقبته بحدة، وأن تطال المعاقبة ممتلكاته وشخصه، على أسـاس أنه آثم ضد الملك، وخـارق للأوامـر الملكية، ومن المذكـرة التي أرسلت إلى عمـد المناطق، يمكن أن نجـد تفـاصيل وافيـة حـول ذلك، وكلها قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

خسوف للقمر

في عيد حزيران لهذا العام، بعد غياب الشمس مباشرة، تعرض القمر لخسوف كامل تقريباً.

حول إجراءات البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

في شهر حزيران، ومع اقتراب الأربعة عشر يوماً لعيد القديس يوحنا المعمدان، اجتمع جميع النبلاء الانكليز في لندن، معتقدين بثبات، أنه من خلال الوعـود الايجابية للملك، هو سـوف يصلح أغلاطه، وأنه بفضل النعمة التي أضفيت عليه من عليين، سوف يميل بأذنيه إلى الاصغاء إلى الآراء الأكثـر حكمـة، وبناء عليـه، بعـد اجتماع جميع مقـدمي الناس في انكلترا، سمعــوا الرد التـالي المليء بـالنكران يتـدفـق من فم الملك، على شكاويهم المتقدمـة: «أنتم جميعاً زعماء الناس، في انكلترا، تسعـون لجعل

مـولاكم وملككم ينحني أمـام ارادتكم، وأن يكون ذلك أولاً مع شيء من الدمـاثة، ومن بعد ذلك تفـرضون شروط استعبـاد كاملة، وكل مـا سيختاره أي واحد، سـوف يستنكره عليه بوقاحة، وكـل واحد مسموح له أن يتبنى خططـه والخطط التي سـوف يختـارها، ومجدداً إن كل أب لأسرة مسموح له بـأن يعين أي واحد مهما كان لتلك الـوظيفة أو هذه، في بيتـه، أو ليـوقفهـم ويعلقهم أو حتى يخلعهم، غير أن هـذه الحرية —يمكن التنبؤ— أنكم بطيش سوف تقدمون على انكارها على ملككم، ولاسيما أنه لايجوز للعبيـد أن يقضـوا، وأن يلزمـوا سيـدهم بشروطهم، مثلما لايجوز للأتبـاع أن يفعلوا بأميرهم، بل المتوجب أن الذين يعـدون هم الأدنى، ينبغي بالحري أن يحكموا وأن يداروا بمـوجب إرادة ورغبة مـولاهم، لأن العبد ليس فـوق سيده، مثلما ليس التلميـذ فوق معلمـه، وبناء عليـه، إن ملككم سـوف لن يبقى ملكاً، بل سـوف يكون بطبيعـة الحال، عبداً إذا مـا مال هكذا للاصغاء لإرادتكـم، ولذلك هو لن يعزل لاالمستشـار، ولا المسـؤول عن العـدالة، ولا الخازن، كما تقترحـون، وترتبون، وأيضاً لن يعين آخرين محلهم وعوضاً عنهم».

وبالطريقة نفسها، جرى تقديم رد اعتراضي تافه حول المسائل المفيدة إلى الملك نفسـه: «غير أنه طلب معونة مـالية منكم لاسترداد حقـوقه في القـارة، التـي هي تتعلق بكم»، و لـدى سماع النبـلاء لهذه الكلمات، اعتقدوا بشكل واضح وضوح الضـوء، بأن هذا مصدره هو المستشارين الحاليين، الذين كانت سلطتهم سوف تضعف، لابل سوف تخمد، لو أنه تمّ الإصغـاء إلى نصيحة جماعة البـارونات، وعلى كل حال، عنـدما رأوا كيف أجيبـوا، وأنهم قـد عورضـوا بمهـارة وبدهاء، تأثروا جميعـاً بروح واحـدة، وأجـابوا بشكل واضح، أنهم سـوف لن يفقـروا أنفسهم ثانيـة ولابحـال من الأحـوال من دون فـائـدة، وأن يقـوم الأجـانب بالولوغ بكرامتهم فـوق ممتلكاتهم، وأن يتقـوى أعـداء الملك وكـذلـك أعـداء

المملكة، كما حـدث مـؤخراً في القضيـة في بواتو، وكـذلك في غسكوني، حيث تعجـل بطيش ومن دون عقـل، على عكس نصيحتهـم ورغبتهم، وذلك عندمـا تمت مواجهتـه بشكل عـدواني، ونحن بصدق نعتقـد، أنه بناء على مـا ظهـر من جشع الملك، ومن حـالة عـوزه، أنه كـان معتقـلاً بشكل سري وأسيراً، لكن عندما قـام بهدوء بدفع غرامـة، وتولى التعهد صادقـاً، وحلف يمينه، ومنح صكوكه، من الواضح أنـه قد أطلق آنذاك سراحه وبات متحـرراً، ثم كان أن تم التخلي عنه بعدما حـرم من شرفه وكرامتـه وماله وأراضيه، و سمح لـه بالمغادرة بشكل مهين، وسط جميع أنواع الإهاناتِ.

ولذلك ارفض المؤتمر بغضب، وجميعهم هكذا خـدعوا بآمـالهم، التي تصـوروها لوقت طويل وتمنـوها من هذا البـارلمان، وجـاءت متـاعبهم ونفقـاتهم بالنهايـة إلى لاغاية، وربحـوا لاشيء سـوى إجابـات ساخـرة وعابثة على شكاويهم.

كيف باع ملك إنكلترا ثروته المخزونة

عندمـا شـاهد الملك هذه النتيجـة رداً على إجـراءاته، انفجـر بغضب عنيف وقال لمستشاريه: «إنه بسببكم نأت عني عواطف نبلائي، وهاأنذا الآن على وشك فقدان غسكوني، ولقد انتزعت مني بواتو، وأنا مجرد من المال، ماالـذي عليّ فعله»؟، وبعدمـا عقد مؤتمراً جبـاناً، تقرر بنـاء عليه، من دون أية حكمة، وجـوب بيعه ثروته بالوزن، دونما مبـالاة بالذهب، والفضة، والأعمال الفنية، مع أن الأعمال فاقت على المادة بالقيمة، وذلك في سبيل الحصول على المال بهذه الطـريقة وبهذه الوسائـل، وعلاوة على ذلك أضـاف المستشـارون، الكلام الاستشـاري التـالي، وذلك في سبيل تهدئـة الملك ومواسـاته: «وكما أن جميع الأنهار تصب عـائدة في البحـر، هكذا إن كل شيء قد بيع الآن، سوف يعود في وقت ما إليك على شكل هدايا تعويضيـة، لذلك ينبغي أن لاينزعج مولانا الملك»، وبعدمـا جرى

بيع الثروة التي تقدم ذكرها أعلاه، سأل الملك أين بيعت ولمن، وكان الجواب الذي أعطي إليه: «في لندن»، فقال: «أنا أعرف، أنه لو عرضت ثروة أوكتافيان Octavian للبيع، فإن مدينة لندن سوف تشتريها، وتبتلعها كلها، لأن هؤلاء الأخساء اللندنين، الذين يسمون أنفسهم بارونات، يمتلكون وفرة وافرة حتى التخمة، فتلك المدينة بئر لاينضب»، ثم قام على الفور بابداع خطة، سوف يطبقها مع أول فرصة تقوم، بأن يقوم بتجريد اللندنيين من ممتلكاتهم، وهي خطة جاءت الحوادث التالية برهاناً وافياً على تطبيقه لها، والرواية المقبلة سوف تروي ماحدث بالتفصيل الكامل.

كيف انطلق الملك الفرنسي في حملته إلى القدس

عندما برهنت تحولات الأنواء أنها موائمة، والمناخ قد بات طيباً، وقدم الخريف كميات وافرة من الحبوب والخمرة، قام الملك الفرنسي بالحصول على إجازة خاصة في كنيسة القديس دينس وفي أماكن أخرى مقدسة في مملكته، وبعدما عمل تعهداً نذرياً، انطلق برحلته إلى القدس، وعبر من خلال ليون، حيث كان البابا مقيماً، فقدم إليه احتراماته بتواضع واخلاص، ورجاه بشكل جاد، أن يقوم ببذل جهوده في سبيل المحافظة على كرامة الكنيسة في جميع القضايا، وذلك بأن يتنازل بقبول تواضع فردريك، الذي طالب بمسامحته، وأن يمنحه إحسان المصالحة، وأن يفتح له صدر العاطفة الأبوية نادماً، وقال: «إن ذلك يجعل على الأقل عبوري أكثر أماناً وأنا مسافر إلى حجي»، وعندما شاهد البابا وقد بدت عليه ملامح الرفض، غادر آسفاً قائلاً: «أنا أخشى أنني بعد أن أسافر، سوف يجري التخطيط لمؤامرة عدوانية ضد المملكة الفرنسية، بسبب حدتك التي لاتعرف الهوادة، ولسوف تتحمل المسؤولية، إذا ما تعطلت مسيرة الأحداث في الأرض المقدسة، وإنني على كل حال سوف أحرس فرنسا مثل حراستي لبؤبؤ عيني، لأنه على أوضاع تلك المملكة

يتوقف ازدهارك، وكـذلك ازدهار المسيحية كلهـا»، وعلى هذا رد البابا: «إنني طوال ما أنا حيّ، سوف أقف إلى جانب فرنسا، وضد هذا المنشق فــردريك، الذي أدانتـه الكنيســة، وخلعتــه من المنصب الامبراطوري بوسـاطة المجمع العام، وفي الحقيقـة إنني سوف أفعل الشيء نفسـه ضد ملك انكلترا، الذي هو من أتبـاعنا، إذا مـا أقـدم على التحرك العـدواني ضد مملكة فرنسا، أو ضد الحقوق العـائدة لها، وهذا ماسوف أفعله ضد جميع أعـداء المملكة المذكـورة»، وهدأ الملك بعض الشيء بهذه الكلمات، ثم أجابه: «بما أنك عملت هذه التعهـدات، إنني أعهد بمقاليـد حكومة مملكتي الفرنسية إليك»، وبناء عليه جرى ترتيب وجوب إرسال مبعوث خــاص إلى ملك انكلترا ليمنعــه من مهــاجمة أي واحــد من المتعلقين بالمملكة الفـرنسيـة، أو مضـايقتهم بأي شكـل من الأشكال، ومن أجل تحقيق هذه الغاية جرى إرسـال المعلمين ألبيرت وبولص بشكل خاص، وقـد وصلا إلى الملك في ويندسـور، يوم عيـد تمجيد الصليب المقـدس، ليقدما رسـالتهما إليه، لكن هذه الواقعة أبقيت سرية، حتى يتمكن الملك بسهولة من استخـراج المال، في سبيل المطالبة بحقوقـه واستردادها بقوة الســلاح، ثم قـام الملك لـويس بعمل اعتراف طويل ودقيق إلى البــابا، وحصل منه على غفـران لذنوبه، واستأذن قداستـه، وغادر مع مبـاركته، وسافر من ليـون، متوجهاً مع جيشه نحو مرسيليـا، وعندما أخذ يقترب من مـــدينـة أفينون Avignon لم يختر سكان تلك المدينـــــة تحمل اهانات الفــرنسيين المتعجـرفين، الذي أطلقــوا عليهم اسم: الألبينيين، والخونة، والمسممين، فقـامـوا بالهجوم عليهم في الممـرات الضيقـة، التي كـانت معــروفـة بشكل جيـد من قبلهم، وقــد أثير غضبهم الشـديد، وكراهيتهم الكبيرة، بوساطة عـداوتهم المستمرة منذ وقت طويل، فنهبوا بعض الجيش الفرنسي، وقتلوا الـذين تصدوا لهم، وبناء على ذلك اقترح بعض النبلاء الفـرنسيين على الملك وجوب أن يقوم بإلقـاء الحصار على مـدينتهم، على الأقل لسبب واحـد، هو أن ينتقم منهم انتقـامـاً فـاعـلاً

وعادلاً، لقتلهم أبيه، الذي جرى دس السم له هناك، أو أنه إذا ما أراد متابعة رحلته، أن يسمح لهم بفعل ذلك تحت موافقته، وتمكن الملك بصعوبة من تهدئة غضبهم، وقال لهم: «إنني مغادر لفرنسا ليس للانتقام لمصائبي، أو لمصائب أبي، أو أمي، بل لأنتقم لمصائب ربي يسوع المسيح»، ثم استأنف ذلك الملك المسيحي العظيم الإيمان، رحلته على الفور، وعانى من خسائر أكبر على أيدي المرسيليين، إلى حد أن النبلاء أثير غضبهم كثيراً، ولولا أنهم ضبطوا بجدية الملك واعتداله المقدس، لقاموا وهم غاضبين بمحاصرة مرسيليا بشكل فعال، فقد قال لهم الملك: «إن الوقت لعبورنا بات وشيكاً، والرب يمنع من سيطرة الشيطان، لأنه حزين لهذا السبب، وهو يسعى لوضع بعض العراقيل لمنع العبور»، وبعدما تمكن بصعوبة من تهدئة مشاعرهم المضطربة، قام في اليوم التالي لعيد القديس بارثلميو، فأخذ معه بعض العساكر النخبة، وترك وراءه أكثر من ألف من رماة القسي الزيارة، وعدداً كبيراً من الفرسان، والأتباع، وعادوا وهم يشعرون بغضب عظيم وبخجل مهين، وبصعوبة ضبطوا أنفسهم، وتمنعوا عن الالتحاق بملك انكلترا، وعن الاقدام متطوعين على إثارة حرب ضد ملك فرنسا، ولكن لدى وزنهم المخاطر المستقبلية بميزان العقل والحكمة، عادوا بسلام إلى البابا، وعرضوا الدخول بخدمته، وأن يقاتلوا من أجله، بناء على أوامره، ضد أي واحد مهما كان، وقد تمّ اقناعهم بحجج البابا، وبحجج رجال بلاطه، الذين عرفوا أن لديهم كميات وافرة من المال، فقاموا بخلع شارات الصليب، وتخلوا عن امدادات سفرهم إلى البابا، ليحصلوا على اعفاء من القيام بحجهم، وبجيوبهم فارغة، حتى يتمكنوا من العودة والسفر بخفة أكبر، عادوا إلى مواطنهم، مع حصة صغيرة جداً من ممتلكاتهم، فالذي بقي لهم قد اقتصر على مايكفيهم ويمكنهم من الانفاق على أنفسهم أثناء سفرهم، وكان الملك الفرنسي قد سافر في البحر في ذلك الوقت ذاته، وبأشرعة منشورة وجّه طريقه مع ريح طيبة

نحـو قبرص، التي كـانت مليئة بكل الأشيـاء الطيبـة للعيش برفـاهيـة، وذلك في سبيل امضاء الشتاء هناك بسلام، ولاسترداد أنفاسه.

وفي صيف هذا العام، وصلت الأخبار، بـأن مدينة اشبيلية، التي هي مـدينة فخمة في اسبـانيا، قـد تمّ الاستيلاء عليهـا من قبل الملك المنتصر لقشتالة، وكانت هذه المدينة تساوي بالنسبـة لصاحبها تسعة آلاف طالن Talents في كل يوم مـن أيام الأسبـوع، وفي اليـوم السـادس، أحدعشر ألفاً.

الاستيلاء على اكس لى شابيل وتتويج وليم كونت هولاندا ملكاً على روما

في الوقت الذي كـانت فيه قسـوة الشتاء معلقـة فوق العـالم المتجمد، كان المحـاصرون من سكان مدينة اكس لى شـابيل يعانون بحـدة بالغة، لأنهم حرمـوا من جميع سبل الدخول والخروج، ومن جميـع أنواع العون والمشورة، ومن جميع امدادات الطعام، حيث لم يعد لديهم طحين، وصار خبـزهم قـاسيـاً، ولحمهم نتن، وقـد تكسرت أسلحتهـم، وتآكلت من الصـدأ، وكـانت ثيـابهم قـد اهترأت، وتغيرت طبيعـة النسـاء، وطلب الأطفال الخبز، ولم يكن هناك خبـز لتقطيعه واعطائهم إياه، وكان الذين تولوا أعمال الحصـار، مـؤلفين من نبـلاء ألمانيـا، مع النائب البـابوي، ورئيس أسـاقفة كـولون، وأسقف لييج، فقد جلب هؤلاء معهم حشـداً كبيراً جـداً، وتابعوا تنفيـذ هدفهم بكل نشاط وفعـالية، بينما قـام الذين حملوا الصليب، بناء على تبشير الـرهبـان الدومينيكان، بـالتـدفق يوميـاً عليهم من مختلـف المناطق في العـالم، وبناء عليـه غطى رجـال جيش الأسـاقفـة المنطقـة كلهـا مثل الجراد، ولذلك قـامـوا ليـلاً ونهاراً بشكل متـواصل، وعلى نـوب، بقصف الأسـوار وحصـون المدينة، بـالمجـانيق والعـرادات والآلات الأخـرى، التي نصبت على كل جـانب منهـا،

وسحقت الناس الذين كانوا معرضين وبلا دفاعات، وقد طعنوهم بنشابهم، وضايقوهم بكل الوسائل التي توفرت لهم، وهكذا فإن المدينة —بناء عليه— أرغمت بوساطة الحاجة على الاستسلام إلى الأعداء، الذين تعاملوا معها، حسبما رغبوا، وهكذا جرى الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعد ذلك تم تتويج الكونت وليم كونت هولاندا، الملك المنتخب لألمانيا، بشكل مهيب هناك، في يوم عيد جميع القديسين، وكان التتويج على يدي كونراد، رئيس أساقفة كولون، وفقاً للعادة القديمة لملوك ألمانيا، وفي الوقت نفسه، هرب كثير من السكان المحليين، وكذلك المرتزقة الذين وضعهم فردريك هناك لحمايتها، هربوا من المدينة المستولى عليها، التي تحولت إلى الدمار والفقر، وكانوا هم أنفسهم منهكين، فقدوا توازنهم من العوز، وعدّ هذا التتويج —على كل حال— غير شرعي، بسبب أن جميع المنتخبين لم يكونوا حاضرين هناك، ولا حتى وافقوا على ذلك، وكان من بين هؤلاء دوق سكسوني، الذي دخل بتحالف مع فردريك، على أساس ابنة الدوق، التي كان سيتزوج منها، إذا ما تمكن من تأمين مصالحة مع الكنيسة، كما لم يوافق دوق بافاريا على التتويج، وهو الذي كانت ابنته قد تزوجت من كونراد بن فردريك، كما رفض كثيرون اعطاء موافقتهم.

كيف هرب كونراد بن فردريك إلى أبيه

عندما تمكن رؤساء الأساقفة، والأساقفة والقساوسة، والنبلاء الآخرون، هكذا من تنفيذ غايتهم، كان كونراد بن فردريك مسرعاً لانقاذ المدينة، فجرى اعتراضه لدى اقترابه، من قبل الجيش الألماني الآخر، الذي حشده النائب البابوي، وكان جيشاً قوياً، وقد اعترضه وهاجمه بحد السيف، وكان هذا الجيش، تحت قيادة رؤساء أساقفة: مينس Mayence, وميتز Metz,واللورين Lorrain, وستراسبورغ Strasburg, وتألف من عدد لايحصى من

الوحدات من مقـاطعاتهم ومن فريزلاند، وغوثلاند، وروسيـا، وداشيا، ومن مقـاطعات ألمانيـا، ومن أهل الحدود الذين حملوا الصليب، والذين تأثروا جميعـاً بروح واحـدة، وكانـوا كأنهم رجل واحد، وقـاتلوا بجـرأة كـونراد المذكور، وانتصروا عليـه، وأرغمـوه على الفرار مع جيشـه كله، وعند ذلك تراجع الابن مضطرباً، وهـرب بكل سرعة، ولم يوفـر جنبي فرسه حتى وصل إلى أبيه، من دون مواساة من الروح القدس.

كيف غزيت مطردة كنيسة القديس ألبان
لكن أخيراً جرى تحريرها

عـانت كنيسة القـديس ألبـان في هذا العام من كثير من الاضطهـاد، والخسارة، والضرر على أيدي فـرسان، اعتقدت بثقة أنهم كانـوا أصدقاء مخلصين، لأنه مع أن الصيد كـان ممنوعاً قضائيـاً بالنسبة لبعضهم بشكل خـــاص، تحت طائلة عقـــوبة عشرة باونـدات، بدا لآخـــريـن، لم يتم تسميتهم، أنه كان مسموحاً لهم بإجازة كاملة القيام بصيد أرانب برية في المطردة المذكـورة، لأنهم قـالوا بأن مـا كان مقـرراً لمنفعـة الآخـرين، أو محبـوسـاً لصـالحهم، ينبغـي عـدم ردّه إلى ضررهـم، ونتيجـة لهذا جـرى اختيار عشرين فارساً بنطاق، بناء على موافقة جميع الفرقاء، لإعطاء قرار صحيح حول هـذه القضية، ولوضع نهاية لهذا الخلاف، وكـان خمسة من هؤلاء —على كل حال— رجال حمقـى، جاهلين بالحقيقة، ومترددين في عقولهم، وبعـدما أقسمـوا، قالوا بأنهم لايعرفـون الحقيقة حـول القضية بشكل مـؤكد، وقـالوا —على كل حـال— بأن خصـوم راعي الدير لهم الحق في الذي ادعـوه وطالبـوا به، مـالم يكن راعي الدير قـد حصل على صك آخر حول القضيـة، الأمر الذي لم يكونوا يعـرفون بعـد أي شيء حـوله، بشكل مطلق، وعندمـا أخبروا بالصـك الذي لدى راعي الدير، وكـان قد حصل عليـه من الملك الحالي، وذلك بالاضافـة إلى الصكوك القديمـة، اضطرب خصومه وصمتوا، ولولا قيـام هنري باث، المسؤول

عن العدالة، بحمايتهم عطفاً منه، لتمت ادانتهم ولصدر قرار بحرمانهم من مواريثهم، لكن المسؤول عن العدالة، تولى —بموافقة راعي الدير— إلغاء هذا القرار، ولقد كان هذا آخر أثر لاضطهاد قديم، كانت الكنيسة المذكورة قد عانت منه في عام ١٢٤٠، حيث جرى تقديم رواية كاملة حولهم في أحداث ذلك العام، إلى الذين يودون قراءتهم.

تأسيس سوق جديد في ويستمنستر

في الثالث عشر من تشرين الأول لهذا العام، وخلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، توجه الملك إلى لندن، للاحتفال بعيد القديس ادوارد، أي بعيد نقل ذلك القديس، وأرسل رسالة إلى عدد كبير من الأساقفة والنبلاء، رجاهم صدوراً عن صداقتهم واخلاصهم له، بأن يكونوا حاضرين في ويستمنستر، وأن يلتحقوا به ويشاركوه بمهابة وتقوى بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، وبناء على دعوته قدم إلى هناك: الايرل رتشارد، وروجر بيغود، والايرل مارشال، وايرل هيرفورد، وبعض النخبة من البارونات، وبعض الفرسان، وأساقفة: وينكستر، ولندن، وإيلاي، ووركستر، وكارآيل، وعدد كبير من رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ثم أعلن الملك، أنه من دواعي سروره، وأنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادي في جميع أرجاء مدينة لندن كلها، وفي كل مكان آخر، بأنه قد أسس سوقاً جديداً، ليعقد في ويستمنستر، وأن يستمر لمدة أربع عشرة ليلة كاملة، كما أنه أمر بكل دقة، وتحت طائلة غرامة ثقيلة وخسارة، أن تستمر جميع الأسواق التي تعقد في انكلترا لمثل هذه المدة من الزمن، من ذلك على سبيل المثال سوق ايلاي والأماكن الأخرى، كما أنه أمر بجميع السلع التي كانت بالعادة تحمل في لندن، بأن تحمل إلى داخل وخارج أبواب السوق، وذلك في سبيل أن يكون ممكناً بهذه الوسائط، الحضور في سوق ويستمنستر بشكل أكبر من قبل الناس، وأن يكون السوق أفضل تزويداً بالتجارات، ونتيجة لهذا تدفقت

أعـداد كبيرة من الناس إلى هناك من جميع الجهـات، مثلما كـان يجري في الأسواق الكبرى المشهـورة، وقد جرى الاحتفـال بنقل القديس ادوارد، وتعبد الناس الذين اجتمعـوا هناك دم المسيح بدرجة غير متـوقعة، لكن جميع التجـار، الذين عـرضـوا بضائعهم هنـاك للبيع، كانوا عـرضـة إلى ارباكـات كبيرة، لأنهم لم يمتلكوا غطاء بـاستثناء خيم من قماش القنب، وبسبب تبدل هبـات الرياح التي كانت تهاجمهم، كما هـي العادة في ذلك الوقت من السنة، كانت هذه الخيم باردة ومبللة، كما أن التجار قد عانوا من الجوع والعطش، وكـانت أقـدامهم ملوثـة بالوحل، وقـد تعفنت بضائعهم بـزخات المطر، وعندما كـانوا يجلسون لتناول طعـامهم هناك، كان الذين معتادين على الجلوس لتناول طعامهم مع أسرتهم، إلى جانب النار، لم يعـرفوا أبداً كيف يتحملون حـالة العوز وعـدم الراحة، وكـان أسقف ايلاي قد خسر سوقـه في ايلاي، نتيجة تأجيله بموجب ترخيص ملكي، لذلك تقـدم بشكوى ثقيلة إليـه حـول هذه المسألة، ولأنه أدخل كثيراً من التجـديدات، ولكنه حصل على لاشيء سـوى كلمات وعـود تلطيف حول تعويضات مستقبلية.

حول فيضان للبحر غير اعتيادي

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني لهذا العام، فاض البحر، وتجاوز حدوده وتخطاها إلى مسـافة عظيمة، وسبب أضراراً لايمكن تعـويضها، إلى الذين كانوا سـاكنين على مقربة من الساحل، لأنه عندما كـان القمر، وفقاً لتعداد التقويم، في ربعه الأخير، فاض تيار المد بمياه كثيرة من دون رؤية تيار جـزر أو تناقص، ومن المعتقد أن هذا قد حدث نتيجـة هبوب رياح قوية من البحر، ولكن كان قد حدث كثيراً من قبل أن الريح هبت قـوية من البحر، ومع ذلك فإن البحـر نفسـه لم يرتفع بالدرجة نفسهـا، فقـد اعترت الدهشـة حتى الأشخـاص المسنين، لحدوث هذه الـواقعـة الجديدة وغير المعتادة.

حول هزة أرضية مرعبة في سافوي

وقعت في هذا العـام هزة أرضية مخيفـة في سافوي، في وديان مـورين Maurienne, فيهـا تم هدم خمس قـرى مـع حظائـر أبقـارهم وأغنامهم وطواحينهم، وانتـزعت الجبال والصخور في المنـاطق المجاورة من أماكنهـا التي وقفت عليها منذ الخليقـة، وابتلعت واختفت في بعض كهـوفهـا، وليس معـروفـاً فيما إذا كـان هـذا الدمـار للجبـال قـد وقع، وفجرت الهزة الأرضيـة وأخرجت غضبها على القرى المذكـورة بوساطة معجزة، أو أن ذلك جاء طبيعياً، ولكـن بحكم أنها دمرت حوالي التسعة آلاف إنسـان، ومـا لايحصى عـدده من الحيـوانـات، يبـدو أنها تسببت بمعجزة وليس خلال المجرى العام للحـوادث، ويقال بأن حدة العقوبة اللاهوتية، قـد أعطت متنفساً لغضبها بشكل عـادل، وأنزلته على سكان تلك المنـاطق، بهذا الشكل المهين، ودونما تمييـــز لممارستهم تجارة الـربا المعيبـة، وكانوا مـوصـومين كثيراً بالجشع، إلى حـد أنهم قامـوا في سبيل تغطية شرورهم بمظهر من الفضيلة، فلم يترددوا في تسمية أنفسهم تجّار المال، وكانوا لايخافـون من السيمونية، وكانوا يتـورطون وينغمسون من دون خـوف أو رحمة في السلب والنهـب، ولم يترددوا في قطع رقـاب أو تسميم التجّار أو العلماء الذين أرغموا على الذهاب إلى البلاط الروماني، وعبروا بطريقهم بهم، أو أقـاموا معهم أثناء سفـرهم، ولم يكونوا يدرون أن الانتقـام الرباني كلما كان أكثـر بطئاً، كلما كـان أكثـر حدة في ممارسـة الغضب، ويشهد على هذا غـريغوري المبـارك الذي قال: «يسير الغضب الرباني الصارم نحو تنفيذ العقوبة بخطوات بطيئة، لكنه يعوض فيما بعد بطئه بقسوته».

كيف جرى طعن رئيس رهبان ثيتفورد من قبل واحد من رهبانه

في سبيل أن يجري تنفيذ ما كتب في الانجيل، بات من الضروري، أو أن نقـول أمـراً لابـد من حـدوثه هو «أن الفضيحـة التـي تسبب الويل

للدنيـا، لابد من أن تصـدر عن فضيحـة»، فقـد حدث في شهـر كـانون الأول من هذا العــام، أن قـام رئيس رهبــان ثيتفـــورد Thetford, وكان أصله من سـافوي، ومن رهبان دير كلوني، كما كـان قد أعلن عن نفسه، أن له علاقة أو قرابة بالملكة، ولذلك تكبر وتجبر لهذا السبب، قام بتـوجيـه الدعــوة إلى أخـويه بـرنارد، وكـان فـارسـاً، وغـويسكارد Guiscard, وكان كاهناً متوحشاً، للقدوم إلى بيته في ثيتفورد، وقد بقي هنا، تبعـاً للعـادة الليل كله، حتـى صراخ الديك، منشغـلاً بالأكل معهما، والشرب بدون اعتدال، ناسياً تعهداتـه: فهو نادراً ما أزعج نفسه ليكون حاضراً أثناء القـداس، حتى القداسات الصغيرة، ونادراً مـا ظهر في الساعات القانونيـة، ولكن في الصباح، كان يتقيأ الذي التهمه وشربه في الليل، لأنه كــان يصحـو متخماً بالطعـام إلى أبعــد الحدود، وإذا مـا وصلت صرخات الفقير الجائع إلى أذنيه، كان يعير ذلك اهتماماً قليلاً في صـدره، وكـان كلما غـادر برنارد، الذي كـان واحـداً من أخـويه، كـان غويسكارد، الأخ الآخر، الذي كان كرشه مثل كيس في المناخ الجليدي، والذي كان جسده يشكل حمولة عربـة، كان يقيم معه مدة أطول، حيث كـان يبتلع جميع طعـام الرهبان في متـاهة بطنه، وفيما بعـد عندمـا يكون متخماً تمامــاً، يزدريهم ويحملهم الاهانـات، وعندمــا كـان راعـي الدير المذكـور يعـامل رهبـانه على هذه الصـورة، وهـم الذين تحملوا متـاعب النهـار وحـرارته، وذلك وفق طريقـة غير لائقة به، وكـان يبـدد بشكل مهين موارد هذه الكنيسـة الصغيرة العائدة إليـه، متجاوزاً —كما قلنا— جميع حـدود الاعتدال في نهمـه، نشب آنذاك صراع بينه وبين واحـد من رهبـانه، وكـان ويلزي الأصل، وكان هـذا الراهب قد استـدعـاه رئيس الرهبــان، منـذ وقت قصير، من كلوني، غير أنـه أخــذ يسعى الآن إلى إعـادته إلى هناك، على الرغم من ارادتـه، وليس من باب الإحسـان، بل صــدوراً عن الكـراهيــة، وذلك على الرغم من أن الـراهب المذكــور، عـارض الإجـراء، واعتـذر عن نفسـه على أسس منطقيـة، ولكن أعلن

رئيس الرهبـان مقسماً بصـوت مـرتفع وبشكـل مخيف، بأن على الراهب المذكـــور الـذهاب إلى الحج مع جعبــة ومحفظة، والتهب هذا الـراهب الشيطاني بغضـب عنيف، أو بـالحري أصيب بـالجنون، فسحـب سكيناً، وغرسهـا في أمعاء رئيس الرهبان، مـن دون أي تردد في تنفيذ مثل هذه الجريمـة في داخل الكنيسـة وحاول راعي الدير المجـروح مع حشرجـة الموت في حلقـومـه، أن يدعـو الرهبان إلى مسـاعـدته بصراخـه، أو على الأقل بايقـاظهـم، لكنه كـان غير قـادر على فعل ذلك، نتيجـة لتـوقف شرايينه، وبناء عليـه انقـض الراهب المذكـور عليـه ثانيــة، وسـدّد إليـه ضربات ثقيلة أربع مـرات أو ثلاث مرات متواليـة، ودفن السكين حتى مقبضها في الجسـد الهامد، وهكذا قـام هذا الشقي، في سبيل زيادة ضرر الطائفـة الرهبانيـة ضرراً كبيراً، وإلحاق العار بها فأرسل رئيس الرهبـان التعيس إلى جهنم، في ظـل الغضب لرب اقترفت بحقـــه الآثام، وقــد رويت خبر هذه الواقعة بشكل كامل، حتى يحذر الذين سوف يقرأونها، من اقتراف مثل هذه الجريمة، حتى لايقذفوا بغضب من الرب إلى دمار مماثل، وجـرى اعتقـال منفـذ هذه الجريمـــة من قبل الأشخـاص الذين وصلوا إلى المكان، ولأنه كان جيـد الحفاظ على نفسه، أودع في السجن، وعندمـــا وصلــت أخبـــار هذه الواقعـــة إلى علم الملـك، انزعج كثيراً، بوســاطة الشكاوى المستمـرة للملكة، فأمـر بـالقـاتل، فغلّ بالسـلاسل، وبعدما حرم من عينيه، ألقي به في أعمق زنزانة في قلعة نورويك، وجاء ذلك دون أن يعبأ بالمبـــادىء التي قـاتـل في سبيلهـا القـديس تـومـاس الشهيد، في دفـاعه عن واحـد من الكهنة كان اقترف جـريمة قتل، حتى أنه سفك دمـه وبعثـر دماغـه، فقـال بأن رجل الدين، خـاصـة الكاهن لايمكن أن يدان أمام لجنة حكم مدنية، أو أن يشنق بعدما تنتزع طوائفه منه، وهذا مبدأ في سبيله عانى واستشهـد، أي أن الرب لايعاقب مرتين من أجل الذنب نفسه، فهـو قد وضع حداً لعقوبة الشرير، وقـدم جائزة أكبر بكثير مما استحقـه الانسـان، وأن خطيئة واحـــدة كـافيـة ومعقـولة

للتكفير عنها بعقوبة واحدة، وأتى على ذكر هذه الوقائع واحد من أعداء الرهبان بمثابة وصمة بحق الرهبان، وقام أحد الأشخاص، وكان صديقاً لهم ومحباً ومدافعاً خاصاً عن الدين، فقال مجيباً: «بين الملائكة أوجد الرب متمرداً، وبين الشمامسة السبعة ضالاً عن الطريق القويم، وبين الرسل خائن، والرب يمنع استخدام ذنب واحد، أو قلة للنيل والتشهير بمثل هذه الجماعة الكبيرة التعداد، وجرى التبشير بهذا الاعتدال من قبل واحد من الشعراء الكفار، الذي قال:

ينبغي أن لاتؤدي جريمة بعضهم إلى الإضرار بالجميع

حول خصام وقتال بين رهبان سيلبي وجون فرانسيس

ونشب في العام نفسه خصام بين رهبان سيلبي Selby وجون فرانسيس Francis وهو محاسب لدى الملك حول جميع التبن والقمح، وجرى قتل واحد من الرهبان، وجرح عدد آخر وتعرضهم للضرب، ومن أجل أن لاتمر هذه الفضيحة لوحدها، حدث في العام نفسه في رئاسة الرهبانية في كانتربري أن تعرض واحد من الرهبان إلى جراحة قاتلة على يد آخر.

الوفاة التعيسة لرئيس رهبان بينيثلي

وفي الشهر غير السعيد نفسه، حدث أن كان رئيس رهبان كنيسة صغيرة قرب دير القديس ألبان، يتفقد كومة من القمح، مما ندعوه بشكل عام الحاصل، ويقدّر قيمته، وكانت أوعية هذا الحاصل غير مكدسة فوق بعضها بشكل صحيح، ولذلك اهتزت وتمايلت ووقعت عليه، ولفظ رئيس الرهبان هذا، الذي كان رجلاً بسيط التفكير وصغير الحجم أنفاسه ومات مخنوقاً، قبل أن يمكن رفع الأثقال التي تكدست عليه، ونجا الآخرون الذين كانوا إلى جانبه من خدم ورفاق رئيس الرهبان، لأن كميات صغيرة وقعت عليهم، ولكنها لم تقهرهم.

عقوبة حادة لزاني

أنا أعتقـد أن الواقعة التـالية، ينبغي عـدم تجاوزها، مع أنها قد تبـدو مضحكة، ففي هـذا الشهـر غير السعيـد نفســه، ولكـي لايقــال بأن الفضيحـة قـد قـامت ضـد رجـال الدين وحـدهـم فقـد نزلت الاهانة والاهانة التي لاتعوض على واحـد من طائفة الفروسية، فقـد كان هناك فارس من نورفولك Norfolk اسمه غودفري دي ميللر Millers, وكـان من أصل نبيل، كما كـان متميزاً في أعمال الفـروسيـة، لكنه ضلل بشكل مهين ومخجل، حيث دخل بشكل سري مسـاكن جـون البريتـاني الذي كـان فارسـاً، من أجل الاضطجاع مع ابنتـه، لكنه اعتقل من قبل بعض الأشخـاص المتخفين، بالتـوافق مع العـاهرة نُفسهـا، التي كـانت خـائفـة من أن يعتقـد أنها عشيقـة رجل متـزوج، وقـد رمـوه بعنف إلى الأرض، وأوسعـوه ضرباً بشدة وجـرحوه، وبعـد هذا جرى تعليقـه إلى جذع شجـرة، مع ساقيه وقـد مددا وأبعدا عن بعضهما، وبعـدما أصبح تحت تصرف أعـدائه، مثلـوا به وشوهوه بشكل مخجـل إلى درجة كـان يفضل فيهـا أن يقطع بها رأسـه، و هكذا بعـدما جـرح وشـوّه، ألقى به خـارج البيت نصف ميت، ووصلت شكوى حـول هذا الإجـراء إلى الملك، وألقـي القبض على الذين اقترفـوا هذا العمـل الوحشي الكبير، وعلى جون البريتـاني، حيث وجد مـداناً في هذه الجريمة، وقـد جرد من ممتلكاته وميراثه، وطرد بصـورة أبـدية، ولم يمكن العثـور على العـاهرة، ذلك أنها أخفت نفسهـا في أماكن سرية لايمكن الوصـول إليها، وهكذا نجت مع شيء من المصـاعب، من المؤامـرت التي حيكت ضد حيـاتها، وجميع الذين كـانوا حضـوراً أثناء اقتراف هذه الفعلة الوحشيـة الكبيرة، جرى إخراجهم إلى المنفى مطاردين بلا مأوى، وهكذا فإن هذه الجريمة اللاانسـانيـة والخاليـة من الـرحمة، قـد تورط بها عـدد كبير من النبـلاء بشكل مأسـاوي محزن، وحدث في حوالي الـوقت نفسه أيضاً، أن كـاهناً

وسيماً، أو بالحري قسيساً لكنيسة غنية، قد تفوق على جميع الفرسان الذين عاشوا من حوله في تقديم الضيافات المتوالية، وأعمال الكرم، فهذا أيضاً قد تورط في مأساة مماثلة، وثارت عاطفة الملك مع الشفقة، وقد حزن بشكل عميق، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي ما عدّ بمثابة قانون،أن ما من إنسان يجوز له الاقدام على تشويه آخر من أجل الزنا، إلاّ في حالة زوجته.

حول وقوع عدة حرائق بالصدفة

ووقعت في هذا العام أيضاً واقعة تستحق التسجيل، لأنها كانت مدهشة، وهي قد رأينا أنها تستحق الادخال في رواية هذا العمل، بحكم أننا لانتذكر مطلقاً أننا رأينا مثلها من قبل، فقد حدث في كثير من المناطق، بسبب غضب الرب، أن استعرت نيران مدمرة، حولت مدناً وبلداناً إلى رماد، مع أنها لم تتسبب بالحرارة ولابجفاف الأرض، لأنه في ألمانيا —بالإضافة إلى الخسائر الأخرى التي نجمت عن غضب لهيب النار المستعرة— تحولت الكنيسة الكاتدرائية للقديس بطرس في كولون (التي هي بالفعل أم الكنائس جميعاً في ألمانيا) إلى مجرد جدران، وكان ذلك بوساطة اللهب، وفي فرنسا أيضاً تعرضت مدن وبلدات للدمار بوساطة النيران، وحدثت في نورماندي خسائر لايمكن تعويضها بوساطة غضبها الذي تعذر ضبطه، وفي انكلترا —دون أن نذكر القضايا الأخرى— جرى احتراق الجزء الأكبر من منقطة نيوكاسل على التاين، مع جسرها، بوساطة النيران المستعرة، واستعرت في النروج إلى درجة هائلة في ثلاث مدن رئيسية، مما سبب العجب والدهشة إلى عقول الجميع، وكانت إحدى هذه المدن تدعى بيرجن Bergen, فقد احترقت كلياً وتحولت إلى رماد، باستثناء أربعة بيوت دينية، والقصر، وبيعة، ومساكن الملك، وقد احترقت إحدى عشرة أبرشية في المدينة المذكورة، بالاضافة إلى بعض البيوت التي كانت عائدة إلى الأسقف،

وانتشر لهيب نيران الانتقـام للذنوب هذه، مثل نيران قـذفها تنين، كـان يجر ذيله وراءه، فوصلت إلى قلعـة الملك، التي كانت تبعد مسـافة خمس رميات قوس عن المدينة، وبذلك ما من شيء ظهر أكثر تأكيداً ووضوحاً إلى السكان من أن حدة الانتقام الرباني قد تسببت بهذه الكارثة، فالقلعة التي كانـت قد بنيت من أفضل الحجـارة وأقساها قـد تحولت إلى رماد، وفي اليوم التـالي جعل الرب الرعد يدوي فوق مـوقع المدينة، ومعه برق أصـاب سفينة كبيرة كـانت قـد وصلـت من انكلترا أثناء الليل، فقتلت رجلاً واحـداً، وجرحت أو تسببت برضوض قاسيـة إلى جميع الآخرين، وشطرت السـارية وحـولتهـا إلى قطع صغيرة، قـذفتهـا إلى البحـر، وتعرضت جميع السفن التي كـانت في الميناء أيضاً، وكان عـددها حوالي المائتين أو أكثر إلى الأذى، ووصل صاحب هذا الكتاب إلى السفينة التي تحطمت سـاريتها، لأنه كان وقـت الحادث يقوم بتأدية قـداس في كنيسة قرب شاطىء البحر، وينشد ترنيمـة بحرية، لتقديم الشكر إلى الرب بعد النجاة من مخاطر البحر، وعندما نقلت أخبار هذه الوقائع إلى الملك، قام صدوراً عن تقديره للشخص الذي كـان على ظهر تلك السفينة، فأمر له بسارية أكبر وأفضل ليتزود بها.

وبعـد عيد القـديس ميكائيل، عبر أسقف نورويـك البحر، لأسبـاب سرية محددة.

حول الأوامر غير العادلة لرئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة نفسهـا، أظهـر بونيفيس، رئيس أساقفـة كـانتربري، الذي كـان يقاتل في سبيـل البابا في منطقـة ليـون، قليلاً من القلق نحـو الكنيسة، مع أنه كان قد جرى تعيينه من أجل معالجة الأرواح، واعتماداً منه على السلطات الرسـولية، استخـرج كثيراً من الأمـوال من الكنائس الشـاغرة، في أبرشيتـه، التي كان مخولاً بالاحتفـاظ بها بين يديه لمدة سنة واحـدة، وهكـذا باتت انكلترا غير السعيـدة، مثل كـرم تم التخلي عنه

كمأكلة إلى الأرانب البرية، ولكل عابر ليقوم بجني عنبه، وفي سبيل أن يجرح قلوب الذين سلبهم، بعمق أكثر، أمر أن يجري الإعلان، بوساطة عميد بوفياس Beauvais, الذي كان نائبه في هذه القضية، بأن جميع الأشخاص —باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والايرل رتشارد اللامع— سوف يحرمون كنسياً، إذا كانوا قد وجهوا اللوم سراً أو علناً، أو تكلموا من دون احترام، حول المعروف الذي منحه البابا إياه، وأعطاه إليه، أي إلى رئيس الأساقفة المذكور، أو أن يقوم بأي شكل من الأشكال بمعارضته، أو عمل أي تعويق له أو تملص منه، أو أن يمارس أي خداع في مسألة المرابح المتقدم ذكرها، وجرى نشر وصية الولاية في كل واحدة من الكنائس في جميع أرجاء انكلترا، فأنتجت غضباً في قلوب الكثيرين، بسبب كل من الأذى الذي لم يسمع بمثله والاستخراجات الجشعة للمال، وأيضاً الاضافات المفتوحة لها، وتفوهوا بلعنات من القلب ضد الملك الذي سمح بهذه الإجراءات ووافق عليها.

كيف قدم رسل إلى عند البابا من لدن التتار

قدم في صيف هذا العام رسولان تتاريان من عند أميرهم إلى البابا، لكن محتوى رسالتهما بقيت سرية مغلقة عن الجميع في ذلك البلاط، ولم يكن ذلك معروفاً لدى الكهنة ولا الأعيان، ولا من قبل الآخرين مهما كانوا مقربين من قداسته، وكانت رسالتهما التي جلباها إلى البابا قد جرت ترجمتها من لغة غير معروفة إلى لغة وافقت الناس أكثر، وكان ذلك لدى اقترابهما من البلدان الغربية، وكان من المخمن من خلال بعض الاشارات، بأن الرسائل قد حوت اقتراحاً، وخطة من التتار المذكورين، في أن يقوموا بحرب فورية ضد بتاكيوس الاغريقي زوج ابنة فردريك، وهو منشق وغير مطيع للكنيسة الرومانية، ومن المعتقد أن هذا العرض كان مفرحاً كثيراً للبابا، بدليل أنه أعطاهما بعض الثياب

الثمينـة، التي ندعوها بشكل عـام ملابس، وكانت مصنوعـة من أقمشة أرجوانية مختارة، مع أردية، وفراء من جلود القاقم، وتحادث معهما مراراً بشكل مفتوح وبطريقة ودودة بـوساطة المترجمين، وقدم لهما بشكل سري هدايا من الذهب والفضة.

حول المظالم التي مورست يومياً ضدّ الإنكليز من قبل البلاط الروماني

في هذا العـام نفسـه ازدادت المظالم التي أبـدعت بطرق مضـاعفـة، وتدفقت من البـلاط الروماني وانصبت على التعسـاء الانكليز، يوميـاً، وتضاعفت، فبـالاضافة إلى المظالم والعبـودية غير العادية، بسبب تعليق الأسـاقفـة ومنعهم من استثمار منافعهـم حتى يكون نهم الرومـان قـد أشبع، والتي ضـدها لم يصرخ الملـك الصغير لجبنه وخـوره، جـرى في كل يوم ارسـال أسراب من المظالم المقيتـة وقذفهـا، ومع أننا لانستطيع ذكـر جميع الأضرار (لأن ذلك صعبـاً، لابل في الحقيقـة من المستحيل فعل ذلك) رأينا من الموائم أن نقحم ذكر بعضها في هذا الكتاب، حتى يحزن الذي سوف يقرأ عنهم، ولكي يقوم الحزين بالشكوى إلى الرب، فلعله في بعض مستقبل الأيـام أن نتحـرر منهم بفضلـه، ومن أجل أن يرى الجميع الحالة المحـزنة لانكلترا، التـي حـرمت من حكامهـا ومن المدافعين عنها، وتلقى راعـي دير أبنغدون Abingdon ولاية من البابا بأن يقوم على الفور بتجهيـز وظيفة لواحد من الرومان، لكن هذا الرومـاني رفض اختيار وقبـول أية كنيسة، إلاّ الكنيسـة الغنية، فـانتظر بهدوء، وأخفى نواياه، حتى تصبـح إحـدى الكنائس الفخمـة والغنيـة شـاغرة، وكـانت أولى الكنائس التي أصبحت كذلك كنيسـة القديسـة هيلين في بلدة أبنغدون، والتي عـدّت أنها تساوي مائة مـارك، وكانت مزودة بكل المنافع، لأنها كانت موجودة في منطقة كانت خاضعة للدير المذكـور، وطالب الرومـــاني الذي كـان هـادئـاً منذ وقت طويل، بهذه

الكنيسـة على الفور، وضغط بإلحاح بالطلـب بوجوب أن تعطى إليـه، بمـوجب سلطـات الكرسي الرسـولي، وفي اليـوم الـذي أصبحت فيـه الكنيسـة شـاغـرة، تلقى راعي الـدير أمـراً مستعجـلاً كثيراً من الملك، ممزوجاً بـالتهديدات والالتماسات والـوعود، بأن عليه تسليـم الكنيسة المذكورة إلى أخيـه —الملك— من أمه ايثيلمار، مع أن هـذا الأخير كان بين يديه الآن عدداً وافـراً من الكنائس والموارد، علينا أن لانعجب إذا كـان هو نفسـه لم يعـرف عـددهم ولاقيمتهم، وبناء عليـه، بات راعي الدير في حالـة حيرة واضطراب، وكأنه قد سحق بين حجـري طاحون دائـرين، فـاستشـار الرهبـان في ديره وبعض الأصـدقـاء الجديين والمخلصين، حول القضية فأجـابوه: «من الواضح أنها قضية صعبة من على الجانبين، لكن إذا كان الملك راغب بحمايتك من عنف البابا، نحن نعتقد أنه سـوف يكون أفضل إعطاء الكنيسة إلى أخيـه هذا، بحكم أنه أميرنا وراعينا، وليس الـرومـان، الذين سـوف يـداومـون بشكل سيء التآمر ضدك، وهم بالفعل مضطهدون لايعرفون التعب، وكأنهم شوكة في عينك»، وجـرى ابلاغ الملك بهذا القرار في الوقت المناسب، فأقـدم على الفـور بوعـد راعي الدير المذكـور بحمايتـه الخاصة، ووقـايتـه من الخسـارة، وبنـاء عليـه، قـام راعي الـدير، اعتماداً على هذه الكلمات المخادعـة، فأعطى الكنيسة إلى ايثيلمار المذكـور، بناء على التماس الملك، وبناء عليه ذهب الروماني المتقدم الـذكر على الفور وهو شديد الغضب إلى البـابا، مـع شكوى ثقيلة، وحكى له اشكـاليـات الموضـوع، مع اضافات من عنده حتى يثير غضب البابا، وبناء عليـه استدعى قداسته راعي الدير المذكـور للمثـول أمامـه للاجـابة على تهمـة عدم الطاعـة، وبات راعي الدير محروماً من كل مواسـاة ومساعدة من الملك، مع أنه غالباً ماطلب ذلك، ومع أنه كان رجلاً عجوزاً وضعيفاً، فقد ذهب إلى البـلاط الروماني، وبعـدما تعـرض هناك إلى كثير من الآلام، وإلى دفع نفقات كبيرة، أرغم على تقديم ترضية إلى الرومـاني المذكور، تبعاً لقرار

البـابا، بأن دفـع له خمسين مـاركـاً سنوياً مـن حجـرته، مما ألحق ضرراً عظيماً بكنيسته.

مظلمة أخرى كبيرة جداً للبابا

في هذا العـام نفسه أيضـاً أخذ راعـي دير القديس ادمـوند من بيننا، ووضع الملك جـانبـاً كل خـوف من الرب واحترام إلى الشهيـد، الذي كـان مـرتبطاً به بشكل خـاص، وذلك لأسباب كثيرة، في أن يقـدسـه، فأخذ مبلغـاً كبيراً من المال من ذلك الدير، وذلك عندما أصبح شـاغراً، وبأخذه لهذا المبلغ بدا وكأنه قـد فقد جميع مشاعر الرحمة، لأنه بالاضـافة إلى المدفوعـات التي سددت إلى النواب الملكيين، استخرج بوحشيـة ألفاً ومائتي مارك من الدير، وعندما قـام الرهبان بانتخاب راع جديد ليأخذ مكان الراعي الذي توفي مـؤخراً، أرسلوا بعضاً مـن جماعتهم إلى البلاط الرومـاني للحصـول على تثبيت للانتخـاب نفسـه، وتعـرض كل من المنتخبين والمنتخب إلى فحص شـديد، وفي النهـاية تم رفض الفـريقين، وتوجب وضعهما في وضع محزن، لكـن هذا الوضع بدا أكثـر من محزن من جميع الجوانب، وعندمـا كـان الراهبـان على وشك المغـادرة آسفين خجلين، استـدعـاهما البـابا وقـال: «بما أنكما تعسـاء فأنتما بحـاجـة إلى المرحـة، وإننا صدوراً عن عمل الإحسـان، ولكي لاتنزعجا نسمح لكما في الوقـت الحالي بهذا الراعي المنتخب، وبحـريـة وبإرادة نعطيـه دير القديس ادمـوند، لكن عليه أن يدفع ثمانمائـة مارك، وعليـه تسديد ذلك إلى التـاجر الذي سـوف نرسله له لهذه الغـاية، والذي نحن مـدانون له كثيراً»، وهكذا غادر الراهبـان، بعدما وقعا في المصيدة، ولكنهما كـانا قد أنهكا بسبب كثير من الأذى الـذي لحقهما والمظالم، وقـد حـزنا من دون مـواسـاة، ولذلك مـات واحـد منهما في ليـون، قبل أن يغـادرا البـلاط الروماني، وتلاشى الآخر من الآلام والانزعاج في القلب، وغادر طريق الجسد كله في دوفر، أثناء عودته من ذلك البلاط القاسي.

وفاة راعي دير وولثام

ومـــات أيضـــاً في هـذه الآونة راعي ديـر وولثـــام Waltham, صاحـب الذكرى التقيـة كثيراً، وكان واحداً من رهبـان طائفة القـديس أوغسطين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته.

موت سيمون لانغتون

ومات في هـذا العام المعلم سيمـون لانغتون Langton, وهو أخو ستيفن رئيس أساقفة كانتربري وصاحب الذكرى اللامعة، ورئيس شمامسة كنيسة تلك المدينة، وكـان هو مضطهـداً ومـزعجـاً لكنيستـه، كنيســة كــانتربري، ولكن لاعجب في ذلك، لأنه كــان المثير والمسبب للاضطراب للمملكة الفـرنسية، وكـذلك بالنسبة لمملكة انكلترا، وكـان هذا عندمــا اضطربت كثيراً بـالحرب، وذلك حسبما ذكـرنـا من قبل في المكان المناسب.

موت جون بلند

ومات في العام نفسه أيضاً المعلم جون بلند Blund, المستشار لكنيسة يورك، وكـان لاهوتياً متميـزاً، وقد انتخب مـرة رئيساً لأسـاقفة كـانتربري، لكن الانتخاب ألغي من قبـل سيمون المتقـدم ذكره أعـلاه، وهكذا ذهب مثير الاضطراب والذي تعرض إلى الاضطراب، للالتحاق بحشود الموتى، ومـات الايرل باتريك أيضاً، الذي كان يعدّ الأكثـر قوة بين نبـلاء سكوتلندا، ومـات هذا النبيـل وهو حـامل لشعـار الصليب، عندما كان في الحج برفقـة الملك الفرنسي، ومن المعتقد أنه حمل الصليب حتى يتمكن من ارضاء الرب، والقديس أوسوين Oswin, لأنه ألحق الضرر والأذى بشكل غير عـادل بكنيسـة التـاينماوث، وبدير كـان مكرسـاً للقـديس ألبان، ومـرتبطاً بشكل رباني خـاص بالملك أوسـوين المبارك والشهيد، وحيث رقد جسد ذلك القديس مدفوناً.

كيف جرى إرسال الراهب متى إلى نورماندي

أحاق في هذا العام خطر عظيم بواحـد من الديرة الفخمة في النروج، وهو الـذي عـــرف باسم ديـر القـــديس بندكـت أوف هولم Holm, وكان قد تأسس من قبل كنوت Cnut الذي كان من أعظم الملوك نبـلاً، وهو الذي كـان أيضـاً قـد أسس ديـراً آخـر بالاسم نفسـه وتابع للطائفـة نفسهـــا، في انكلترا، ذلك أنه أفقـر كثيراً، وكـان الرهبـــان قـد تبعثروا، والدير نفسـه كان قـد تدمر تقـريباً، مع متعلقاتـه، وكان راعي الدير قـد تخلى عن الطائفـة، وغادر بشكل سري، آخـذاً معـه ختم الهيئة الرهبانية، تحت مظهر اقطاعي، وكان إما قد باع جميع محتويات الدير، أو رهنهـا بالضمان بشكل أسـاسي، وأخـذ معه واحـداً من الرهبـان، كـان الحافظ لغـرفة المقـدسات، وهو الذي كـان مسؤولاً عن الختم، كما كـان أيضـاً مطلعـاً على جـريمتـه ومشـاركـاً بها، وكـان الآن مع راعي الدير المذكـور مــرتداً، وطريداً، ونتيجــة لهذا، قـام رئيس أسـاقفــة درونثيم Drontheim, الذي كـان الدير المذكـور في أسقفيتـه، بوضع الدير بين يديه، مع جميع متعلقـاته، واتهم الرهبـان بأنهم رهباناً بالمظهـر فقط، وأنهم كـــانوا جـاهلين بأحكـام الطائفـة الديـرية، وبالقـــديس بندكت، وظهروا أنهم قد خرقوا النظم الديرية واعتدوا عليها، وأن بعضهم كانوا لصوصاً ومطاردين، لكن الرهبـان، الذين مع أنهم بقيوا من دون راعي، ظلوا يقـــاتلون في سبيل الـرب، في بعض السبل، تحت قيـــادة رئيسهم، ولجأوا إلى تقـديم التماس، وطاروا إلى الحبر الأعظم لحماية أنفسهم، لأنه كـان ظلماً وبعيداً عن المنطق، أن تطال خطيئة واحـد، أو اثنين، أو حتى قلة، الطائفة كلها، واعتماداً على الالتماس، لم يتجـرأ رئيس الأساقفة على التمادي في ازعـاجهم أو القيام بـأية اجراءات جـديدة، وبناء عليـه تمكن رئيس الرهبـان، بشكل حكيم من استرداد بعض ممتلكاتهم، وجمع بعض المال، وذهب إلى البـلاط الروماني، لكن راعي الدير المرتد وشريكه كـانا

هناك من بعض الوقت قبله، وبإعطائهم صكوكاً مختومة بالختم المسروق، وضعا الدير المذكور تحت دين يساوي حوالي الخمسمائة مارك، وبناء عليه عاد رئيس الرهبان إلى الوطن مضطرباً وحزيناً، لكن قبل أن يصل إلى هناك سمع بأن هذا الراعي التعيس قد مات في دير القديس ألبان في ذل Zell في النروج، وبعدما حصل على هذا الخبر، قام هو والرهبان بانتخاب راعي دير جديد، وعلى هذا أعيد رئيس الرهبان المذكور مع واحد من الرهبان رفيقاً له، ومعهما مبلغ ثلاثمائة مارك، وكان معهما رسائل موجهة إلى الراهب متى باريس، فيها التماس بأن يبذل غاية مساعيه في سبيل تحريرهم من دينهم، وفي النهاية أمكن بسعادة الترتيب بأن يتحرر الدير المذكور من دفع الدين فقط، وبعد الحصول على جميع الكتابات والأدوات التي بموجبها عدّ دير هولم مداناً إلى السماسرة الذين كانوا آنذاك في لندن، عاد الدير خلال سنة سليماً ومتحرراً تماماً، لكن مع أنه تنفس بحرية في ميدان المسائل الدنيوية، ظل الرهبان غارقين في حالة اضطراب بالنسبة للمسؤوليات الروحية، ومكثوا متخفين، ومع بعض الصعوبات، وبوساطة هدايا متوالية حصلوا على استراحة قصيرة خشية من أن يقوم رئيس الأساقفة فيضع بين يديه الجزيرة كلها، التي كانت ملكاً للدير المذكور نفسه، الذي كان مقاماً في الجزيرة مع متعلقاته، وأن يرغم الرهبان على الفرار، وهم الذين قال عنهم بأنهم رهبان بالاسم فقط، وفي تلك الآونة كان أسقف سابينا وكاردينال الكرسي الرسولي، قد وصل —كما ذكرنا من قبل— إلى النروج بمثابة نائب بابوي، وإليه طار على الفور هؤلاء الرهبان، الذين ظلموا بشكل حاد من قبل رئيس أساقفتهم، ليتلقوا منه المواساة في محنتهم، وجواباً منه على شكاويهم قال: «أبنائي أنا جاهل تماماً بالأحكام المرعية وبنظام القديس بندكت، غير أنني أنصحكم بإخلاص جيد بأن تذهبوا إلى البلاط الروماني، وأن تلتمسوا من قداسة البابا تزويدكم بشخص موائم ليقوم بإصلاح طائفتكم، وليكون لكم موجهاً

مناسباً، وأنا سوف أكتب له ملتمساً لصالحكم، وسوف أرجوه أن يتلطف بالاصغاء إلى طلبكم في هذه القضية، ولاتتحمل هذه القضية التأخير، لأن رئيس أساقفتكم شديد الاصرار في مساعيه على طردكم بحجة جهلكم»، وبناء عليه ذهب راعي الدير إلى البلاط، مرافقاً برئيس الرهبان، وبعدما أبلغاه برغبتهما، حصلا على رسائل التماس من ملكهما ومن النائب البابوي، وجواباً على طلبهما قال البابا: «أبنائي إذا كنتما جاهلين بالأشياء التي ينبغي أن تعرفاها، استخدما البحث والتقصي، واختارا شخصاً ما لتعليمكما الأحكام والنظم، وأية بلد أو دير، أو من ستفضلانه وتطلبانه سوف يمنح لكما، وادرسا للحصول على المعلومات، حتى لايتمكن عدوكما من التغلب عليكما»، وبعدما قاما في اليوم التالي بالتشاور والتباحث مع رجال آخرين جادين ومستقيمين، أعطيا جوابهما إلى البابا كما يلي: «ياصاحب القداسة لقد تعلمنا بالتجربة أن الرهبان في طائفتك ليسوا منظمين تماماً في كل مكان من العالم كله، وذلك كما نعتقد أنه موجود في انكلترا، كما أنه لايوجد —كما سمعنا من التقارير— هناك أي دير حسن التنظيم في المملكة الانكليزية، مثل دير القديس ألبان، الذي هو الرائد الشهيد لانكلترا، ولذلك نطلب واحداً من رهبان ذلك الدير اسمه متى، الذي جربنا حكمته واخلاصه، ليتولى تعليمنا وتوجيهنا، بالاضافة إلى ذلك هو صديق مقرب من ملكنا، الذي يمكن أن يكون قادراً بوسائطه، إذا ما رأى الأمر ضرورياً، اخضاع أية عصاة ضده»، وبما أن هذا الجواب أرضى البابا، فقد حصل هذان الراهبان منه على الإجازة التالية، لتقديمها إلى راعي دير القديس ألبان.

إجازة البابا إلى راعي دير القديس ألبان

«من أنوسنت، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، الراعي لدير القديس ألبان، من طائفة البندكتيين في انكلترا: إنه بناء على ماذكر لنا من جانب ولدنا المحبوب كثيراً، راعي دير هولم التابع لطائفة البندكتيين، في

أسقفيـة درونثيم، إن الـدير المذكـور، قـد سقط بسبب إهمال أسـلافـه بالفوضى، فيما يتعلق بالقضايا العـائدة إلى النظام الرهباني، وبما أنه تعذر الحصـول في تلك الجهـات على واحـد عـالم بصـورة جيـدة بالنظم وبمراعاتها، أي النظم العائـدة إلى تلك الطائفة، نحن نرجوكم، بناء على التماس الراعي المذكـور، ونحثكم، ونأمـركم بـوسـاطة هذه الرسـائل الرسـوليـة أن ترسلوا إلى الدير المذكـور، ولدنا المحبـوب منا كثيراً، متى الذي هو راهب في جماعتكـم، والذي يتمتع بسيرة مـرضيـة في الحيـاة، والذي هو مجرب بالحيـاة الرهبـانيـة، وذلك من أجـل أن يقـوم بتعليم وتوجيـه الراعي المذكور في مجال الأنظمـة المرعية والأحكام العـائدة إلى تلك الطائفة، وهذا سوف لن تتأخر بعمله صدوراً عن احترامك للرب، وللكرسي المقدس».

وبناء عليه أطاع راعي دير القديس ألبان البابا، كما كان متوجباً عليه، وقـام الراهب المذكور بإطاعـة راعيـه، وسار العمل على مـايرام، وتمت الترتيبـات بشكل ناجح، واستمـر دير هولم في النروج بسـلام وازدهار، واسترد النظام الرهبـاني، الذي كـان عـرضـة إلى مخاطر كبيرة في تلك البلاد، الآن أنفاسه بفضل الرب، وكذلك فعلت الديرة الأخرى هناك.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على مدينـة اشبيلية الفخمة في اسبانيا، وكـان ذلك من قبل ملك قشتالة المسيحي العظيم، وتميـزت كرامـة ربنا يسوع المسيح بوساطة عنوان المسيحية.

هزة أرضية في إنكلترا

وفي العام نفسـه، في يوم قدوم ربنا، الذي كان اليـوم الرابع قبل عيد الميلاد، وقعت هزة أرضية في انكلترا، بها (حسبما جرى اخبار كاتب هذا العمل من قبـل أسقف باث، الذي وقعت الهزة في أسقفيتـه) تدمـرت جـدران الأبنية، وانتـزعت الحجارة مـن أماكنهـا، وظهرت فجـوات في

الجدران المدمرة، وكـان السقف الجملوني المقنطر الذي وضع على رأس كنيسة ويل Wells بعد بذل جهود كبيرة من قبل البنائين —وكان كتلة كبيرة ذات حجم كبير ووزن عظيم— قـد قـذف من مكـانه، مما سبب كثيراً من الدمـار، فقد سقط فـوق الكنيسة، محدثاً ضجـة مرعبـة، لدى سقــوطه من ذلك الارتفـاع، وبذلـك أصـابت الضجـة بالرعب الشـديد كل الذين سمعـوها، وأثناء تلك الهزة الأرضيـة، وقعت واقعـة مـدهشـة، فقـد سقطـت رؤوس المداخن، والشرافـات، والأعمـدة من أماكنها، لكن قواعدهم وأسسهم لم تتأثر مطلقاً، مع أن العكس كان من الطبيعي حدوثه، وكـانت هذه الهزة الأرضية هي الثالثة بالوقـوع خلال ثلاثة أعــوام، على هذا الجانب مـن الألب، حيث وقعت واحــدة في سافوي، واثنتان في انكلترا، وهي واقعة لم يسمع بمثلها منذ بداية الدنيا، ولذلك كانت الأكثر رعباً وضرراً.

خاتمة العام

عبر هذا العام عادياً وهادئاً، وملأ السنابل بكميات كبيرة من القمح، وجعل المعـاصر تتدفق بالخمـرة، وكانت وفرة المواسـم كبيرة إلى حد أن معيـار القمح قـد سقط سعـره إلى شلنين، وقد بيع دن الخمـرة الممتـازة بشكل مطلق بهاركين، وكـــانت فــواكـه الحدائق وافــرة كثيراً في بعض الأماكن وقليلة في أمـاكن أخرى، ولكن ديدان الأرض دمـرت كلياً كل شيء أخضر، وقـد تسرب المرض إلى الأغصـان، وبرهنت أحـداث هذا العـام، أنها كانـت عدوانيـة بالنسبـة إلى الأرض المقـدسة، غير مستقـرة بالنسبة إلى ايطاليـا، مميتة بالنسبة لألمانيا، وغير موافقـة بالنسبة لانكلترا، ومدمرة بالنسبة لفرنسا، ولكي نجمل كثيراً من التفاصيل بكلمات قليلة، كـان هذا العـام مستهلكاً للمال تقـريبـاً في كل بلد من بلدان المسيحيـة، وقدم في كثير من الجوانب شارات تدلل على أن نهاية الدنيا باتت قريبة، وذلك حسبما قـرأنا «ســوف تثـور أمم ضـد أمم وســوف تكون هناك

هزات أرضيـة في بعض الأمـاكن»، كما أن هناك نبـوءات أخرى، وكـان هذا العـام بالنسبـة للبـلاط الرومـاني، مصـدراً للعـار، والشنار، ومن الواضح أن ذلك كـان بمـوجب تهديد الغضب الرباني، وكـان المناخ في الشتـاء متغيراً كليـاً إلى مناخ الربيع، ولـذلك لم يغط لاالثلج ولاالجليـد وجه الأرض ليومين معاً، وكـان من الممكن رؤية الأشجار وقد أخذت تورق في شباط، والطيور تغرد وتلعب وكأنها كانت في نيسان.

كيف طلب الملك منحه هدايا من سكان لندن

عـام ١٢٤٩، هو العـام الثـالث والثـلاثين لحكم الملك هنري، وقـد أمضى عيـد الميـلاد في لندن، وكـان أخـوه الايرل رتشـارد يحتفل في وولنغفورد Wallingford أثناء هذا الموسم المهيب بأيام القـدوم، برفقة عـدد كبير من النبلاء، كانوا ضيـوفه، وعقـد في الوقت نفسه ايرل غلوستر بلاطه بـأبهة دنيـوية لم تكـن أقل، قـرب غلوستر، على حـدود ويلز، لكن الملك خرق من دون حياء حدود الكرامة الملكية في يوم عيد الختـانة، واستخـرج من كل واحـد مـن سكان لندن الهدية الأولى، التي اعتاد الناس على تسميتها خرافياً باسم هدايا السنة الجديدة.

الاحتفال الفخم بيوم عيد القديس إدوارد

ومع اقتراب عيـد القـديس ادوارد، الذي يحل عشيـة عيـد الغطاس، دعا الملك بوساطة رسائله عـدداً كبيراً من النبلاء للاحتفال بذلك العيد معه في كنيسـة القديس بطـرس في ويستمنستر، وقام هو نفسـه في عشية ذلك العيـد، الذي كان يوم اثنين، فصـام على الخبـز والماء، وفقاً للعـادة المتبعـة، وارتدى مـلابس صـوفيـة، وبناء عليـه اجتمع عـدد كبير منهم هناك، صـدوراً عن الاخلاص والمحبـة التي شعـروا بها نحو القـديس، وكذلك في سبيل تعبد دم المسيح الذي تمّ الحصول عليه مؤخراً، وأيضاً من أجل العفو عن الذنوب الذي يتم الحصول عليه هناك، مع الاحترام

المتـوجب إلى الملك أيضـاً، لأنه هو الذي دعـاهم، ولقـد اجتمعـوا الآن هناك مع الملك والملكـة، والايرل رتشـارد، وروجـر الايرل مـارشـال، وأربعة آخرين، والعدد نفسه من الأساقفة.

عودة إيرل ليستر

كان الملك مقيماً في ويستمنستر أثناء عيـد الميلاد، وعـاد آنذاك سيمون ايرل ليستر من غسكـوني مع بعض النبـلاء الآخـريـن، والفـرسـان والأعوان، الذين كـانوا يقاتلون هناك باخـلاص في سبيل الملك، وأبهج وصولهم الملك والبلاط كله إلى درجة عـالية جداً، لأن ذلك الايرل كان قد أرغم غاستون ابن كونتسة بيارد، الخائن بحق ملك انكلترا، أن يقبل بشروط للهدنة، حتى وإن كان ذلك ضد ارادته، وكـان غاستون هذا قد ألحق أضراراً كبيرة في تلك المقـاطعة بالتـآمـر ضد الملك، حتى أنه دمّـر وأفسـد البلاد كلهـا، وبالخداع والخيـانة أقنع الناس بالتخلي عن ولائهم إلى ملكهم، لأن غـاسـتـون المذكـور كـانت لديه أمـوالاً كثيرة، هي التي حصل عليها من الملك عندمـا كان في غسكوني بوساطة وعود خـادعة، وكـانت أمه مماشيـة له ومـوافقة على إجـراءات ولدها المخـادع، مع أنها كانت في الوقت نفسه، قد حصلت أيضاً بشكل دنيء على مبلغ كبير من المال من الملك المسحـور، وذلك من الأمـوال التي سحبهـا من انكلترا، من أجل اذلال المملكة وافقارها، ومعها كذلك النبلاء فيها والأساقفة.

وعلاوة على ذلك، قام الايرل المتقدم ذكـره، مدعوماً بعون المخلصين إلى الملك، فاعتقل لصاً كبيراً، وخائناً، وأكثـر أعداء الملك دموية، واسمه وليـم بيرترام أوف ايـرمـــــونـت Bertram of Aigremont, وكـان قد اقترف جـرائم كثيرة في غسكوني وفي المناطـق المجاورة، وقـد وضعـــه الايـرل الآن في سجن مضيق عليـــه في برج راؤل Reole, وذلك إلى أن يرغـب الملـك بأن يرجع هذا الايرل إلى غسكوني لسحقــه ولسحق الأعداء الآخرين للملك.

الظلم الكبير الذي أنزل بسكان لندن من قبل الملك

ولم يقدم الملك —على كل حال— التمجيد إلى الرب، رب الحشود، على النصر الذي منح له، بل بدأ الآن يفكر بشكل مثابر، كيف يمكنه أن يجفف بئر انكلترا الذي لاينضب، لأنه لدى مقابلة مع الذين جرى طردهم للتو من جماعة الأمراء، حسبما تقدم الذكر أعلاه، والذين قالوا بأنهم لن يستمروا في تبديد ثرواتهم من أجل تدمير المملكة، درس بوساطة ابداعات بارعة كيف يمكن أن يروي عطش نهمه، ففور الانتهاء من احتفالات أعياد الفصل المذكور، شرع في تنفيذ الخطة التالية، بالقيام بمضايقة سكان لندن، بتعليق حركة نقل البضائع في تلك المدينة كما جرى الذكر من قبل، وذلك لمدة أربعة عشر يوماً، بوساطة إقامة سوق جديد في ويستمنستر لالحاق الخسارة والأذى بكثيرين، وإثر ذلك على الفور أرسل رسائل إليهم بوساطة وكلائه تحتوي التماسات ذكية، ورجاوات ملكية مهيبة، يطلب منهم مساعدة مالية، ولدى تسلم سكان المدينة هذه الرسالة، حزنوا حتى الأعماق، وقالوا: «الويل لنا، الويل لنا، أين هي حرية لندن، التي غالباً مابيعت، وغالباً ما منحت، وغالباً ما ضمنت بوساطة كتابات، وغالباً ما أقسم على احترامها؟ لأننا في كل سنة تقريباً أفقرنا مثل عبيد من الحالة الدنيا،وذلك بوساطة ضرائب جديدة، وبالأذى والمضايقة بمحاججات ثعلبية ماكرة، كما لايمكننا أن نعرف إلى أي قعر عميق آل مآل الأملاك التي سرقت منها وجرى ابتلاعها»، وبعد لأي، ومع أن المبالغ المطلوبة كانت كبيرة، على كل حال، وافق سكان المدينة، وإن كان ذلك بالإكراه ومع آلام بالقلب، وأذعنوا بتقديم الموافقة، على الاسهام بألفي باوند، تدفع إلى الملك خلال وقت قصير، وعلاوة على ذلك فإن مظالمه المعتادة استعرت من دون هوادة، لأن جميع المواد المعروضة للبيع، إن لم تكن مخفية جرى الاستيلاء عليها كما هي، خاصة اللحوم والمشروبات، وقد سلبت لصالح

استخدامات الملك، مع أن بيته لم يتطلب أية زيادة في الضيافة من ذلك، لكنه وقد تخلى عن كل الحياء، دمغ نفسه بزيادة كل يوم بسمة البخل الشنيعة، والمضافة الملكية القديمة طردت من أمام بابه، ومعها المائدة الرومانية المعتادة، فهذه زالت أيضاً، مما أساء إلى سمعته إلى درجة كبيرة ولكرامته كملك.

كيف استجدى الملك المال من نبلائه واحداً واحداً

وفي هذه الآونة، عندما لم يستطع الملك تطويع نبلاء المملكة حتى يوافقوا على طلبه وهم متحدين، لجأ إلى الطرائق الرومانية المعتادة، فأرسل إلى كل من النبلاء، أو كتب إلى كل واحد منهم، وقد خاطبهم بالتماسات مهينة قائلاً: «أنا رجل فقير، أنا مجرد تماماً من المال، وأنا أجد من الضروري أن يقوم كل واحد منكم بإعطائي مساعدة فعالة، ذلك أنني مدان بموجب صكوكي بمبلغ ثلاثين ألف مارك، وأنا لاأفرض شيئاً، إلاّ المعروف، وكل من سيعطيني هذا المعروف أنا سوف أعيده له، عندما تتوفر الفرصة، وكل من سوف لن يعطيني المعروف، أنا سوف لن أعطيه شيئاً»، ولكنه استجدى بسبب مزيف، من أنه كان على وشك شن الحرب ضد ملك فرنسا، بحكم انتهاء الهدنة، وذلك لاسترداد حقوقه بالقوة، فهو قد أثار فقط سخرية وازدراء الحكماء، لأنه كان قد منع مؤخراً من قبل المعلم ألبيرت باسم البابا، من مهاجمة —بأية طريقة من الطرق— أية أراض موجودة تحت سلطة ملك فرنسا، تحت أي عنوان من العناوين، لأن ملك فرنسا كان قد حمل الصليب وكان يقاتل في الأرض المقدسة، في سبيل الرب والكنيسة العالمية، لابل إنه حتى لو لم يكن قد منع من فعل ذلك، كان من المعتقد، بأن براعته العسكرية، أو قوته، أو ماله، مهما كان الذي استخرجه، ما كان كافياً لتجريد الملك الفرنسي، حتى من أصغر ممتلكاته، لأنه توجب عدم الظن بأن فرنسا كانت مجردة من الجنود تماماً ومن المال، وفي سبيل بقاء رسالة المعلم

المذكور مخفية عن الجميع، لم يسمح الملك بنشرها بأية طريقة من الطرق، ولقد قيل أيضاً بأن المعلم ألبيرت المذكور قد تلقى التخويل السلطوي بوضع انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، بموجب الولاية البابوية، لو تبرهن بأن الملك سوف يكون متمرداً، لكن هذه الأشياء كلها قد غطيت بغطاء السرية، حتى يتمكن من الفرض بمهارة على الجهلة.

كيف استجدى الملك المال من الأساقفة ورعاة الديرة

في الوقت الذي كان فيه الملك فاغراً هكذا فمه يسعى وراء الربح المالي، حدث أنه ذهب إلى هنتنغدون Huntingdon, وكان ذلك في حوالي عيد القديسة هيلاري، وعندما كان على طريقه إلى هناك بعث وراء راعي دير رامسي، وخاطبه بسرية كما يلي: «ياصديقي أنا بجد ألتمس منك، تقديم المساعدة لي، باعطائي —أو على الأقل باسلافي— مائة باوند، لأنني أنا بحاجة، وينبغي أن أحصل على هذا المبلغ من دون تأخير، ولم يكن بإمكان راعي الدير شرفياً الاجابة بالرفض، بل أجابه قائلاً: «لقد أعطيت في بعض الأحيان، لكني لم أسلف، ولن أسلف الآن»، واقترض على الفور ذلك المبلغ من السماسرة، مقابل فائدة ثقيلة، وذلك في سبيل إرضاء مطالب هذا الملك المستجدي.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، شدّد الملك وألحّ على راعي دير بيتربورا Peterborough بالتماسات مشابهة من أجل المال، معلناً بأنه سيكون احساناً أكبر لدى اعطائه مساعدة مالية وأفضل من التصدق على متسول على بابه، ولكن بما أن راعي الدير اعتذر عن نفسه، ولم يذعن بالاستجابة إلى التماساته، أثقله بالملامة والنقد، وبناء عليه غادر سراً بيت الملك، واستخرج في الوقت نفسه بالحجج نفسها ستيناً ماركاً من راعي دير القديس ألبان، مع أنه خدعه بوساطة هذه الحجج الماكرة، وانتزع منه مبلغاً كبيراً من المال، في كل من هذا العام

والعـام الأخير، وبناء عليه، عندمـا رأى الملك أن مـا من واحد سـوف يعـارضـه، تصور متـأملاً أن مـا من واحـد من رعـاة الديرة أو رؤسـاء الرهبان سوف يبدي نحوه أية مقـاومة، ومع أن النبلاء ألقوا العوائق في سبيله، كتب إلى الأسـاقفـة الذين كـانوا منصـاعين لإرادته —وإن كـان ذلك كرهاً لا طوعاً— كما يلي:

رسالة الملك إلى أساقفة إنكلترا

«من هنري الذي هو بنعمـة الرب، إلخ، إلى جميع رهبـان الديرة وإلى رؤساء الرهبان في كونتيتي: اسكس وهارتفورد، تحيات: إذا كنا بكياستنا الملكية نرغب بأن نمتحن صداقـة رعايانا المخلصين والأوفياء، فذلك في سبيل الدفاع عن حقوق المملكة، وإذا كانوا قـد أظهروا مراراً في أوقات مناسبـــة، احترامهم لأميرهـم، الذي يعيشـــون تحت حماية جناحيـــه، ويتنفســـون بحـريـة، أظهـروا ذلك بـالخدمـات الجسـدية، أو بتقـديم الأعطيـات، فتلك ليست واقعة مـدهشـة، ولهذا، بما أن الهدنة بين ملك فرنسا وبيننا قد انتهت، ونحن في سبيل استرداد وحماية حقوقنا على هذا الطرف من القنال، وكـذلك المقـاطعات على القـارة، التي إليهـا أرسلنا مـؤخـراً كتلة من الجنود، فنحن الآن تحت الحاجـة لدفع نفقـات كبيرة، وأن نفتح يد الكرم إلى كثيريـن لأسبـاب متنوعـة، لـذلك أرسلنا إليكم سيمون باسلو المخلص لنا، والذي هـو من رعيتنا، ومحبوب لدينا كثيراً، مع عمد عدة كونتيات، كل واحد بمفرده، ونحن نرجوكم بحرارة، بأن تمنحـــوهم أذناً صـــاغيـــة، وأن تحسنوا إليهم، ومن خـــلالهم إلينا، وأن تستمعـوا إلى الذي سوف يـذكرونه لكم حـول هذه القضيـة، وذلك في سبيل أن نرفع عبء النفقات المتقدم ذكـرها، عليكم أن تساعدونا بكرم من أموالكم، هـذا ومفروض علينا دين، من الواجب القيـام بسداده في وقت قريب».

وعندما وصل هذا إلى علم الأشخاص الحكماء، قدروا بوضوح، مثل

وضوح الضوء، بأنه عندما كان في بواتو، وفي ألمانيا، فإن هؤلاء القوم الذين ألزم نفسه بالأخذ بتوجيهاتهم وبنصائحهم السيئة، قد أثقلوا بالمال فقط، ومن دون حماية رعاياه الانكليز، أوقعوه بشراكهم، واعتقلوه، وأنزلوه إلى حالة الفقر، وبدناءة استخرجوا منه كل الذي كان قد امتلكه، والذي سوف يمتلكه في مستقبل الأيام، أي أنه ارتبط بشكل لايمكن الخلاص منه بأيمان وصكوك موقعة من قبله، حيث تعهد بأن يرسل إليهم كل الذي جرفه من انكلترا، وهكذا ازداد حزن الانكليز وأسفهم يوماً فيوماً.

كيف استقال أسقف درم من منصبه

مع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم،وجد نيقولا أسقف درم نفسه وقد بات عجوزاً، وضعيفاً، ومريضاً في صحته، فاختار بالحري أن يتخلى عن ثروته، بدلاً من أن تتخلى عنه، فاستقال من أسقفيته في درم، وذلك بعدما حصل على إجازة من البابا، وبناء عليه جرى تعيين أوصياء على المسألة، وهم: رئيس أساقفة يورك، وأسقفي لندن ووركستر، وجرى تعيين ثلاثة عزب له، هي عزب: هوفيدي Ho-vedey مع متعلقاتها، وستوكتون Stockton وايزنغتون Esington, فغادر المدينة وذهب ليعيش في إحدى العزب المذكورة، وذلك من أجل أن يتخلى عن جميع المسؤوليات الدنيوية، وأن يعيش بسلام متحرراً من مشاكل الشكايات والمحاكمات والمخاصمات، وأن يمتلك المزيد من الوقت ليشغل نفسه بالصلوات والتأملات حتى يأتي عليه التغيير الذي كان ينتظره، وعندما علم الملك بذلك لم يكن بطيئاً في تولي المسؤولية عن الممتلكات المتبقية العائدة إلى ذلك الكرسي، حتى يتمكن من ابتلاع المرابح المالية الكبيرة، ذلك أنه كان جائعاً وجشعاً، وفي سبيل جمع هذه الممتلكات، أرسل إلى هناك واحداً من محاسبيه اسمه توماس أوف نيوآرك.

كيف جرى منع مبارزة بسقوط ثلج ثقيل

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تعيين موعد لمبارزة عامة تعقد في نورثأمبتون، يوم أربعاء الرماد، لكنها منعت بتحريم من الملك وبتهديد منه، وبوساطة جليد الفصل آنذاك، وحزن الفرسان كثيراً لهذا، وبشكل خاص الجدد منهم، لأنهم رغبوا بالدخول بالمباراة الأولى في مجال نظم انضباط الفروسية، وكان وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، والذي كان جديداً، قد بعث برسالة إليهم، بأن لايعبأوا بحظر الملك وبشكوكه الكبيرة، وأنهم ينبغي ألاّ يتوقفوا، إذا ابتسم مناخ صالح لهم، وأن يعقدوا المبارزة، لأنه سوف يضع نفسه بمثابة ضمانة بين أخيه الملك وبينهم، ليمنع تفجر غضبه وصبّه عليهم، وأعطت هذه الرسالة إلى وليم المذكور كثيراً من الادعاء بالفروسية، وأضافت كثيراً إلى كرامته، وحدث على كل حال أنه في ذلك اليوم، وهو يوم أربعاء الرماد، أن حدث سقوط ثلج ثقيل، وقد استمر لمدة يومين، وكان كثيفاً إلى درجة أنه غطى وجه الأرض إلى عمق قدم، وحطم أغصان الأشجار الثقيلة الأوزان، ثم ذاب، مسبباً أخاديد في الحقول، أصبحت الآن كأنها كهوف امتلأت بالجداول التي صبت فيها، وهكذا جاء تدمير المبارزة المذكورة بوساطة معيق مزدوج.

كيف رغب الملك بانتخاب أخيه ايثيلمار أسقفاً لدرم

وفي الوقت نفسه قام الملك المتيقظ دوماً، والباحث الذي لايعرف التعب، والساعي وراء المال، فوضع جانباً كل خوف من الرب، بطريقة لاتليق به سوى قليلاً، فمع أن حق الانتخاب عائد إلى التجمع الرهباني في درم، أرسل التماسات تكدست فوق التماسات إلى تلك الجماعة، وكان ذلك بوساطة رسل حكماء ووعاة، وكذلك بارعين في فرض الأمور وترتيبها،حيث نصح، وطلب، وتهدد باعطاء أوامر بوجوب انتخاب أخيه لأمه ايثيلمار بالاجماع من قبل جماعتهم، ليكون أسقفاً لدرم وراعياً

لأرواحهم، وفي سبيل أن ينجح في مقاصده تصرف وفقاً لكلمات الشاعر:

مزج الأوامر والوعود والالتماسات

وهكذا ظهر على التوالي سيداً ومستجدياً

وعلى هذا الطلب رد الرهبان بتواضع قائلين: «تذكر ياصاحب الجلالة، ياأعظم الملوك المسيحيين، تذكر، إذا كان يرضيك اليمين الأول الذي أديته، عندما كنت على وشك التتويج، والذي كان فوق كل شيء بأن تسمح للكنيسة المقدسة بأن تتمتع بحريتها، على الأقل أحياناً، بانتخاب —مع فضل الرب— أباً مناسباً وموائماً، وراعياً لأرواحنا، وأنت تعلم، والعالم يعلم بأن أخاك المذكور غير كفء، في كل ممايتعلق بالمعرفة والسن، ليقوم بأعباء مثل هذه المهمة الروحية الصعبة»، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجاب قائلاً: «أنا قادر، وراغب تماماً بالاحتفاظ بهذه الأسقفية بين يدي لمدة ثمانية أعوام أو تسعة، أو أكثر، حيث سيكون وقتها في سن ناضج، مقبول لديكم».

شكوى حول السرقات المقترفة في إنكلترا

مع اقتراب الصوم الكبير، كان الملك قد وصل إلى وينكستر، وإليه وصل إلى هناك تاجران من برابانت لتقديم شكوى، وقد خاطباه بالكلمات التالية، المزوجة بالأسى والدموع: «أيها الملك الأكثر سلاماً وعدلاً، نحن بحكم أننا تاجرين من برابانت، كنا عابرين من خلال أراضيك، التي اعتقدنا أنها آمنة، لمتابعة تجارتنا، وقتها هوجمنا ونحن مسافرين، غير محميين، فهكذا كان واقعنا، وجرى الهجوم من قبل بعض قطاع الطرق واللصوص، الذين نعرفهم من وجوههم، والذين وجدناهم في بلاطك، فهم قد قاموا بدناءة وبلصوصية، فانتزعوا منا بالقوة مايساوي مائتي مارك، وإذا ما أقدم هؤلاء الرجال على انكار

التهمة، نحن على استعـداد —بعون الرب الذي هو قـاضينا— لكشف الحقيقة بمحنة مبـارزة واحدة ضدهـم»، وجرى اعتقـال الفئات المتهمة، و تقرر بعد ذلك اقرار قضيتهم بوساطة إفادة أهل المنطقة، وأطلق يمين حلفتـه المنطقـة سراحهم، ومـاهو وجـه العجب في ذلك؟ فقـد كـانت المنطقة موائمة لهم، لأنها كلها كانت مصابة بداء السرقة، لكن التاجران المتقـدم ذكرهما تـابعا الضغط بتهمتهما، وطالبـا بجـرأة بها لهما على يدي الملك، وبدأ الملك بالانزعاج، فاستدعى مستشاريه، وقال لهم: «ماالذي ينبغي صنعه؟ لقد ضاقت أحشائي من بلية هذين الرجلين»، وعلى هذا رد مستشـاروه: «ياصاحب الجلالـة، لقد سمعنا، ونحن نعـرف أن تهماً مماثلة قد راجـت في جميع مقاطعات انكلترا، ذلك أنه غـالباً مـا تعرض المســافرون هنا إلى السرقـة، والجراحـة، وجعلوا أسرى، وقتلوا، ونحن نعجب كيف أن رجال عدالتكم المتجولين —الذين واجبهم هو هذا— لم يقوموا بتنظيف هذه البلاد من هذا العار، وبناء عليه، نحن نعتقد بأن لصــوص هذه البلاد، المنتشرون هنا بكثـرة من دون حدود، قـد دخلوا ببراعة وعملوا مـؤامرة فيها بينهم أنفسهم، بأن لايقـوم أي واحد منهم، مهما كانت المعطيـات، باتهام الآخر، وهكذا فإن مؤامـرتهم ومكرهم قد نجوا من أن تعـرفهما، وكذلك نجـوا من رجال عـدالتكم ومن نوابكم الآخـريـن، وقـد كـان هنـري دي مـارا Mara, رجل عـــــدالتكم هنا،مع أصحابه، ولم يفعل شيئاً نافعاً، وهؤلاء الأشخاص أيضاً، الذين قمت بتعيينهم مفتشين متحالفين مـع اللصوص ومحرضين لهم، ولذلك علينا أن نتصرف بحذر ضـد مثل هؤلاء الخونة المتعددي الأشكال، أي أن تتـولى البراعة خـداع البراعـة، لأن عـدداً كبيراً من التجـار، خاصـة الذين هـم من القـارة، يجيئون ويروحون من هنا بسبب الميناء المجـاور، وبحكم أنها المدينة الملكيـة، ومن أجل السـوق، وأيضاً هذان الرجـلان اللذان سلبـا قـد أعلنا، أن المال —الـذي من أجل البرهنة على حقيقـة أمـره هما على استعداد لفعل ذلك بوسـاطة مبارزة فـردرية— إذا لم يرد

إليهما، فلسوف يستردانه بالقـوة، بالاستيلاء على جميع المقتنيات العـائدة إلى التجار من مملكتكم في بلادهم، مما سوف يسبب الخسارة إلى التجار المذكـورين ولسـوف يلحق العـار بك، ودوق برابانـت، الذي نرغب بصداقته، سوف يعاملك —ليس من دون مسوغ صحيح— بازدراء».

وبناء عليه استـدعى الملك النواب، والرجال الأحـرار لتلك المنطقة، أي أن تقول منطقـة ثاوثأمبتون، وبنظرة صارمة قـال لهم: «ماهذا الذي سمعتـه عنكم؟ لقـد وصلتني شكاوى أناس مسلوبين، ومن الضروري بالنسبة لي الإصغاء إليهم، حيث ليست هناك كـونتية أو منطقة في جميع أنحـاء انكلترا إلاّ وسيئة السمعـة بهذا، أو ملطخة بعـدد كبير جـداً من الجرائم، حتى عندما أكون أنا حاضراً في المدينة، أو في ضواحيها، أو في الأمـاكن المجاورة، تقترف السرقـات وأعمال القتل، كما أن هذه الجرائم ليست لوحـدها، حتـى أن خموري الخاصـة عـرضـة للسرقـة والنهب، وتحمل بعيـداً في عــربات من قبل أولئك المجــرمين، الذي يضحكون ويسكرون عليهم، كيف يمكن التسـاهـل مع مثل هذه الإجـراءات أية مــدة أطول؟، وفي سبيل استئصــال هذه الجرائم ومـــايماثلهــا، عينت أشخــاصـاً حكماء للالتحــاق بي في حكم المملكة وحمايتهــا، أنا رجل واحــد، ولستُ أرغب، كما أنني لست بقــادر على تحمل أعبــاء إدارة المملكة كلها من دون مسـاعدة معاونين، وأنـا خجل ومنهك من النتانة القذرة لهذه المدينة، وللمناطق المجاورة، فلقد ولدت في هذه المدينة، ولم يلحقني القـدر نفســه من العـار في أي مكان آخـر كما لحقني هنا، ومن المحتمل، ولابد أن أعتقـد، لابل إن الأمر واضح الآن تمامـاً، أنكم أنتم سكان المدينة، وسكـان المنطقـة شركــاء بالجريمــة ومتحــالفين سيىء السمعـة، وانني سـوف أدعـو جميع كـونتيـات انكلترا، حتى يقـومـوا بمحاكمتكم بمثابة خونة لي، ولكـي يلاحقوا جرائمكم، حتى لاتستمر براعة محاججـاتهم في نيل الربح، أية مدة أطول»، وحدث هذا في قـاعة

قلعـة وينكستر، بحضــور و. W., أسقف تلك المدينة، ثم صرخ الملك فجأة بصـوت مـرتفع: «أغلقـوا أبواب القلعــة، أغلقـوهم على الفـور»،وعندها انتصب الأسقف وقـال: «تمهل يامـولاي، تمهل قليـلاً واستمع إليّ بصبر، إذا كـان ذلك يرضيك، يوجد في هذه القلعـة بعض الغـرباء، مع رجـال صـالحين، لهم سمعـة نقيـة، وهم أصـدقـاء لكم، ولايرضيكـم حبسهم، فأنت قــد اتهمت سكـان وينكستر ومحرضيهم فقط»، ثم تابع كلامـه، وحول الأسقف وجهه نحو الحشـود وقال: «أنا راعيكم ووالدكـم الروحي، ولدي السلطة على أرواحكـم في القضـايا الروحية، وإلى حـد كبير في القضايا الدنيـوية، وإنني أحرم كنسيـاً جميع المتآمرين في هذه الجريمة البشعـة، وكذلك الذين يحبذونها، أو يتعاملون معها من خـلال الخوف، أو من أجل الحصول على جـائزة، وكل الذين يخفـون الحقيقـة بأية طريقـة من الطرق عندمـا يستجـوبون حـول هذه القضيـة»، وبناء عليـه جرى هناك انتخـاب اثني عشر شخصـاً من بين سكان و ينكستر، ومن كـونتية ثاوثأمبتون، وقـد أقسم هؤلاء أن يعطوا أسماء أية لصـوص عندمـا يعـرفون، وبعـدمـا انتقل هؤلاء الرجـال إلى مكان خاص، عقدوا نقـاشاً طويلاً، وكانوا تحت حراسـة مشددة، وبعد مداولات طويلـة، جرى استدعـاءهم ثانية، لكنهم رفضـوا اعطاء اسم أي واحـد من اللصــوص، الأمـر الذي أزعج الملـك كثيراً، لأنه كـان مدركاً تماماً أنهم يعـرفون شيئاً ما عن خطط اللصوص، وبما أنه اشتعل غضبـاً قـال: «أمسكوا هؤلاء الخونة المخـادعين، وغلوهـم بالسـلاسل، وألقوهـم في الزنـزانة الأعمق، لأنهم رفضوا الكلام، وأخفوا مـاتوجب أن يكون معلـومـــاً، وهـم لاشك محرومين كنسيــاً من قبـل أسقفهم، وانظروا كيف أعطوا هؤلاء الرجـال الحظوة والتأييـد، اختـاروا لي اثني عشر واحداً آخر من سكان وينكستر وكونتية ثاوثأمبتون، من الذين لن يعارضـوا الحقيقة، لكي يكشفـوا لي الحقيقة حـول القضايا التـي سوف أسألهم عنهـا»، وبناء عليـه جـرى اختيـار اثني عشر آخـرين، وجـرت

دعـوتهم، وعندمـا وجـد هؤلاء أن الاثني عشر المتقـدمين، قـد جـرى سجنهم، وحكم عليهم بالشنق، لأنهم أخفوا الحقيقـة، شرعوا يشعرون بخـوف عظيم، وقـال أحدهـم للآخر: «نحـن أيضاً سـوف نعـاني من عقوبة مماثلة إذا ما أخفينا أي شيء من الحقيقة عندما نستجوب»، وبعد مداولات سرية ومناقشات طويلة عقدوها فيما بينهم، قدموا عائدين إلى وسط الاجتماع، وأطلقوا عقال ألسنتهم، وكشفوا سرقات وجرائم كثير من الأشخـاص، الـذين كـان عـدد كبير منهم ينتمـون إلى المناطق المجـاورة، بشكل خـاص إلى ألتـون Alton وإلى الملكيـة الخاصـة بالأسقف في تانتـون Tanton, ومن بين هؤلاء كـان بعضهم من سكان المدينة والكثير منهم كـانوا من سكان المنطقـة، والذين كـانوا يعـدون من قبل صالحين، ورجـالاً مخلصين، وكانت لديهم وفـرة كبيرة من الممتلكات الغنية، وكان بعضهم ممن أنابهم الملك، كأوصياء ونواب، لحماية ذلك الشطر من البـلاد، ولاعتقال اللصـوص وطردهم، وامتلك آخـرون خيولاً وثيـاباً غاليـة، وكـان لدى بعضهم الآخر بيـوتاً وأسراً، وتمتعـوا بامتـلاك خمسين أو ثمانين ملكيـة خـاصـة من الأرض، وكـان بعضهم من كبار موظفي الملك وحـاشيته، كما كان من بينهم رماة قسي عقارة يعملـون في خدمة الملـك، وجرى اعتقـال هؤلاء جميعاً، وبعـدما تبرهن أنهم مجرمين، شنقـوا، والتجأ بعضهـم إلى الكنائـس، وهرب آخـرون بشكل مفاجيء وبصـورة سرية، ولم يظهروا مـرة ثانية، وكـان بعض الأشخاص ينتمون إلى المدينة نفسها، وكانوا آنذاك يتولون خدمة الملك، بابعـاد الناس الذين كـانوا قـد احتشـدوا بسبب طرافـة هذه الإجراءات وحداثتها، فقـد كان عدد الناس الذين اجتمعوا مع بعضهم كبيراً جـداً، وامتزج هؤلاء ببراعـة مع الحشود، وقـاموا فجأة بمغـادرة القلعـة، حيث أبقـوا أنفسهم مخفيين، أو هربـوا إلى أقـرب الكنائس، وعندمـا جرى استجـواب الذين اعتقلوا بدقـة أكبر، اعترفوا بأنهم قـد اقترفـوا جرائم لم يسمع بمثلهـا، من نوعي السرقات والقتل، بالتـواطؤ

مع آخـرين وبمسـاعـدتهم، ومن بين هؤلاء تبرهن أن حـوالي الثـلاثين كـانوا مدانين، لـذلك أخذوا وشنقـوا، وأودع العـدد نفسه أو أكثـر في السجن، لينتظروا عقوبات مماثلـة، وقال بعض الذين عادوا إلى حـاشية الملك، عندمــا كـانوا على وشك التعليق على المشنقـة، للضبــاط الذين كـانوا مسؤولين عنهم: «قـولوا لمولانا الملك بأنه هو سبب مـوتنا، لابل السبب الرئيسي لذلـك، لأنه أوقف لمدة طويلة الدفـع لنا مـانستحقــه، ولذلك أرغمنا على أن نتحـول إلى لصـوص وقطاع طرق، أو لأن نبيع خيـولنا وأسلحتنـا، أو مـلابسنا التي لم يكن من الممكـن لنا العيش من دونها»، وعندما تسلم الملك هذه الرسالة، تأثر وشعر بالخجل والحزن، وعبّـر عن أسفـه بتأوهات متواليـة، وكان من بين اللصـوص الأخساء الذين اعتقلوا واحـداً تقـدم بالتماس استئنـاف، وكـان اسم هذا الرجل وليم، ولقبـه بابا Papa, وكـان هذا الرجل لــديه ثروات هائلة على شكل بضـائـع مخزونة، وكـانت من الكثـرة بمكـان، حتى أنه لدى فحص بيتـه، بعد اعتقـاله، وجـدوا هناك في مستودعـه حوالي الخمسـة عشر برميــلاً مليئة بالخمــرة، وكــان هذا الرجل قــد تقــدم بالتماس استئناف، ولكن عندمـا وجـد مجرماً، تم شنقـه على الفـور، وقام أحـد الناس بعمل خدمة جيدة للملك في القتال، حيث حرر المنطقة من ستة من اللصوص، وهكذا جرى طرد هؤلاء المجرمين الذين لطخوا سمعة تلك البلاد، بقـدر وتوفيق من رحمة الرب، إله الانتقـام، وعلى كل حال تخلصت وينكستر، وثاوثأمبتون وجميع تلك المنطقـة من الوصمة الشائنة للسمعة، ومن مخازي تلـك الوقائع، ولقد توليـت شرح هذه الأحداث بشكل كـامل وباسهاب، حتى يكون واضحـاً كم هو سهل أي تحالف، وكيف يمكن بسهـولة تفكيك أية مـؤامـرة منسوجـة بين مقترفي الشر، لأنهم يرتحلون في دائــرة، وفي وقت الضرورة يسببــون اضطراباً بينهم أنفسهم، لكي تكون العقوبة في النهاية أكثر حدة.

ازدياد سوء سمعة الإمبراطور بشكل جدي

وأصبح في الوقت نفسه اسم فردريك مشهور جداً في مختلف أنحاء العالم، بأنه أسوأ من هيرود، ويهوذا، ونيرون، بسبب النتانة المميتة الصادرة عن أعماله، حسبما ورد ذكر ذلك في الرسالة التالية، التي تثير سمع و قلوب المسيحيين، وتملأهم بالدهشة والحزن.

رسالة قدح صادرة عن الكاردينال ريمير ضد الإمبراطور فردريك

«جريمة كبيرة، ممارسات شائنة، وحشية حيوانية، شرور لم يسمع بمثلها، دناءة متجاوزة الحدود، قد مورست في هذه الأيام، مظهرة صورة مرعبة للرب، وللملائكته، وللناس، نحوها ينبغي أن تصبح الشمس شاحبة، وأن تختفي أشعتها بالغيوم، وأن تغلف النجوم بالظلام، وكأنها بالفعل مختومة بختم، والأرض ترتجف، والبحر يهتاج غاضباً، وآذان الذين يسمعون بهذه الأفاعيل ترن بها، واضطربت قلوب المؤمنين، واهتزت أحشاء المسيحيين، وثارت قلوب الملوك، والأمراء، والفرسان، وجميع المؤمنين الذين يعتقدون بالمسيحية للقيام بالانتقام، وانتبهوا كيف أن مبشر الشيطان، ونائب ابليس، ورائد المسيح الدجال، ومبدع الأعمال الوحشية ووكيلها كلها، قد هاجم بعنف وانقض على المكرسين للرب، وعلى الحبر الأعظم الممسوح بالميرون المقدس، وعندما أدرك مارسيللينوس Marcellinus المقدس، أسقف أريزو Arezzo, بأن مرجل الاضطهاد، قد حمي كثيراً بوساطة هبات رياح الشمال، وأنه كان يغلي بعنف ضده، في مدينته، انصاع أمام تيار غضبه، وعاش في المنفى والفقر لكثير من السنين في أنكونا Ancona, التي هي ابنة مخلصة جداً للكرسي الرسولي، وبعد لأي، قام إثر تلقيه توصية رسولية، فبذل جهوده بشكل مواظب لانقاذ شعب التخوم من بين فكي التنين

المسمم، ومن شراك الشياطين الذين كانوا يطاردونهم، ومن نير الطغيان، وفي هذا، كما يبدو، بفضل نعمة الرب، قد حقق بعض التقدم، وحدث على كل حال، أنه بإرادة من الرب وسماح، قد وقع بين أيدي أعدائه، وضغط عليه بشدة بالسجن والأغلال لمدة ثلاثة أعوام أو أكثر، بوساطة أتباع فرعون، وبعد مضي بعض الوقت فرح فرحاً عظيماً فردريك، رجل الدم ذاك، الذي كان يتجول ثائراً مثل تنين، ومثل أسد غاضب، يبحث عمن يفترسه، وهو ملوث بدم الأبرياء، ثمل من شرب دماء الرجال المقدسين، وبعدما فرح فردريك وشعر بالسرور العظيم، قام بمشاعر حيوان مفترس، وخطط بفكره لتدمير كاهن الرب هذا، ولاشك أن هذا الرئيس المدنس وغير التقي، كان يشعر مثل أبيه الشيطان، بغضب عظيم ضد كنيسة الرب، وبما أنه قد عرف أنه لايمتلك سوى وقت قصير، انفجر على الفور غاضباً، وزمجر وتفوه بقرار قضى بالشنق، وبقطع العنق ضد هذا الرجل المكرس للرب في مدينة المنصورة، التي تأسست من قبله، والتي لقبها ينبغي أن يدرج بين أولئك العائدين للمؤمنين، وقد حدث بوساطة معجزة مدهشة في اليوم الثالث قبل الانتصار المدمر له ولتلك المدينة، لأن المنصورة هذه، على عكس نوايا هذا الرئيس الغاضب، الذي منحها ذلك الاسم، قدمت اشارة مسبقة باسمها، بأنها سوف تذعن من نفسها إلى النصر المدوي لقضية الكنيسة، ومجدداً كان عمالقة الجحيم، وأتباع الشيطان، قدتلقوا أمراً من رئيسهم أن يفعلوا مايلي: أن يحرضوا الأسقف أن يعلن على الملأ الحرمان الكنسي للبابا، والكرادلة ولأساقفة الكنيسة الآخرين، وأن يكون ذلك أمام جميع الناس، وأن يقسم على تقديم الولاء إلى فردريك الغادر، الذي وعده بالعفو، وبكثير من الثروة إذا فعل ذلك، ولكنه وقد نال القوة بروح الرب، أكد بجرأة أنه غالباً ما تولى حرمان فردريك المذكور، ابن الشيطان وتلميذه مع أتباعه، كنسياً، ثم إنه قام بترديد حكم التكفير نفسه ضده، وعندما اقتيد هذا الكاهن إلى الشهادة، متّن نفسه للمرة الأولى بدموع

التـوبة، وبجميع القداسـات، عندما اعتقـد أنه على وشك أن يلقى به في الهاوية، عـرف من الذين كـانوا واقفين هناك، بأنه سـوف يسحل خـلال البلدة ليموت على المشنقة، وقتها أخذ ينشـد بصوت مرتفع قائلاً: «نحن نحمـدك أيها الرب»، وكـذلك ترنيمـة الملائكة، ثم إنه رغب بأن يجر إلى المشنقـة، مثلما جرّ المسيـح إلى الصليب، ولكن لوجـود النساء والأطفـال الذين كانوا يبكون من حـوله، لم يسمح بتعريته تمامـاً، وعلاوة على ذلك قام المسلمون بربـط يديه وقدميه المقدسين، وبتغطيـة عينيه، ووضع رأسه إلى جـانب ذيل دابـة تولت جـره، وذلك من أجل أنـه إذا مـا خـرج أي روث من الدابة، يمكن أن يلـوث رأســه المقـدس، ولكن مجدداً فإن هذه الدابة البهيمة، على الرغم من نخسها بالمهاميز، تعذر تحريكها، حتى أنهى بطل الرب هذا المزمـور والصـلاة التي كان قـد شرع بها، وقـد سمح لها بالسير من قبل الأسقف نفسه، وهكذا جره أولئك المسلمون إلى المشانق، خلال قلعـة القديس بلاميـانو Plamiano, وكأنه كان عـــامياً من أصل وضيع، محروم من الغطاء، أو أنه كان غادراً قـاتلاً لأبيه، أو مغتالاً له، أو لصـاً، أو مداهماً للبيـوت ليلاً وللحقـول، وكان بين الأشيـاء التي عملهـا أنه قدم اعترافـاً للمسيح، ولبعض الرهبـان الفـرنسيسكان الذين وقفوا هناك، بأن هشـاشة الضعف الانساني قد حرضتـه —إذا كان ذلك ممكناً— بأن ينجو من الشهادة التي رغب بها عندمـا كان حراً، وتابع هو شخصياً بشكل مكشوف الاعتراف بهذا، وببعض التوافه التي جاءت إلى ذاكرته، وطرد من قلبه جميع مشاعر الكراهية ضد الذين آذوه، وقد تحمل بصبر كل الأذى الذي فعلوه له، وجرى تعليقـه على المشنقة في أول أحد من هذا الصـوم الحالي، وبالسـاعــة نفسهـا التي صعــد بها مخلصنا إلى الصليب، وتمت مركزة الحراس على مقربة منه، ومكث معلقاً على المشنقة لمدة ثلاثة أيام، أي حتى قام الفـرنسيسكان بسرقة جسده، لكن الجلادين الذين تولوا عمليـة الإعدام، أخرجـوه من القبر، وبعدمـا سحلوه خلال الوحل، علقوه مجدداً على المشنقة، على أن لايحركوه وينزلوه من دون اذن

خـاص، من بيـــلاطيـوس الجديد، والمحتقــر الكبير للمسيحيـة، والمهين لرجـال الدين، والملحق العـار المستمـر بطائفة الكهنة، والمدمـر للكرامـة البابويـة،ومع أن جسد الشهيد كـان قد اهترأ من قبل، بسبـب العقوبات القـاسية التي تعـرض لها، ولأنه دفن من قبل، لقد تماسك الآن بوسـاطة معجزة، فهـذا ماشهد به الرهبـان الذين قدمـوا من ذلك المكان، وأكدوه بشكل يقيني، أنه على الرغـم من مـرور عشرة أعـوام، لم تصـدر عنه أية رائحـة قـذرة، وعملت الشهـادة نفسهـا من قبل رجـال حكماء بالنسبـة للمعلم هوغلين زيموكشيو Hugelin Remoccio وكان رجلاً محترماً، الذي كبـا به فرسه، فوقع على الأرض، فأخـذ أسيراً أثناء القتال، فجـرى تجريـده من قبل أعـدائــه غير الأتقيـاء، ومن ثم جــرى ذبحـه بوحشية.

انظروا أيها القوم المسيحيين، وتبصروا فيها إذا كان هناك أي حزن مثل حـزن الكنيسة أمكم، أو بالحري كنيستكم، لأنه من الذي شـاهد قط أو سمع بمثل هذه الإجراءات، أو مايشابهها؟، فهل يمكن للعبيد المخلصين للمسيح، لدى تفكرهم بهذه الأشيـاء، أن يكفكفوا دموعهـم، أو يوقفوا تأوهاتهم وتنهـــداتهم؟، هل هنـاك من قلب مهما يكن قــاسيــاً، لايحزن ولايأسف عندما يضرب بمطرقة مثل هذه الوحشية الكبيرة؟ أولم تسحق بعض القلوب الحجرية لبعض المسيحيين، وتتمزق صـدورهم القاسية؟، أين هي غيرة الإيمان المسيحي؟، أيـن نار حب المسيح المعلق الآن ممثــلاً بشخص رجل دينـه وكــاهنه الأعلى؟، وكما قــال لبطرس: «اذهب إلى رومـا، واربح أن تصلب» «وشـــاول، شـاول لماذا تضطهـدني»؟، ومـرة أخـرى قال في الانجيل فيما يتعلق بـرسله: «كل من يرفضكم، يرفضني، وكل من يؤذيكم يؤذي بؤبؤ عيني»، وعلى هذا، قام هذا التعيس الشرير، حتى يضيف إلى ركـام شروره، ولكي يلوم قســوة قلوبنا، التي نادراً مـا أثيرت تجاه مثل هذه الجرائم المرعبـة، فلم يتردد بـالغـالـب في تكرار مثل

هذه الاعتداءات، مؤكداً بسبب أن مظالمه التي قد اقترفت مراراً من دون انتصـاف، بأن الاحسـان قـد أصبح بين المسيحيين بارداً، وأن أوعيـة العواطف قد أصبحت جافة كلياً منهم، وأن الغيرة كلها من أجل الإيمان قد ماتت، لأنه تدبر منذ عامين اغراق أسقف غيراس Girace في كـالبيرا، في حمام عمل حاراً جداً، وفي هذا العـام أيضاً تسبب في مـدينة اللاتيران بمقتل أسقـف سيفـاليـدي Cephaledi في صقليـة، صاحب الذكـرى الطيبة، الذي كـان قد طرد من كرسيـه لمدة خمسة عشر عاماً بوساطة هذا الرجل غير التقي المذكور نفسـه، وجاء مقتله بالسيف على أيدي قـاتل صقلي مستأجـر، وكـان هـذا الأسقف المبجل والجليل محبـوساً، وكـان قـد أقـام مدة طويلة في حجـرة الفقـر، تحت هواء النفي البـارد، وكان بالفعـل قد شرع يغـرق من قبل نفسـه في القبر، ولم يرسل هذا القـاتل المستأجـر المتقدم ذكـره من أجل هذه الغـاية فقط، بل أيضـاً ليلقي —إذا استطاع— بيـديه الدمـويتين على أي واحـد من الأعمـدة الكبـار للكنيسـة، وينبغي أن لانعجب لدى قتلـه الأقل شهـرة من الأساقفـة، لأنه كان قـد جلب من قبل قتلة مستأجرين، ورجـال اغتيال لقتل النـائب الأول للمسيح، وبعـض إخـوانه، كما أنـه عمل محاولات مماثلة، ضد بعض الأمـراء، وياللأسف كيف أن الخوف من الرب قد نام لدى الأمراء المسيحيين، وكيف أن التراخي بحب المخلص صـار مطلقاً، وكان يحدث فيما مضى في أيام الأمم إذا مـاجرى انكار عبادة الشيطان في أي من البـلاد الوثنيـة، كـان الشخص المقـدم على ذلك يمـزق إلى قطع، ويقتل بوسـاطة عدة أنواع مـن العذاب، والآن وقـد جرى الاستخفـاف بالإيمان، وبدأ الهراطقـة بالسيطرة، وهـم الآن محميين محروسين من قبل هذا الرجـل غير التقي، والتبشير بالهرطقـة قـائم في ممالـك هذا الشرير التعيس، والارتداد بازدياد هناك، وجـرى ازدراء القـداسات مع مفـاتيح الكنيسة، وديس على الحرية اللاهوتية، وانعدمت العناية بالأرواح.

ومنذ بعض الوقت، عندما كان الجيش الصليبي، الذي كان ناوياً الاستيلاء على القاهرة، قد منع من التراجع بفيضان المياه، أولم يحدث أنه بلطف السلطان، جرى تزويده بالمؤن، وحفظ سليماً، وأرسل عائداً إلى الوطن من دون أذى؟ وكان مع ذلك الجيش أسقفي ألبانو وعكا، صاحبي الذكرى اللامعة، وبعض الأساقفة الآخرين والقساوسة، وجون بريين، ملك القدس، صاحب الذكرى اللامعة، وأولم يكن جون دي كولونا Colonna, صاحب الذكرى اللامعة، و الراهب الكاردينال، الذي ذهب إلى بلاد الاغريق مع امبراطور القسطنطينية، لاسترداد تملك تلك البلاد، قد وقع أسيراً لدى ثيودور كومينوس، وأقول أولم يكن هو الذي عومل باحترام وأطلق سراحه؟، وانظروا إلى جنون هذا العدو الأكثر وحشية، هو لم يكتف بهذه الأفاعيل الشريرة، بل إنه تسبب بتدنيس الكنيسة بوساطة المسلمين، وأن يجري تدمير المذابح، وبعثرة الآثار المقدسة، وأن يجري الاعتداء على العذراوات، والأرامل، والنساء المتزوجات، في الأماكن المقدسة وعلاوة على ذلك جرى بناء على أمره قتل الرهبان الفرنسيسكان، والرهبان الآخرين، الذين كانوا مسافرين حول العساكر المسيحيين وبينهم، لتحديد الكفارات عن الذنوب، ولدفن أجساد القتلى، لقد جرى قتل هؤلاء بسيوف أتباع هذا المتمرد غير التقي، وبالاضافة إلى هذا، ولكي يشتعل غضب الرب بحدة أعظم ضد هذا الرجل الشرير، قام المسلمون مؤخراً في هارينا Harina, على مشهد من الجمهور بجر تمثال المصلوب بذيل أتان، مع تمثال مريم المباركة، وقديسين آخرين، ثم قطعوا رجلي وذراعي تمثال المسيح، وفعلوا الشيء نفسه بالتماثيل الأخرى، وثبتوا الجميع على ترستهم، حتى يرغم المسيحيون أثناء القتال على طعنهم برماحهم ونشابهم، ولماذا على هذا، لايكترث الصليبيون بهذه الأعمال الشائنة، فيحرثون الأنهار بسيوفهم، ويعبرون البحر لقتال المسلمين أو التتار، الذين أرسلوا غضبهم من مسافة، عندما عدّت وحشيتهم أقل بكثير من إجراءاته هذه؟.

إن المتوجب أولاً محق شرور المسلمين هذه، مع قادتهم ومحرضيهم، وعليهم بعد ذلك السيرضد آخرين، لأن القضية الموجودة الآن في الوطن، هي التي ينبغي أن تطلب في الخارج، والآن يجري الاضطهاد من قبل الكفار في قلب الكنيسة ذاتها، وفي ديرة المسيحيين، وداخل اطار العالم المسيحي، يبدو من الموائم أولاً طرد المقترفين لمثل هذه الجرائم من ايطاليا، خشية أن تجري رعاية الثعبان في الصدر، والفأر في القفيز، والنار في الرحم، وعليهم بعد هذا السير إلى أماكن نائية، لأن الرب لم يختر شعبه بالنسبة للمكان، بل بالحري العكس هو الصحيح، حسبما هو واضح من القديس بطرس والرسل الآخرين، الذين غادروا القدس وعبروا إلى الشعوب، وقدر بناء عليه، أنه إذا كان هناك أي واحد صاحب فهم، وإذا كان هناك أي واحد يحزن لموته، وإذا كان هناك أي واحد ينظر إلى الأذى الذي ألحق بكهنة الرب، وأن الرب يتطلع من السماء فيرى أبناء الناس، وعلى كل مسيحي أيضاً أن يقدر أنه في يوم الحساب عليه تقديم الاجابة إلى الرب، إذا ماعبر مع مثل هذه الجرائم، وبناء عليه، اتبع حتى النهاية قضية ابن الرب الأعلى، في سبيل أن تتمكن من إيصال قضيتك إلى نهاية جيدة، وحافظ على قرينه باليد اليمنى لقدرتك، من أجل أن يضعك القاضي العادل في يوم الحساب الأخير على يمينه، ويفضي بك إلى مجد سرمدي».

كيف أقنعت مفاسد البلاط الروماني كثيرين بالوقوف إلى جانب قضية الإمبراطور فردريك

لدى وصول هذه الرسالة المرعبة إلى علم الناس، خرقت قلوب الكثيرين، وكانت ستغضبهم كثيراً، وتشجعهم على الوقوف ضد فردريك، لولا أن أعداءه البابويين كانوا ملوثين بدنس آثام الجشع، والسيمونية، والربا، مع شرور أخرى، فقد كان بين أعمالهم الجنونية تضييقهم على الصليبيين، حيث حشوهم تحت طائلة عقوبة الحرمان

الكنسي، في بعض الأحيان لإرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وفي وقت آخر، ارسال المساعدة إلى رومانيا (بيزنطة)، وألمحوا لهم مرة أخرى أن عليهم الثورة ضد الامبراطور فردريك، والذي عدّ أكثر تقزيزاً للنفس هو جعلهم الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباتهم للضرائب، وقد استخرجوا بحجة أو أخرى الامدادات الضرورية للسفر من الذين حملوا الصليب، وبناء عليه صحيح أن الطاغية فردريك قد اقترف جرائم فظيعة، ومع ذلك إنه بالنسبة لفظائع الرومان قد وجد عدداً من المحرضين بشكل علني أو سري وأصحاب في الجريمة.

حول الخلاف بين سكان كمبردج والكهنة فيها

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، أي في الصوم الكبير، نشب لسبب صغير خلاف بين سكان كمبردج والباحثين فيها، عنه نجمت قضايا قضائية، ومعارك، ونهب، وتدمير للبيوت، وجراحات وقتل، ووصلت صرخات شكاوى ثقيلة إلى أذن الملك، وانتشرت أخبار الفضائح في الخارج، وسببت الخسائر التي وقعت من على الجانبين آلاماً كبيرة،وأعتقد أنه جدير بالذكر أيضاً، أنه بوساطة إثارة عدو الجنس البشري، حسبما جرت العادة في الصوم الكبير، أثير خلاف دموي بين الباحثين والعلمانيين، وكذلك في القارة، مثلما حدث على هذا الجانب من الماء، حسبما تقدم ذكر ذلك مراراً من قبل في هذا الكتاب، من أجل أن يصاب الانسان بالجراحة في هذا الوقت المقدس.

كيف نجا الإمبراطور من الموت بالسم

تعرض في هذا العام نفسه فردريك للمضايقة الشديدة من جميع الجهات بوساطة قضايا متنوعة فهو قد جاء إلى هذا الجانب من الجبال لمحاربة البابا، ولكنه عاد إلى أبوليا ثانية، لأنه حسبما ذكر أحد التقارير قد دس له السم، وكان شديد المرض، وبناء على نصيحة أطبائه توجب عليه

استخدام الأدوية لتنقية نفسه من السم، وأخذ حمام يعدّ خصيصاً لهذه الغاية، وكان لدى المعلم بطرس دي فينيا الذي كان أقرب المستشارين من فردريك المذكور، وكان مسؤولاً بشكل خاص عن العناية بروحه، واحداً من الأطباء مرافقاً له، وقد ذهب هذا الطبيب بناء على أوامر فردريك، وكذلك أوامر بطرس المذكور، لعمل الترتيبات الضرورية لمعالجته، لكن مع نوايا خيانية، ذلك أنه قام بناء على تحريض من بطرس المذكور، بمزج سم قوي وقاتل مع شرابه الدوائي، وكذلك في الحمام، لقتل سيدهما الواثق بهما بهذه الوسائل، وقال أعداء الكنيسة بأن البابا قد أفسد قلب بطرس بالهدايا وبالوعود الكبيرة، وأقنعه باقتراف هذه الجريمة، وحدث على كل حال، أنه في الوقت ذاته الذي كان الشراب سيجري تناوله، أن جرى تحذير فردريك بشكل سري من الجريمة المنوية، وتمّ اخباره بالتفصيل بجميع الخصوصيات، من قبل واحد من أصدقائه، وبناء عليه عندما عرض بطرس والطبيب الدواء وأرياه إياه قال لهما: «ياصديقاي، إن روحي واثقة بكما، ولذلك أرجوكما احذرا فلاتعطياني، الذي عهد به إليكما، أي السم، عوضاً عن الدواء»، فأجابة بطرس قائلاً: «مولاي إن هذا هو طبيبي الذي غالباً ما أعطاكم دواءً صحيحاً ونافعاً، فلماذا أنت الآن خائف»؟، وكان فردريك قد وضع حرساً خلف الخائنين حتى لاينجوا، ثم إنه قال بنظرة مقطبة للطبيب، الذي كان يقدم له الكأس: «اشرب نصف هذا الدواء معي»، وأصيب الطبيب بالدهشة تجاه هذا، ولأنه كان مدركاً لخبثه، تظاهر بأن شيئاً ما جعل قدمه تنزلق، فوقع متمدداً على الأرض، فأهرق الشطر الأكبر من السم، وأمر فردريك بالقليل المتبقي فأعطي إلى بعض الأشخاص المحكومين بالاعدام، وكانوا قد جلبوا من السجن، فلفظوا على الفور أرواحهم التعيسة، وبعدما اقتنع فردريك على هذه الصورة بالخيانة المميتة التي خططت ضده، أمر بشنق الطبيب، وبقلع عيني بطرس، ثم أمر بقيادته خلال عدة مدن في أبوليا، وايطاليا، ليعترف بجريمته بشكل

علني، وأخيراً أمر بإعطائه إلى البيازنة، الذين كانوا يشعرون بحقد عظيم ضد بطرس المذكور، كي يقوموا بقتله، وعندما سمع بطرس بهذا، أقدم متطوعاً فضرب برأسه ضد العمود الذي إليه كان مربوطاً،وأخرج دماغه، في سبيل أن لايجري قتله بناء على إرادة أعدائه، لأن سينكا يقول: «أن تموت بناء على ارادة عدو، يعني أن تموت مرتين».

حزن فردريك وأساه

ولدى تأمل فردريك لهذه الواقعة حزن من دون تعزية مع دموع كثيرة، وكان بالفعل مؤلماً مشاهدة ذلك يصدر عن شخص له مثل تلك السلطة، ومثل ذلك العمر، وصفق بيديه معاً وقال مندهشاً: «الويل لي، لأن أحشائي تقاتل ضدي، فهذا بطرس الذي اعتقدت أنه صخرة، والذي كان نصف حياتي، عمل مؤامرة لقتلي، والبابا، الذي امبراطورية هذا العصر العائدة إلى أسلافي النبلاء، قد أوجدته من لاشيء، وأغنته، يسعى الآن إلى تدميرها ويستهدف موتي، أنا حاكم الامبراطورية المترنحة، فيمن سوف أضع ثقتي؟ وكيف يمكن أن أكون من الآن فصاعداً سليماً، وكيف يمكن أن أكون سعيداً»؟ وشاركه أصدقاؤه الذين جلسوا من حوله في أساه بتأوهات ودموع، وتدهورت سمعة البابا نتيجة لهذه الواقعة كثيراً، لكن الرب الفاحص الذي لايخفق، للأسرار، وحده يعرف الحقيقة.

كيف جرى تبديد المؤن في قبرص بشكل سري عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء هناك

وفي حوالي الوقت نفسه، كان الملك الفرنسي الذي كان يمضي الشتاء في قبرص، يعاني كثيراً من نقص المؤن، فأرسل كونت بار، وهو رجل جدي وفصيح، وصاحب بيجو Beaujeu وكان فارساً جريئاً، إلى البنادقة، وإلى سكان الجزر الأخرى المجاورة والمدن يرجوهم بإلحاح الإحسان إليه

بمساعدته، ببيعه المؤن والامدادات، لأنه كان يقاتل في سبيل الكنيسة المسكونية، وأعطى البنادقة لهذا الطلب جواباً بالموافقة والإيجاب، وعن طواعية أرسلوا ست سفن كبيرة محملة بالقمح، والخمر، وأنواع المؤن الأخرى، وكذلك نجدة من الجنود، مع أعداد ممن حملوا الصليب، وأرسلت بعض المدن الأخرى والجزر، التي طلب منها المساعدة، مختلف أنواع الامدادات، ولم يسمح فردريك بهذا فقط، بل أقنعهم بلطف بفعل ذلك، وقام هو ذاته، حتى لايظهر نفسه أنه أدنى من الآخرين، فأرسل إليه كميات واسعة من امدادات مختلف أنواع الطعام، وبذلك امتلك الملك الفرنسي منها كميات وافرة، وبعدما كتب إليه يشكره، كتب إلى البابا يرجوه، أن يتلقى فردريك بحظوته، وايقاف الحرب ضده، والتوقف عن التشهير بمثل هذا الصديق العظيم والمفيد للكنيسة، الذي بوساطته تحرر الجيش الصليبي من مجاعة كبيرة ومخيفة، وعندما سمعت بلانشي الأم النبيلة للملك الفرنسي بهذا، بعثت شكرها إلى فردريك، وأثقلته بهدايا لاتقدر بثمن، وأعلنت بأنه حفظ حياة ابنها، وكرامة الجيش الصليبي كله، كما أنها كتبت إلى البابا أيضاً، تلتمس منه تخفيف الضغينة التي شعر بها ضد فردريك المذكور، ورفض قداسته —على كل حال— جميع هذه الالتماسات وضايق فردريك أكثر فأكثر كل يوم، لكن أينما ذهب صار وضعه أسوأ فأسوأ في القضية.

كيف صالح الملك الفرنسي كثيرين كانوا على خلاف فيما بينهم أنفسهم

وعمل الملك الفرنسي في الوقت نفسه مؤتمراً حكيماً ومقدساً، أصلح فيه بين كثير من النبلاء كانوا على خلاف، وكان ذلك في قبرص وفي مناطق أخرى تابعة للصليبيين، وكان بين الذين أصلح فيما بينهم الداوية والاسبتارية، في سبيل أن لايترك مجالاً للخلافات فيما بينهم، ولكي يتمكن من السير بأمان أعظم في رحلته.

هنري بن فردريك يكتب إلى الملك الفرنسي نيابة عن ملك إنكلترا

قـام في هذه الآونة (بناء على تحريـض من ملك انكلترا، كما هو معتقـد) هنري بن فردريك والامبراطورة ايزابيلا، وابن أخت الملك المذكور بالتقدم بالرجاء إلى الملك الفـرنسي، من أجل انقاذ روحه، وفي سبيل نجـاح حجه، بأن يتصرف بشكل تقـوي وعادل نحـو خـاله ملك انكلترا، وأن يتنازل له عن الممتلكات العائدة له، بموجب حق جده، خشية أن يتحول ذنب الملك الفرنسي لويس، بموجب غضب من الرب إلى ابنه البريء، ودعم طلبه هذا بكثير من الالتماسـات، وبوسـاطة رسـل خـاصين، كـانوا محملين بالهدايا، ويقـال بأن فردريك أرسل أيضـاً رسـائل التماس إلى الملك الفرنسي حـول القضية نفسها، لكنه لم يضغط، خشية أن يظهر بأنه قد باع هداياه وأعطياته، وعلى هذه الالتماسـات ردّ الملك الفـرنسي قائـلاً: «بحق الصليب المقـدس الذي أنا حـامله، أنا على استعـداد لفعل ذلـك، لو أن مجلسي الاستشـاري يسمح بذلك، لأنني باخـلاص أحب ملك انكلترا، بحكم أنـه قـريب لي، غير أن الأمـر سـوف يكون محرجـاً أثنـاء حجي، في ازعـاج جماعـة مملكتي كلهم بمخـالفـة آراء أمـي ونبـلائي، وذلك مهما كـانـت درجـة حبي للمتوسطين لدي».

وصول رئيس أساقفة روان إلى إنكلترا

في العام نفسـه، في حوالي عيـد الفصح، وصل إلى انكلترا رئيس أسـاقفة روان، الذي كـان راهباً من طائفـة الفرنسيسكان، وكـان فرنسيـاً من حيث المولد، وكـان قـد حصل على اذن الملك، لاسترداد ملكيـة بعض الموارد، العائدة لامتيازات كنيسته، وبعدما حقق غرضه، قدم الولاء، من أجلهم إلى الملك (لأنهم كـانوا في انكلترا)، ثم عاد إلى وطنـه، وفي حوالي الوقت نفسـه أيضـاً، قدم إلى انكلترا أسقف طـرطوس، الذي كانت أسقفيتـه في سـورية،

والذي كان من أصل انكليزي، وجـاء قدومه من أجل زيارة وطنه الأصيل، ورؤيه والديه إذا ما كـانا أحياء، وكان هذا الأسقف قـد ولد قرب ردنغ من أبوين متواضعين، ولكن بما أنه لم يجد أي أثر لبيت والديه، أو والديه، اللذان أذعنا للعمر وللفقر، عاد إلى مقره آسفاً وخجلاً.

وذكر هـذا الأسقف —بمثابة حقيقـة مؤكدة— إلى التجمع الـرهباني في ردنغ (حيث قـام بمناسبة عيـد العثـور على الصليب المقدس بعمل قـداس عـالي) بأن بقايـا الخوارزمية في الأرض المقـدسـة قد ذبح أحـدهم الآخـر، وذلك بوسـاطة انتقام رباني حاق بهم، وأن سلطـان القاهرة يثير الحرب فيما بينهم، وأن أكثر الأمـراء المسلمين تميزاً، هم الذين أنهكوا أنفسهم بالحروب فيما بينهم، وأن جبروت ذلك السلطان المذكور، عندما أخبر بقرب الوصول العدواني للملك الفـرنسي ضدهم، قد عمل سلامـاً فيما بينهم، ووحدهم في حلف، وبما أن هذا السلطان المذكـور أيضاً، كان هو الرئيـس، أو واحداً من رؤسـاء أمراء المسلمين المشـارقة، قـد بعث برسالة إلى الملك المذكـور، بأنهم جميعـاً ينتظرون قدومـه بتشوق، حتى يتمكنـوا من الاشتباك معـه بمعركـة تصادمية، وأنهم لايخشون على الاطلاق حملاته، وأردف ذلك برسائل قاسية ومتفاخرة.

حول اجتماع النبلاء في لندن

ومع انتهــاء عيـد الفصـح اجتمع نبـلاء انكلترا، مـع بعضهم في لندن، حسبما كان مقرراً من قبلَ فيما بينهم، وذلك حتى يقـوم الملك وقتها بالوفاء بما وعد به بالغالب، أي أن يقوم بتعيين مستشـار، مع مسؤول عن العدالة، وخازن، بناء على توصيـاتهم، وكانوا يتصـورون أنهم سوف يحصلون بكل تأكيـد على جميع مـاطلبـوه، لكن غيـاب الايـرل رتشـارد، الذي بدا وكأنه مقدمهم، عطل تمامـاً كل تقدم في مجال هذا العمل، ذلك أنه كـان قد ذهب من قبل إلى منطقة نائية في كـورنويل، وكأن ذلك كان في سبيل قضاء عمل، وبذلك خدعوا ثانية، وعاد النبلاء إلى مواطنهم.

كيف أصبح رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباة الضرائب للبابا

وفي حوالي الوقت نفسه، شغل الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان أنفسهم بالتبشير وذلك بناء على أمر من البابا، الذي يطيعونه إطاعة تامة، وفي سبيل أن يزيدوا من تقوى المسيحيين ذهبوا بوقار عظيم،إلى الأماكن التي كانوا قد بشروا بها من قبل، ومنحوا كثيراً من الأيام بالتفرغ إلى الذين قدموا لسماعهم، وجرى استقبالهم من قبل قساوسة وكهنة، وهم في ثياب بيضاء، يحملون الصلبان والرموز الأخرى، وجلبوا معهم حشوداً كبيرة من الناس، حسبما جرت العادة في اسبوع الابتهالات، ولدى تبشيرهم لصالح الصليب، منحوا ذلك الرمز إلى الناس من كل عمر، وجنس، ورتبة، ومهما كانت ممتلكاتهم أو كانت تساوي، ومنحوه للناس المرضى وإلى النساء، وإلى المحرومين من قواهم بسبب المرض، أو تقدم السن، وبعد ذلك استردوا منهم في اليوم التالي أو مباشرة، الذي منحوهم إياه، وذلك بأن حللوهم من تعهدهم بالحج، مقابل أي مبلغ يمكنهم الحصول عليه مقابل ذلك الاحسان، والذي بدا غير لائق ومتناقضاً، هو أنه بعد أيام قلائل، جمع الايرل رتشارد جميع ذلك المال ووضعه في خزانته، عن طريق وكالة المعلم برنارد، الذي كان كاهناً ايطالياً، وهو الذي جمع الثمار، وبذلك لم تكن الفضيحة التي قامت صغيرة في كنيسة الرب، وفيما بين الناس بشكل عام، وبالنهاية تراجعت التقوى لدى المؤمنين وبردت حرارتها.

وفاة رئيس أساقفة منتز

ومات في الوقت نفسه أيضاً رئيس أساقفة منتز Mentz, الذي كان عدواً كبيراً لفردريك، لكن حتى لايشعر فردريك بالسرور أو يمتلك سبباً لذلك بموته، قام البابا بتحويل رئاسة الأساقفة تلك، بأن أسندها، ووضعها تحت حكم وتصرف رئيس أساقفة كولون، لأنه كان قد قاتل

بشجاعة من أجل الكنيسة ضد فردريك وابنه كونراد، ثم إنه وضع بعد ذلك بين يدي رئيس الأساقفة نفسه أفخم الديرة، الذي اسمه وولسا Wolsa, وقد قيل إنه لم يكن هناك ديراً أفخم ولا أغنى في العالم منه، وكان هذا الدير مرغماً منذ قديم الزمان على تقديم ألف عسكري إلى كل امبراطور جديد بعد تتويجه في اكس لى شابيل، وأفقر الآن رئيس أساقفة كولون المذكور هذه الكنائس الفخمة، حيث استصفى جميع ممتلكاتهن، حتى يدفع إلى جنوده، وبلغ الأمر حداً أن الرهبان والكهنة قد تفرقوا، ولم يعد لدى القساوسة القلةالذين بقيوا مايكفيهم بالكاد للانفاق على أنفسهم، واستولى على كل ما كان ثميناً من ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس غالية، وكذلك على الموارد الغنية، وأخذه، ولكن المحصلة التي نجمت عن هذه الطريقة بالسرقة، إن الحكاية التالية، سوف تظهرها، وعلاوة على ذلك فإن هذا الرئيس للأساقفة، العسكري والمثير للحرب، حصل من البابا على امتياز استخراج مبالغ ضخمة من المال من جميع أرجاء رئاسة أسقفيته، لمتابعة الحرب، وقام بالتحصيل حتى من فقرائها، الذين من المعتقد أن صرخات شكاويهم قد وصلت إلى السماء.

كيف نصب إنسيوس بن فردريك كميناً للبارميين

وفي تلك الآونة نفسها حدث أيضاً، أن البارميين، الذين من أجل مواساتهم ودعمهم في معاداة فردريك أرسل البابا إليهم مبلغاً كبيراً من المال، وقوة من الجند، وقد بعثوا مائتين من الفرسان للدفاع عن إحدى القلاع القريبة من مدينتهم، وهي قلعة كانوا قد بنوها من أجل حماية مدينتهم، لكن انسيوس Ensius ملك سردينيا وابن فردريك، قد جرى تحذيره سرياً من الواقعة قبل حدوثها، فنصب كميناً، وأسرهم وهم غير متيقظين، وعندما كان على وشك شنقهم على مشهد من المدينة، أرسل سكان المدينة رسالة إليه، بأنه إذا ماشنقهم، سوف يشنقون جميع أفراد جيش فردريك الذين كانوا لديهم أسرى، ولذلك لم يشنق انسيوس أسراه،

واحتفظ بهم لبعض الوقت من أجل الفدية أو المبادلة، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى مسامع البابا، حزن حزناً كبيراً، لأن المال الذي كان قد أرسله إلى سكان المدينة تبدد من دون فائدة.

هطول غير معتاد للمطر

مع بداية شهر حزيران هطل مطر غزير في المناطق القريبة من أبنغدون Abingdon, إلى حد أن أشجار الصفصاف والأشجار الأخرى، والبيوت المجاورة، وجلود الأغنام، والأغنام، وحفر الملح، والطواحين وبيعة بنيت على مقربة من تلك البلدة، جرفتها كل الأنهار الفائضة والمجاورة التي طافت بالماء، وصار القمح والسنابل النامية مع الأرض، ولذلك ظهر أن الخبز سوف يصنع من النخالة بدلاً من الطحين.

التحويل الثاني لجسد القديس ادموند رئيس الأساقفة المعترف

وحدث في هذا العام أيضاً، أن الجسد المبجل للقديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، المتوفى، قد جرى نقله ثانية، وكان غير متفسخ في بونتغناك، إلى تابوت جرى صنعه بشكل جميل من الذهب والفضة، مع جواهر مرصعة به، وكان مثبتاً بوصلات زجاجية، وفي اليوم نفسه الذي أخرج من الأرض، والذي كان اليوم التاسع من حزيران، وكان أيضاً يوم عيد القديسين بريموس Primus وفيلشانوس Felicianus وضع الجسد باحترام، وكان مايزال سليماً لم يتفسخ، وذلك بفضل الحفظ الرباني له، وأنزل في القبر نفسه بحضور حشد كبير من الأساقفة والنبلاء.

كيف حمل عدد كبير من النبلاء الإنكليز الصليب وانطلقوا نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه استعد للانطلاق عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، كان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee, وحامل

رايته روبرت دي فيري Vere, وعدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، الذين قدّر عددهم بأنه وصل إلى مائتي فارس، هؤلاء جميعاً استعدوا للانطلاق في رحلتهم نحو القدس، وبناء عليه قام وليم الذي كان قائد الصليبيين من مملكة انكلترا، بعدما حصل على اذن ومباركة أمه النبيلة، والراعية المقدسة لدير لاكوك Lacock, من دون أي مزيد من التأخير، فانطلق في شهر حزيران، والتحق بالجيش الفرنسي سليماً ومعافى، واستقبله الملك المسيحي التقي لفرنسا، مع رفاقه باحترام، وأدرجه بين أصدقائه الخاصين، وشكره لأنه قدم إلى مساعدته، والتمس بحرارة من أتباعه بعدم السماح للتجبر الفرنسي والحسد، بإثارة خلاف بينهم وبين الانكليز، كما حدث في أيام الملك الانكليزي رتشارد، ولكن نتيجة لمؤامرات الشيطان، الذي اعتاد منذ أقدم الأزمان على الغيرة من نجاحات الناس، فإن الفرنسيين عندما شاهدوا فيما بعد أن الانكليز كانوا عظماء، وقد حصلوا على ممتلكات كبيرة، وشهرة، أصبحوا غيورين، ووجهوا الإهانة إليهم، وأظهروا سوء سلوكهم المعتاد، ومزجوا ذلك بالاهانات الشنيعة، وبذلك نفذوا كلمات النبي الذي قال:

ما من حاكم يدمر شريكاً بقوته

وأيضاً بالطريقة نفسها، من الممكن القول:

ما من رجل متشامخ يدمر شريكاً

والذي كان أكثر أن تجبرهم أثار كراهية متبادلة وحسداً بينهم أنفسهم، وبذلك فإن سيدهم قد أعيق كثيراً في تقدمه، الأمر الذي سوف يجري شرحه بالتفصيل فيما سيأتي.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين من قبل ايرل ليستر

وفي حوالي الوقت نفسه، قام سيمون دي مونتفورت، ايرل ليستر إما بتغيير رأيه أو بإلغاء نيته بالحج (لأنه كان قد حمل الصليب) ومن ثم أقلع

لإخضاع أعـداء الملك في غسكوني، وقد وصل إلى تلك المنطقـة مع قوة كبيرة من العسـاكـر، وكـان مـزوداً بمبلـغ جيـد من الأمـوال الملكيـة، وزحف على الفـور إلى قتـال أعـداء الملـك، الذين تمردوا بشكل خيـاني ضـده، وقـد أخضـع غـاستـون، وروستين Rustein, ووليم دي سولاري Solaires, وجميع النبـلاء الأكثر تميزاً في بوردو، وقـد تصرف بشـجاعـة كبيرة وباخـلاص استحق عليهما عن جـدارة ثناء وحظوة جميع أصـدقـاء الملك، وقـد قيـل بأنه تصرف مثل أبيـه في جميع المجالات.

أسر إنسيوس المتقدم ذكره من قبل البولونيين

في شهـر أيار من هذا العـام، عنـدمـا كـان إنسيـوس، الابن الطبيعي لفردريك، وملك سردينيـا، في حملة خلال المناطق المجـاورة لبولونا، من أجل إلحاق الأذى بأعدائه، وذلك برفقة بعض الكريمونيين، وأناس من ريغيو Reggio, وكـان البـولونيـون قد أنذروا مسبقـاً بمقـدمـه وباقترابـه، فنصبـوا كميناً، وقـاموا بهجـوم مفـاجيء عليـه، عندما كـان سائـراً من دون حذر أثناء زحفه، وكـان ذلك عند جسر القديس أمبروز Ambrose, الذي كـان قـائماً على منتصـف الطريق بين بـولون وكـريمـونا، وأعقب ذلك صراع عنيـف، مع مقتلة كبيرة، وانهزمت فئة إنسيوس، ووقع هو نفسه بالأسر، مع الأشخاص الرئيسيين في حاشيته، حيث وصل عـددهم إلى حوالي المائتـي فارس، وذلك مع عـدد كبير من الكريمونيين، ومن سـكان ريغيو، وحشد من عامة الجنـد، وقد أخذوا جميعاً إلى بولونا للايـداع بالسجون، حيث أصبحوا تحت إرادة أعدائهم، وجـرت معـاملتهم بوحشيـة وبـلاانسـانيـة، وقـام الأسرى، في سبيل الحصـول على معـاملة ألطف، ولكي يحصلـوا على قليل من الراحـة من قسـوة السجن، فدفعـوا إلى البـولونيين مبلغ ثمانيـة عشر ألف باوند، من النقود الامبراطورية، التي تساوي المبلغ نفسه من النقود الاستيرلينية.

موت ولد آخر لفردريك وحمله هو مريضاً

وفي حوالي الوقت نفسه، مات ولد طبيعـي آخر لفردريك في أبوليا، وهو نفسه لحقه مرض جلدي اسمه «داء الذئبة»، أو النار المقدسة، وهكذا وجد نفسه وقد قهر من قبل كثير من المآسي، فحزن كثيراً من دون مواساة، وبات متذللاً، وفقاً لكلمات داود: «املأ وجـوههم بالعار، وهم سـوف ينشدون اسمك يارب»، فعرض شروطاً مشرفة للسلام مـع البابا، وفرح البابا كثيراً لمرضـه وضعفه، ولذلك رفض قبـول عـروضه، ونتيجـة لذلك حصل على غضب وسـوء القبـول والنوايا لعـدد كبير من النبـلاء، الذين شرعـوا الآن بمـواساة فـردريك، والوقـوف إلى جانب قضيتـه، رافضين تجبر عبد عبيـد الرب.

كيف جرى إرسال بطرس كبوشي بمثابة نائب بابوي إلى أبوليا

وجـرى في الوقت نفسـه أيضـاً ارسـال بطرس كبـوشي Caboche, الذي كان كـاهناً وصديقـاً متنفذاً لدى البـابا، جرى ارساله مـن قبل البابا، نائباً بابـوياً في أبوليا، مسلحاً بسلطة عظيمـة في مسح الذنوب، حتى يتمكن من سحق فـردريك وأصـدقائـه، وبناء عليـه، تمكن هذا الرجل، مع سلطة متزايدة القـوة، كان قد حصل عليهـا في جميع المناطق، بوساطة إعطاء المال، ومنح غفـرانات كـاملـة من الذنوب، تمكـن من إلحاق الكثير من الأذى بفردريك، واستعاد كثيراً من النبلاء للتخلي عن ولائهم له.

كيف استحوذ الرهبان السسترشيان على مدارس في الجامعات

وفي تلك الآونة أيضاً حصل الرهبان السسترشيـان على امتياز جديد، في سبيل أن لايستمروا موضع استخفاف وازدراء لدى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، والرجـال المتعلمين العلمانيين، خـاصـة المحـامين، ورجـال القانون، وفي سبيل هذا الغرض شيـدوا أبنية فخمة لأنفسهم في باريس وفي أمـاكن أخـرى، حيث ازدهرت المدارس، وأرادوا من امتـلاك المدارس، دراسة اللاهوت، والقوانين والشرائع، لكـي لايظهروا أدنى من الآخرين،

لأن العـــالم قــد أصبح الآن أكثــر تيهــاً وتجبراً، وازدرى الديـن والديرة، واستهـدف تجريد الرهبـان ورجال الـدين من ممتلكاتهم، وهكذا إنه بسبب شرور العالم، تعـرض النظام الصارم للرهبنة إلى الوهـن الكبير، لأننا لم نقرأ بأن هذا قد نشأ عن نظام القديس بندكت، الذي —حسب شهادة القديس غريغوري— كان قد تأسس في روح القديسين، والذي هو زيادة على ذلك أننا نقـرأ ونغني عنـه، أنه قـد أهمل الدراسـات الأدبيــة، وقـرر أن يطلب الصحراء.

تتويج بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

في يوم عيـد جميع القــديسين، جـرى تتـويج بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كـانتربري، وسط تشريف عظيـم وأبهة كبيرة، وكـان ذلك بحضـور الملك والملكة، وجميع الأساقفة تقريباً، الذيـن اجتمعوا لهذه المناسبة المهيبة وكانوا كثيراً، وعندما كان الملـك مسرعاً إلى هناك مع حاشيته، أخـذ جون مانسيل Mansel, مستشاره الخاص، وهو مريض مرضاً شديداً، وكان ذلك في ميدستون Maidstone, ذلك أنه كان قد تأثر —كما قيل— بسم دس له، حيث عـانى منه لمدة يومين، وبصعوبـة بالغة جـرى انتزاعـه من أبواب الموت، بفضل العناية الكبيرة للأطباء.

حول انتشار تقارير غير مؤكدة

وترددت في هذه الآونة اشـاعـات، لانـدري مـدى صحتهـا، مع أنه تمّ ارسـال رسائل بليغـة حـول هذه المسألة إلى الملك، وقـد تحدثت عن تحول ملك التتار إلى المسيحية، وهذه الرسائـل التي تقدمت الإشارة إليها، يمكن للقارىء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

عودة أسقف نورويك من البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقـت، عاد وولتر أسقف نورويك من البـلاط الروماني، حيث كان قد حصـل —كما روي— على امتياز مهين، لاستخراج المال من

أسقفيته.

تقرير حول الاستيلاء على دمياط

في حوالي عيد القديس ميكائيل، وبعد ذلك، انتشرت التقارير المفرحة في جميع أرجـاء بلدان الغـرب وكـان أول شخـص جلبهم إلى انكلترا هو بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كانتربري، الذي وصل يـوم عيد القـديس متى، وأفادت هذه التقارير أن الملك المسيحي التقي لفرنسا، قد نزل على الساحل في قـوة كبيرة، وأنه صـدّ المسلمين وقهـرهم، واستـولى على دميـاط، ولكي نكون أكثـر اقتناعـاً بهذه الحقيقة، تلقى ملك انكلترا حـولها رسـالة، يمكن الوقوف عليها في كتاب Additaments.

اجتماع رهبان الطائفة السوداء

وفي حوالي الوقت نفسه، في يوم عيد القديس كاليكستوس Calixtus, اجتمع رعـاة ديرة رهبـان الطائفة السـوداء —أو حماتهم— في بيرمـوندسي Bermondsey, حيث جرى ابرام اصـلاح بفضل إلهام من الرب من الممكن الوقـوف على محتوياته في كتـاب Additaments, وقد تمت الموافقـة على تلك الاصـلاحات بالاجماع، وهناك أمـر واحـد، هو على كل حـال جـدير بالملاحظة، وقـد ورد في بنود هذه الاصـلاحـات، أعتقـد أنه لايجوز تجاوزه هو أن الملـك —مع أنه لم يقـدم لهم السماح بفعـل ذلك— حصل منهم جميعـاً، على وجوب أن يقرأوا يـومياً لصالحه ولصـالح الملكة، القداس الذي يجري الغنـاء به يومياً في كنائسهم تشريفـاً للعذراء المبـاركة، وهو الذي بدايته: «أيها الرب، الذي بين يديه قلوب الملوك».

حول الحجرة التي حملت طبعة قدم رجل

وفي هذه الآونة أيضاً، جلب الرهبان الدومينيكان إلى انكلترا حجرة من الرخام الأبيض، كانت موجودة في الأرض المقدسة منذ أيام المسيح، والتي تحمل طبعـة قدم مخلصنـا عليها، وكأنها كـانت قـد عملت من شمع طري،

وهي تري بشكل واضح نصف قدم انسان، وبشأن هذه الطبعة أو الشكل، أعلن سكان الأرض المقدسة بأنها كانت طبعـة قدم المسيح، عندما كان على وشك الصعـود إلى السماء، وذلك بعدما قـام بوداع تلاميـذه، وكان الهدف من ذلك أن يخلّد لتلاميذه ذكراه، وهم الذين نظروا إليه للمرة الأخيرة على الأرض، ويقـال أنه وفق الطـريقـة نفسهـا، عمل المسيح أيضـاً طبعـة عن وجهه، في سبيل أن تبقى ذكراه مرعية على الأرض، وقدم الملك هذه الهدية الفاخرة إلى كنيسة ويستمنستر، مثلما كان قد فعل مؤخراً بدم المسيح.

حول ولادتين غير طبيعيتين

وفي حوالي ذلك الوقت نفسـه، وجد في جزيرة وايت Wight, طفل صغير اسمه جون، لم يكن قـزماً، بقدر ما كانت أطرافـه غير موزعة بشكل صحيح، ومع أنه كـان في الثامنـة من عمره، لم يزدد حجمـه على الاطلاق، حيث لم يصل طوله إلى ثلاثـة أقـدام، ولكي تثير الملكة دهشـة الذين يروه، أمرت بأن يحمل معها بمثابة أعجوبة طبيعية.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضـاً، ولد طفل ذكر في أراضي ايرل هيرفورد، على حـدود ويلز، وقـد أنجب من قبل الشيطان —كما قيـل— ففي اطار نصف سنة، جرى تـزويده بأسنان، وقد نما حتى وصل إلى ارتفـاع شاب في حوالي السـابعة عشرة من عمـره، وكانت أمه بعـدما ولدته، استـولى عليها المرض، وتلاشت حتى مـاتت، وكان هذان الطفـلان أعجوبتـان طبيعيان، أولهما تجاوز الحجم الطبيعي للكـائن البشري، ولم يصل الآخـر إلى الحجم الطبيعي.

عقد مباراة مقارعة في بريكلي

وعقدت في هـذه الآونة مباراة مقارعـة في بريكلي Brackley, فيها تعـرض عـدد كبير من فرسـان جماعـة انكلترا، الذين اعتيـد على تسميتهم الفـرسان الأغـرار Bachelors, للجـراحة، وفي هذه المبـــارزة التحق

رتشارد ايرل غلوستر، الذي مارس دوماً الوقوف ضد الأجانب، ومساندة قضيــة الانكليـز المحليين، هذه المرة بهؤلاء الأجـانب، مما ألحق ضرراً كبيراً بقضيتـه وشرفه، لأنه بعملـه هذا وبتصرفه على هذه الصـورة، عـانت الفئة الانكليزية من الهزيمة، وفي هذا الصراع تمكن وليم دي بلنسية أخو الملك، بمسـاعدة الايرل المذكـور من إلحاق الهزيمـة بوليم دي أودنغسليَ -Odin gesseles وجراحته وكان فارساً جريئاً من جماعة الفرسان الأغرار.

تكريس وولتر أوف كيركهام أسقفاً لدرم

في الأحـــد الأول للميـــلاد، جـــرى تكـريس وولتر دي كيركهـــام Kirkham, الأسقـف المنتخب لـدرم، في يورك مـن قبل وولتر رئيـس أساقفة تلك المدينة، ذلك أنه كان نائبه الأسقفي.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

ونشب في حوالي الوقت نفسه خلاف بين راعي دير ويستمنستر ورهبان ديره، مما سبب فضيحة ومهـانة إلى جميع طائفة الرهبان السود، وقـد جرت حكاية السبـب والتفـاصيل بشكل كـــامل في كتـــاب Additaments, وتمّ بوسـاطة تدخل ووسـاطة مـن الملك، الذي لديه —على كل حـال— رعاية خاصة لذلك الديـر، الوصول إلى سلام ووئام من هذا النوع أو ذاك، وأعيد تأسسيه بينهما.

حول خلاف آخر وقع بين راعي دير بيتربورا ورهبانه

ولزيادة سبب الفضائح المتقدم ذكرها، تفجر في الوقت نفسه خلاف بين وليم راعي دير بيتربورا Peterborough وبين رهبان ديره، لأنه على الرغم من توجيـه دعـوة له حول مـايتعلق بانفـاقه الأمـوال في سبيل اغناء أقـربائه، وذلك بوسـاطة عـدد كبير من الذين أحـاطوا به، وذلك مما سبب خسارة كبيرة جداً إلى كنيسته، هو لم يقم بإصـلاح خطيئته، واستاء الرهبان تجاه هذا، فتقــدمـوا بالتماس شكـاية إلى أسقف لنكولن، الذي كـــان دائماً

جاهزاً وراغباً في معاقبة الذين يضلون عـن الطريق القويم، ووضعوا أمامه شكوى ثقيلة حول تجاوزات راعي ديرهم.

ولقـد تبرهن بأن الراعي كـان مداناً بها اتهم بـه، وعندما رأى أن خلعـه بات وشيكاً، استقـال، وكأن ذلك جـاء بناء على رغبته، وتخلى عن وظيفتـه الرعـوية وعن مـرتبتها، ووضعهـا بين يدي الأسقف، وبناء عليـه، جـرى منحه شطراً من تلك الـرعوية، حوى عـزبة واحدة، فقـد تمّ تعيينها له، مع أنه لم يستحقها، وذلك من أجل أن يتمكن أن يعيش باستقامـة وكرامة مثل ناسك يمارس أعمال التوبة، وجرى على الفور ارسال وكلاء الملك إلى هناك من قبله، وانكبوا على العمل في سبيل الربح، وكانوا يسعـون لالتهام موارد تلك الرعوية، وشغلوا أنفسهم في سلـب ذلك الدير وتدميره، وعلاوة على ذلك كان الملك غـاضباً جداً، وتطلع نحـو فرصـة للعمل ضد ذلك الدير، لأنه أخبر بأن الرهبان قـد اضطهدوا راعيهم، ولاموه لأنه كان كـريماً نحوه ومؤثراً له، أي نحو الملك.

انتخاب جون أوف كاين راعياً لدير بيتربورا

ثم قـام الرهبـان، حتى يتجنبـوا غضب الملك، الذي كـان يصـادر جميع ممتلكاتهم، قـاموا بناء على رغبتـه وأمـره، فانتخبـوا راضين أو غير راضين، راعيـاً لهم ولديرهم هو جون أوف كـاين Caen, الذي كـــان رئيس رهبان كنيسة القديس سويثن Swithin في وينكستر، وذلك على الرغم من أنه كـان ينتمي إلى طائفـة أخرى، وكـان أجنبيـاً من حيث الأصل،لأنه كان نورمانديا.

كيف تخلى روبرت باسلو عن البلاط

في يوم الخميس،قبل عيد القديسة لوسيا Lucia قام روبرت باسلو(الذي تقـدم ذكـره مـرارامن قبل في هذا المجلد) بالتخلي عن البـلاط الكثير التقلبات والتغيرات، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، وقـد جرت ترقيته الى

المرتبه الكهنوتية، ونتيجة لذلك،أعطاه أسقف إيلاي كنيسة درم الغنية، التي كانت عائدة الى إرميا، الذي كان كاهناً للملك قد توفي مؤخراً، وشعر الملك على كل حال ببغضاء كبيرة نحو كل من الأسقف المعطي، وروبرت المتسلم،لأن الأسقف لم يقم متطوعاً، بمنح تلك الكنيسة الى ايثيار، أخي الملك.

إيرل روجر بيغود يأمر باعتقال كونت غوزني

وفي هذا العام نفسه كان كونت غوزني Gusne على طريقه خلال انكلترا ليذهب الى الملك،وسمع الايرل روجر بيغود بهذه الحقيقة، فأمر باعتقاله،وعندما بات الكونت على دراية بهذا الأمر تقدم بشكوى حادة حولها الى الملك،ولذلك جرى استدعاء الايرل روجر،وفي اجابة على التهمة قال بشكل علني للملك: «مولاي ،عندما بعثت الى مؤتمر ليون بمثابة مبعوث من قبلكم ومن قبل المملكة كلها،وكنت مسافراً بسلام خلال أراضي كونت غوزني، وكنت قد تحملت الكثير من النفقات، ولقد شعرت متأكداً بأنني لابد من أستقبل من قبله مع بعض التشريف والتكريم، صدوراً عن احترامه لكم، ومقابل كثير من الاحسان واللطف الذي غالباً ما قدم إليه من قبلنا، وخلافاً تماماً كان عمله، لأنه لخسارتي ولاهانتي، أو بالحري لخسارتك واهانتك، أوقف خيولي عن متابعة سيرها وكذلك أتباعي، حتى استخرج أتاوة (أنا لاأعرف لماذا،أو على أية قاعدة)، وكانت الأتاوة بقدر مااختاره نوابه أن يطلبوا، كما أنه لم يستثنيني، صدوراً عن الأدب والاحترام لكم، ولذلك عندما جاء الكونت الى هذا الطرف من القنال،وكان ماراً خلال أراضي،أنا رددت عليه،وكان حقي أن أفعل ذلك،لأنني متملك لأراضي منكم،لأنك مولاي الملك، وبشكل حر، مثلما هو متملك لأراضيه من الملك الفرنسي، وأنا مرتبتي ايرلاً كما هي مرتبته كذلك، فمن أين استمد حقه في ممارسة هذا النمط من السلب، أي بيع الطرقات والهواء الى المسافرين؟» ولدى سماع كونت غوزني لهذا كان صامتاً

لشعـــوره بـالخجل، ولم يكن بـإمكانه أن يـرد بأي منطق على هـذه التهم، وعندما وصل خبر اجـراءات الكونت الى علم ملك فرنسـا التقي (وحدث هذا بعد أمـد قصير من المؤتمر)، أعطى علاوة سنوية الى الكـونت المذكور، حتى لا يتحمل أية خسـائـر مـالية، وأمـر بإلغـاء تلك الأتاوة، لأنها كـانت مهينه، كما أنها كانت مؤذية، لذلك توجب التخلي عنها.

تكريس كنيسة بيوليو

قـام في هذا العام راعـي دير بيوليـو Beaulieu, بتكريس كنيسته بوقار عظيم، بحضور الملك هنري (الذي كـان والده الملك جون قد أسس وبنى هذه الكنيسـة)، مع الايرل رتشـارد —أخيه— وكثير مـن الأساقفـة والنبلاء الآخرين، وقد أنفق على هذا الاحتفال المهيب خمسمائة مارك، لا بل أكثـر، لكن الملك، لهذا السبب، لم يوفـره، بل أرغم الراعي المذكـور على أن يدفع إليه غرامة ثقيلة جـداً، لأنه— كما قيل— اقترف ذنباً ضده، فيما يتعلق باحتـلاله لأرض غـابيـة، وعـلاوة على ذلـك، أرسل راعي الدير المذكـور عشرين راهبـاً منتخباً، وثلاثة عشر راهبـاً آخـر، مما سبب خسارة جسيمـة لكنيستـه، أرسلهـم ليسكنـوا دير طائفـة السسترشيـان الجديـد، الذي كـان الايرل رتشارد قـد أسسه قـرب وايشيكومب، للوفاء بالنذر الذي كـان قد قطعه على نفسه عندما كان في البحر.

تقارير عن تحول ملك التتار الى المسيحية

وتواتر في هذا الوقت نفسـه وصول أكثـر التقارير سروراً، أي التقـارير التي تحدثت بأن أعظم ملوك التتـار قوة، قد خضع لتـأثير التبشير المتواصل واقناع بطرس الهندي، الذي كـان راهبـاً من طائفة الـرهبان السـود (الذي ورد ذكره مراراً من قبل فيما يتعلق بالرسائل حول التتار)، وأنه قد تحول الى المسيحية، وجـرى تعميده، على الطهارة، والأمـانة، والقداسة التـامة، التي جرى التبشير بها إليه وعلمت له.

وأرسل الملك المذكور أيضاً رسائل مواساة وتأييد، الى الملك الفرنسي، الذي كان مقيما في دمياط،وقد شجعه،وأقنعه بإلحاح على متابعة الحرب ضد المسلمين، وأن ينظف أراضي المشرق كله من دنسهم، ووعده أيضاً بمساعدة فعالة وسريعة، بحكم كونه كاثوليكيا، ومعمداً جديداً للمسيح، والرسالة المتعلقة بهذه القضايا كلها، والتي جرت ترجمتها من العربية الى اللاتينية، والفرنسية، وأرسلت الى الملك الفرنسي، قد قدمت كاملة في كتاب Additaments, وكان الملك الفرنسي مسروراً جداً بهذه الاضافة إلى الإيمان المسيحي، فأرسل إليه ببعثه الثمينة، وبعض الآثار الغالية، وأرسل أيضاً بعض الدومينيكان والفرنسيسكان، للحصول على معلومات وافية حول هذه القضية.

وجرى في الوقت نفسه أيضاً، اختراع بعض التقارير الزائفة الأخرى لطمأنة المسيحيين، ولربما لتشجيع الصليبيين على الابحار، والالتحاق بالملك الفرنسي، وقد انتشرت هذه التقارير خلال ممالك هذا الجانب من البحر، وكان الناشر لهذه التقارير والمخترع لها هو أسقف مرسيليا، وبعض مشاهر الداوية، وبما أنهم تولوا الكتابة، وختموا ما كتبوه بأختامهم، كانوا موثوقين أكثر، لكن عندما باتت الحقيقة حول القضية معروفة، تألم الناس بعمق أكثر منهم، وقد ظهر على كل حال ما هو حقيقة بالنسبة إليهم، هو أن المسلمين، ومقدميهم، اشترطوا، بعد الاستيلاء على دمياط وعرضوا بأن يتخلوا إلى الصليبيين عن جميع الأراضي التي كانت من قبل عائدة إليهم، مع اضافات أعظم، شريطة أن يعيدوا إليهم مدينة دمياط، دون أن تتعرض للأذى، ومعها المناطق التي استولوا عليها، لكن تجبر كونت أرتو لم يسمح بهذا، كما لم يقبل بأية عروض تقدم بها المسلمون المتذللون، مالم يسمح للصليبيين بامتلاك دمياط بشكل سلمي، وأن يؤذن لهم بالاستيلاء على الاسكندرية، مضافة إليها، ولم يوافق المسلمون على هذه الشروط الثقيلة بأية حال من الأحوال، ولذلك نعتقد بأن الرب قد غضب، لأن الصليبيين

حين عبروا البحر، فعلوا ذلك لهدف واحد فقط لاغير، وهو تملك ميراث المسيح، ويقال بأن المسلمين تشاوروا فيما بينهم وتحادثوا وقالوا: «انتظروا قليلاً، انتظروا، إن هذا التجبر، وهذا الشره، الذي هو ممقوت من ربهم يسوع المسيح سوف يدمرهم جميعاً»، وهكذا تحولت الأمور، وحدثت الوقائع، حسبما سوف يوضح التأريخ المقبل بشكل كامل.

الموت المؤسف لملك سكوتلندا

في الثالث من تموز من هذا العام، مات الاسكندر، ملك سكوتلندا، وكان رجلاً حكيماً ومعتدلاً، وهو بعدما حكم بعدل، وسعادة، وسلام لسنين طويلة، قام في الجزء الأخير من عمره، وقد أثير بالشره، ولذلك قيل بأنه ابتعد عن سبيل العدل، ففي سبيل أن يجد فرصة تكون متنفساً للتعبير عن غضبه، أبدع وسيلة لغضب عنيف ضد واحد من أعلى نبلاء مملكته اسمه أوين أوف أرغايل Owen of Argyle, وكان فارساً جريئاً ومجرباً، وبما أنه خطط ليحرمه من ميراثه، اتهمه بالخيانة، على أساس أنه قدم في السنة الأخيرة التي مضت الولاء إلى ملك النروج، من أجل استثمار جزيرة عائدة إلى ذلك الملك، وهي جزيرة كان والد أوين المذكور، قد استحوذ عليها من الملك نفسه، وقد تمتع بتملكها بسلام لعدد كبير من السنين، شريطة تقديم مثل هذا الولاء، وكانت تلك الجزيرة قائمة فيما بين أوركني Orkneys, وسكوتلندا، وخوفاً من أوين من تهديدات ملك سكوتلندا، الذي كان مولاه، أخبره بأنه سوف يقدم الخدمة الكاملة المتوجبة عليه، إلى كل من ملك سكوتلندا وملك النروج، وعندما أجابه الملك السكوتلندي وهو مغضب بأن «مامن انسان يمكنه خدمة سيدين»، تلقى جواباً من أوين المذكور، بأن أي واحد يمكنه بشكل صحيح خدمة سيدين، عندما لايكون السيدان نفسيهما متعاديين، وبناء عليه، حشد ملك سكوتلندا جيشاً من أجل القيام بالهجوم عليه، وخشية من أوين من أن يغضبه، رجاه والتمس منه منحه وقتاً يقوم به بالتخلي عن ولائه، وعن

الجزيرة المذكورة إلى ملك النروج، وتم رفض منحه هذا، وظهرت وحشية وجشع ملك سكوتلندا بشكل واضح، ولذلك نال غضب الرب، وغضب القديس كولومكل Columkil, المدفون في تلك الأماكن، حيث هو محل تشريف كبير، كما نال غضب عدد كبير من النبلاء، ثم تحدى الملك أوين المذكور، وطارده بالبحر حتى أرغايل، وكان يحرضه —كما قيل— أسقف غير مستقيم، هو أسقف ستراثيون Strathune, لكي ينتهز فرصه، وكان هذا الأسقف ينتمي إلى طائفة الدومينيكان، لكن لدى مغادرة الملك لسفينته، وقبل أن يتمكن من امتطاء ظهر فرسه، حل به غضب الرب، فأصيب فجأة بمرض مميت، وهكذا فإنه في الوقت الذي أراد أن يجرد انساناً بريئاً من ميراثه، لفظ كل من نفس الحياة ومطمحه.

وفاة هوغ برون إيرل التخوم

وفي العام نفسه، وبعدما نزل الملك الفرنسي في دمياط، تحرر هوغ برون، ايرل التخوم من جميع مشاكله الدنيوية، واستحق هذا النبيل القليل من البكاء عليه، لأنه تآمر بشكل خياني في بواتو ضد ابن زوجته، ملك انكلترا الذي وثق به، إلى حد أنه بعدما بعث إليه للقدوم إلى هناك، باعه بشكل خياني إلى الملك الفرنسي، ومن المأمول أن يكون قد حظي بالفضل فتحلل من هذا الذنب، ومن ذنوب جرائمه الأخرى، في حجه هذا.

موت كونت صنجيل أو طولوز

في هذا العام، ومع اقتراب نهاية الصيف، تراجعت قضية البابا، وأصبحت ضعيفة إلى درجة كبيرة، وبدأ حسن الحظ الذي تمتعت به عند بداية الصراع مع فردريك، بالتغير، علاوة على ذلك، فإن وليم كونت هولاندا، الذي جرت ترقيته في أيام حياة البابا، إلى مرتبة ملك ألمانيا، قد تعرض للهزيمة على يدي كونراد بن فردريك، وقد هرب، وتولى اخفاء نفسه.

وأصيب ريموند كونت صنجيل أو طولوز، بمرض شديد، وكان فارساً شجاعـاً ومتفوقاً، وصـديقاً كبيراً للبابا، ولأنه كـان في خطر عظيم أعاد إلى البابا الأموال التـي كان قداسته قد عهـد بها إليه، في سبيل شن الحرب على أعداء الكنيسـة، وبشكل خاص ضد كـونت سافـوي، وحين أعادها أعلن بأنه يعاني من مـرض شديد ومميت، وأنه كـان يتوقع الموت، وأن الذي بقي له هو القبر فقط، ولذلك عمل وصيته بكل فخامـة، وأمر بأن يدفن جسده في دير راهبـات القديسـة ايفرود Evroud, عند قدمـــي الملك رتشارد الذي كـان قريبـاً له، ومع جسـده تبرع بخمسة آلاف باوند من الفضـة إلى ذلك الدير.

موت بطرس دي غينور

ومات في العام نفسه أيضاً بطرس دي غينور Geneure, وكان من بروفانس مـن حيث المولد، ومع أنه كان متواضعـاً من حيث الأصل، لكنه كـان صـديقاً للملك، الـذي برهن على مكانتـه لديه بأعماله، ذلك أنه زوج بطرس المذكـور من السيـدة النبيلة مـاتيلدا Matilda, وكـــانت ابنة وسيمـة لوليم دي لاسي، وحين أعطاه إيـاها زوجـة، أعطاه معهـا جميع ميراثها والمناصب الشرفية العائـدة إليها في ايرلندا، ومن خلال هذه السيدة أنجب صبياً وابنة.

موت المعلم سيمون النورماندي

وفي هذا العام أيضاً، مات المعلم سيمون النورماندي، الذي كان من قبل المستشـار الرئيسي للملك والرئيس والحافظ للختم الملكي، وهو وإن كـان متكبراً، نال أخيراً غضب الملـك، بسبب المسلك الأمين الذي اتبعـــه، لأنه عندما رغب الملك باعطـاء صك إلى توماس، كونت أوف فـلاندرز، وكان ذلك الصك مضـاداً لكرامة التاج، وكـان سيسبب كثيراً من الضرر لمملكة انكلترا، رفض سيمـون المذكور التـوقيع عليـه لهذا السبب، وبهذا التصرف

كـان أميناً ومخلصـاً، وقـد استحق الثناء، وبهذا العمل تحولت أعمال العنف الأخرى التي اقترفها إلى أعمال مسوغة.

وفاة وليم أوف درم

وفي هذا العـام نفسه، مـات في روان المعلم وليم أوف درم، أثناء عـودته من البـلاط الرومـاني، وكان رجـلاً عظيم التميـز بعلمه، وبـوفرة مـوارده الكثيرة، مع أنه تشوق لاستحواذ المزيد، وكـان قسيس الكنيسة الفخمة في ويرماوث Wearmouth, القائمة قـرب البحر، وإثر موته تدبر الملك الأمر بشكل فعال، بحيث آلت كنيسته إلى أخيه ايثيلمار، وذلك من دون أي بحث جرى حول القضية، وقام ايثيلمار هذا بسبب كثرة موارده، خاصة في المناطـق الشماليــة مـن انكلترا، بتعيين مــارتــن دي سينت— كـــروكس Sainte -Croix, ليكون وكيله، وكان كاهناً، ورجلاً عاقلاً.

وفاة روجر فتز— جون

وفي العـام نفسه، في حـوالي عيد الشعـانين، مـات واحد من البـارونات النبـلاء لشمالي انكلترا، وكـان اسمه روجـر فتـز— جـون، الذي ترك ولداً صغيراً بمثـابة وريث له، وقـد عهـد الملـك بالمسـؤوليـة عنه إلى وليم أوف بلنسيه، الذي كـان أخوه، مع أن أمـه قد رغبت بشراء الوصـاية على الطفل مقابل مبلـغ ألف ومائتي مارك، وكـان اسم الأم آدا دي بالأويل - Ada, de Baliol وقد نال الطفل اسم ن .N.

وفاة عدد من النبلاء الفرنسيين

عندما كان الملك الفـرنسي يمضي الشتاء في قبرص، غادر إلى الرب عدداً من مشاهير الصليبيين الفـرنسيين، أن نقوم بتعدادهم سيكون الأمـر متعباً، ولاعلاقـة له بالتاريخ الانكليزي، ومات أيضـاً كثيرون أثناء السفر، في البر والبحـر، وكـان من بين الذين مـاتوا هناك على ظهـر سفينة قـرب قبرص، الأسقف النبيل لـ «نويون» Noyon, وكـــونت بالاتاين Palatine,

وكان واحداً من الاثني عشر كونتاً (النظراء) لفرنسا، وقد مات أيضاً، أثناء السفر في أفينون Avignon, هوغ دي تشاتليون Chatelion, وكونت القديس بولص وبليو Blois, الذي قتل بوساطة حجر قذف من منجنيق، في أفينون، في الصراع الذي تورط الملك فيه مع سكان ذلك المكان، قبل أن يقلع، وكان ذلك نذير شؤم أنذر باخفاق الصليبيين، لأنه لم يكن في الجيش الفرنسي كله رجلاً أكثر نبالة منه، أو رجلاً أقوى منه في القتال، فقد كان في ركابه خمسين فارساً من النخبة، بمثابة حاملين لأعلامه في المعركة، لكن عندما مات، تفرقوا جميعاً، وتركوا مهملين، وكان الكونت هوغ هذا قد بنى سفينة أنيقة في انفرنس Inverness, في كونتيه موري Murray, وفي مملكة سكوتلندا ليكون قادراً بوساطتها على عبور البحر مع البولونيين Bolognese, والفلمنكيين، والذين يعرفون بشكل عام باسم «رجال أفالتيرا» Avalterre, لكن هذه الاستعدادات قطعت قبل أن تكتمل، مثلما يقطع الحائك النسيج، ومات هناك أيضاً في قبرص جون دي درو Dreux, وكان شاباً عظيم الجرأة في الحرب، وكان زهرة أسرته، ومن أسرة عالية النبالة، وجاء موته نذير شؤم للمستقبل، وإلى جانب هؤلاء، مات نبلاء آخرون من كلا الجنسين، وذلك بعدما تعرضوا للمرض، نتيجة لتغير الطعام والهواء، وهو الذي يخاف منه بسبب الطبيعة، وقد طاروا مثل شهداء إلى الممالك اللاهوتية، وقد رأينا أنه من المناسب أن نتولى ذكرهم في هذا الكتاب، لأنهم ختموا حياتهم بسعادة في سبيل تقدم قضية الكنيسة العالمية، وفي خدمة الصليب.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٠، هو العام الثالث والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، فهو قد أمضى عيد الميلاد في وينكستر، حيث احتفل تبعاً للعادة بأعياد ذلك الموسم بوقار عظيم، ففي اليوم التالي للعيد، تناول طعام الإفطار مع وليم، أسقف تلك المدينة، الذي أصبح الآن ضيفه، حيث رغب في منحه

السرور بحضوره، وقد أسرع بعد ذلك بالتوجه إلى لندن، حيث أقام عيد القديس ادوارد، بالوقار المستحق، وحيث دعا إلى هناك بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أقام قداساً هناك، كما دعا سبعة أساقفة، وعدداً كبيراً من نبلاء المملكة.

ولادة كونتسة كورنوول لصبي

وفي حوالي الوقت نفسه، في اسبوع عيد الميلاد، قدمت سينشيا، كونتسة كورنوول، زوجة الايرل رتشارد، إليه ولداً ذكراً في بيركها مبستد، لتعميده، وقد بعث به الايرل إلى بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، والذي كان عم الطفل، وتلقى المولود اسم ادموند، تشريفاً لادموند المعترف، الذي كان رئيس أساقفة كانتربري من قبل.

موت إرميا مستشار الملك

وخلال أسبوع الميلاد نفسه، مات أيضاً إرميا كاكستون Caxton, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، وأعطيت كنيسته الغنية على الفور من قبل أسقف ايلاي، إلى روبرت باسلو، على أمل، أن يصبح بعد حياة غير مثمرة طويلة، كاهناً مقدساً.

حول الغرامة الثقيلة التي فرضت على وولتر دي كلففورد

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، جرى اتهام وولتر دي كلففورد Clifford, الذي كان واحداً من الأعظم مكانة بين بارونات الحدود الويلزية، سواء في القوة، أو الثروة، أو الكرم، وجاء اتهامه أمام الملك، بأنه قام متحدياً للملك المذكور، فعامل رسوله بعنف وبشكل غير لائق، وهو الرسول الذي حمل إليه رسائل ملكية، وأرغمه على أن يأكل الرسائل مع الختم، وقد تبرهن أن وولتر هو مدان ومجرم أمام الملك، ولذلك لم يتجرأ على الوقوف أمام المحاكمة، بل ألقى بنفسه على رحمة الملك، وبوساطة ذلك، هو مع الصعوبة نجا من الموت، ومن التجريد من الميراث، غير أنه

فقد حريته وجميع الأموال التي استحوذها، أو كان بإمكانه الحصول عليها، وقد وصل ذلك إلى حوالي الألف مارك، ثم سمح له بالعودة إلى موطنه دون أن يسجن، وذلك بموجب كفالة بعض الضمانات.

إعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

وأثناء العيد نفسه ثابر الملك على استخدام جميع الوسائل المتوفرة لسلطته، لإعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر، والتجمع الرهباني في ذلك المكان نفسه، لأن الفضيحة التي نجمت عن ذلك الخلاف، انتشرت في الخارج، ونشرت عدواها إلى جميع الرهبانيات، في جميع البلاد حقيقة، وجرى إخبار الملك، بأنه قد عرض نفسه إلى الاضطراب، وإلى تحمل النفقات من دون غاية، في إعادة بناء كنيسة ويستمنستر —أي الراعي والقطيع، يعني راعي الدير ورهبانه الديريين— الذي هم الحجارة الحية في مثل ذلك البناء الفخم، على مثل هذه الدرجة من الخلاف، وهكذا أمكن بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه تقدير خاص نحو تلك الكنيسة، أعيد تأسيس السلام، فيما بينهم.

كيف استدعى أسقف لنكولن جميع الرهبان في أسقفيته

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، قام المضطهد الذي لايعرف الكلل للرهبان، روبرت، أسقف لنكولن، بتوجيه الدعوة إلى جميع الرهبان في أسقفيته، للاجتماع في ليستر، في يوم عيد القديسة هيلاري، حتى يستمعوا هناك إلى ولاية من البابا، لأن هذا الأسقف، قد سعى بأقصى ما أمكنه نحو وضع الكنائس وموارد الرهبان في جميع أرجاء أسقفيته تحت سلطته، وهو أمر كان سيسبب الأذى إلى كثير من الناس، ذلك أن تلك الموارد لم يكن لدى الرهبان موافقة عليها من قبل الهيئة الكهنوتية، كما لم يكن لديهم أية وثائق تعطي برهاناً حول القضية، وكان الأسقف، حتى يصل إلى غايته، قد أنفق مبلغاً كبيراً من المال، حيث أرسل كاهنه ليونارد، بمثابة رسول متردد

على روما، إلى البلاط الروماني، وكان هذا البلاط —كما قلت من قبل— مثل خليج، وقد كانت لديه القدرة، وعمل عادة ابتلاع موارد جميع الناس، لابل في الحقيقة جميع ممتلكات الأساقفة، ورعاة الديرة، ومن الممكن الوقوف على الرسائل التي منحت هذا الامتياز إلى الأسقف في كتاب الـ Additaments.

كيف عبر كثير من النبلاء الإنكليز البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أقلع كثير من النبلاء الانكليز، وغادروا انكلترا، لكن سبب اقدامهم على هذا لم يكن معروفاً لدى أي من الناس، وكان من بينهم الايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وهنري هيستنغ Hastings, وكان بارونا، وروجر دي ثيركباي Thurkby, وعدد كبير آخر، وكان معهم من الأساقفة: أساقفة لنكولن، ولندن، ووركستر، ومعهم رئيس شمامسة أكسفورد، وبدفورد، وعدد كبير آخر من الكهنة، من أسقفية لنكولن، وسافر الايرل رتشارد خلال المملكة الفرنسية، بصحبة الكونتسة زوجته، وابنه الأكبر هنري، وحاشية كبيرة، وكان محاطاً بمرافقة كبيرة، في أبهة عظيمة، وتألفت المرافقة من خمسين فارساً، مجهزين بجهاز جديد موحد، وكانوا ممتطين لخيول جميلة، تحمل مقاود جديدة، تلمع بالذهب، وكان معه خمس عربات، وخمسين دابة حمولة، وبذلك قدموا مشهداً رائعاً ومشرفاً للفرنسيين الذين شاهدوهم وهم مندهشين، وجرى استقباله لدى وصوله من قبل السيدة الشريفة بلانشي، وذلك بأعلى احترام، وقد عبرت عن بهجتها لدى رؤيتها له، وقدمت له هدايا رفيعة، مثلما يفعل قريب إلى قريبه، أو بالحري كما تفعل أم وتتصرف نحو ابنها المحبوب.

ذهاب أسقف لنكولن إلى البلاط الروماني

وكان سبب عبور أسقف لنكولن للبحر واضحاً إلى الجميع، لأنه، وإن كان رجلاً مسناً، كان يسعى جاهداً لاخضاع جميع الرهبان الذين

استدعاهم إلى طاعـة دقيقة له، فهو كان قـد دعاهم —كما ذكرنا من قبل— لسماع نص الولاية البابوية، وقد كانوا قد ترافعوا إلى الكرسي الرسولي ضد مظالمه التي لم يسمع بمثلها، وكان رعاة الديرة المعفيين، وكذلك الداوية والاسبتارية، قد ترافعوا جميعاً، ومعهم عدد كبير آخر، وقد تمكنوا من خلال المال، من شراء السلام بشكل عقلاني، وذلك لأنفسهم، من البابا، وذلك وفقاً لكلمات الشاعر الكافر الذي قال:

عون القاضي مطلوب عندما تكون القوانين قاسية

وعندما بات هذا معلوماً لدى الأسقف، وبعد انفاق كبير للمال، ومتاعب بلافائدة، ذهب إلى البابا، وهو آسف ومضطرب، وخاطبه كما يلي: «مولاي، الأب المقدس، إنني قد خجلت لدى هزيمتي في قصدي في تنفيذ مااعتمدت عليه واثقاً بما جاء برسائلك، وبوعودك، وانني الآن أشعر بالخيبة في توقعاتي، لأن أولئك الذين صدقتهم وأخضعتهم، قد مضوا أحراراً، مما سبب الإهانة إليّ والاضطراب»، ويقال بأن البابا قد رد على هذا قائلاً مع نظرة عابسة: «ماذا ألم بك؟ لقد حررنا روحك، وصنعنا لهم معروفاً، فهل عينك شريرة، بسبب أنني جيد؟»، ثم قال الأسقف لنفسه وهو يتنهد: «آه أيها المال، أيها المال كم سلطتك عظيمة، خاصة في البلاط الروماني»، لكن البابا كان قد سمعه، فغدا ساخطاً، فأجابه قائلاً:

«آه منكم أيها الانكليز، أنتم أكثر الناس تعاسة، كل واحد منكم يعض جاره، ويسعى إلى افقار تابعه، كم كان عدد الرهبان الخاضعين لك، مثل الشياه، ومن أبناء وطنك وبلدك، وأنت كنت تسعى بالالتماسات وباظهار الكرم، كما أنك قد بذلت غاية ماتستطيع، في سبيل اشباع طغيانك ونهمك من ممتلكاتهم، وكي تغني آخرين، ربما من الأجانب»، وهكذا غادر الأسقف المهان، وسط صرخات الشتائم من جميع الذين كانوا حضوراً، ولكي لايبدو أنه لم يحقق شيئاً، تولى متابعة القيام ببعض الأعمال الأخرى.

كيف باع كثير من نبلاء إنكلترا مزارعهم

وقام في هذا العام روجر دي مونتهوت Monthaut, وكان واحداً من أعلى النبلاء مرتبة في مملكة انكلترا، بحمل الصليب، وتولى ايجار حصته التي امتلكها في الغابات وفي الموارد الأخرى في كوفنتري، إلى رئيس رهبان، ورهبان دير ذلك المكان، على شكل ضمان حر، مقابل مبلغ كبير من المال، في سبيل تزويد نفسه بالضروريات من أجل السفر، كما قام أيضاً بتحويل كثير من ممتلكاته الأخرى إلى آخرين، وباع بعضها، وكان كثيراً، بيعاً كاملاً، ومثله فعل كثير من النبلاء الآخرين، في كل من القارة وعلى هذا الجانب من القنال، وبالإضافة إلى روجر هذا، تولى عدد كبير جداً من النبلاء الانكليز، والأساقفة، وكذلك الفرسان، حمل الصليب في هذا الوقت نفسه، من أجل رفع شأن قضية الصليب، وكذلك في سبيل اللحاق بالملك الفرنسي ومساعدته، وكان من بين هؤلاء أسقفي وورسكتر، وهيرفورد، وايرلات: ليستر، وهيرفورد، وغيوفري دي لوسي، وروبرت دي قوينسي، وعدد كبير آخر، كانوا كثيرين جداً، لايمكن ذكرهم، وقام عدد كبير أيضاً برفض تسلم شارة الصليب بشكل علني، وذلك خشية من مكر البلاط الروماني، كما أنهم رفضوا وضعها على أكتافهم، لكنهم عزموا سرياً بشكل ثابت، وتعهدوا بمساعدة الأرض المقدسة، بكل ما امتلكوه من تقوى واخلاص.

معاناة البارميين

وفي هذه الآونة نفسها ازدادت قوة فردريك كثيراً جداً، فبعدما تمكن من طرد وليم أوف هولاندا، وسفيره بطرس كبوشي، خضع كثير من النبلاء إليه، وقدموا الولاء له، ولذلك تمّ الضغط كثيراً من قبله على البارميين، وعلى الريجيانيين Reggians, أيضاً وكذلك على البولونيين، والعصاة الآخرين، وكان التضييق عليهم قد بلغ حداً، أنهم لم يتجرأوا على إظهار أنفسهم بعيداً عن مدينتهم، خشية الوقوع في

مصـائـده، ولذلك فــإن تجّار هؤلاء النـاس، الذين كـانوا بالعـادة مليئين بالثــروة، باتوا الآن في حــالة العـوز، بسبب تعطيل أسـواقهم، واغـلاق الموانىء، وتسكير الطرق، ولـذلك شرعوا يرغبـون بالسلام مع فردريك، ويمقتون الحرب البابوية، وجرى تحريض الكثيرين على هذا توبة فردريك المستمرة وتواضعـه، والترضيات التي قيل بأنه قدمها مصحـوبة بإخلاص لائق إلى البـابا، لأنه رغب، وبتـواضع سأل منحه الاذن بشنّ الحرب ضـد أعـداء المسيح، وأن يقـاتل في سبيل الكنيسـة في الأرض المقـدسـة، لبقيـة حيـاته، أو على الأقل، حتى يتمكـن بقـوة السـلاح، من استرداد مـا كـان متملكاً من قبل الصليبيين في أي وقت من الأوقـات، شريطة السماح لابنه هنري ـــابن أخت ملك انكلترا، الـذي أحبـه أكثـر من أولاده الآخـرين ـــبأن يحكم الامبراطورية من بعده، وعـلاوة على هذا عرض بأن يعيد إلى الكنيسة كثيراً من ممتلكاتها التـي كان قد جـردها منها، وأن يعـوض عليها خســائرها، وعلى هذه العـروض أصر البابا بعناد وتمسك بجـوابه، بأنه لن يكون من السهل أبـداً إعادته إلى وضعـه الطبيعي، وهو الذي جرى خلعه وادانتـه في المجمع المسكوني لليـون، وقـد أكـد كثيرون بشكل حـاسم بأن البـابا رغب بشدة وتشـوق فـوق كل شيء، إلى الاطاحة بفـردريك، الذي سماه التنين الكبير، وذلك حتى إذا ما تمكن من دوسه بقدميه، ومن سحقه، يمكنه بعـد ذلك بسهولة أكبر، أن يـدوس على ملكي فرنسـا وانكلترا، مع الملوك المسيحيين الآخرين (الذين أطلق عليهم اسم «الأمراء الصغار»، أو «الأفـاعي الصغيرة»)، حيث يمكنه أن يتولاهـم الرعب من خلال قضيـة فـردريك المذكــور، ويمكن بالتـالي للبــابا أن يجردهم مع أقــربائهم من مقتنياتهم ومن مباهجهم، وقد أثارت هذه الأقاويل، مع الأفاعيل الكثيرة، التي تحمل براهين قوية على معاني كلمات البابا، كثيراً من الناس، وأدخلت الخوف في قلوبهم، ومتنت عــدالة قضيـة فـردريك، لذلـك بدأت قضيتـه بالتحسن يومياً.

إحصاء ثروة بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

واجتمع في هذه الآونة أساقفة منطقة كانتربري في اكسفورد، لإحصاء الأموال التي جرى جمعها من جميع أرجاء أسقفياتهم من أجل استخدام رئيس أساقفة كانتربري، ولمعرفة فيما إذا كانت قد وصلت إلى المبلغ المسموح له به، وقد عرفوا هذا من الجباة الذين جرى تعيينهم في كل واحدة من الأسقفيات، لكن رئيس الأساقفة كان قد عيّن عدداً كبيراً أكثر، من أجل حساب جميع النفقات لصالحه، وبناء عليه منحه الأساقفة —مكرهين— الذي طلبه، لأنهم شاهدوا بأن البابا مؤثر له في كل شيء.

كيف طلب الملك المسامحة من سكان لندن من أجل إجراءاته الماضية

في يوم الأحد التالي قبل عيد القديس بيربيتوا Perpetua, والقديس فيليستياس Felicitas, اجتمع جميع سكان لندن، بناء على أمر من الملك، واحتشدوا جميعاً مع أسرهم، لابل حتى مع الأطفال من ذوي الاثني عشر عاماً، في ويستمنستر، في القصر الكبير، الذي يدعى باسم القاعة الكبيرة، وكان عددهم كبيراً إلى حد أن القاعة وكذلك القصر قد غصا بحشود الجماهير المجتمعة، وبعدما اجتمعوا جميعاً، قام الملك بتواضع، وكأن الدموع خارجة من عينيه، فالتمس من كل واحد منهم، لابل منهم جميعاً، في أن يقوم سكان المدينة بفم واحد، وبقلب واحد، بمسامحته من أجل غضبه، وحقده، وضغينته نحوهم، وقد اعترف بشكل مكشوف، بأنه غالباً ما قام هو وعملائه، بإلحاق الأذى مضاعفاً بهم، مع انتزاع ممتلكاتهم بشكل غير عادل والاحتفاظ بها، وخرقه المتوالي لامتيازاتهم، ولهذا طالبهم الآن ورجاهم أن يمنحوه عفوهم، ورأى سكان المدينة أنه من غير اللائق عدم الاستجابة، فوافقوا على طلبه، لكن جاء ذلك من دون إعادة أي من ممتلكاتهم المنتزعة إليهم.

الملك يحمل الصليب ومعه كثير من النبلاء

وتسلم الملك في اليوم نفسه الصليب من يدي بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وقام رئيس الأساقفة نفسه فيما بعد بمنح ذلك الشعار المقدس إلى بعض النبلاء، وكان من بينهم فتز— نيقولا، قهرمان الملك، ووليم أوف بلنسيه، أخيه [الملك] لأمه، وبوينتز بيبر Pointz Pepper, الذي كان مستشاراً خاصاً به، مع عدد كبير آخر من النبلاء ورجال البلاط، وقام راعي دير القديس ادموند، الذي كان اسمه ادموند أيضاً، أمام سخرية الجميع، فضرب مثلاً سيئاً إلى جميع الرهبان، وسبب الضرر إلى طائفته المقدسة، فخرق كل تعهد، فحمل الصليب أيضاً، وكذلك فعل جون مونسل Maunsel, وفيليب لوفل Lovel, وكانا كاهنين للملك ومستشارين، وكذلك عدد كبير آخر، هم كثيرين جداً حتى نتمكن من ذكرهم، وأقدم بعض المفسرين الأشرار على التأكيد بأن الملك قد حمل الصليب لغرض واحد فقط، هو أن يتمكن لهذا السبب من استخراج المال بالقوة من النبلاء الذين رفضوا من قبل الاستجابة إلى طلبه، والدفع له، وبأن يدفعوا له الآن بحجة الحصول على امتلاك الأرض المقدسة ورفع شأن المسألة الصليبية، لكن الأناس الجديين والأكثر عقلانية تحفظوا بآرائهم حول هذه المسائل، حتى يمكن تفسيرها وبرهنتها من خلال اجراءاته الماضية، لأن المتوجب على العقل الجيد أن يؤثر الأشياء البناءة على القضايا المشكوك بها حتى يتبرهن العكس، وأيضاً من الذي —غير الرب— يعرف ما يفكر به الناس الفانين؟، وكانت أسس هذه الشكوك قد ازدادت من خلال المثل السيء الذي ضربه الملك الفرنسي الذي انتزع من مملكته مبلغاً كبيراً من المال، الذي كان مفيداً قليلاً له أمام أيدي الرب المنتقم، الذي أعاق حجه، والثمار التي جناها من تلك الإجراءات، الرواية التالية سوف تظهرها.

حول القرار الجماعي للصليبيين

في السابع والعشرين من نيسان لهذا العام، اجتمع القادة بين رجال الصليبيين الانكليز في بيرموندسي Bermondsey, في لندن، لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق بحملتهم، ذلك أنهم أعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن عمل ذلك بسبب الملك، ولقد قدروا في الحقيقة، أنه كان غير مجدياً بالنسبة إليهم إهمال اخلاص أرواحهم، والتخلي عن واجباتهم نحو الرب السماوي، في سبيل خدمة أي ملك أرضي، وبناء عليه حددوا يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ليكون موعد انطلاقهم، وقد أحصي أنه كان في الاجتماع خمسمائة من الفرسان مع أتباعهم، بالاضافة إلى حشد لايحصى من الأعوان، والناس المرتبطين بهم، لأن جميع نبلاء مملكة انكلترا مع عدد كبير من مملكة فرنسا، ممن عملوا استعداداتهم أمام ملك انكلترا، وحملوا الصليب، كانوا يتوقعون هذه الحركة المجيدة، وكان الملك مثله مثل جاسوس متيقظ، لذلك حصل على معلومات مسبقة حول هذه الاجراءات، فكان لذلك قد حصل بوساطة هدايا الأموال، والوعود بتقديم المزيد على الفور، على رسائل من البلاط الروماني، يمكنه بوساطة سلطاتها، تأجيل مغادرتهم حسب رغبته، حتى يتمكن، وهو القائد الرئيسي في بلاده، من المسير مع قوة كبيرة، إلى بلدان ماوراء البحار، فبذلك يمكنه التصرف بشكل أكثر جدوى وسلامة، وعلى هذا ردّ الصليبيون، بأنه سوف يكون من الموائم وأمراً سليماً، أن يقوم الذين حملوا الصليب قبل أن يقوم الملك بذلك، والذين قد زودوا أنفسهم بالخيول، والسلاح، وبالضروريات المحتاج إليها أثناء السفر، بوساطة رهن أراضيهم، وببيعهم الكثير من مقتنياتهم، وودعوا أصدقاءهم، أن يقوموا بالانطلاق، والشروع برحلتهم أولاً، وأن يسيروا قبله، وبذلك سوف يواجهون ويستقبلون بمزيد من إمدادات الطعام، وعندما سيشاهد الأجانب هذا، سوف يقولون: «إذا كان

مثل هذا العــدد الكبير من الناس من ذوي مثـل هذه المراتب العليـا، قــد جـاءوا قبل الملك النبيل لانكلترا، علينا أن نتصور كم سيكون عـدد الذين سيرافقــونه ويتبعـونه عنـدمـا سيأتي هو نفســه؟»، وبذلك ســوف يزداد الاحترام للملك بين جيرانه، وسيتضـاعف الخوف منـه بين أعـدائـه، لكن الرسـائل المهـددة للبـابا، والالتماسـات الملكيـة التي قـام بها الملك، غيرت مقاصـدهم، فبقيوا، ومع أن هذا الاجـراء لم يكن مشكوراً في ذلك الوقت، لقد تحول في هذه المناسبـة فكان فيها بعد لحسن حظهم، ولكن بسبب أنهم لم يذهبـوا إلى مسـاعـدة الملك الفـرنسي، في ذلك الوقت المناسب، كما رغبـوا وتشوقوا، فإن القضية الصليبية، قد وهنت كثيراً لسبب أو لآخر، وتدمرت بشكل غير سعيد.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين الذين تمردوا على مولاهم من قبل إيرل ليستر

وأمكن في العــام نفســه، تدجين غسكـوني إلى أبعــد الحدود، من قبل سيمـون دي مونتفـورت، ايرل أوف ليستر، فقد جـرى أسر غاستـون دي بيارد، الذي كان أقوى أعداء الملك، أو كان واحداً من أكثرهم قوة، وأهين بعد أسره، وبناء على أوامـر من الايرل، ذهب إلى انكلترا، إلى الملك المتأذي منه، الـذي كــان مقيماً آنـذاك في كليرندون Clarendon, ليترجـــــاه بتـذلل، وليطلب منه العفـو عنه وابقــائـه حيـاً، مع المحـافظة على أطرافـه واقطاعـه، ورمـى هناك بنفسـه كليـة على رحمة الملـك، وليس على حكمـه القضائي، وقـد قوبل بالرحمة منه، مع أنـه لم يستحقها، لأن الغضب الملكي قاهر، وقد ابتعد عن ممارسة انتقامه عندما شاهد بأنه قد قهر أعداءه، وذلك وفقاً لكلمات أوفيد التالية:

ضحيته قُـتلت، الأسد بات راضياً

المعركة قد انتهت، وغضبه كله قد تبدد

وبناء عليـه، استحـوذ الملك، مـن خـلال الايرل المذكـور، على بعض القلاع، التي كانت عائدة إلى غاستون المذكور وإلى المتعاونين معه، وقد كان من بينها قلعتي فـرونساك Fronsac, وايغريمـونت Aigremont, وعـدد كبير آخر، وبعـد تذلله، الذي كـان ظاهرياً فقط، وبوسـاطة تدخل الملكة، التي جعل نفسـه قـريباً لها، استقبل غـاستـون بحظوة كبيرة من قبل الملك، بلغت حداً أنه أعاد إليه تملك أراضيه، ولكن جاء ذلك مرتبطاً بكثير من الشروط الدقيقة، وقـام الايرل المذكور بدراسة سبل تقليـد أبيه في جميع المجـالات، وأن يسير على خطـاه، أو أن يتخطاها، ولذلك ضبط وقـاحـة الرعية التي كـانت عاصيـة على الملك في بوردو، وفي جميع أرجاء غسكوني، حتى أنه أرغم وليم دي سـولاري Solaires, وروستين Rusten, مع رجال آخـرين متجبرين كانوا عصاة ضـد الملك، وأجبرهـم على الفرار، أو قام بتجـريدهم من مـواريثهم، أو حكم عليهم بالنفي، كما أنه تولى شنق الكثيرين.

كيف استخرج الغسكونيون بالقوة مبلغاً كبيراً من المال من ملك إنكلترا

ليكن معلومـاً، أنه عندمـا كان الملك في غسكوني، وظـن أنه غادر حـراً وبمشيئته، كان الغسكونيون، وبشكل خاص شعب بوردو، قد شاهدوا أنه كان في وضع حرج، لذلك قاموا قبل أن يسمحوا له بالمغادرة، فاستخرجوا منه مبلغاً كبيراً من المال، كـان مقداره أربعين ألف مـارك، ومن أجل الوفاء بذلك، استخـرجوا منه أيضـاً بالقوة عهـده ويمينه، وكذلك صكاً مـدوناً، وبعـد ذلك، قـام الملك إثر وصـوله مبـاشرة إلى انكلترا فـاعتصر هذا المال واستخرجه من الأسـاقفة،وبذلك أفقر انكلترا، وذلك حتى بعدمـا كان قد خسر بواتو، ولذلك بما أنه كـره الغسكونيين، باع خـزانتـه حتى يتمكن من الخلاص.

حول الحملة التي قام بها الفرنسيون ضدّ المسلمين

في يوم الاثنين، قبل أربعاء الرماد، حمل الجيش الفرنسي فجأة، وتقدم بقوة عظيمة من قلعة دمياط، وانقض رجاله على المسلمين الذين كانوا يتولون حصارهم، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وبعدما حصلوا على النصر، عادوا ومعهم أسلابهم، سالمين ومسرورين، إلى المدينة، وأملوا في اليوم التالي بالحصول على حظ طيب مماثل في القتال، ولكن نظراً لتزايد أعداد الأعداء، نالوا السوء من المعركة، وخسروا عشرة أضعاف الأسلاب، التي فرحوا بها أثناء عودتهم إلى المدينة في اليوم السالف، فقد رجعوا وقد غطاهم الدم، وهم مجروحين، ومشوهين، وأعدادهم قد تناقصت كثيراً، وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يشعرون بالعزيمة في قلوبهم، وبرفع رؤوسهم عالياً أمام الصليبيين، فأغلقوا جميع الطرقات في جميع أرجاء المنطقة، وفي كل الاتجاهات، بما أن آمال السلطان أصبحت الآن في حال أفضل، جمع غلايين من الاسكندرية، ومن الأماكن الأخرى القائمة على الساحل، ومن كل مكان أمكنه الحصول عليهم، وأمر باقامة مراقبة متيقظة على البحار، وعلى السواحل، وعلى جميع الأماكن التي كانت مفتوحة لجلب المساعدات إلى الفرنسيين، واستخدم المزيد من العناية، حتى يمنع من جلب الإمدادات إليهم.

حول شروط السلام التي قدمها السلطان

وأخيراً جرت بعض المشاورات، وتمّ عقد مؤتمر بين الجانبين، وقد أرسل السلطان رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه في سبيل تسوية جميع الخلافات، سوف يكون من المعقول بالنسبة له، أن يتخلى عن مدينة دمياط مع امداداتها، التي تدعى عادة باسم «حواصل الحبوب»، ومقابل ذلك سوف يعاد إليه جميع منطقة القدس مع الأسرى الصليبيين بشكل سلمي، وقال أيضاً إن على الملك الفرنسي أن لايطمح أو يتطلع إلى أي شيء أكثر من إعادة الأرض المقدسة إلى الصليبيين، وعلى هذه الخطة، وافق وقتها

كثير من الصليبيين، خاصـة ذوي المراتب المتوسطة والمراتب الدنيـا، الذين كانوا في حـالة عوز، لابل وافق عليهـا حتى النبلاء، وأعلنوا عـن رضاهم، وقـالوا صحيح بأن عـروض السـلام هذه كـانت متـواضعـة، إنه إذا لم يتم الموافقـة عليهـا، فإن تجبر النبـلاء سـوف يلحق الأذى بالجيش كله، ولدى معرفـة الملك، كان ميالاً للأخذ بهذه النصيحـة، لو لا أنه عورض بعناد من تجبر وتشـامـخ كـونت أرتوي، الـذي أصر على المطالبـة بـالاسكندرية، بالاضافة إلى ماتقدم، غير أن السلطان مـا كان بأي حال من الأحوال، يقبل بالتخلي عن تلك المدينـة إلى الصليبيين (لأنها كـانت أكثـر المدن فخـامـة، ومقصـد جميع التجـارات الشرقيـة والجنوبيـة)، كما أعلـن أنه لاأهل الاسكندرية ولا المصريين سوف يرضون بذلك.

كيف ماتت أعداد كبيرة من الفرنسيين بالجوع وبالسيف

بدأت أحوال الفرنسيين، الذين كـانوا محاصرين من جميع الجهات، الآن بالتدهور بدرجات عاليـة جداً، لأن الذين كانوا بالعادة نظيفين ولطيفين في طعامهم وشرابهم، قد أرغموا الآن على أكل طعام غير نظيف ومكروه، كما أنه لم يكن بـإمكان فـردريك، أو أي أمير مسيحي مـن البلدان المجـاورة، مسـاعـدتهم، ولكي نجمل الأمـور ونصفها باختصـار، لقـد كـان الضغط عليهم بالنسبة للأطعمة قـد وصل إلى حد، أنهم أرغموا أثناء الصوم الكبير حتى على أكل خيولهم الثمينة، التي كـانت ضرورية جداً إليهم، ولقـد كان هذا مشهداً محزناً، والذي كان أكثر سوءاً، هو أن خـلافاً وكراهية قد تفجرا بين النبـلاء وبين الصليبيين البلديين [البوليـان]، لأن النبلاء رفضـوا بعناد شروط السـلام المنطقيـة التـي جـرى عـرضهـا، وعـلاوة على ذلك كـره المسلمـون رعونة الصليبيين وعنادهم، فـزادوا من قـوة تحالفهم، وضغطوا عليهم بشـدة أكبر من ذي قبل، ولـذلك قـام عـدد كبير من الصليبيين منذ ذلك الحين، بسبب المصـاعب، فتركـوا القلعـة والمدينة سراً، والتحقـوا بحشـود المسلمين، وفق شروط معتدلة، ووقفـوا بشكل مـؤثر وفعال ضـد

بني قومنا، ذلك أن المسلمين استقبلوهم بسرور، وزودوهم بالأطعمة، في الوقت الذي كانوا يسقطون به من الجوع، وعينوا لهم مايكفي من الطعام يومياً، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من هؤلاء الصليبيين الفارين حافظوا على إيمانهم وشريعتهم، بسبب اعتدال المسلمين وتسامحهم، غير أن بعضهم قد ارتدوا، والتحقوا بدنسهم، وأكدوا ذلك بتقديم الولاء لهم، وجرى تزويد هؤلاء بثروات واسعة، مع زوجات وقلاع، وجرت ترقيتهم إلى كثير من مراتب الشرف، وسبب هؤلاء أضراراً قاتلة إلى الصليبيين، فضلاً عن أنهم كشفوا عن أسرارهم وعن خططهم إلى أعدائهم.

كيف أصبح عدد كبير من الفرنسيين مرتدين

بات العوز الشديد للصليبيين معروفاً تمام المعرفة لدى السلطان، بوساطة هؤلاء المرتدين، فأرسل رسالة سخرية قاسية إلى الملك الفرنسي يسأله لماذا جلب معه في مراكبه إلى الشرق: مساحي، ومذاري، وعربات، ومحاريث، وأنواع أخرى من أدوات الفلاحة، التي لم يعرف كيف يستخدمها، ذلك أنها سوف تتلف بالصدأ؟، وقد أوضح أنه إذا ماأصبح الملك الفرنسي صديقاً له، سوف يجد كثيراً من الزاد يصل إلى جيشه أثناء إقامته هناك، من نوع القمح، والخمرة والزيت، واللحم، وقاوم الملك —ليس من دون حزن شديد— جميع إغراءات أعدائه، وبحكمة أخفى جرح قلبه، تحت ملامح هادئة.

موت السلطان

وإثر ذلك مباشرة مات السلطان، حيث يقال بأنه سمم من قبل حجابه، لأنه بات مكروهاً لدى قومه، ولدى قادته جميعاً، ولدى جيرانه، لأنه كان متجبراً، وشرهاً، وغير عادل نحو الجميع، ولدى سماع الصليبيين بهذه الواقعة ابتهجوا كثيراً، مع أنه توجب عليهم الحزن، لأن كثيراً من المسلمين تظاهروا فقط بالوقوف إلى جانبه، في حين كانوا قد أغضبوه بكراهيتهم

المخفية، ومالبث بعد ذلك أن جرى تعيين سلطان جديد في مكانه، وامتلك هذا السلطان نوايا طيبة نحو جميع شعب الشرق تقريباً، وتابع هذا الرجل النشاط الحربي ضد الصليبيين، لابل بشدة أعظم من سلفه، ورفض تمام الرفض أن يمنحهم عروض السلام، التي سلف منحها، والتي تمناها جميع الصليبيين وطلبوها، وبدأت أحوال الصليبيين منذ ذلك الحين بالتدهور بدرجات عالية، وباتت سمعتهم متدنية وكذلك احترامهم، في أعين شعب الشرق.

كيف تلاشى إيمان الكثيرين

وبناء عليه، بدأ كثيرون ممن لم يكونوا أقوياء في إيمانهم، يذعنون أمام اليأس، ويعبرون عن ذلك بتجديفاتهم، وتبددوا من خلال الجوع، ومؤسف القول إن إيمان الكثيرين بدأ يتلاشى، لأن أحدهم قال للآخر: «لماذا تخلى المسيح عنا، نحن الذين نقاتل هنا من أجله ومعه؟ فغالباً في أيامنا هذه ماهزمنا، ووضعنا في حالة من الفوضى، وأعداؤنا —في الحقيقة أعداء المسيح— منتصرون علينا وممجدون في دمائنا، وفي الأسلاب التي أخذوها منا، وكان ذلك في المقام الأول عندما جرى تطويقنا بفيضان النيل، وفي دمياط، التي أرغمنا على التخلي عنها، وهي المدينة التي حصلنا عليها مقابل الكثير من الدماء، ومجدداً جرت هزيمة فرسان الداوية المشهورين قرب أنطاكية، وتمّ تفريقهم مع خسارة حامل رايتهم، الذي جرى اعدامه، ومجدداً كان قد حدث قبل عدة سنوات مضت، أن هزمنا من قبل المسلمين عند قيسارية، بعدما كان قد جرى انقاذها من قبل الايرل رتشارد الانكليزي، فبعد ذلك بأمد قصير، جرى تمزيق جميع الصليبيين تقريباً، إلى مزق من قبل الخوارزمية، الذين لوثوا، ودمروا جميع الأماكن التي تدعى مقدسة، والآن، إن ماهو أسوأ من كل شيء، هو أن ملكنا المسيحي التقي، والذي أقيم من الموت بشكل إعجازي، بات الآن معرضاً لمخاطر مهينة واضحة، ومعه جميع نبلاء فرنسا، وصار الرب وكأنه عدو لنا، والرب

الذي كـان بالعادة يدعى رب الحشـود، هو الآن، ويالالأسف، مـزدرى من قبل أعدائه، وبحكم أنـه قد هزم مراراً، ماالذي أفادنا اخـلاصنا؟، وماهي الفائـدة التي نلناها من صلوات رجـال الدين، ومن اعطاء الصدقـات من قبل أصدقـائنا؟، فهل ياترى شريعة محمـد (صلى الله عليه وسلم) خير من شريعـة المسيح؟»، وهكذا ترددت كلمات التجـديف وسمعت من ضعفـاء الإيمان، وبدا أن الصوم الكبير، هو وقت للعقوبة، أكثر منه وقت للتوبة.

تدهور أحوال الإمتيازات الكنسية

وحدث في العام نفسه، أن قـام أسقف لنكولن بتجريد واحد من الكهنة في أسقفيتـه، اسمـه رالف، من منفعتـه، بسبب أنه اتهم بالفجـور، ومع أنه رفض —على الرغم من إدانته— التخلي عن المنفعة، جـرى حرمانه كنسياً، وبعــدمـا مكـث الكاهن الآن لمدة تزيد على أربعين يـومـاً تحت الحرمــان الكنسي، أرسل الأسقف رسـالـة إلى عمـدة روتلاند Rutland, حيث سكن الكاهن، وعــاش في ظل سلطانه القضــائي، وطلب منه اعتقــاله، وادخـاله السجن، بحكم كونه متمـرداً، غير أن العمدة الذي كـان صديقـاً كبيراً لرالف المذكـور، إمـا قـام بتأخير ذلك، ورفض تنفيـذ الطلب، لأنه لم يكن صــديقـاً للأسقـف، لأن سينكا يقـول: «الـذي يجري تأخيره لوقت طويل، يرفض لوقت طويل»، وبناء عليه، عندمـا شاهد الأسقف الكراهية الخفية للعمـدة، قام بوقار فحرمـه كنسياً أيضاً، وبناء عليه قـام العمدة وهو مغضب ويشعــر بالإهانة، فتقــدم بشكوى ثقيلة أمــام الملك حــول هذه القضيـة، وعندمـا سمع الملك بهذا هو ورجـال بلاطه، أثيروا جميعـاً كثيراً، وأجـاب الملك وهو حانق، وأرفق أجـابته بقسم عظيم قـائلاً: «إذا قـام أي واحد من شعبي بجعل نفسه عـرضة للتغريم من قبل هذا الأسقف، أو من قبل أي واحـد آخر، يتـوجب عليه تقـديم الشكوى إلينا، لأنه يبـدو وكأنه ينظر إليّ نظرة ازدراء»، وبنـاء عليــه أرسل رســلاً خــاصين إلى البــلاط الروماني، وتمكن بوساطة المال، من الحصـول بسرعة على الامتياز الوارد في

الرسالة التالية، مما ألحق الضرر بالحرية اللاهوتية.

رسالة البابا

«**من أنوسنت الـرابع، إلخ، إلى ابنه المحبــوب، راعي دير ويستمنستر في لندن، تحيات:** لقـد وافقنا عن طواعيـة على رغبـة ولدنا المحبـوب كثيراً في المسيح، صاحب السمو، ملك انكلترا المشهور، حتى نظهر أنفسنا محابين له ومؤثرين، في القضية التي طلبها منا بشكل عادل، حيث أنه قد وقع، حسبما روي لنا باسمه، بأن بعض رجال الدين والأسـاقفة، قاموا من أجل تسبيب الأذى للملك المذكور، بإرغام نواب مملكته على الترافع بقضاياهم أمامهم، وحسب هواهم، وذلك في القضايا، العائدة إلى القضاء الملكي، وقد تفوهوا بقرارات الحرمـان الكنسي ضدهم، إذا لم يفعلوا ماطلبـوه منهم، واستجابة منا لالتماسـاته، وبموجب سلطات رسـالتنا هذه، رأينا من الموائم، أن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي قسيس آخر في تلك المملكة، من القيام بارغام أي واحد من نوابه، على الترافع بقضاياهم أمامه، في القضايا العائدة إلى العـدالة الملكية، أو القيـام لهذا السبب بالتفوه بأي حكم ضـدهم، وبناء عليـه نحن نأمــركم بهذه الرسـائل الرسـوليــة، أن لاتسمحـوا بمـوجب اخـلاصكم، أن يجري اغضاب الملك المتقـدم ذكره بشكل غير مـوائم، من قبل أي واحد من جماعتكم في هذه القضايا، وذلك معارضة لمقصد حظرنا، فـاعل الشر، إلخ، إلخ. صـدر في ليـون في التـاسع من آذار الحالي، في السنة السابعة لحبريتنا».

وفعل الملك هـذا، لكن ليس من دون الحصــول على مـــلامـــة الناس العقلاء، لأنه اشتكى إلى البابا حول هذه القضية.

عودة الإيرل رتشارد

في يوم الاثنين التالي قبل أسبوع الابتهالات، وصل الايرل رتشارد عائداً من البـــلاط الرومـــاني، ولدى وصــــوله إلى لندن، استقبـل بكل تشريف

واحترام، في سبيل أن لايكون الاحترام المبدى نحوه هنا ليس أقل مما أبدي نحوه في القارة، لأن السيدة بلانشي قدمت إليه كل الاحترام الذي كان بمقدورها، وفتحت صدر فرنسا كلها له، وبات معروفاً لدى الجميع، بناء على رواية الايرل وروايات أتباعه، درجة التشريف العظيم التي أضفاها البابا عليه، لدى وصوله إلى ليون، ذلك أنه لدى اقترابه من تلك المدينة، جرى استقباله من قبل جميع الكرادلة والكهنة التابعين للبلاط الروماني، حيث بقي مع البابا كاردينال واحد وعدد قليل من الكهنة، وبالنسبة إلى أتباعه، والناس الذين جاءوا لاستقباله، كان هناك ضغط شديد، وحشد كبير للرجال والخيول، ولقد كان عدد حاشيته، وفخامة عتادها، وخيول تحميله كبيراً جداً، إلى حد أن سكان المدينة، وكذلك الذين جاءوا إلى البلاط الروماني لتأدية الأعمال، كانوا مندهشين لوصول مثل هذا الأمير العظيم، ولدى دخوله إلى البيت نهض البابا من مقعده، وذهب إلى استقباله، حيث حياه، وباحترام مليء بالبهجة استقبله معانقاً، ثم قام وهو هادىء الملامح، فسأله تناول طعام الافطار معه في ذلك اليوم، ووافق على هذا الايرل راغباً، وجلس إلى المائدة إلى جانب البابا، وكان رتشارد ايرل غلوستر قد أجلس بعيداً بعض الشيء، ثم إنهم انشغلوا بالمشاركة بالمائدة، بشكل موافق وأديب، وقاموا بالأكل والشرب ومزجوا ذلك بأحاديث ودودة، وذلك وفقاً لعادات الفرنسيين والانكليز، وبعد ذلك عقدوا كثيراً من المحادثات السرية والطويلة فيما بينهم، خاصة وسط كرم عظيم وغير معتاد للبابا، وفي نهاية نيسان، بعدما قدم الايرل رتشارد احتراماته إلى القديس ادموند المعترف في بونتغناك، عاد مسروراً إلى انكلترا، كما تقدم الذكر أعلاه.

حول مختلف الآراء التي جرى تداولها
حول مؤتمر البابا مع الإيرل رتشارد

انتشرت آراء مختلفة، وتخمينات متنوعة حول هذا المؤتمر الطويل والودود وحول غاياته، وأكد كثيرون بأن البابا قد رغب بأن يقوم الايرل

رتشـارد بضبط وقاحـة الاغـريق، وإعـلاء شأن قضية إعـادتهم إلى الحكم الروماني، ذلك أنه قـد عرف أنه كان نهماً وطموحاً، ووافـر الثروة، ولذلك أراد هذا البابا استخـدامه لهذا الغرض، ولم يتردد آخـرون عن الاعلان بأن البـابا قصد بشكل مـدروس الحصـول على مساعـدة الايرل، لكي يستقبل بتكريم في انكلترا، متى أراد القدوم إليها.

كيف اشترى الإيرل رتشارد رئاسة رهبان أحد الديرة

وعندمـا كان الايـرل عائـداً عبر دير القـديس دينس، دفع إلى راعي دير ذلك المكان مبلغاً من المال لشراء إحدى رئاسات الرهبان في انكلترا، كانت عائـدة إلى كنيسة القديس دينس، وكـانت هذه الرئاسـة تعرف باسم [دير] هيرست [Deer] Hurst, وكانت واقعة قـرب غلوستر، وكان آنذاك يعيش فيها بعـض الرهبان، وكان عـائداً إلى هذه الرئـاسة ثمان قـرى غنية، ولذلك كانت كنيستهـا تساوي ثلاثمائة مارك سنوياً، مع حـديقة وملاحق، وكان كل مارك يساوي ثلاثين شلناً في المصرف، وقد حصل على ابرام هذه الصفقة والمصادقة على الشراء في البلاط الروماني، وبعد وصوله إلى انكلترا قـام على الفور بطرد الرهبـان، ودمـر المباني، وأدخل الـرئاسـة في ممتلكاته، وبعد هذا لم يعد يخاف من أي من جيرانه، خاصة الرهبان، واعتماداً منه على حماية البـابا، بعثـر كل شيء حسب رغبته، وبذلـك بدأت أحوال الكنيسـة تزداد سـوءاً يوميـاً، كما أنـه عـزم على بناء قلعـة هناك على نهر سيفيرن Severn.

حول معجزة عملت بذراع القديس إدموند المعترف

في هذا العام نفسه، كان رهبان بونتغنـاك، إما أنهم قد تعبوا من الوصول المستمـر للحجـاج، وبشكل خـاص النسـاء الانكليـزيات (لأنه لم يكن مسموحاً لأية امرأة أخرى أن تفعل ذلك) اللائي تدفقن على شكل حشود، على قبر القـديس ادموند، أو أن هؤلاء الـرهبان قـد أثيروا بالجشع —وهو

أمر مرعب أن تذكره— فأقدموا على عمل طائش، بأن بتروا الذراع الأيمن للقـديس، غير أنهم بقيـامهم بهذا الإجـراء، لم يتمكنـوا من منع أعـداد الحجـاج، من كـلا الجنسين، من التـدفـق على شكل حشـود لرؤية الجسـد ولتعبده، وهكذا كانوا قد هزموا بجدارة في مقاصدهم، وعلاوة على ذلك، إنه بسبب ما بدا أنه نقص في الإيمان، قـاموا إما بسبب الحاجـة إلى الثقة، أو صدوراً عن الجبن، وأيضـاً (باستثناء الاحترام المستحق لطائفتهم) صدوراً عن العوز في الإيمان والفقر فيه، أقـدموا على تحنيط جسد القديس بالزيت، وهو الجسـد الذي حفظه الرب حتى الآن سليماً، وحـدث أن أي جـزء من الجسد قاموا بتحنيطه قـد تحول إلى لون قبيح جداً، ولذلك تكدست الملامة المتواليـة على رهبان بونتغناك، وفي الحقيقة على جميع الرهبـان السسترشيان، وفي الواقع حـزن كثيرون بسبب أن مثـل ذلك الجسـد المبجل قـد وضع في كنيسة عـائدة إلى السسترشيان، مقـدرين كيف أن أجساد القـديسين كانت محروسـة بكل احترام في كنائس رهبـان الطـائفـة السـوداء، آه من العمل الطائـش، فـالذي حفظه الـرب سليماً ودونما اهتراء، تجرأ الانسـان على تشويهه، لامثلما فعل الملك الفرنسي التقي، عندما كان على وشك الانطلاق في حجـه، حيث أجاب عنـدما جـرى عـرض جزء من الجسـد ليمنح إليـه قائلاً: «إنه لايسرني أن يجري تشويه ماحفظه الرب سليماً، من أجلي»، آه كم الحاجـة ملحـة لإعـادة الإيمان! فـالذي حفظه الرب سليماً دون اهتراء، وجميـلاً، حنطه هؤلاء الـرهبـان بالزيت، واعتقـدوا أنهم سـوف يحفظونه بشكل أفضل بوسـاطة هذا الـدهن، ولذلك تغير لون الجسـد، وصـار مثل لون الأرض، وغضب الرب محقـاً، حيث بدأ يجعل وقـوع المعجزات أكثـر ندرة، مما كانت عليه من قبل، عندمـا كانت تحدث هناك باستمرار، ولذلك بات احترام الرهبـان السسترشيـان وأسـاقفتهـم وكهنتهم أدنى في أعين النبلاء، ومن المعتقد بأن هذا قد وقع بمثابة نذير سوء إلى جميع المسيحية.

كيف وضع الملك قيوداً على ضيافة مائدته

وابتعد في هذا العام الملك بشكل مخجل عن سبيل أسلافه، فأمر بانقاص نفقات بلاطه ومعها التسلية المعتادة لضيافة مائدته، ومع أنه سوغ عمله هذا، إلاّ أنه جلب على نفسه تهمة الجشع، كما أمر بإلغاء كميات الصدقات المعتادة، ومعها أعداد الشموع في كنائسه، وعلى كل حال إن الذي يستحق عليه المديح هو أنه قام بعقلانية بتحرير نفسه من الديون، التي كان متورطاً بها نحو عدد كبير من التجّار.

حول الغرامة التي فرضت على اليهود

أصبح الملك في هذه الآونة ظمئاناً، ومتعطشاً بنهم، وقد ألقى جانباً كل رحمة، فأمر باستخراج المال من اليهود، إلى درجة ظهروا فيها أنهم باتوا فقراء بشكل دائم، لأنه استخرج منهم كل الذي كان في صناديقهم، وهؤلاء مهما كانوا تعساء، هم لا يستحقون الشفقة، لأنه تبرهن مراراً أنهم قد أجرموا في تزييف النقود، وفي تزييف الأختام أيضاً، وعلى الرغم من سكوتنا على بقية جرائمهم، نعتقد أنه من الموائم ذكر حقيقة واقعة واحدة تتعلق بهم، حتى تظهر شرورهم وتكون أكثر وضوحاً للمزيد من الناس.

حول جريمة اقترفت من قبل بعض اليهود

كان هناك واحداً من اليهود العاديين غنياً، وكان اسمه ابراهيم، لكنه لم يكن مثل ابراهيم بالإيمان، وقد امتلك بيتاً ومنتجعاً في بيركهامبستد، وولنغفورد Wallingford، وكان لسبب غير مناسب أو لآخر —كما قيل— مقرباً من الايرل رتشارد، وكان لهذا الرجل زوجة جميلة، وكانت مخلصة له، وكان اسمها فلوريا Floria، وفي سبيل أن يكدس المزيد من الإهانات على يسوع المسيح، اشترى تمثالاً للعذراء المباركة، محفوراً بشكل جميل ومطلي، وكما هي العادة، كانت تحتضن ابنها وتضمه إلى صدرها، ووضع اليهودي هذا التمثال في خلائه، وأقدم على عمل مهين

وبشع أن تتولى ذكـره، حيث أقدم بشكل شنيع جداً بالنسبة للعـذراء مريم، بأن عــاملهــا بقــذارة، ولوثهــا بـالدنس والفضـلات ليــلاً ونهاراً بشكل متواصل، وهو عمل من الصعب ذكـره، وجعل زوجته تفعل الشيء نفسه، ولكن بعـد مضي عـدة أيام، عندمـا رأت زوجتـه هذا، تحركت عـواطفهـا بسبب طبيعتها الانثـوية، وشعرت بالأسف ومضت بشكل سري إلى ذلك المكان، وغسلت من القاذورات وجه التمثال، الذي كان ملوثاً بشكل كبير جـداً، ولكن عندمـا اكتشف زوجهـا اليهـودي هذا، خنق زوجتـه بشكل فـاجــر، ولدى الكشف عن هذه الجرائم، تبرهـن أنه مجرم بهم، ومع أنه لم تكن هناك حاجة لبراهين أخرى لإعدامه، ألقي به في أكثر الزنزانات قذارة في برج لندن، ووعــد في سبيل الحصـول على اطلاق سراحــه وتعهـد بأن يبرهن بأن جميع اليهود في انكلترا خـونة منحطين، وبناء عليه أثيرت دعوى تهمة ثقيلة ضده من قبل جميع يهود انكلترا الآخـرين تقريباً، وبما أنهم سعوا إلى إعـدامـه، تكلم الايرل رتشـارد لصـالحه، وعندها اتهمـه اليهـود بقص النقـود، وبجـرائم أخرى ثقيلة، وعـرضـوا على الايرل رتشـارد مبلغ ألف مـارك حتى لايحميـه، وقد رفض قبـول ذلك، لأن اليهـودي —كما قيل— كـان صديقـاً له، ثم أعطى هذا اليهـودي، الذي اسمـه ابراهيم، إلى الملك، سبعمائة مـارك، ليحرره من السجن المؤبد، الذي حكم به عليـه، وتمكن من الحصول على ذلك بمساعدة الايرل رتشارد.

كيف جرى إرسال رجال عدالة لفحص كميات المال العائدة إلى اليهود

وفي حـوالي هذا الوقت نفسه، أرسل الملك رجـال عدالة لإجـراء بحث وتحقيق حـول جميع كمية المال العـائدة إلى اليهـود، على شكل ديون عائـدة إليهم، أو نقـود هي بالفعل بحــوذتهم، وأرسل معهم أيضـاً يهودياً منحطاً وبلا رحمة، من أجل أن يقوم باتهام جميع البقيـة، حتى ولو مقابل ثمن تجاوز الصـدق، ووجــه هذا اليهـودي النقـد إلى جميع المسيحيين، الـذين أسفـوا

وحزنوا لما عانى منه بني جلدة هذا اليهودي، وأطلق على وكلاء الملك صفة المتهاونين والضعفاء بلا فعالية، وكشر بأنيابه غاضباً تجاه كل واحد منهم، وأعلن —مصحباً إعلانه بأيمان مغلظة— بأنه كان بإمكانهم اعطاء الملك ضعف الذي أعطوه إياه، مع أنه كذب بذلك، ومع هذا عمد حتى يزيد من أضرارهم، فأباح أسرارهم يومياً إلى وكلاء الملك المسيحيين.

موت واحد من الأرمن في إنكلترا

في تلك الآونة، قدم إلى انكلترا بعض الرهبان الأرمن، الذين طردوا من ديارهم، نتيجة لما قام به التتار من دمار لها، وقد وصلوا إلى انكلترا من أجل الحج، ولدى وصولهم إلى سينت ايف Ives, أصيب واحد منهم بالمرض في تلك المدينة ومات، وقد دفن بشكل مشرف قرب نبع سينت ايفو Ivo, وهو نبع قيل بأن مياهه قد امتلكت فضائل كثيرة، وكان الرهبان المذكورين يتمتعون بحياة مستقيمة جداً، واعتدال مدهش، حيث كانوا يمضون وقتهم كله بالصلاة، وكانت ملامحهم بسيطة وهادئة، وكانت لهم لحى، وكان الراهب الذي مات هو رئيسهم، وكان معلماً، وكان كما هو معتقد، رجلاً مقدساً جداً، وأسقفاً، وبدأ الآن بالتميز بصنع المعجزات.

حول مبلغ المال الكبير الذي أرسل إلى الملك الفرنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل مبلغ كبير من المال، لمساعدة الملك الفرنسي، الذي كان في ضائقة شديدة، وكان مقيماً في معسكره، المنصوب حول دمياط، وكان هذا المعسكر محاطاً بالخنادق، لكنه كان في حالة عوز، ويفتقر إلى المؤن، وكان معرضاً للحملات ليلاً ونهاراً، وكان عليه تحمل الهجمات التي عملت بوساطة كمائن كان فيها أعداد لاتحصى من المسلمين، كانوا يطوقون المناطق الجبلية المجاورة، مع أنه لم تكن هناك حاجة إلى حراسة متيقظة أثناء الليل، وفي سبيل حراسة المدينة، وضع فيها خمسمائة فارس، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجالة، الذين بقيوا هناك مع النائب

البـابوي، والأسـاقفـة، والملكة، وبعض السيـدات النبيـلات الأخـريات، وأرسل كميـات كبيرة من الأمـوال على شكـل طالن، ونقـود استيرلينيـة، ونقـود كـولونيـة مجازة (وليس مـن الأمـوال المنحطة للبـاريسيين، أو أهل تور)، وحملت الأمـوال على احـدى عشرة عربة، وكـل عربة جـرها أربعـة خيـول قوية، وحملت أقصى مـايمكن أن تحمل، وبالاضـافة إلى العـربات، كـانت هناك بعض خيـول التحميل، على ظهورهـا جرى حمل الأمـوال إلى شـاطىء البحـر، فهناك جـرى تسلمهـا ووضعهـا على ظهـر بعض السفن الجنوية، وذلك من أجل نقلهـا إلى الملك المحتاج، وذلك مع كميـات كبيرة من الامدادات، وحملت كل عربة سلتين واسعتين، صنعتا بشكل محكم من الحديد، وكان قد جرى اعدادها لهذه الغاية، وقد ملئت بالأموال التي تقدم ذكـرها، وكـان قد جـرى استخـراجهـا من ممتلكات الكنيسة خـلال مـدة مقدارها ثلاث سنـوات، والنتائج التي حصل الملك عليهـا وتوصل إليها، سوف تبينها الرواية المقبلة بشكل كامل.

عودة النبلاء الإنكليز

عـاد من القارة في أسبـوع الابتهالات، ايرل رتشـارد مع ايرلي غلوستر، وليستر، ونبـلاء آخرين، كـانوا قد عبروا البحـر، كما تقدم الذكـر من قبل، وقد عاد هؤلاء سـالمين إلى انكلترا، وبقي أسقفان في الخارج، وهما: أسقفا: وينكستر، ولنكولن، وبقي أسقف وينكستر في فـرنسا، وهو يعيش في بيت صغير، من أجل توفير النفقـات، واستمر أسقف لنكولن بالبقـاء في البلاط الروماني، في سبيل الحصول على ماتمناه وخطط له، من البابا.

أمـا بالنسبة لسبب رحلة الايرل رتشـارد، فقد كـان ذلك برأي بعضهم —ولم يكن هذا الرأي مـن دون منطق— بأن البـابـا بعث خلفـه، ليـدفع قضيته بالحصـول على امبراطورية رومانيا (بيـزنطة)، التي يعلم بأنها كانت مليئة بالأمـوال، ورأى بعضهم، ومـارأوه أصبح صحيحاً، من خـلال الحقـائق التـاليـة، بأنه قـد ذهب من أجل اعـاقـة الصليبيين، عن الاقـلاع

والسفر بحـراً، وأعلن آخرون، أن المرجح —وهو مـاتبرهن بعد ذلك على الفـور أنه هو الحال— كان ذهابه بقصـد شراء دير هيرست، من راعي دير القـديس دينـس، ولابتيـاع المؤن الضرورية للسفـر للصليبيين، أمـا سبب اظهار البابا كثيراً من الرعـاية له، هو أنه كما قيل، أن البابا أراد أن يعرف أنه إذا ماقـدم إلى انكلترا، هل سيجري استقبـاله باحترام من قبله، وأن يتمكن الايرل من اقناع أخيه الملك، ونبلاء البلاد (خـاصة الذين كانوا في المجلس الاستشـاري للملك) بـأن يرسلوا إليـه للحضـور إلى هناك، وقـد جـرت معالجة هذه القضايا، وتمّ التعرض إليها في الصفحات المتقدمة.

حول التقارير التي بلا أساس والتي انتشرت

وجرى في حوالي الوقـت نفسه ارسال رسائل من الأرض المقـدسة، إما بقصد تقـديم مواسـاة زائفة إلى المسيحيين، أو من أجل تشجيع الصليبيين، الذين كـانوا يعملون على إلغاء مغـادرتهم للقيام بحجهم، وقـد كتبت هذه الرسـائل من قبل بعـض الأشخـاص ذوي النفـوذ الموثوقين، وهم أسقف مرسيليا، وبعض الـداوية، وحوت هذه الرسائل تقارير مفـرحة كثيراً، وقد شجعت الذين استمعـوا إليها بوسـاطة أخبار كـانت بلا أساس، وأفـادت هذه الأخبار، بأن القاهرة والفسطاط جرى الاستيلاء عليهما، وأن المسلمين قـد أرغمـوا على الفـرار، وأن الاسكندرية تركـت في وضع ميئوس منه، وأقـول بأن هذه التقارير جـرحت الذين سمعـوها وصـدقوها، في النهـاية بعمق، وذلك بقـدر مـا أفـرحتهم في البـداية، ونظـرنا منذ ذلك الحين إلى الرسائل التي وصلت، وإن كانت صادقة، نظرة شك كبير، وازدراء.

تكريس كنيسة ونغريف

في أسبـوع الابتهـالات لهذا العـام نفسـه، نشب خـلاف بين راعي دير القـديس ألبـان وبين جـون دي ويدن Wedone, حـول مـايتعلق بتكريس كنيسة ونغريف Wengrave, التي كانت شـاغرة آنذاك، ثم

انتهى وتمت تسـويتـه، وأعيـد السـلام إلى مـابين الطائفتين، وأعلن جـون المذكـــور بحضـــور رجلي العـــدالـة الملكيين روجـــر دي ثيركيسبـــاي Thurkesby, وروبرت بروس Bruce, وآخـرين من زمـلائهما، أن حق الكنيسة المذكـورة عائد إلى منحة راعي الدير المتقـدم ذكره، غير أن جون المذكور حصل على المذكـرة التالية، التي خلاصتهـا ضد راعي الدير: «**من الملك إلى عمـدة بكنغهام، تحيـات**: أصـدر أمراً إلى راعي دير القـديس ألبـان، بأن يتولى دونها تأخير السماح إلى جـون دي ويدن بأن يقدم شخصـاً مناسبـاً وموائماً إلى كنيسـة ونغريـف، التي هي شاغـرة، والتي هي كما قيل عـائـدة إلى أعطيتـــه، والتي عمل بشأنها شكوى بأن راعي الـدير المذكـور يعارضـه بشكل غير عادل، وما لم يعطك ضمانة بأنه سـوف يترافع بقضيته، عندها وجه الدعـوة، بشكل صالح وقانـوني إلى راعي الدير المذكور، حتى يمثل أمام رجال عدالتنا، في اليـوم التالي لعيد صعود ربنا»، إلخ، إلخ، لكن ما هي المنفعة أو الضرر الذي واجهته كنيسة القديس ألبان في هذه القضية، هو أن الرومان ووكـلاء الملك استولوا بالقوة على جميع الكنائس الشـاغرة، خاصة الكنائس العائدة إلى الرهبان، حيث تنافست كل فئة مع الأخرى.

كيف قرر بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري القيام بزيارات تفقدية

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، استثير بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري بالمثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي حصل على سلطة القيـام بزيارات تفقديـة لكهنته، وبناء عليـه حاول أن يقوم بزيـارات تفقدية إلى الأسـاقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين، والناس في مقاطعته، وعلى هذا قام أولاً، وفي المقام الأول، بزيارة تفقـدية إلى الهيئة الرهبانية، لرهبانه في كـانتربري، وكان ذلك بكل دقـة، وبلا رحمة، ولذلك قـال الرهبان فيما بينهم: «إننا نعـاني من هذا بسبب ضـلالنا، لأننا قـد أذنبنـا بحق سلفـه، القـديس ادمـوند، الذي عـددناه قاسيـاً ومستقيماً، ونحن نتحمل مـانستحقه بشكل عـادل من أجل

انتخـاب أجنبي، وجـاهل، وغير معــروف، ومن دون خبرة، وهو واحـد متدرب على الأمور العسكرية ومختص بها، وليس بالمسائل الروحية، آه، كم كـانوا رجـالاً رائعين أسـلافـه، وشهـداء، ومعلمين معتمـدين، ومعترفين مقـدسين للرب، لماذا وياللأسف، أطعنا في هذا الانتخـاب ملكنا الأرضي، بدلاً من ملكنا السماوي»؟، ومن هناك ذهب رئيس الأساقفة إلى رعوية دير فيفـرشـام Feversham, ولم يتجـرأ الرهبـــان الجبناء، لذلك المكان، لخوفهم من طغيـانه، على الوقوف ضـد زيارته التفقـدية، ومن هناك ذهب وهو غـاضب جداً إلى رئـاسة رهبـان روكستر، واستخرج أكثـر من ثلاثين مـاركـاً مـن ذلك الدير الفقير، ومن هذا وضح أنه مـــارس وظيفـة الزيارة التفقدية رغبـة منه في الحصول على المال، أكثـر من رغبته باصـلاح الطائفة وعاداتها، لأنه كان جـاهلاً بأنظمة وعادات الطائفة، كما أنه كـان فارغاً من المعرفة.

الطغيان الذي مورس من قبل رئيس الأساقفة بونيفيس على رجال الدين في لندن

في الثاني عشر من أيار، الذي كان يوم عيــد القديس بنكراتيوس Pan-cratius وأتباعه من القديسين، قـدم رئيس الأساقفة المذكور إلى لندن، ليقوم بزيارة تفقـدية للأسقف ولهيئته الكهنوتيـة، ولرهبان تلك المدينة، ولم يترك أحداً من الناس، وأقام في البيت الفخم العـائد لأسقف شيستر، قرب بيوت الديرة والرهبان، ولم يذهب إلى بيته في لامبث، كما أنه أمر مارشالاته بأن يشتروا له مـؤناً بالقوة من سـوق الملك، الأمر الذي فعلوه، وكـدس في الوقت نفســه، التهديدات، والملامات والاهانات على التجـار، وهو لم يقم —على كل حـال— بدعـوة أي ضيـف، وقـام في اليـوم التـالي بعمل زيارة تفقدية للأسقف فولك، وقـد مارس ضده بلاحياء استخراجـات، مارسها بنفســه ذلك الرئيس للأسـاقفـة، وكـذلك بمطالبـاته بالطعـام، والشراب، والمقاود، والمقصود هنا مقـاود الخيول، ولو تمكن أي انسان أن يحكي الذي

عمله، لأذى الآذان والعقـــول، ولجرح قلوب جميع الذيـن سمعـــوا بهم، وعندمـا كـان على وشك عمل زيـارة تفقـدية للهيئة الكهنوتيـة في كنيسـة القـديس بولص، في لندن، عــارضـه الكهنة، وترافعـوا إلى الحبر الأعظم، وبناء عليه حرم كنسياً العميد وبعض الآخرين.

حول المعارضة التي عملت من قبل كنيسة القديس بارثلميو للزيارة التفقدية لرئيس الأساقفة

وفي اليـوم التالي، وكـان مايزال يتميـز غضبـاً، قام بارتداء دروعـه تحت ثيابه، وأكد الذيـن شاهدوا رئيس الأساقفة هذا أنه ذهب إلى رئـاسة رهبان كنيسة القديس بارثلميو Bartholomew ليقوم بزيارة تفقدية للكهنة هناك، لكن عند وصـوله، وعندمـا كان على وشـك الدخول إلى الكنيسـة، استقبل من قبل نائب رئيـس الرهبان (لأن الـرئيس لم يكن آنذاك في الدير) ومن حـوله رهبـان الدير، بمسيرة مهيبة، وهم يحملـون عدداً من الشمـوع المضاءة، وذلك وسط الأجـراس التي كانت تقرع، وكـان الرهبان أنفسهم يرتدون أردية القـداسـات، وكـان الرداء الأكثـر جمالاً يلبسـه نائب رئيس الرهبـان، ولم يلتفت رئيس الأسـاقفة كثيراً، إلى التشريف الـذي قدم إليـه، ذلك أنه قـال بأنه قـدم إلى هناك للقيـام بزيارة تفقـدية للكهنة، وكـان جميع الكهنة قد اجتمعوا الآن في وسط الكنيسة، أي أن نقول في السدة، وكان قد اجتمع معهم رئيس الأسـاقفة المذكـور مع الجزء الأكبر من حـاشيته، وقـد ضغط عليهم وعصروا بشكل فوضوي، ثم قام واحد من الكهنة، فتحدث مجيبـاً باسم الجميع، وأعلن بأن لديهم أسقف مجرب وحـريص، وهو يقـوم بوظيفـــة زيارتهم التفقـــدية، عندمـــا يكون ذلك ضروريـاً، وهم على هذا لايرغبـون بأن يقـوم أي واحد بزيارة تفقـدية لهم، كما أنه ينبغي عـدم فعل ذلك، خشيـة أن يظهر أنه يقـوم بذلك تحدياً، ولدى سماع رئيس الأساقفـة بهذا، انفجر بغضب غير لائق ولامعتاد، وانقض على نائب رئيس الرهبان، ناسيـاً مركـزه، وقـداسة أسـلافـه، وأوقع بفجارة ضربه بمقبضـه على هذا

الكاهن المقدس والراهب، وهو واقف في وسط الكنيسة، وبوحشية كرر ضرباته على صدره المسن، وعلى وجهه المحترم، وعلى رأسه الشائب، وهو يصيح ويزمجر بصوت مرتفع قائلاً: «هكذا، بات عليّ التعامل معكم أيها الانكليز الخونة»، ثم إنه تفوه بشكل مرعب وتلفظ بأيمان لايمكن ذكرها، وطالب بجلب سيف له على الفور، ومع ازدياد الفوضى والهياج، ومحاولة الرهبان انقاذ نائب رئيس رهبانهم من أيدي المعتدي العنيف، مزق رئيس الأساقفة الرداء الثمين، الذي ارتداه نائب رئيس الرهبان، وانتزع الوصلة التي تعرف عادة باسم الابزيم، وكان ثميناً مصنوعاً من الذهب والفضة والمجوهرات، وقد ديس عليه وسط الحشد وضاع، والرداء الفخم ديس عليه أيضاً، وجرى تمزيقه واتلافه، ومع ذلك لم يهدأ غضب رئيس الأساقفة، ذلك أنه انقض مثل رجل مجنون على هذا الرجل المقدس، وبعنف شديد، وأرغمه وقهره ودفعه نحو الخلف، وضغط على جسده المسن بعنف شديد على الحاجز الذي فصل مابين مقعدين، وكان معمولاً من أجل منصة، فسحق عظامه حتى النقي، وجرح رئتيه والأجزاء التي من حول قلبه، وعندما شاهد بقية رجال الحشد، العنف اللامتناهي لرئيس الأساقفة، تولوا انقاذ نائب رئيس الرهبان، بصعوبة بالغة من بين فكي الموت، ودفعوا المعتدي عليه إلى الخلف، وعندما سقط هذا على الأرض، وقعت أرديته جانباً، وأصبحت دروعه مرئية بوضوح من قبل الحشود، الذين أصيبوا بالرعب، لدى رؤيتهم رئيس أساقفة لابساً للدروع، وبناء عليه، أعلن كثيرون بأنه قدم إلى هناك، ليس من أجل القيام بزيارة تفقدية، ولا لإصلاح أخطاء، بل لإثارة معركة، وقام بالوقت نفسه أتباعه المتهورون، أو بالحري رجال بلاطه، بوحشية بمقاتلة الكهنة الباقين، الذين كانوا غير مسلحين وغير مستعدين، وجاء ذلك بناء على أوامر رئيس الأساقفة واقتداء به، وقد عاملوا الكهنة بقسوة متناهية، حيث ضربوهم، وجرحوهم، وألقوهم أرضاً، وداسوا عليهم، ثم قام الكهنة بعد ذلك، وهم قد تورموا، وأقدامهم ملطخة بالدماء، وقد تعرضوا للتشويه

والإهانات، وغير ذلك، فذهبوا إلى أسقف المدينة، وكانوا يبكون، وتقدموا بشكوى ثقيلة إليه، حول الإجراء المرذول، وجواباً على ماقالوه، أجابهم هذا الأسقف بقوله: «الملك موجود في ويستمنستر، اذهبوا إليه، وانظروا فيما إذا كان هذا العدوان الظاهر، والخرق للسلام في مدينته الرئيسية، سوف يثير غضبه»؟.

الملك يرفض الاصغاء إلى الشكاوى حول طغيان رئيس الأساقفة

وبناء عليه، قام أربعة من الكهنة بالذهاب إلى الملك في ويستمنستر (فالبقية كانوا غير قادرين على الذهاب بسبب آلام جراحاتهم)، وأروه ثيابهم الممزقة، وآثار الضربات، الظاهرة من الدم، ومن شحوب أجسادهم وتورمها، وكان ذلك وسط كثير من الناس، الذين أشفقوا عليهم لما عانوه من آلام، ومقتوا مثل تلك الفعلة النكراء، وكان خامسهم، أي نائب رئيس الرهبان المذكور غير قادر على الذهاب إلى البلاط، لاماشياً على قدميه، ولا على ظهر حصان، بل حمل وهو يئن إلى المصحة، وتمدد في فراشه، حيث أمضى بقية حياته في حالة من الضعف، وعلى كل حال، رفض الملك مقابلة الرهبان المذكورين، مع أنهم انتظروا طويلاً أمام باب حجرته، كما رفض الاصغاء إلى شكاويهم، ولذلك عادوا وهم في حالة اضطراب عقلي إلى كنيستهم، التي كان رئيس الأساقفة قد لطخها، ولوثها بدم الكهنة والرهبان، واستثيرت المدينة في الوقت نفسه كثيراً، وكأن انشقاقاً قد وقع، ولذلك اقترح سكان المدينة قرع الناقوس العام، وتقطيع رئيس الأساقفة إلى أشلاء، مهما حدث بعد ذلك من أمر، وترددت أصوات الشتائم والإهانات، وأخذ الناس يتجمهرون بحثاً عنه، ويندفعون وهم يصرخون خلفه، عندما كان مسرعاً نحو بيته في لامبث، ويقولون: «أين هذا اللص؟ هذا الفاجر، والمعتدي الدموي، على كهنتنا، والذي هو ليس الكاسب للأرواح، بل المستخرج للمال، والذي ليس الرب ولا الانتخاب الحر قد ارتقى به إلى منصبه، لكنه أقحم به بشكل غير قانوني، وهو جاهل ومتزوج،

وجرى فرضه من قبل الملك، وسمعته الفاسدة، قد نشرت عدواها في جميع المدينة»؟، وما لبث بعد ذلك، أن نزل فوراً في نهر التيمز، وتقدم بشكوى ثقيلة حول المسألة أمام الملك، وسوغ نفسه، واتهم الآخرين، ثم إنه أسرع إلى الملكة، وتقدم إليها بشكوى أكثر جدية، وخشي الملك وقتها، وخاف كثيراً من قيام عصيان وانشقاق في المدينة، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي، بمنع أي واحد، تحت طائلة فقدانه حياته وأطرافه، من التدخل في هذا الخلاف، وجرى رفض هذا من قبل كهنة القديس بارثلميو، وكذلك من قبل كهنة الثالوث المقدس، الذين ترافعوا بجرأة ضد إجراءات الملك، ثم استمد رئيس الأساقفة الجرأة من حظوة الملك، وتابع سيره إلى لامبث، وجدد في البيعة هناك بشكل مهيب قرار الحكم الذي كان قد تفوه به ضد كهنة القديس بولص، وأدخل فيه أيضاً أسقف لندن، بدعوى أنه المحرض للكهنة المذكورين، وبما أنهم على هذا كانوا يعانون من الأذى والضرر من جميع الجوانب، عهدوا بقضيتهم بشكاوى حزينة إلى القديس بارثلميو الذي خدموه ليلاً ونهاراً، وصلوا إلى الرب، إله الانتقام، بما أن الإنسان، لم يقبل، ولم يتنازل، بالقيام بمعاقبة مثل هذه الآثام العظيمة.

استعداد رئيس الأساقفة للذهاب إلى البلاط الروماني

وكان رئيس الأساقفة مايزال حانقاً وشديد الغضب، فذهب في اليوم التالي إلى عزبة تابعة له اسمها هارو Harrow, كانت على بعد سبعة أميال من دير القديس ألبان، وذلك في سبيل القيام بزيارات تفقدية هناك، وقد جدّد في ذلك المكان قرار الحكم المتقدم الذكر، ومع أنه كان قد أخبر من قبل أصدقائه، وكهنته، ومن قبل أناس متعلمين، وفصحاء، وأحيط علماً بالامتيازات الفخمة الممنوحة إلى تلك الكنيسة من قبل الكرسي الرسولي، أخفى هذه المعرفة، وتجاهل هذه الامتيازات، ثم إنه عاد، وعمل الاستعدادات لعبور البحر، حتى يتمكن من إلقاء المصائد للأبرياء في البلاط الروماني، حيث كان له نفوذ عظيم، وحيث اعتاد على الإقامة لمدة

أطول من الترؤس على رعيته، كما يتوجب عليه كراع صالح، وقام أيضاً عميد القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مسناً وصاحب تجربة وصالحاً، والمعلم روبرت بارتون، والمعلم و. W من ليشفيلد Lichfield ورجال فصحاء ومتعلمين وكهنة من الكنيسة المذكورة، بصحبة نواب أسقفهم، والكهنة المتقدم ذكرهم، قاموا بالذهاب إلى البلاط الروماني، للتقدم بشكوى ثقيلة إلى الحبر الأعظم، حول جميع القضايا والإجراءات التي تقدم ذكرها، وكانوا قد تزودوا بشكل جيد بما يلزم من توجيهات وتعليمات حول القضية، وتمتنوا بشهادات الكثيرين، للبرهنة على صدق شكواهم.

رسالة أسقف لندن إلى راعي دير القديس ألبان

وكان أسقف لندن منزعجاً كثيراً تجاه هذه المشاكل، وقد ارتعب رعباً عظيماً، ولاغرابة بذلك، فقد كان هناك شره البابا ونهمه من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية صداقة الملك المريبة وسوء نواياه تجاه رعاياه الطبيعيين، ومن جهة أخرى كان يخاف من نبلاء سافوي، وكان لايتجرأ على معاداتهم، وقد رغب في حالة الطوارىء هذه بالحصول على نصيحة راعي دير القديس ألبان والرهبان هناك، وعلى مساعدتهم، لذلك كتب الرسالة التالية إلى راعي الدير، وفق الصيغة التالية:

«إلى أصدقائه المبجلين، والمحبوبين كثيراً بالمسيح: ج. ل, الذي هو بنعمة الرب، راعي دير القديس ألبان، ورهبان ذلك الدير، وكذلك جميع الرعايا الآخرين التابعين إلى ذلك الدير نفسه، يرسل فولك Fulk الذي هو بموجب الاذن الرباني أسقف لندن، تمنيات الصحة، وعواطف مخلصة مستمرة متزايدة:

تلمع الشهرة مع خطوتها البعيدة الروعة في أنحاء الأرض، وتهددنا بصوت الرأي العام، في الوقت الذي تنتشر فيه، في مناطق لاتحصى، أخبار الخطر الحالي، وقد هوجم الهدوء الطويل لأسقفيتنا من أبينا المحترم، رئيس

الأسـاقفة، وبما أننا نعتقـد بأننا نقوم فقط بالإجـراءات الصحيحة للدفـاع، مثل مقاتليك، الذين يتحملون ثقل الحملة الأولى للمعركة، لصالح الجميع الذين في المقـاطعــة، نحن نخبركم سلفـاً، بأن الحرب التي فــرضت علينا —مـالم نل عـون الرب، وأنتم— سـوف تنزل بثقل أكثـر عليكم أنفسكم، لأن رئيس الأساقفـة المذكور قد قام —كما ربما قـد علمتم— بزيارة تفقدية إلى جميع الكهنة والناس، في أسقفيتنا، ولأنه طـالب بالمال، أولاً منهـم، ومن الهيئة الكهنوتيــة لدينا، ومجدداً من رئيسي الـرهبـان لتلك المدينة، ووجــه بالمعارضــة، والرفض، إنما بشكل أديب، وبناء عليه قـام بحرمـانهم كنسياً، وجاء هذا بالمقام الأول، لعدم السماح له بالقيـام بالزيارة التفقدية المذكورة، وفي المقام الثـاني لأننا أمرنا بعض الأشخـاص الذين هم تحت سلطاننا، بأن لايسمحـوا له، القيـام بهذا العمـل، وقـام في سبيل إلحاق الأذى بكنيستنا، فأصدر قرارات ضدنا شخصياً، مع أنه جرت معارضته بموجب إجراءات مرافعات قانونية، وضد قضايا عادلة، وصحيحة، ومنطقية، ولم يكتف بهذا وحـده، بل إنـه أغـار على بقيتنا، لأنه تسبب بإعــلان الأحكام التي هكذا تأسست، في أسقفيته، وفي كل مكان آخـر، حسبما علمنا من التقارير، وبناء عليـه، بعدمـا أرسلنا بعض نوابنا إلى البـلاط، توجهنا بالخطاب بأنفسنا إلى بعض نظرائنا من الأساقفة حول القضـايا المتقدم ذكرها، وقد تسلح هؤلاء بالجرأة، وأعـدوا أنفسهم وقـدمـوها للـدفـاع عن حقـوقهم وامتيـازاتهم، ولذلك رأينا أيضـاً من الموائم أن نتـوجـه بالرجـاء إليكم، وإلى عـواطفكم حتى تقـــومـــوا بتقــديـر الأسس لهذا الطلب، آملين بأن لاتسمـح لكم كـرامتكم، وحمايتكـم، وصـلاحكم، بالتراخي، وأن لاتغــدو شجـاعتكم باردة، بـل أن تضعــوا ثقتكـم بالذي يتـــولى حماية المظلومين مـن المؤذين والرجـال غير العادلين، وأن تمدّ يد المواسـاة، والمسـاعدة، والمشـورة إلينا، آملين بأن تبقى أخوتكم دوماً بخير ورعاية في الرب».

والمراسيم التي أراد رئيس الأساقفة، أن يتخـذها ذريعة لنواياه وخططه،

قـد أعطيت كاملة في كتـاب Additaments, مع اعتراضات جميع الأطراف.

حول الاجتماع العام للهيئة الرهبانية للدومينيكان

وفي حـوالي الوقت نفســه، أي في حـوالي عيـد مـيلاد القـديس يوحنا المعمدان، اجتمع رهبان طائفة الدومينيكـان، بناء على دعوة عامة، من جميع بلدان العـالم المسيحي، لابل حتـى من منطقـة القـدس، والتقـوا في بيت في هولبورن Holborn لعقد مناقشة عامة حول أوضاعهم وإدارتهم، وبما أنهم لم يمتلكوا وسائل خاصـة بهم، قدم لهم النبلاء والأساقفـة، كرماً منهم المؤن وفعل ذلك بشكل خـاص سكان مدينة لندن والأمـاكن المجاورة لها، وكذلك قام راعيا وولتهام والقـديس ألبان، وأمثالهما من الناس، وعقد هذا المؤتمر في أسبـوع العنصرة، وتم التـوجه بالدعـاء إلى الروح القـدس، التي كانت قد أرسلت في مثل ذلك الوقت إلى الحواريين، وقـد كان هناك حوالي الأربعمائة راهب حاضراً، وقدم الملك في اليوم الأول إلى اجتماعهم، وطلب العون بصلواتهم، كما أنه زودهم بالطعـام، وصدوراً عن احترامه لهم تناول طعـامـه معهم في ذلـك اليـوم، وبعـد ذلك تم تزويدهم بـالطعـام من قبل الملكة، ثم من قبل أسقف لندن، وبعـد ذلك من قبل جـون مـونسيل، وفيما بعــد من قبل القســاوسـة الآخــرين، أي من قبـل راعي دير ويستمنستر وآخرين، الذين التمسوا منهم برسالة، سـداد عوزهم وتلبية حاجاتهم، من ثرواتهم الوافرة.

حول الاضطراب بين سكان لندن

واستثيرت مدينة لنـدن، في الوقت نفسه، بدرجـة كبيرة جداً، لأن الملك استخرج بعض الضرائب من سكان المدينة، لصالح راعي دير ويستمنستر، مما سبب لهم خسـارة كبيرة، وأضراراً لحقت بامتيـازاتهم، وعـارض عمـدة المدينة والجماعة كلها بشكل عام، وبقدر مـاامتلكوا من قدرة عارضوا رغبة

(أو بالحري عنف) الملك وسلبه، لكنه برهن أنه فظ وعنيد نحوهم، وبناء عليه، ذهب سكان المدينة، وهم في حالة هياج كبيرة، مع شكاوى آسفة، إلى الايرل رتشارد، وإلى ايرل ليستر، وإلى النبلاء الآخرين للمملكة، وأخبروهم كيف أن الملك، قد انحنى وتحوّل إلى قوس من الشرور، مقتدياً بالبابا، حيث قام بلاحياء بخرق صكوك حقوقهم، التي منحت إليهم من قبل أسلافه، وانزعج النبلاء المذكورين كثيراً، تجاه هذا، وخافوا من أن يحاول الملك اتخاذ إجراءات مماثلة معهم، ولذلك انتقدوه بحدة، وأضافوا التهديدات إلى نقدهم، ولاموا راعي الدير بقوة، الذي اعتقدوا أنه كان المسبب والدافع إلى هذا الخطأ، وكدسوا الاهانة فوق الاهانة عليه، وهو أمر لايجوز لنا روايته، صدوراً عن الاحترام للطائفة، وهكذا أمكن بوساطة حكمة النبلاء، رد الملك بسعادة وتراجعه عن خطته التي صممها.

كيف منح الملك صكوك إمتيازات جديدة إلى راعي دير ويستمنستر

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متأثراً بروح مشابهة، مضادة لصكوك امتيازات أسلافه، وأيضاً لصكوك الذين حكموا انكلترا قبل الاستيلاء (النورماندي)، ونقضاً لتعهداته وليمينه الأول، فقام بمنح صك جديد إلى راعي دير ويستمنستر، وذلك في سبيل إلحاق خسارة، وضرراً واضحاً بكنيسة القديس ألبان، عن طريق قرية ألدنهام Aldenham القديمة، وهي قرية اشتق اسمها من Ald, الذي تعني ترجمته «قديم»، ولهذا يبدو أمراً مسوغاً، إذا ما سكتت جميع الصكوك حول هذه المسألة، لكن القرية المذكورة كانت قد منحت في الزمن القديم إلى ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وبالاضافة إلى هذا، منح الملك صكاً بامتياز مطردة في أراضي دير القديس ألبان، وعلى مقربة من تلك البلدة، إلى أحد الفرسان، واسمه غيوفري (مع أنه لم يكن منحدراً من آباء نبلاء أو فرسان) الذي كان يحتل مركزاً رئيسياً بالنسبة لكنيسة القديس ألبان، وجاء هذا مضاداً للامتيازات

القـديمـة لتلك الكنيسـة، وللصكوك التـي تم الحصـول عليهـا من الملوك الأتقياء للزمن القديم، ولصك الملك الحالي هنري، وجاء ذلك لمجرد سبب هو أن الفارس المذكور، كان قـد تزوج من أخت كاهنه، جون مونسيل، كما أن غيوفري روفوس المذكور، لم يتردد في التحرك ضد الكنيسة، سيدته التي ثقفته، ورفعتـه إلى مرتبـة الفروسيـة، ولذلك وسم بعلامة السمـة الأبوية، وليس بعلامة الخيانة للأم، لأنه بشكل ظالم وبلا حياء آذى الأم التي حملته، كما فعل نحو الكنيسة التي أغنته، وأغنت آباءه من قبله، وقد دفع مع الجرأة لأن يتصرف هكذا، من قبل الكاهن الخاص للملك المتقـدم ذكـره، والذي كـانت ثروته، تعـادل ثـروة أسقف، والذي أختـه كـان روفـوس Rufus قد تزوجها، كما ذكرنا أعلاه، وكـان اسم هذه السيدة كلاريسا Clarissa, وكـانت ابنة كـاهن ريفي، وكانت مـاتزال من دون أولاد، وقـد نظرت إلى نفسهـا وتفـاخرت فـوق منزلتهـا، مما كـان مـوضع ازدراء الجميع، وكـان زوجها كما يعتقـد مفتوناً باقتراحاتها، ولا أعتقـد أنه معذور بهذا، بل ينبغي بالحري أن يكون مـداناً بذلـك، وذلك وفقـاً لكلمات الرب عندمـا شجب بلعنتـه أبانا الأول، آدم بقوله: «بسبـب أنك أطعت صوت زوجتك، أكثر من صـوتي، اللعنة ستكون على الأرض إلى الأبد» ، وعندمـا توجه مـؤلف هذا الكتـــاب، أعنى الراهـب متـى باريس بالملامـــة إلى الملك، حـــول هذه الإجـراءات ، أجـابه قـائـلاً من دون خجل: « ألا يتصرف البـابا وفق هذه الطريقـة نفسهـا، لدى إلحاقـه رسائله بعبـارة: دون التقيـد بأي امتيـاز، أو غفران»؟، ثم إنه بعد وقت تكلم باعتدال أكبر، وقال: « انتظر قليلاً، سوف نفكر حول القضية» ، لكن ذكرياته لجميع كلماته ووعوده عبرت وزالت مع صوت نطقه بكلماته .

كيف عهد بختم الملك إلى وولتر أوف كيلكني

خـلال هذا العام، أخـذ الملك بمشورة حكيمـة، فعهـد بالمسؤوليـة عن ختمـه(الذي تبرهن أنه كان بالفعل مفتـاح المملكة) إلى المعلم وولتر أوف

كيلكني Kilkenny, وكـان رجـلاً معتـدلاً، وأميناً، ومتعلماً، وواحـداً بارعاً جداً، وحكيماً في القوانين الدينية وكذلك المدنية .

كيف مضى الملك الفرنسي بزحفه نحو الشرق

وقـام الملك الفـرنسي في هذه الآونة بحملـة من دميـاط، وذلك بعـدمـا وضع بعناية حاميـة في تلك المدينة، تكونت من دوق بيرغندي، وعدد كبير من النبـلاء الآخرين، والفـرسان، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، ومع النائب البـابوي، وبعض الأسـاقفـة والكهنة والملكة، وسيـدات نبيـلات أخريات وأسرهن، لأن:

الذي حصلت عليه، أكثر من عمل ربح جديد

وزحف هو مع جيشه، نحو المزيد من عمق المناطق الشرقية، وقد لحق به وليم لونغـوسبي Longuespee مع أصحـابه الذين رافقـــوه، وهم روبرت دي فيري Vere, وآخرين، عددهم كبير جداً لايمكن ذكرهم، وبعض الفرسان والأتباع الذين احتفظ بهم بالأجر المدفوع.

كيف أصبح الفرنسيون غيورين من الإنكليز

وبسبب مـافطر عليـه الفـرنسيـون من تجبر، استخفـوا بوليم المذكـور، وكـرهوه مع أتباعـه، وعاملوهم بجفـاء، مع أن الملك الفرنسي التقي، قـد حظر عليهم بشكل خـاص هذا، ولذلك خاطبهم هكذا قـائلاً: «أي جنون أصابكم وأثاركم أيها الفرنسيـون؟ لماذا تضطهدون هذا الرجل، الذي قدم من بلاد بعيدة لمسـاعدتي شخصياً ولمساعدتكم، والذي هـو حاج، ويقاتل باخـــلاص في سبيل الـرب، كما تفعلون أنتم أنفسكم»؟ ولم يتمكـن الملك —على كل حال— من تهدئة عـواطف الفرنسيين بهذه الحجج، أو بوساطة الالتماسـات، حيث استمـــروا في ازدراء الانكليـز واضطهـــادهم كما قـال الشاعر:

كل تجبر الغيرة شريك له

وكـان أساس هذه الغيرة والكراهيـة هو مايلي: كـان وليم المذكور، قـد استـولى ليس بالقـوة، بل بالصـدفـة وحسن الحظ، على بـرج قـوي قـرب الاسكندرية، كـان مليئاً بالسيـدات، زوجـات بعض النبـلاء المسلمين، وحدث ذلـك تماماً دون معرفـة الفرنسيين، ولهذا السبب أصبحت شهـرته واسعة، وانتشر الخوف منه ووصل حتى إلى منـاطق بعيدة في الشرق، ولأنه امتلك كثيراً من المال هنا، كما فعل في كل مكان آخـر، بموافقـة حظ الحرب له، أغنى بذلك حاشيته وزاد من مكانته، (الأمر الذي لم يستطع الفرنسيون فعله مع أنهم كـانوا كثيرون وأقـوياء) ولذلك حسـده الفـرنسيـون، وآذوه بالتآمـر ضده، واضطهـدوه مع كراهيتهم، كما أنهم لم يتمكنوا من إقـامة أية علاقة صداقة معه.

حول الاستراتيجية التي مارسها وليم لونغوسبي

وأيضـاً حـدث ثانيـة، أن وليم المذكـور، علـم بشكل سري من بعض الجواسيس البارعين، الذين كان قـد نشرهم، بأن بعض التجّار الأغنياء من الشرق، كـانوا قـادمين مـن دون حـذر، مع حـراسـة صغيرة، إلى بعض الأسواق التي كانت تعقـد قرب الاسكندرية، حيث أملوا بثقة كبيرة بزيادة ثرواتهم، وبناء عليه أخذ كتلة مـن جنوده معه، وبادر مسرعاً إلى هناك، سراً أثناء الليل، وانقض فجأة عليهم مثل البرق وهم غير متنبهين، فقتل التجّار فوق تلك البقعة، وشتت المرافقة، وأسر جميع تلك الفئة، التي كانت تعرف بشكل عام باسم قافلـة، ووجد بينهم جمالاً وبغالاً وحميراً، محملين بالحرير، والصور، والتماثيل، والـذهب، والفضة، وذلك إلى جانب بعـض العربات مع ثيرانها وجواميسها، وأيضاً الأطعمة الضرورية لكل من الخيول والناس حيث كانوا محتاجين إلى ذلك كثيراً، ومـع أن وليم المذكور قتل أثناء القتال، وأسر عـدداً كبيراً من أعدائـه، خسر هو واحـداً من الفـرسان، وثمانيـة من الأتباع، فهؤلاء قد قتلوا، وكان بعضهم قد أصيب بجراحة، فأعادهم حتى

يستردوا صحتهم بوساطة المساعدة الطبية، وهكذا عاد إلى الجيش منتصراً، ومبتهجاً بثرواته، وكان الفرنسيون الذين مكثوا من دون نشاط، وفي حالة من العوز عظيمة، قد أثيروا بمشاعر الغيرة والشره، فاعترضوه لدى وصوله بطريقة عدوانية، وأقدموا مثل لصوص وقحين، فأخذوا منه بالقوة كل الذي ناله، عازين إليه أنه اقترف مايكفي من الخطأ، بإقدامه على ذلك العمل بتهور، على عكس أوامر الملك، وتعاليم قادة الجيش، وأنه قام خلافاً للنظام العسكري، بتهور وتجبر، فانفصل عن الجيش كله، وعندما سمع وليم هذا، وعد بتقديم الترضية إليهم بكل سبيل، وسمح بتوزيع جميع الأطعمة التي حصل عليها بين أفراد الجيش المحتاج، لكن الفرنسيون صرخوا ضد هذا، وادعوا أن كل شيء هو عائد إليهم أنفسهم، واستولوا على ذلك على الفور، وبذلك أضافوا الإهانة إلى الأذى، ولذلك حزن وليم، وشعر بالمرارة في نفسه، لدى معاناته من مثل هذه الأضرار، وهكذا تقدم بشكوى ثقيلة إلى الملك، حول القضية، وأضاف بأن أخاه كونت أرتوي كان رأس ومقدم هذا العمل العدواني والسلب، وعندها رد عليه الملك بصوت منخفض، وبروح تقوية كبيرة وبنظرة هادئة، وقال: «وليم، وليم، الرب الذي لايجهل شيئاً، على دراية بالضرر والأذى الذي ألحق بك، وأنا أخشى من أن يقوم تجبرنا مع ذنوبنا الأخرى، بإلحاق الخزي بنا، وأنت تعلم مدى خطورة الأمر وجديته، إذا ماأسأت إلى نبلائي أو أثرتهم، في هذا الوضع الخطير، الذي أنا موجود الآن فيه»، وعندما كان يتكلم هكذا، وصل كونت أرتوي، وهو هائج وغاضب مثل رجل مجنون، ومن دون تقديم التحية إلى الملك، أو إلى الذين كانوا جالسين هناك، رفع صوته،وهتف وهو غاضب جداً وقال: «مامعنى هذا، مولاي الملك؟ هل تريد الدفاع عن هذا الرجل الانكليزي، وأن تقف ضد رجالك الفرنسيين؟ لقد قام هذا الرجل متحدياً لك، وللجيش كله، وهو مدفوع بطيشه وتهوره، وبناء على مسؤوليته، وبمبادرة منه، فحصل بشكل سري على أسلاب، أثناء الليل، وذلك على عكس ماقضت به مراسيمنا، ولهذا السبب

انتشر صيته، وعمت شهرته وحده، وليس شهرة الملك الفرنسي وقومه، في جميع أنحاء مناطق الشرق، وبذلك حجب أسماءنا وألقابنا»، ولدى سماع الملك المسيحي التقي لهذه الكلمات، أشاح بوجهه، وألقى نظرة على وليم، وقال بلهجة معتدلة: «يمكنك الآن أن تسمع ياصديقي، هكذا يمكن للخلاف أن يتأصل، لاسمح الرب بوقوعه في هذا الجيش، إنه من الضروري في هذا الوقت الحرج، أن نتحمل مثل هذه الأشياء باتزان ورباطة جأش، لابل أن نتحمل أشياء أسوأ من هذه»، وعلى هذا ردّ وليم قائلاً: «بناء على هذا إنك لست ملكاً، حيث لايمكنك أن تضبط شعبك، وأن تعاقب المعتدين منهم، مع أنني قد وعدت، أنني إذا ما أذنبت، سوف أقدم كل ترضية من أجل ذنبي»، وأضاف وهو متألم مجروح في قلبه بسبب الأذى الذي لحق به: «إنني منذ الآن فصاعداً لن أخدم ملك مثل هذا، وبمثل هذا المولى لن أرتبط»، ولأسف الملك الشديد، غادر وهو غاضب، ثم إنه ذهب إلى عكا،وهناك أقام لعدة أيام، مع رفاقه بالسلاح، ونشر أخبار الأضرار التي عانى منها بين جميع الذين سكنوا هناك، وبذلك أثار شفقة الجميع نحوه، وخاصة شفقة الأساقفة، وحرك غضبهم ضد الفرنسيين، ولم يتردد أصحاب الخبرة والفهم، والذين كانوا مجربين في قضايا وشؤون الحرب، عن توقع بأن هذا كان نذير سوء بشأن الوقائع المقبلة، وأن الغضب الثقيل للعلي الأعلى سوف يثار بسبب مثل هذه الآثام، ويروى بأن كونت أرتوي وصل به الأمر إلى حد القول حول مايتعلق بهذه القضايا: «الآن أصبح جيش النبلاء الفرنسيين نقياً تماماً من هؤلاء الانكليز ذوي الذيول»، وهو كلام سبب الضيق إلى كثير ممن سمعوه، وقرر وليم آنذاك البقاء مع السكان والداوية والاسبتارية في عكا، وأن ينتظر وصول صليبية نبلاء انكلترا، من أجل أن يعلمهم بتجبر الفرنسيين، وبالأذى الذي عاناه على أيديهم، وليحثهم على قتال أعداء الصليب وفقاً لمشورة الناس الجديين، وذوي العقول المتواضعة، دون الوثوق بمساعدة الفرنسيين، وأن يحاولوا إلحاق الهزيمة بأعداء الصليب بقواتهم الخاصة.

حول سفر النبلاء الإنكليز نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه، بات النبلاء الانكليز (الذين ذكرت أسماؤهم من قبل) الذين كانوا قد قرروا الانطلاق نحوالقدس في يوم عيد القديس يوحنا، كما تقدم الذكر من قبل، والذين كانوا قد باعوا أراضيهم أو رهنوها، أو ألقوا بها في شباك اليهود والمرابين، والذين أيضاً قد ودعوا أصدقائهم، باتوا جاهزين، في الصباح المشهور لعيد القديس أوغسطين، للانطلاق والشروع بالسفر مع أتباعهم، لكن الملك تصرف مثل طفل مجروح أو مزعوج، الذي بالعادة يركض إلى أمه مع شكاويه، فبعث بكل سرعة إلى البابا يرجوه أن يمنع مغادرتهم، مبيناً له بأن بعض النبلاء المهمين من مملكته في انكلترا، والذين كانوا قد حملوا الصليب، قد قرروا على عكس رغباته وحظره الانطلاق نحو القدس، دون الموافقة على انتظاره، وهو مولاهم وملكهم، وهو الذي كان قد حمل الصليب أيضاً من قبل، واقترح المضي في الحملة نفسها، وأن هؤلاء النبلاء، قد اختاروا اتباع عدوه الرئيسي، أي الملك الفرنسي، الذي —كما قالوا— ذهب قبلهم، وأعدّ الطريق، والمدخل إلى أرض المشرق، وآثروا ذلك على مرافقته، وبناء عليه قام البابا، مثلما فعل الملك بوساطة أوامره الملكية، فمنع بكل دقة، أي واحد —تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي— من الاقلاع، دون الحصول على موافقة الملك، وذلك مهما كان الخطر أو المغامرة المحيقة بالملك الفرنسي.

كيف وضع الملك الإنكليزي حرساً على الموانىء الإنكليزية

علاوة على ذلك، بعث الملك على الفور، أوامر إلى قسطلان دوفر، وإلى حكام الموانىء الأخرى، بألا يسمحوا إلى أي نبيل، يحمل شارة الصليب، بالنزول إلى البحر للسفر، وقد عزي إلى الذين كانوا معارضين لهذا، بأن الملك قد تصرف بشكل غير حكيم، لأنه لو أن مثل تلك الأعداد من ذوي المراتب العليا (كان هناك حوالي خمسمائة مارشال فارس إلى جانب أتباعهم، الذين لايمكن تعدادهم تقريباً) كانت ستسير قبله، فإن كل الجماعة

المسيحيـة كانت ستقـول وهي مندهشة: «كم هو عظيم، وكم هو مـرعب، لابد أن يكون هذا الملك، الذي بعث مثل هؤلاء القـوم أمامه، ومقـدمة له، فكم من الأعداد، لنا أن نخمن ونعتقد سوف تصاحبه، ونتيجة لذلك، فإن جميع المسلمين سوف يرتجفون خوفاً»، لكن مـاهي فائدة هذه المناقشة؟ لأنه بالاضـافة للعوائق التـي وضعها الذين منعـوهم، كان هذا أيضـاً، النتيجة الطيبـة لما حـدث إلى الحجـاج، لأنهم حتى لو كـانوا قـد أقلعـوا (آسف أن أقـول) لما كانوا قـد وصلوا في الوقت المناسب والموائـم لتقديم النجـدة إلى الملك الفرنسي، الأمر الذي رغبوا كثيراً في فعله، وذلك حسبما سوف نروي في الأخبار المقبلـة، ذلك أننا لانستطيع أن نحكي جميع الذي وقع في الوقت نفسه، مرة واحدة.

الملك الإنكليزي يستخرج المال من جميع المناطق

وفي الوقت نفسه لم يتـوقف الملك عن سلب الأموال وجـرفها من جميع الجهات والمناطق، وبشكل رئيسي من اليهود، وفي الدرجة الثانية من رعاياه الطبيعيين المسيحيين، ومارس ذلك إلى درجة كبيرة، وتابع استخراجاته من اليهود، حتى أنه استخـرج من واحد منهم، اسمه هرون، وكـان قد ولد في يورك، وامتلك بيتاً في تلك المدينة، أربعـة عشر ألف مارك [فضي]، وعشرة آلاف مـارك من الذهب، من أجل استخـدامـات الملكة (لأنه كما قيل، قـد تبرهن إن كان مجرمـاً بتزييف أحـد الصكوك)، وأن يجري دفع ذلك خلال وقت قصير، حتى يحول دون وضعـه في السجن، وبالاضافـة إلى دفعه هذه المبالغ كلهـا، لقد تبين أن هرون هذا المذكـور، كان قـد دفع إلى الملك، لدى عودته من القارة، مبلغ ثلاثين ألف مـارك من الفضة، ومائتين من الذهب، من أجل استخـــدامـات الملكة، وذلك حسبما أعلن هـرون اليهـودي هذا، بوسـاطة شهادة قـانونية، وبنـاء على عهدته، إلى الراهب متى، مـؤلف هذا الكتاب، وعلى كل حال، إن هؤلاء اليهود، مهما كـانوا أشقياء وتعساء، هم لايستحقون الشفقـة، لأنه قد تبرهن بوضوح بأنهم كانوا المفسـدين للنقود

الملكيـة، والمزيفين للأختـام، وللصكوك، ومن أجل ذلك تعـرضـوا مـراراً للملامة والإدانة.

طغيان غيوفري لانغلي

وفي حـوالي الوقت نفسه، قـام أحد الفـرسان، واسمـه غيوفـري لانغلي Langley, وكـان نائبـاً للملك، ومحققـاً بالتجـاوزات التي اقترفت في الغابات الملكية، بجولة في عـدد من المقاطعات في انكلترا، وببراعة، وشره، وارغام، استخـرج مبلغاً كبيراً من المال، وبشكل خـاص، من نبلاء المناطق الشمالية لانكلترا، وكـانت كمية المبلغ الذي جمعـه فوق تصـور جميع الذين سمعوا به، وسبب الدهشة إلى عقـولهم، وظهر أن هذا الظلم الشديد الذي مارسه ضـد النبلاء الشماليين، قد صدر عن كـراهية قديمة نحـوهـم، وكان غيوفـري المتقدم ذكره محاطاً بحـاشية كبيرة، وجيدة التسليح، وكـان إذا ما حاول أي واحـد من النبلاء المتقـدم ذكرهـم أن يعتذر، أو تجرأ على التعبير عن تذمره، بأن القضاة كانوا أعداءه، كان يأمر على الفور باعتقاله، وايداعه في سجن الملك، فلم يستطـع أحـد أن يرد على الطلب بمـوجب أية حجج منطقيـة، وذلك للخوف مـن أن يعد ذلك ذنبـاً، ذلك أنه من أجل حيـوان صغير، خشف أو أرنب، وإن كان ضائعاً خـارج الطريق، قام بإفقار بعض الناس من ذوي الأصل النبيل، وأوصلهم حتى الدمار، فهو لم يوفر لا الدم ولا الحظ، ومقارنة بهذا الرجل، كـان روبرت باسلو يعدّ الأكثر لطفاً، وفي الحقيقـة عدّ جميع أسـلافـه عادلين، وجـاء الحديث عنهم جيـداً، وخاصـة عندما كـانوا يقارنون به، وكان غيـوفري هذا، منذ الوقت الذي جـرت فيه ترقيتـه إلى وظيفـة مارشـال حـاشيـة الملك، ليقـوم بحمل العصا العـائـدة للمارشـال الكبير، وبقدر مـا أوتي من سلطة، قد أنقص الضيـافة والرعـاية العـائدة للمائـدة الملكيـة، فبهـذا وبأعمال تملقه قـد أبهج الملك، وبناء عليـه حصل على حظوته مع أنه لم يستحق ذلك، وفيما بعد عـدّه روبرت المذكور، انسـاناً مخلصـاً، وجديـراً بأن يتشارك معـه شخصيـاً، لذلك دعـاه، وجعله زميلاً وشريكاً في وظيفة المسؤول عن عدالة الغابات الملكية، لكن غيوفري

نصب شركاً لقدمي ولي نعمته روبرت، وفيما بعد أحل نفسه بدناءة محله، وبدناءة خلع النواب الذين كان روبرت قد عيّنهم في وظائفهم، مما جلب له كثيراً من العار والأذى، لكن من الذي سوف يشفق على الحاوي، إذا ما لدغ من قبل الأفعى؟، وبناء عليه تجنب روبرت المذكور مصائد البلاط، ورجال البلاط، وحصل على تكريس نفسه كاهناً، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، كما كنا قد ذكرنا من قبل.

كيف ذهب رئيس أساقفة كانتربري إلى البلاط الروماني

وفي الوقت نفسه علم بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، بأن عميد القديس بولص مرافقاً ببعض الكهنة التابعين لتلك الكنيسة، وببعض وكلاء الذين كان قد آذاهم، قد ذهبوا إلى البلاط الروماني، وبناء عليه، وقد تشجع بمشورة المحامين، أقلع بأبهة كبيرة وفخامة وتوجّه نحو البلاط نفسه، مسلحاً بحماية الملك وبرسائله، ومعتمداً على نفوذ أسرته، وذلك في سبيل أن يصبح بوساطة سلطات البابا، أكثر قوة وطغياناً.

موت روبرت أوف ليكسنغتون

وفي التاسع والعشرين من أيار لهذا العام، مات روبرت أوف ليكسنغتون Lexington الذي استمر مدة طويلة في وظيفة المسؤول عن العدالة، فحصل على اسم متميز، وعلى ممتلكات وافرة، وكان على كل حال، قبل سنوات قليلة من موته قد أصيب بالشلل الارتجافي، فتخلى عن الوظيفة المذكورة، وبذلك كان مثل القديس متى، استدعي من وظيفة تسلم العشور إلى حياة أفضل، وشغل نفسه في تقديم الصدقات بشكل وافر، وبالصلاة التقية، وبذلك أنهى حياته الواهنة بطريقة محمودة.

التقارير المتنوعة حول الاستيلاء على القاهرة

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، كثر تداول تقارير تبعث كثيراً على السرور، لكنها كانت بلا أساس، وقد تحدثت عن الاستيلاء على القاهرة

والفسطاط، وعن تـدمير الاسكندرية، وقـد سكّنت هذه الإشـاعـات، وأرضت قلوب جميع الناس في الغـرب، بوسائل مـواساتها الزائفـة، وتبين أخيراً أنها صدرت عن السبب والمصدر التالي، وهو مايتطلب رواية طويلة، مهما كانت —على كل حال— غير مثمرة، لأن:

المحصلة الدنسة تدمغ الإجراء جميعه بالدنس

حول الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين

عندما علم سلطان مصر بقرب وصول ملك فرنسا المشهور ومعه جيشه، في العام المنصرم، عهد بالمسؤولية عن دميـاط إلى واحد من مقدميه، وكان له فيه ثقـة كبيرة، وعهد بالقـاهرة والفسطاط إلى عناية أخي المقـدم نفسه، لكن بعد الاستيلاء غير المتوقع على دمياط، دعا السلطان المذكور إليه جميع أعيانه، وعلى مسمع منهم جميعاً وجـه تهمة ثقيلة ضـد المقدم الذي إليه عهـد بمدينة دميـاط، والذي ضـاعت وهي تحت وصـايتـه، واتهمـه ليس فقط بالخسـارة الخيـانية لمدينتـه الرئيسية، من خـلال الاهمال والجبن، لابل أيضاً بتسليمهـا ووضعها بين يدي العدو المعلن، وبذلك امتلـك الصليبيون الذين هم أعداء جميع المسلمين، الآن منفـذاً حـراً إلى مصر، وإلى جميـع بلاد الشرق، مع آمـال بالاستيلاء بشكل أسهل ومؤكد أكثر على جميع المناطق الأخرى، والحصول على مكان جيـد الـدفـاعـات ومـلاذاً، مما ألحق الأذى والاضطراب بجميع المسلمين.

وعلى هذا ردّ المقـدم المتهم قـائلاً: «مـولاي الأعظم قـوة، إنني خـادمك المخلص والوفي، قد أرسلت جواسيسي إلى جـزيرة قبرص، عندما كان الملك الفـرنسي يمضي الشتـاء هناك، ومنهم قـد علمت، أنه عندمـا غـادر تلك الجزيرة، سوف يبحر إلى الاسكندرية، ليقوم بحصار ذلك المكان، وبناء عليه قمت بإرسـال جميع العساكـر من دميـاط إلى ذلك المكان، لتقـديم مساعـدة فعالة إلى أصـدقائنا الاسكندريين، الذي هم رعيتـك، ولأسر الملك المذكور،

وللاستيلاء على أسطوله كله، وإرساله إليك، لكن الحظ لم يكن مواتياً لنا، فبتغير الريح لتكون موائمة لهم، جلبت أعداءنا، وأوصلتهم إلينا، عندما كنا غير مستعدين، وبذلك نالوا الاستيلاء على الساحل، مع أننا قاومنا إلى أقصى ماكان في قدرتنا، كما تعلم أنت شخصياً.

وفي اليوم التالي ابتسم سعد الحرب لعدونا، فألقى الحصار على دمياط، التي وجدها مجردة من جميع وسائل المقاومة، وقد وصل معه أسطول كبير جداً، إلى حد أن وجه البحر بدا وكأنه مغطى بالسفن، وبناء عليه، قدرنا ذلك، وبما أننا كنا بدون مقدمين، ومن دون أسلحة المدينة، وقدرنا سلامتنا وسلامتك، فقتلنا وقطعنا أعناق جميع الأسرى الصليبيين، الذين كانوا بين أيدينا، ثم عمدنا إلى الفرار سراً أثناء الليل، حتى نتمكن من استدعاء القوات التي كنا قد أرسلناها إلى الاسكندرية، ومحاربة الصليبيين بقوة أعظم.

غير أن بعض الأسرى الصليبيين، عندما شاهدوا وصول بني قومهم، ورأونا ونحن نعدم رفاقهم، تمردوا علينا، وثاروا علينا بطريقة عدوانية غاضبة، وقتلوا بعضاً من قومنا، وقام هؤلاء أيضاً بعد مغادرتنا، بجلب الفرنسيين المقتربين الزاحفين عبر ممرات غير معروفة، وأدخلوهم إلى الأماكن السرية والداخلية من المدينة، وقمنا قبل مغادرتنا بإلقاء النيران في المدينة، حتى لايتمتع أعداءنا بممتلكاتنا، لكن الأسرى أخمدوها في أسرع وقت استطاعوه، وعندما أرغمنا على التراجع، كنا في حال من الأسى لعنّا فيها شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لابل لعنا فيها النبي نفسه، ووددنا بأننا لو كنا أمواتاً، ولم نكن أحياء»، وعندما سمع السلطان هذا انفجر غاضباً، واستولت عليه حالة من الهياج (لأنه كان متجبراً وبلا رحمة)، ومع أن المقدم المذكور، استطاع بشكل صحيح أن يبرىء نفسه من التهمة، حسب رأي بعض الحضور، وقف السلطان بمزيد من العنف ضده، وأمر به ليعلق على المشنقة كخائن ومجدف كافر.

وعندما وصل هذا إلى مسامع أخيه، حاكم القاهرة، (الذي كان قلبه منذ

زمن طويل مضى ميالاً إلى العقيدة المسيحية، إنما بشكل سري، لخوفه من المسلمين) استدعى بعض الذين كانوا أسرى لديه، وكان من بينهم بعض الداوية والاسبتارية، وبعض الفرنسيين، الذين كانوا قد أخذوا أسرى، مؤخراً في المعركة عند غزة، وخاطبهم كما يلي:

«لدي سر خفي في صدري، عليّ بثقة أن أبوح به إليكم، إذا ما وعدتموني بيمين دقيق تحلفونه بحق إيمانكم وشريعتكم، أن تخفوه، وأن تساعدونني، وقتها سوف أبوح به إليكم».

وجواباً على هذا الاقتراح، أعطاه الأسرى كلمتهم ويمينهم، ووعدوه بالحفاظ على الصدق والاخلاص غير المنقوض معه، في كل شيء، وبناء عليه شرع يقول لهم مايلي:

«إن سلطان مصر، لم يعد الآن مولاي، وهوالذي خدمته حتى الآن باخلاص في كثير من المخاطر، ذلك أنه قد سبب لي مؤخراً غضباً لايحتمل، وإهانة، وآذاني كثيراً، ذلك أنه شنق مؤخراً على المشنقة، أخي الذي أحببته أكثر من أخ —وفي الحقيقة أكثر من جميع أسرتي إلى جانبه— حيث اتهمه بأنه سلم عن طواعية دمياط إلى الفرنسيين، أو من خلال الخوف، مع أنه لم يمتلك سبباً أو بينة تؤيده في اتهامه له، وأنتم تعلمون تمام المعرفة، بأن هذه التهمة التجريمية زائفة تماماً، لأنكم تعلمون، كيف أنه قاتل بشجاعة واخلاص، وتصدى للفرنسيين عندما استولوا على الساحل، وكانوا كثرة كثيرة، وفي الحقيقة لقد قاتل كثيراً إلى جانب كثير من أصدقائنا وأقربائنا الذين هلكوا هناك، وقد خسرنا ركننا (ركن الدين) الذي كان أعظم رجل بيننا، والثاني بعد السلطان، وهو الذي كان قد قتل كثيراً من الصليبيين في الأوقات الماضية، ونال النصر على قومكم في غزة، ولذلك قد أوقفت نفسي على الانتقام بسبب مثل هذا الطغيان الكبير، وأن أعطي إلى الملك الفرنسي التقي هذه القلعة التي لاترام، التي عليها تعتمد ثقة جميع المسلمين، والتي فيها مخزون جميع أموال السلطان، وإنني أيضاً أسلم نفسي وجميع ممتلكاتي إلى

يسوع المسيح، وإلى الملك الفرنسي، وأطالب بقداس التعميد، ذلك أن مافعله السلطان بأخي، سوف يفعله، بدون شك بي، إذا حدث ووقعت بين يديه، وذلك مهما كنت بريئاً.

أنتم الآن قد أطلق سراحكم من سجنكم، وبناء عليه، اذهبوا بحذر، وبأعظم سرعة إلى الملك الفرنسي، وقدموا له تقريراً صادقاً حول جميع القضايا، ولكي يكون أكثر تأكداً من حسن اخلاصي، عليه أن يجلب جيشه كله الذي نعدّه جيشاً لايقهر، أن يجلبه وهو معبأ للقتال.

وعندما سيصل هذا إلى مسامع السلطان، سيدفع بقواته كلها للتصدي له لدى اقترابه، لكن عليكم عدم الخوف من هذا، وأن لايشكل ذلك مناسبة للخشية، لأنكم سوف تجدون القلعة المتقدمة الذكر مهيأة لكم، وكذلك مدينة الفسطاط، التي سوف تفتح لكم، وتكون بمثابة مكان للالتجاء والتحصن، ولكي نسبب اضطراباً مفاجئاً إلى جميع المسلمين، سوف يكون لديكم ارشادي، ومشورتي، ومساعدتي في جميع إجراءاتكم».

وكبرهان أول على صدق أقواله، جرى اطلاق سراح جميع الأسرى، مما منحهم سروراً وبهجة، وذهبوا على الفور بشكل سري إلى الملك، وبما أن الذين حملوا هذه الرسالة وجلبوها كانوا موثوقين، وأشخاصاً معروفين بشكل جيد، حصلوا على تصديق كامل، ولدى سماع الملك بهذه الرسالة، أمر بعدم إباحتها إلى أي انسان، حتى تكون خططه قد أعدت بشكل أكثر تحديداً.

وكان حزيناً لغياب وليم لونغوسبي وأتباعه، الذين كانوا قد عانوا من أضرار بالغة، ولأن جيشه كان قد نقص تعداده كثيراً، وكان يعاني من الفضيحة، قام على الفور بإرسال واحد إليه حتى يأتي، ويتلقى كل ترضية من أجل الأذى الذي ألحق به، وقال له في نهاية رسالته: «ولكي تسمع بعض التقارير المفرحة، التي سوف يتلوها بعض الأحداث المرغوب بها منذ زمن

طويل، و المتشـوق للابتهاج بها كثيراً، والتي رغبتنا وأمـانينا أن تكون شريكاً بها».

وانتشر خبر هذه الرسالة بين جميع سكان عكا، ومن خلالهم وصلت إلى سكان تلك المنطقة من البلاد، وبناء عليه، ذهب وليم وقتها مع جميع أتباعه إلى الملك، مطيعـاً لأوامـر مثل ذلك الأمير العظيم، لكن بشكل رئيسي بناء على الإضافة الأخيرة، وبعدما سمع من الملـك، رسالة المقدم المتقدم ذكره، قام بسبب السرور الذي شعر به، بالتخلي عن مشـاعر الغضب والحقد ضد الذين أساءوا إليه.

وبسبب هذه الأحـوال المستجـدة، قـام بعض المتطفلين، فكتبـوا بشكل سري، رسـائل مفرحـة فيها الأخبـار السـارة، وبعثوا بها، وكأنهم قـد نالوا الذي وعـدوا بـه، واستحـوذوا عليـه، ولذلـك بعثـوا برسـائـل زائفـة إلى أصدقـائهم، الذين أرادوا تنشيطهم وافراحهم، بأن القـاهرة والفسطاط قد جرى الاستيـلاء عليهما، وأن الاسكندرية تركت عـرضة للاستيـلاء عليها من قبل الصليبيين، ومن هاهنا كـان منشأ تلك التقارير، والرسـائل المتقدم ذكرها.

كيف عرض السلطان كثيراً من الهدايا على الصليبيين حتى يحصل على السلام

وبناء عليه انتعش الملك، وارتفعت آماله، فوضع حامية موثوقة في مدينة دمياط، مكونة من دوق بيرغندي، وعدد كبير من أتبـاعه المخلصين، وأخذ اتجاه القــاهرة، مع جميع جيشــه معبئاً وفقــاً للنظام العسكري، وقتل على طريقه بعض المسلمين، الذين كانوا موضوعين على شكل كمين، لمنع جلب المؤن إلى دميـاط، وأخبر السلطان في الوقت نفســه عنهم، أنهم قـد رفعـوا أعلامهم، وهم مسرورين مبتهجين، وأقلعوا حـاملين من دمياط، وشعروا بكثير من الآمـال بالاستيـلاء على البـلاد كلهــا، ولذلك خـاف من قتـال

الفــرنسيين، فأرسل بعض الـرجـال الأعيــان من بـلاطه، بمثـــابة رسل، يعـرضون التخلي عن جميع الأرض المقـدسة إلى الصليبيين، يعني أن تقـول جميع مملكة القدس وزيـادة، وكذلك مبلغاً من المال، من ذهـب وفضة، مع هدايا أخرى مـرغوبة، على شرط —على كل حال— وجـوب إعادة الملك لدميـاط، مع جميع الأسرى الذين كـانـوا تحت سلطانه، وأنه سـوف بتسلم جميع الأسرى أحراراً، وأن يكون مسموحـاً بقيام اتصالات حرة وتجارات، بشكل عام في بلدان كل منهما، من التمتع بمنافع السلام، واللطف المتبادل. ومـا قيل تأكدت صحتـه كحقيقة، أن السلطان قـد عزم مع عـدد كبير من الأعيـان المسلمين، على التخلي عن عقيـدة محمــد (صلى الله عليـه وسلم) (التي ظهـرت بوضـوح إليهم على أنها...)، وأن يلتحقـوا مخلصين بعقيـدة المسيح، التي كانت من الواضح نظيفة جداً، ومشرفة، شريطة أن يسمح لهم بسلام بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، لكن عروض السلام هذه رفضت بعناد، من قبل النائب البـابوي، طاعـة منه للأوامـر البابوية، الذي شجعـه على التصرف هكذا، إذا ما حدث، وتقدم المسلمون بمثل هذه العروض.

كيف جرى إعلام السلطان بخيانة المقدم

خلال هذا التعويق غير المفيد والطويل، حول هذه القضايا، تمكن بعض المسلمين، من المناطق الجبليـة، الذين وضعوا على شكل كمين، بين الرعـاة الذين كانوا يرعون قطعانهم في الوادي، لمنع وصول المؤن إلى المدينة، من أن يعرفوا عن طريق جواسيسهم، ويكشفوا خيـانة حاكم القاهرة، الذي تقدم ذكره، ولذلك امتطوا أسرع خيـولهم، وبذلوا كل سرعة ممكنة حتى وصلوا إلى السلطان، فأخبروه بكـل وضــوح بسبب اقتراب وصــول الصليبيين، ونشاطاتهم، ومشاعـرهـم بالأمن، فأرسل على الفور بعض الجنود المجربين بكل سرعـة إلى القـاهرة، فـاعتقلوا الحاكم، واحتفظوا به في السجن، حتى يتمكنوا من الوقــوف على براهين على صـدق التقـرير، وكـان أول برهان وجـدوه، هو أنهم وجـدوا السجن فـارغــاً من الأسرى، وبذلك تبرهنت

خيـانة الحاكم، ولذلك قام السلطان على الفـور بتقوية القـاهرة والفسطاط بحـاميـات من الجنود قـائـلاً: «الآن، آمل، أخيراً بأن رب الصليبيين المولى يسوع المسيح، الذي يحب الاعتدال والتواضع، سوف يخزيهم لتجبرهم».

وأصبح السلطان من ذلـك الحين هادئـاً، وواثقـاً مطمئناً، ورفض منح الصليبيين عـروض السلام التـي كان قـد تقـدم بها من قبل إليهم، مع أنهم رجـوه أن يفعل ذلك، ومع أنه جـرى تشجيعـه على أن يوافق، تطلع واثقاً للتصـدي إليهم، أو بالحري للانتصـار عليهم، وبناء عليه جمع أعـداد كبيرة من العساكر من جميع بلدان الشرق، من بين الذين كانوا قلقين على الصالح العـام، والمتشـوقين للحصـول على ثروة كبيرة، وأمـر بأن يعلن على الناس جميعـاً بصـوت المنادي، أن كل من يقـدم له رأس صليبي، فسـوف يتسلم عشرة طالن، وذلك بالاضافة إلى عطائـه المعتاد والموعود به، وأن أي واحد سوف يجلب اليـد اليمنى لأي صليبي فلسوف يحصل على خمسـة، ولسوف تكون جائزة الذي سوف يحضر قدماً طالنين.

كيف أخذت شؤون الإمبراطور فردريك بالتحسن

وكـان في العـام نفسـه الامبراطور مـزعـوج تمامـاً بسبب زيادة عناد الايطاليين، وبشكل خاص عناد البـارميين، والبولونيين: البـارميون بسبب مقتل ثاديوس مع أتبـاعـه المخلصين الآخرين، ولدمـار قلعتـه، التي سماها المنصـورة، والبـولونيـون لأسرهم ابنه وحبسـه، وبدأ إنسيـوس Ensius بشكل مواظب يعمل على ابداع خطط ضدهم، لينتقم للأذى الذي لحق به، وللأضرار التي لحقت بالكريمـونيين، فقد أخذ البـارميون، نتيجـة للسلام الطويل الذي سمح به فردريك إليهم، يتمتعون بالتجول هنا وهناك سالمين من غير أذى، وتجولوا أولاً في المناطق المجـاورة لمدينتهم، لكنهم بعـد ذلك نقلوا بضـائعهم إلى سـوق كـان على مسـافـة أكبر من ذي قبل، ومـارسـوا أعمالهم دونما انزعاج، وعادوا سالمين، وفي أحد الأيام، عندما عدّ بعض من الأعلى في طبقات أهل المدينـة، أن هذا برهاناً على الأمن والسلام، فـذهبوا

وهم يشعرون بالأمن، وهم غير مسلحين، لتفقد حدائقهم وقلاعهم التي بنيت في ضواحي المدينة من أجل حمايتهم، كانت هناك كتلة من أتباع فردريك جالسين في كمين، وقد سمحوا لهم بفعل ماأرادوه دون اعتراض سبيلهم، وفجأة انقضوا عليهم خارجين من المكان الذي تخفوا به، وكانوا مسلحين تسليحاً تاماً، وقطعوا جميع طرق الوصول إلى المدينة عن أهل المدينة غير المسلحين، وهكذا تمكنوا من أسر جميع هؤلاء من سكان المدينة، وهم غير متنبهين، وكانوا مثل طيور وقعت في الشبكة، وكان كثير منهم من أصل نبيل، ثم تمكن هؤلاء الجند من دخول المدينة، بعدما شقوا طريقهم بالقوة من خلال الحرس الأول عند الأبواب، واعتقدوا أنهم استولوا على المدينة، وأنها صارت تحت إرادتهم، غير أن الناس الذين كانوا باقين في المدينة، رفعوا أصوات الانذار، وتصدوا لهم على الفور، وأوقفوا تقدمهم، ووضعوا سلاسل، وجذوع أشجار، وعوارض خشبية عبر الطرق، كما أنهم دحرجوا براميل فارغة على الأرصفة، حيث صدرت عنها أصوات مرعبة، أخافت الخيول، وجعلتها تفر، لكن عندما علم أهل المدينة بأسر أبناء مدينتهم توسلوا بتذلل لمنحهم بعض العروض للسلام، وقام عدد كبير منهم، بالاندفاع خارجين من المدينة، وقد تمكنوا عن طريق بذل مبلغ كبير من المال من اقناع الامبراطور فردريك بقبول الولاء منهم، وأنهم سوف يخضعون له، وتمسك بعضهم الآخر بوجوب التصدي له، وكان اعتمادهم على حصانة أبراج المدينة، حيث التجأوا إليها، وشرعوا يرمون بالنشاب والحجارة الثقيلة على المهاجمين لهم، وآثروا تحمل أي خطر من المخاطر، على الخضوع لإرادة فردريك.

وعندما سمع البولونيون بهذه الوقائع، بعثوا رسلاً إلى فردريك، ورجوه بتوسلات وتذلل أن يمنحهم السلام، لكن فردريك رفض الاصغاء إلى طلبهم، وأرسل في حوالي الوقت نفسه بعضاً من رسله الموثوقين إلى مدينتي أفينون وآرل الفخمتين، الواقعتين على مقربة من ليون، فتلقى أيمان الولاء من سكانها، وعندما باتت أخبار هذه الوقائع معروفة لدى البابا،

حـــزن وتحسر متألماً لانفاقه من دون فائدة تلك المبالغ الكبيرة من المال، ولزيادة أسى البـلاط الرومـاني وحـزنه، فـارق الحيـاة رينير أوف فيتربو Reiner of viterbo, وكـان كاردينالاً وحـاجبـاً للبابا، وكـان رجلاً من أسرة مشهورة، عندها ممتلكات غنية، وكان مضطهداً لايعرف التعب ومشهراً بفـردريك، وإثر وفاته أرسل الرومان رسـالة، مصحوبة بالتهديدات إلى البـابا، يأمرونه بالعـودة من دون تأخير إلى روما، بحكم كونه راعيهم الروحي وأسقفهم.

برنارد دي نيمفا يجمع المال من الصليبيين

وقام في الوقت نفسه برنارد دي نيمفا Nympha, وهو كاهن، كـان مسلحـاً بوثائق بابوية، بجمع مبلـغ كبير من الصليبيين، من أجل استخدامات الايرل رتشارد، وكان ذلك بطريقة غير أمينة تماماً، حتى أن ذلك بدا هو سرقة أكثر منه عـدالة، والولاية الآمرة باقتراف هذه السرقة المهينة، قد جرى تقديمها كاملة في كتاب Additaments, وذلك حتى لاتؤذي آذان ومشاعر الكثيرين.

التقارير المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

في يوم عيد القـديس كينيلم Kenelm, الذي كـان في اليـــوم الأول من تموز، عندمـا كان الايرل رتشارد عنـد المسؤول المالي في لندن، قدم إليه إلى هناك بكل سرعة رسـول، كان الحامل الكئيب لأكثر التقارير المحـزنة، ورسـائل تحتوي على التقـرير الاخبـاري التـالي: «تشجع الملك الفرنسي المسيحي التقـي، من قبل رجل كان يلي القاهـرة —الذي جرت الإشارة إليـه من قبل— فقـام بعدما عقـد مجلساً استشـارياً عامـاً، فنقل معسكره من دمياط نحو القـاهرة، وقتل بعض المسلمين الذين تصدوا له على الطريق، وبما أن حظ الحرب قد ابتسم له من كل جانب، تمّ الاقلاع بهجوم حـاد على المسلمين، فيه عـانى الصليبيون بعـد قتال طويـل وحاد

جداً، من خسائر مرعبة، وفي الحقيقة كانت الخسائر من على الجانبين، وفي الأخير نال الصليبيون نصراً مجيداً عليهم، ثم قام الملك مع نهاية عيد الفصح، فعبر نهراً كبيراً اسمه تنيس، وكان يتدفق من مجرى نهر النيل، وجاء العبور بوساطة قوارب، كانت قد ربطت إلى بعضها بقوة، كما وعبر كثير من الناس النهر بوساطة مخاضة سرية، دلهم عليها بعض المسلمين المتحولين إلى المسيحية، وأخذ روبرت كونت أرتوي —أخو الملك— معه بعض النبلاء، كان واحداً منهم وليم لونغوسبي، وعبر إلى الشاطىء الثاني، ودون معرفة أخيه الملك، وكانت نيته الحصول على النصر لوحده، بدلاً من السماح للجميع بالمشاركة به، وأن يحصل على فضل النصر لوحده، بحيث يعزى إليه وحده فقط (لأنه كان متجبراً وأرعناً وشرهاً للحصول على مجد عابث)، وعندما وجد بعض المسلمين هناك، تمكن هو وأصحابه من قتلهم، ثم قرر بشكل غير حكيم أن يستولي بالقوة على قرية كانت أمامه اسمها المنصورة، وقد استهدف قتل السكان الذين كان سيجدهم فيها، ثم أن يدمرها، ولذلك شق طريقه إلى داخلها، لكن أمكن قهره بالحجارة التي ألقيت عليه، وأرغم على مغادرتها، إنما ليس من دون قتل بعض السكان، ثم عقد مع أصحابه مؤتمراً للتداول حول الذي ينبغي عمله، وكان الكونت روبرت يأمل بأن تكون النهاية سعيدة مثل البداية، لذلك أقنعهم وشجعهم جميعاً، بمتابعة الزحف، وقال لمقدم فرسان الداوية، الذي كان معه، وإلى وليم لونغوسبي الذي كان أيضاً موجوداً: «دعونا نلاحق العدو الهارب، الذي قيل بأنه قريب منا، بينما الأحوال الطيبة بين أيدينا، وفي الوقت الذي نرى فيه قومنا متحمسين، ومتعطشين إلى دماء أعدائهم، الذين هم يائسين من نجاتهم، وبذلك إذا ما سحقناهم جميعاً، يمكننا على الفور جلب حربنا إلى نهاية سعيدة، ودعونا نتابع زحفنا بثقة، لأن ثلث الجيش الفرنسي يتبعنا، وإذا صدف ووقع لنا أي شيء غير سعيد —لاسمح الرب به— إن الجيش الذي لايقهر لأخي الملك سوف يأتي إلى مساعدتنا

بناء على استدعـاء منا»، وعلى هذا الخطاب ردّ مقدم الداويـة، الذي كان رجلاً حكيماً، وحذراً، وبارعاً وجيداً في قضايا فن الحرب، ومجرباً، قائلاً: «مـولاي، ياأيها الكونت النبيل، نحـن نثمن بحق جـرأتكم ونثني على شجاعتك، وعلى عظمتك الفطرية، واقـدامك، وعلى اخلاصك التطوعي لصالح شرف الرب وكنيسته العالمية، وهو مانعـرفه، وغالباً مـا جربناه، ومع ذلك إننا —على كل حـال— نحـن نود أن ننصحك ونرجـوك، أن تتولى تقـدير هذا الاحسان، وأن تميل نحـو الاعتدال والحذر من أجل أن نتمكن من استرداد أنفاسنا قليلاً، بعد هذا النصر، والشرف الذي أضفاه الرب علينا، فبعـد حـرارة وتعب هـذه المعـارك، نشعـر بالإنهاك، ونحن مصابون بالجراحـة، وجائعون، وعطشانون وإذا كنا نحن نشعـر بالمواساة بشرف ومجد النصر الذي نلناه، مـا من تشريف أو سرور يريح خيـولنا المعقورة، التي بدأت الآن تخذلنا، وبناء عليه، دعـونا نأخذ بخطة أفضل، بأن نعـود، من أجل إذا مـا اتحدنا بجيش ملكنا، يمكننـا أن نتقـوى بمشورته، ومسـاعدته، وبذلك تتمكن خيولنـا، وكذلك نحن أنفسنا من الانتعاش بوسـاطة قليل من الهدوء والراحـة، وعندما سيشاهـد أعداؤنا هذا سـوف يحمدون اعتـدالنا وحكمتنا أكثر، ولسـوف يشعرون بخـوف أكبر منا، ثم إننا بعقـدنا المزيد من المشـاورات المحكمـة، مع أبناء وطننا، عندما نجتمع مع بعضنا، بعد ذلك يمكننا النهوض ثانية أقوى، ولسوف نمتلك ثقـة أعظم بقـواتنا الموحـدة، لأن الصرخـات قـد ارتفعت من الفارين، الـذين يمتطون خيولاً سريعـة، سوف تنبه السلطان مـع أعدائنا الآخرين، الواثقين بقوتهم، وبأعدادهم، وسوف تنذرهم وتعلمهم بعددنا الصغير، وعندمـا سيعلمـون بهذا كله وبهذه الأشيـاء جميعـا، سـوف يتشجعون لانفصـالنا عن جيشنا، وهذا أمر لطالمنا تشـوقوا إليـه، فبذلك سـوف يحملون علينا بجرأة أكبر وبثقـة أعظم، ولسـوف يصبون قـواهم علينا من أجل تدميرنا وخـرابنا، لأنهم يعلمون الآن، أنهم إذا مـاسحقوا في الوقت الحالي سوف يجردون كلياً من مـواريثهم، ولسوف يدفعون مع

أسرهم للغرق في نهر النيل».

التأنيبات التي جرى تكديسها على الداوية والاسبتارية من قبل كونت أرتوي

وعندما سمع كونت أرتوي هذا الكلام، بات غاضباً جداً، وأجاب وهو يتميز غضباً وتجبراً قائلاً: «انظروا إلى الخيانة القديمة للداوية، وللتمرد القديم المعروف للاسبتارية، وكيف ظهر الآن خداعهم المخفي منذ زمن طويل، وانفجر وتدفق الآن بيننا، فهذا الذي كنا قد أخبرنا به منذ زمن طويل جداً، وهذا ماتحقق بعدما كان متوقعاً، ولقد كان من الممكن منذ وقت طويل مضى الاستيلاء على كل بلاد الشرق، لولا أننا العلمانيين كنا مخدوعين بالاعتماد على الداوية والاسبتارية، مع آخرين يدعون أنفسهم الرهبان، انظروا إن فرصة أسر السلطان باتت مفتوحة أمامنا، وتدمير جميع المسلمين في متناول اليد، وكذلك التمجيد الدائم للإيمان المسيحي، وهذا كله مايحاول هذا الداوي الموجود هنا ويسعى إلى إعاقته بحججه الواهية والمخترعة، ذلك أن الداوية والاسبتارية والمشاركين لهم، يخشون من أنه إذا ما أمكنت السيطرة على البلاد واخضاعها إلى الصليبيين، فإن تحكمهم الذي عظم اعتماداً على مواردها الغنية، سوف يزول وينتهي، ولذلك فإنهم سمموا —بمختلف الطرق— الصليبيين الذين جاءوا إلى هنا، وهم جاهزين لمساعدة قضية الصليب، وهم بتحالفهم مع المسلمين قد قتلوا هؤلاء الصليبيين بطرق خيانية متعددة، أوليس فردريك الذي عانى من خيانتهم، هو الشاهد الأعظم توكيداً حول هذه القضية»؟.

جواب مقدم الداوية

وحزن مقدم الداوية المتقدم ذكره وتألم بقرارة نفسه مع اخوانه، وكذلك فعل مقدم الاسبتارية واخوانه، وانزعجوا كثيراً من هذه

الكلمات التوبيخية والقاسية، وردوا وكأنهم عقل واحد، كما يلي: «لماذا أيها الكونت النبيل، توجب علينا ارتداء الزي الرهباني؟ هل فعلنا ذلك من أجل الاطاحة بالكنيسة، وهل بممارسة الخيانة، نتولى فقدان أرواحنا؟ إن هذا بعيد عنا، وفي الحقيقة بعيد عن كل مسيحي»، وبما أن مقدم الداوية كان غاضباً كثيراً، قال أيضاً بصوت مرتفع إلى حامل علمه: «انشر علمنا وارفعه، دعونا نزحف نحو القتال، لكي نتمكن في هذا اليوم جميعاً من تجريب حظ الحرب، ونواجه فرص الموت، فنحن سنكون غير ممكن قهرنا إذا ما استمرينا غير منقسمين، لكننا لسوء الحظ قد انقسمنا وصرنا مثل رمل من دون كلس، وبذلك غير موائمين من أجل واجهة روحية، ومن دون ملاط التعاطف سوف نكون منذ الآن مدمرين، مثل مواد مرفوضة»؟.

حول المشاحنة بين وليم لونغوسبي وكونت أرتوي

ولدى سماع وليم لونغوسبي لهذا الكلام، وكان يخشى من حدوث انشقاق في الجيش، ولذلك رغب في تهدئة العنف الأرعن للكونت أوف أرتوي، وفي تلطيف واطفاء غضب مقدم الداوية، لهذا صاغ رداً تدخل به وقال: «إنه من مثل هذا الشقاق والخلاف —تبعاً لكلمة الرب— ينجم الخراب، لذلك دعونا بناء عليه أيها الكونت الأعظم نبالة، نصغي إلى هذا الرجل المتنفذ والمقدس، لأنه مقيم منذ وقت طويل في هذه البلاد، وقد تعلم من كثير من التجارب،وعرف قدراتهم وكذلك مكرهم وبراعتهم، وهل هو أمر غريب، إذا كنا نحن القادمين الجدد، ونحن شباب وغرباء، أن نكون جاهلين بمخاطر الشرق؟ ومثلما هي المسافة بين الشرق والغرب، مثل ذلك الخلافات القائمة بين شعب الغرب وبين هؤلاء الشرقيين»، ثم إنه التفت نحو مقدم الاسبتارية، وخاطبه بكلام فيه تهدئة وتلطيف، وقد سعى إلى إطفاء عنف مشاعره، ووقتها عارضه كونت أرتوي فجأة وقاطعه وهو يتكلم، وتفوه بصوت

مرتفع، وفقاً للعادة الفرنسية، وتلفظ بأيمان غير معتادة، وصدرت عنه التوبيخات التالية والشتائم المهينة على مسمع من الحشود: «ماهذا الجبن الموجود هنا، لدى هذا الانكليزي الرعديد، ذي الذيل الطويل، فكم سيكون هذا الجيش سعيداً، وإلى أي مدى سيكون نقياً، لو أنه تنظف من هؤلاء الذيول ومن هؤلاء الأشخاص ذوي الذيول»، وشعر وليم لونغوسبي بالخجل، ولأنه أثير وأغضب بكلماته العدوانية، فأجابه قائلاً: «ياكونت روبرت، من المؤكد أنني سأزحف غير عابىء بأي خطر أو خوف من الموت الوشيك، ويخيل لي أننا سنكون في هذا اليوم، حيث لن تتجرأ على لمس ذيل حصاني»، ثم وضعوا خوذهم على رؤوسهم، ونشروا أعلامهم، وتابعوا زحفهم ضد العدو، الذي غطى سهلاً شاسعاً مع الجبال والوديان في جميع الاتجاهات.

وكان الكونت روبرت يرغب في أن يعزو كل شيء إلى نفسه، إذا ما حدث ونال الصليبيون نصراً، وتأبى عن إخبار أخيه الملك الفرنسي، بالخطر المفترض، وجرى إعلام السلطان بجميع هذه المسائل بوساطة جواسيسه النشطين، فاستلهم الشجاعة لأن يقاتل بجيشه الكبير، الذي احتشد في وقت قصير وغير اعتيادي، وخاطب رجال حشوده كما يلي: «إعلموا إن هذا ماانتظرته طويلاً، ورغبت به، وتشوقت إليه، إن الصليبيين منقسمين على أنفسهم، فالأخ غير متعاون الآن مع أخيه، لابل حتى هؤلاء الرجال الذين يشكلون ثلثهم فقط، على خلاف، فيما بينهم لقد أعطيوا إلينا بمثابة غنيمة ننالها ونسلبها، فهم في هذا اليوم بالذات قد تشاجروا، وتقاذفوا بالشتائم فيما بينهم، وإن الذي يفعلونه، وما هم مقبلون على فعله، الملك الفرنسي جاهل به تماماً، وهو على مسافة بعيداً عنهم، ففي المقام الأول، علينا أن نسحق هؤلاء الرجال، الذين هم قلة، وهم بلاشك قد هدهم الجوع، وأنهكهم القتال، مع متاعب السفر، ويعانون من كدمات الحجارة وضرباتها وهي التي رميت

عليهم في المنصـــورة، وسيكون ذلك في سبيل أن يكـون من السهل فيما بعـــد محاربـة الآخـــرين، الذيـن هـم الآن مقطوعين عن جميع وســـائل الحصول على المؤن»، وعندما سمع المسلمون الآخرون بهذه الخطة، تمت الموافقة عليهـا من قبل الجميع، ووقتها اندفع السلطان مـع حشوده التي لاتحصى، بشـدة ضـد الجيش الصليبي، وتـلا ذلك قتـال شـديد جـداً، وخـلال وقت قصير جـرى تطويق الصليبيين من قبل جمهـور المسلمين، وباتوا أشبه بجـزيرة في البحر، وأقحم المسلمون أيضـاً أنفسهم، ووقفوا بين الصليبيين وبين النهـر الذي عبروه، حتى لايتمكـن أي واحـد منهم من النجاة، ولدى رؤيته هذا، أسف كـونت أرتوي، أنه لم يأخذ بنصيحة الرجـال الأكبر سناً منـه، والأكثـر حكمـة، لكن الذي كـــان قـد وضع خوذته على رأسـه ما كـان من الممكن له الانسحاب من القتـال، ولدى رؤية روبرت الكونت وليم لـونغـوسبي، وقـد جـرى تطويقـه من جميع الجهات، من قبل كتلة كثيفة من الأعـداء، وأنه كان يتحمل لوحده ثقل المعركة كلها، صرخ الكونت روبرت مستحياً، ومن دون حكمة: «وليم، الرب يقـاتل ضـدنا، لايمكننا الاستمـرار بالمقاومـة، تدبر أمـر نجـاتك بوساطة الفرار، وانج حياً، مادام حصانك قادراً على حملك والنجاة بك، وإلاّ فإنك سوف تطلـب فعل ذلك، عندما تنعدم من لدنـك الوسائل»، وعلى هذا ردّ باختصـار، وبقدر مـاسمح له الصراع: «لاسمح الرب بأن يقوم ابن أبي بالفرار من أمـام أي مسلم، وإنني أوثر الموت بسعادة على أن أعيش من دون سعادة»، لكن روبرت كونت أرتوي، رأى نفسه وقد بات مطوقـاً من قبل أعدائـه، وليس لديه أية فرصـة مفتوحـة أمامـه أو قـدرة على الفرار، أدار رأس حصـانه، وشرع بالفـرار، وحيث أنه كـان ممتطياً لحصان سريع، شـق طريقه بكل سرعة نحو النهـر، وقصد إما نهر النيل، أو نهر تنيس الذي يتـدفق فيه، وعلى الفـور دخل به، وهو مسلح لابساً لدروعه كما كان، واثقاً من إمكانيـة السباحة وعبور النهر، لأنه قد عرف بأن حصـانه كان حصـاناً قوياً جـداً، لكن الحصان كـان غير قادر

على السباحة، لأنه كان مثقلاً بدروع حديدية، وبمعدات أخرى، ولذلك فإنه غرق، وغـرق هذا الرجل المتجبر بشكل تعيس، وهو هارب، لهذا لم يشفق عليـه أحـد من الناس، كان متـواضعـاً، أو باختيـاره، بل إن فعل ذلك، فعله مكرهاً، فهـو لم يحظ بـدمـوع أي انسـان، لأنه وإن كـان قـد انحـدر من دم ملكي نبيـل، لقـد ضرب مثـلاً سيئاً للآخـرين، ووفقـاً لكلمات الشاعر:

حسبما يشغل الانسان مكانة عالية أو منخفضة

مثل هذا ينظر إلى جريمته فتعد صغيرة أو كبيرة

أمـا وقـد غـرق الكونت، ألمّ اليأس بالفـرنسيين الذين كـانوا في تلك المعـركة، فتراجعـوا على شكل كتل متفـرقة، ووجـد وليم، الذي انقض المسلمون كلهم عليـه، أن القضية باتت قضية مـوت أو حياة، ومع ذلك صمـد بشجـاعـة أمـام حملاتهم، وأرسل بأرواح الكثير من أعـدائـه إلى الجحيم، مع أنه بعد مضي وقت طويل، أصبح حصـانه ضعيفاً، وقطعت قدماه، ومـع ذلك، تمكن وليم نفسه حتى وهو في ذلك الوضع من قطع رؤوس، وأيدي وأقدام بعض مهاجميه.

موت وليم لونغوسبي

وأخيراً بعـــدمـــا تلقى الكثير من الضربـات، والجراحـــات، وأنهك بوسـاطة مـــاتسـاقط عليـه من رمـايات الحجـارة المتـــواصلة، بدأ وليم بالسقـوط، لنزيفه ولنقصـان دمـه، ولفظ أنفـاسه ليتسلم تاج الشهـادة، وهلك معـه روبرت دي فيري، الذي كان الحامل لـرايته، وكـان فارسـاً نبيـلاً، وهلك أيضـاً الكثير من الانكليـز الذيـن تبعـوا رايتـه، منذ بداية الحرب، وفي الليلة التي تقدمت على هـذه المعركة، ظهـرت رؤيا إلى أمه النبيلة، راعية دير لاكوك، وكـان اسمها هيلا Hela, فقد ظهر في هذه الرؤيا فـارس شـاكي السـلاح، لابسـاً لجميع دروعه، وقـد جـرى

استقبـالـه في السماوات التي انفتحت لتلقيــه، وبما أنها عـــرفت ترس الفارس من خـلال الرنك المرسوم عليه، تقصت وهي مندهشـة لتعرف من كان الفـارس الذي صعد إلى السماء، وتم استقبـاله من قبل الملائكة، بمجـد عظيم، وبعـدمـا عـرفـت ترسـه، جـاء الجواب واضحـاً إليهـا، وبصـوت جلي: «إنه ابنك وليم»، وبناء عليــه، سجلت اسم الليلة التي ظهرت فيها الرؤيا، والتي أبيح لها معناها بشكل واضح فيما بعد.

ولكن دعونا نعـود إلى القضية الأساسية، حيث كـان روبرت، كونت أرتوي قد غرق، وقتل وليم لونغوسبي، وهنا صار المسلمون واثقين من النصر، فـالصليبيـون باتوا محاصرين ومن دون أمل، وقـد كـانوا طعمـة للسيف من دون شفقة، ونجا من جميع تلك الكتلة المجيدة من الفرسان المتميــزين، فقط اثنان من الداوية، وواحـــد من الاسبتــارية، وشخص واحد من فئة أدنى، وكان قـد سبح عبر النهر وهو عريان، وجلب الخبر إلى الملك الفرنسي، وإلى بقيـة الجيش، وحدثهم حـول هذه الحادثة، التي مأسـوف من أجلها من قبل جميع الأجيـال، أمـا الآخرون الذين نجـوا، فكانوا منهكين إلى أبعد الحدود، ومصابين بالجراحة، وبالكاد يمكنهـم أن يتنفسـوا، ولذلك كـانوا غير قـادرين على عبور النهـر، غير أنهم أخفـوا أنفسهم وسط نبـاتات الشعـراء التي كـانت قـائمة على ضفـاف النهـر، وانتظروا حتى حلـول ظلام الليل، لكن غضب الـرب، لابل بالحقيقــة حنق الرب، لم يسمح لواحد من ذوي المراتب العالية بالنجاة.

كيف شجع الملك الفرنسي أتباعه

وعندمـا وصلت أخبـار هذه الوقـائع إلى علم الملك الفـرنسي التقي، انفعل وشعـر بـالحزن في قـرارة قلبـه، ولم يتمكن من حبـس نفسـه عن التنهـد بألم وعن سفح الدمـوع بوفـرة، وهو يضرب يداً على يد، وعيناه شـاخصتان نحـو السماء، وقـال وشهقاتـه تعترض كلامـه: «بما أن ذلك يرضي الرب، هكذا وقعت الأمـور، تبارك اسم الرب»، ثم جمع النبـلاء

الفـرنسيين الذين كـانوا من حـوله وقـال لهم: «أصـدقـائي، وأتبـاعي المخلصين، وشركائي في مخاطري، ورفاقي الشجعان في السلاح، ماالذي ينبغي عمله في هـذه الأزمـة الحزينـة؟ إننا إذا مـا تحملنا هذه الأشيـاء وتراجعنا دون أن نعبأ بهم، سيعلو عـدونـا علينا، وكأنه قـد حصل على النصر علينا كلنا، وهـم سيتمجـدون ويفـرحـون بتراجعنا أكثـر من سرورهم بقتل رفـاقنا، ولسـوف يتشجعون بقـوة أعظم للهجـوم علينا، ولمطاردتنـا، بما أنهم أسرع منا، وهكذا سيتمكنـون فـوراً من تـدميرنا، وإزالتنا من على وجه الأرض، مما سيلحق الأذى والعار بالمسيحية كلها، وباتخاذ مثل هذا الإجـراء سـوف تـزداد الكنيسـة دمـاراً كليـاً، وتوصم فـرنسا بعـار لايمكن إزالتـه، ولذلك دعـونا نتوجـه بالدعـاء إلى الرب، الذي من الواضح أنه غاضب علينا بسبب ذنوبنا، ودعونا نقوم بالاجماع وبثقـة نهاجم أعـداءنا الذين تلطخـوا بـدمـاء إخـواننا، ودعـونا نطالب بغضب مـوائم بدمـاء أصدقـائنا، التي سفكت على أيدي أعـدائنا، فمن الذي بالحقيقـة بات بإمكانـه أن يتحمل أية مـدة أطول ويصبر على هذا الأذى العظيم الذي لحق بالمسيح»؟.

الزحف غير السعيد للملك إلى المعركة

وهكذا تشجع الجميع، وقـامـوا بنـاء على أوامـر الملك، وكأنهم رجل واحـد بحمل أسلحتهم، ولكن بما أن كـل رجل قـد أعـاد إلى ذاكـرته، موت بعض الأصـدقاء أو الأقرباء تأوه وبكى بـألم، وبدموع تدفقت من عينيه بغزارة، وهكذا تلاشوا ضعفاً بالحزن أكثر منه بسبب الجوع، وكان الذين امتلكوا القوة قـد أخذوا بالزحف، وقد سار أمـامهم حامل الراية الفـرنسية الحريرية الحمـراء، وساروا على آثار إخـوانهم الذين قتلوا، كما ذكـرنا من قبـل، وأرسلوا العجـزة والضعفـاء، والذين كـانوا من دون أيدي، وأيضاً بـلا امدادات، بقوارب، بوسـاطة طريق النهـر إلى دمياط، حتى يتمكنوا هناك من استرداد قوتهم في المأوى الذي تقدمه لهم المدينة.

وأخبر السلطان بهذه الواقعة، فأمر على الفور بجلب قوارب تحمل إلى هناك على العربات التي تجرها الثيران، من أجل أن يكون بإمكانهم بالتعاون مع السفن التي كانت لديه هناك، الحيلولة دون وصول الامدادات، ولكي يتمكن من امتلاك اسطولاً أكبر لإكمال تدمير الصليبيين التعساء، وواجهت هذه المراكب، المليئة بالمسلمين، الصليبيين وهم يبحرون نزولاً بالنهر، وأعقب ذلك معركة بحرية هي الأكثر دموية، فقد تساقط نشاب المتقاتلين، وتطاير كأنه زخات برد، وأخيراً بعد قتال طويل، تحول إلى قتال مرعب بوساطة النفوط، التي قذفت عليهم من قبل المسلمين، وبدأ الصليبيون يعانون من الانهاك ومن الجوع والحزن، ولذلك انتصر المسلمون عليهم بسرور، ونتيجة لوجود الاسطول الاسلامي الذي جاء من دمياط، وكذلك الاسطول الذي تمركز بالنهر، لمنع حمل الامدادات إلى تلك المدينة، ولمعارضة هؤلاء للصليبيين والتصدي لهم، وكانت جميع الممرات مغلقة في وجههم عندما رغبوا بالفرار، لذلك مامن واحد من الصليبيين نجا ليحمل أخبار الكارثة، إلى أصحابهم في دمياط، بل هلكوا جميعاً حيث أنهم إما أنهم غرقوا، أو أحرقوا، أو طعنوا بالأسلحة، أو واجهوا نوعاً آخر من الميتات التعيسة، وكان هناك واحد ممن جاءوا في الساقة، وكان على مسافة بعيدة عن كتلة الطليعة منهم، تمكن مع بعض الصعوبة من النجاة، وعاد دون المتابعة بسيره نحو دمياط، وقد طارده المسلمون، وفي أثناء فراره أصابوه بخمس جراحات كبيرة، وكان اسم هذا الرجل الاسكندر غيفارد Giffard, وكان انكليزياً من حيث المولد، وكان من أصل نبيل، وكانت أمه سيدة نبيلة، أقامت مع الملكة.

حول المذبحة التعيسة للفرنسيين

وعندما علم الفرنسيون بهذه الوقائع، تلاشوا ضعفاً أكثر فأكثر، مع الأسى الداخلي، ولم يستطع الملك مواساتهم، واستبد بعقولهم جميعاً،

وطغى عليها شعور باليأس الكبير، وفي المقابل كان السلطان الذي سمع بالكارثة التي حلت بالصليبيين، قد فرح وشعر بالسعادة، واستمد المزيد من الجرأة، وعندما سمع بالزحف الهجومي للملك الفرنسي مع جيشه دهش تجاه تهورهم، بعد تلك النوازل، وعجب كيف أن قلة من الرجال الجائعين قد تجرأوا على إثارة مثل ذلك الجيش الكبير، وتحريضه على القتال، ذلك أنه كان جيشاً تألف من جميع قوى الشرق، ولذلك دعا أعيانه للاجتماع معاً، وشجعهم بالكلمات التالية: «أيها المقدمون الأعظم نبلاً في الشرق، الذين تمكنوا الآن بشكل مشرف من الانتصار، وهزيمة قرابة نصف الجيش الفرنسي، والذين يتمتعون بأسلاب، وأسلحة، وخيول الذين قتلوا، تصدوا بجرأة لهذه الحثالة المقبلة، الذين هدّ أفرادها الجوع، والحزن، ومن السهل سحقهم، وعليكم أن تقتلوا بلا رحمة الذين يتصدون إليكم، حتى لايتمكن أي واحد منهم من الفرار، أو يتملص من أيديكم المنتصرة، لأنه ما هذا التهور الأحمق الذي حرضهم على مهاجمتنا، والسعي لحرماننا من ميراثنا، نحن الذين سكنا في هذه الأرض الجليلة منذ الطوفان؟ فهل هم يريدون منا أن نؤمن بمسيحهم على الرغم من إرادتنا؟ فمن الذي يمكنه أن يتحول عن دينه، أو يؤمن بشيء ضد إرادته؟ هناك محرض ما —هو ضعيف— قد دفع الصليبيين إلى اشتهاء السيطرة على مايسمونه مقدساً، لكن ما شأنهم ومصر، ولماذا يفعلون فيها مايفعلون؟ فهم غير أهل لأن يكونوا سادة على البلاد التي تشرب من نهر أرسل من الجنة، وتنال الثروة منه، إنهم رجال بلالحى، وحليقين، وليسوا أهلاً للقتال، وبلهاء، ومخنثين، لابل أكثر شبهاً بالخصيان، أو بالحري بالنساء، منهم بالرجال فكيف تجرأوا أن يفعلوا الذي فعلوه»؟، ولدى سماع هذه الكلمات التهب جميع المسلمون حماسة ورغبة بالقتال، وصاروا مثل نار مستعرة، وواجهوا رجال الصليبيين في القتال مع كثير من الثقة.

أسر الملك الفرنسي

وعند ذلك زحف اخـوانـنا الصليبيـون، وعندمـا اقتربوا من مكان المعركـة، التي هلك فيها اخـوانهم من الفرنسيين بشكل تعيـس، وجدوا أجسـاد القتلى من دون رؤوس، وقد حـرمـوا من أيديهم وأرجلهم، كما كانوا كذلك مشوهين، لأن المسلمين تنافس واحدهم مع الآخر، في قطع أطراف ورؤوس أجسـاد القتلى، وذلك في سبيـل الحصـول على الجائـزة الموعـودة من السلطان، وتركـوا بقيـة الأجسـاد حتى تلتهـم من قبل الحيـوانات، والطيـور الجارحـة، وعندمـا رأى الفـرنسيـون هذا المشهـد شرعـوا بالندب والنحيب، ونتفـوا شعـورهم، ومـزقـوا ثيـابهم، وبللوا دروعهم وترستهم بدمـوعهم، وبذلك كان أسـاهم يمكن أن يثير شفقة حتى أعدائهم، وفي الوقت نفسـه، ظهرت حشود العدو أنها باتت قـريبة جداً، وأعقب ذلك على الفور نشوب صراع محزن، لكن ماالذي كان من الممكن أن يفعله مثل ذلـك العـدد الصغير من الرجـال، الذين أنهكهم الحزن، والآلام، والجوع، والعـوز، وكـانوا يمتطون خيـولاً جـائعـة، ويؤثرونه ضـد مثل تلك الآلاف المؤلفـة؟، وانهزم الفـرنسيـون، ونزلت بهم الضربات، وقتلوا، وتنافس واحـدهم مـع الآخـر في الخضـوع إلى أعدائهم، وباختصار جرت هزيمـة الجيش الفرنسي وتمزيقه، وعدد قليل فقط من أعـداء الفـرنسيين قتلوا، وفي هذا القتـال المشـؤوم، قتل واحـد فقط من ذوي المراتب بين المسلمين كان معروفـاً وكان اسم هذا الرجل Melkadin ابن Rocus(?) وعلى الـرغم مـن سقـوط الكثيرين من الجانب المعادي، مثلما خسرنا، فإنه لم يظهر على جيشهم أي نقص، ذلك أننا خسرنا ألفي فـارس وثلاثمائـة فـارس، كلهم من أصل نبيل، وخمسـة عشر ألفـاً من الجنود، فهـؤلاء جميعاً قـد قتلوا، أو وقعـوا أسرى وصـاروا تحت إرادة أعـدائهم، ولكي يضـاف إلى أحـزان الفـرنسيين، وخزيهم الـدائم، ولاضطراب الكنيسة والمسيحيـة بأجمعهـا،

وقع الملك الفرنسي بالأسر، مع عدد صغير جداً كانوا قد دافعوا عنه، وهم شارل كونت بروفانس، وألفونسو كونت بواتو، ونبلاء آخرين ثبتوا إلى جانبه، ولم يرد قط في أي كتاب بأن ملك فرنسا قد وقع أسيراً، خاصة لدى المسلمين، أو لحقت به الهزيمة، إلاّ هذا الملك، وطالما أنه هو وحده قد بقي سالماً ومشرفاً، وإنه وإن سقط البقية، فإن المسيحية يمكنها أن تمتلك بعض الوسائل، في استرداد أنفاسها، وفي تجنب العار، ولهذا قام داود في المزامير، بالدعاء بالروح، بأن يتم حفظ الملك، لأن على بقائه يعتمد بقاء الجيش كله، وجاء هذا في قوله: «يارب، احفظ الملك»، أما بالنسبة للقوات التي قادها روبرت كونت أرتوي، أخو الملك، في حملته الطائشة، فقد هلك حوالي الألفي فارس، وسبعة آلاف ومائتين من الرجال المحاربين، وقد نجا من الداوية ثلاثة فرسان فقط، ومن الاسبتارية أربعة فقط، فقد مات الخامس من جراحاته، ولنزيفه ونقصان دمه، وكانت وفاته قبل أن يصل إلى عكا، ونجا من رهبان طائفة التيوتون ثلاثة فقط، وكانوا نصف أموات، وسقط هناك في هذا الصراع المميت، إلى جانب الداوية والآخرين، الرجال المشهورين التالين: «رالف دي كوسي Coucy, وكان فارساً مشهوراً ومتميزاً، وهوغ، كونت فلاندرز، وكان رجلاً صاحب قوة كبيرة، ومتميزاً، وهوغ برون Brun, كونت التخوم، الذي كان والده قد توفي قبل وقت قصير في دمياط، وأيضاً كونت أوف بونثيو Ponthieu, وكان حاجاً، ولكي نجمل ما حدث ببضع كلمات فإن جميع النبالة الفرنسية قد سقطت هناك وقتلت، ووقع بالأسر غوشير دي شاتيلون Gaucher de chatillon, وكان جريئاً، وفارساً لايقهر، ونقل بعد المعركة، وأرسل ليقدم هدية إلى الخليفة بين هدايا غنائم المعركة، وكان من عادة الخليفة عدم اطلاق سراح أي صليبي، أودع في سجنه، وكان وليم لونغوسبي، قد سقط أيضاً، وهو مغطى بالدماء، بعدما لطخ سيفه بدماء عدد كبير من أعدائه، وسقط معه روبرت دي

فيري، وعدد آخر من الفرسان المشهورين وأتباعه، وهذا الفارس، مع أنه أقنع بأن ينجو، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك، رفض خشية أن يظهر أنه غير جدير بالتعايش مع الشهداء الآخرين.

حول ولاة دمياط والأسطول الذي ترك هناك

وكان قد ترك في دمياط مسؤولاً عنها: دوق بيرغندي، الذي تولى إمرة القوات والناس الذين تركوا في تلك المدينة، وأوليفر أوف تيرمس Termes, وكان مقاتلاً متميزاً، وقد تولى إمرة رماة القسي الزيارة، وخيول المناوشة، وكان هناك أيضاً في المدينة أودو، النائب البابوي مع أسقفي أميان Amiens وسواسون، وقساوسة آخرين وكهنة، وكذلك ملكة فرنسا، وسيدات أخريات كثيرات كن في خدمتها، أما بالنسبة لقيادة الأسطول أيضاً، الذي كان تعداد سفنه كبيراً جداً، ومثله في الفخامة، أو أحسن منه تزويداً، لم يشاهد مثله قط، فقد عيّن لقيادته بعض مشاهير الفرسان، وقد تمركز في المدينة، مع بعض الجنويين، والفلمنكيين، والبواتيين، والبروفانسيين، وكانوا جميعاً مخلصين للملك الفرنسي، وخاضعين له.

وينبغي أن نشير هنا، إلى أنه في اليوم نفسه الذي جرى فيه أسر الملك الفرنسي، كان الايرل رتشارد يحتفل مع البابا، ومثلما أسر سلطان مصر الملك الفرنسي، كان البابا يسعى لأن يأسر الايرل، بوساطة الاحتفال به، وليقدم له معروفاً واستجابة لرغباته.

كيف رفض الملك الفرنسي إعادة دمياط إلى المسلمين مع أنه كان أسيراً

وبعدما جرى أسر الملك الفرنسي، ووضع في سجن مضمون، وقام المسلمون، كما كانوا قد فعلوا من قبل في قضية الذين أسروهم وكانوا مع أخي الملك روبرت، فقطعوا الآن رؤوس وأطراف وأيدي وأرجل

القتلى، وذلك بمثابة علامة على الانتقام الأقصى، وذلك حسبما أمر السلطان، وكانوا أيضاً يأملون بالجائزة التي تقدم ذكرها أعلاه، إنما كان كلما ازدادت آلام هؤلاء الشهداء المقدسين، كانت بلاشك الجائزة التي سوف ينالونها أعظم، وقرر السلطان أخذ الملك الأسير إلى الأجزاء القصوى من الشرق، وذلك كعلامة على النصر، وموضوع هزء إلى جميع المسلمين، ولكي يحصل على شهرة لنفسه، من أجل أن يتعرض أسيره إلى اهانات جميع المسلمين، وفي سبيل أن يجري تقديم أكثر الملوك المسيحيين شهرة إلى الخليفة، تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، على أساس أن أعظم المسيحيين نبلاً ومكانة قد سحق، فبذلك يمكن للمسلمين أن يشعروا بآمال سحق البقية.

لكن بما أنهم كانوا أشد رغبة بتملك دمياط، جرى تغيير الخطة، وذلك خشية أن يموت الملك حزناً وكمداً، لأنه رفض أكل أي شيء، أو الشرب لمدة يومين بعد أسره، وقد رغب بالموت، ولو أنه مات، لكان بإمكان المحاصرين، الوقوف والصمود دونما خطر، لمدة عام على الأقل، في وجه حملات جميع جيوش الشرق، بكل من البر والبحر، ولكان في الوقت نفسه من الممكن تحريرها بوساطة نجدة من الصليبيين، لأن دمياط كان مدافعاً عنها بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية، والأبراج، وكان الأسطول في البحر أسطولاً لايقهر، ولذلك قدر الأناس الأكثر حكمة والأعلى مكانة بين المسلمين هذا الأمر، ورأوا دعوة الملك على الفور لتسليم دمياط،وأن يدفع بمثابة فدية لشخصه مبلغ مائة ألف باوند من الذهب، وعلى هذه المطالب رد الملك بملامح كئيبة، وبلهجة متوسلة: «الرب القدير يعلم بأنني قدمت إلى هنا من فرنسا ليس لنيل أراض أو مال لشخصي، بل لأربح للرب أرواحكم المحيق بها الخطر، وأنني لم أقم بهذه الرحلة الخطرة في سبيل منفعتي، بل من أجلكم، ووفاء لنذري، لأنني أمتلك كثيراً جداً من الأراضي،

المعتـدلة والصحية، مع أنني مـذنب ولست جـديراً بها، غير أنني مشفق على أرواحكم، التي سـوف تهلك بدون شك، كـونوا راضين بـالدمـار الذي لحقني، لأن المسيح غاضب عليّ، ولذلك عـانيت بطرق مختلفة، أنا من الممكن أن أقتل، ومن الممكن استخـراج المال مني، إلى حد إفقـاري تماماً، لكنني لن أسلم دمياط إليكم، التي حصلت عليها بوساطة معجزة لاهوتية».

كيف حاول المسلمون الاستيلاء على دمياط بالخداع

بينما كـان المسلمـون يتداولـون حول هذه القضـايا، قـال واحـد من الأكثـر دهاء بينهم: «لماذا أنتـم مترددون؟ إنه سـواء أرضي هذا الأمير الأسير الضعيف، أم لم يرض، سـوف نحصل على دميـاط وعلى المال المطلوب»، وبمـوجـب هذه النصيحـة، قـامت كتلة قـوية من المسلمين مساوية في العدد لتعداد الجيش الصليبي، أو ربما كانت أكبر، وقام أفراد هذه الكتلة بلبس دروع الصليبيين بشكـل خيـاني، وحملوا أيضـاً تـرسـة وأعـلام الصليبيين الذين قتلوا، وانطلقـوا على الفـور وهم مموهين على هذا الشكل نحـو دميـاط، من أجل أنهم، وقد حملـوا مظهر الفـرنسيين، يمكنهم الحصـول على سماح بالدخـول إلى المدينة، فما أن يسمح لهم بذلك، حتى سيقتلون كل الذيـن سيجدونهم هناك فيهـا، لكنهـم عندمـا وصلوا إلى المدينـة، نظر الحرس الصليبـي من وراء شرافـات المدينـة والأبراج نحـوهم، واعتقدوا في البـداية أنهم صليبيين مسرورين يحملون الأسلاب والغنائم، لكن مع ازدياد اقترابهم، ظهروا أكثر أنهم لايشبهون الفـرنسيين، لأنهم سـاروا مسرعين وعلى شكل حشـود غير منتظمـة، وحملوا ترستهم بشكل فـوضـوي، وفق عـادات المسلمين أكثـر منه وفق عـادات الفـرنسيين، وعندمـا وصلوا إلى الحد الأقصى من التحصينات، واقتربوا من أبواب المدينة، تبرهن بشكل واضح أنهم مسلمين من خلال وجـوههم السوداء الملتحيـة، وكانت مهمـة جداً مسألة لحاهم، وطلبـوا

على الفـــور بشك جليـل السماح لهم بالدخـــول إلى المدينـة، لأن جميع الممرات إلى القلاع والمدينة، كانت محروسة بتيقظ وحذر.

حول حزن الصليبيين لدى معرفتهم بالمذبحة التي تقدم ذكرها أعلاه

عندمـا شاهد رجـال حاميـة المدينة المسلمين، وقـد تجهزوا بأسـلاب الصليبيين، ومن ثم أخبروا بتـدمير الجيش الصليبي، مـلأوا المدينة كلهـا بنحيبهـم، ورفضوا —على كل حال— السماح إلى أعـدائهم بالدخول إلى القـــلاع وإلى المدينة، وأعلنوا بجـرأة، أنـه وإن كـــان الجيش الصليبي، وكـذلـك ملكه، قـد هلكوا، فإنهم ســوف يتحملون بثبـات الحصـار، وسيصمدون أمام حملات جميع المسلمين في الشرق، لوقت طويل، لأنهم يأملون بشكل أكيد باستلام المسـاعدة، إنما عندما رأى الأشخاص الذين كانوا يتولون المراقبة من أعلى الأبراج، بأنه كان هناك جيشاً كبيراً، واسع الانتشار، وقد تكون من هؤلاء القادمين الجدد، ولأنهم عرفوا أن قواتهم كـانت تماماً غير قـادرة على الوقـوف أمام قـوات الأعـداء، قرروا عـدم الاقلاع بحمـلات للهجوم عليهم، خـاصة وأن قـواهم أخذت تحبطهم بسبب الحزن والعـــوز، هذا ومـن الذي كـــان بإمكانـه أن يروي بشكل كـامل حـــزنهم القلبي وأسـاهم، عندمـا شـاهـدوا أعـداء المسيح وهـم مظهـرين لتفــاخـرهم واستخفـافهم، وهم مــرتدين لدروع، ويحملون أعلاماً، ورنوكاً يعرفون أشكالهم بوضوح؟.

كيف تنازل الملك الفرنسي عن دمياط إلى المسلمين ثمناً لحريته

وعندما أخفقت هكذا خطط المسلمين عادوا، وشرعوا منذ ذلك الحين بالتعـامل بلطف مع الملـك الفـرنسي، وبناء على ذلك سمحـوا بخـدمتـه بالطعـام وبالشراب، وأن يتولى ذلك رعـاياه الذين وقعوا في الأسر معـه، لأنه كان خائفاً من أن يجري تسميمه، وفقاً لعادات المسلمين، وقد احتفظ

به سجيناً بينهم لمدة شهر وأكثر، وطولب خلال تلك المدة، مع تهديدات مرعبة، بالتخلي عن دمياط، وبما أنه رفض أن يفعل ذلك، وفق أي شرط من الشروط، طالبوه بوجوب دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره من دون نقص، أو أنه سوف يتعرض لميتة شنيعة، بوساطة عذاب طويل، أو أنه سوف يرسل إلى الخليفة، مما سيسبب العار للإيمان المسيحي، حيث لن يسمح له بالعودة، ولن يكون هناك أمل بالفدية.

وبناء عليه، قدّر، وهو في هذه الضائقة، أنه لن يتمكن من النجاة من بين أيديهم، وأنه لن يستطيع بأية وسيلة من الوسائل الاحتفاظ بدمياط، أو الحيلولة دون سقوطها للعدو الذي سيحاصرها (فمن الذي كان يمكنه وقتها أن يحرره، أو ينقذ تلك البلاد بالقوة؟)، ورغبة منه في أن يحسن أوضاعه بطريقة ما، أجابهم الملك قائلاً: «نحن في الغرب ليس لدينا الوفرة الكبيرة من الذهب مثلما لدى شعبكم في الشرق، كما أننا لانستخدم الباوند في حساباتنا، ولذلك نبدل الذهب إلى فضة، والباوندات إلى ماركات، ودعوني أذهب تحت الضمان والارشاد من قبلكم إلى عكا، لأتدبر إعادة الأسرى من على الطرفين، وخلوا أيضاً الذين يسكنون في دمياط يذهبون تحت ضمانتكم، إلى مكان آمن، غير متعرضين للأذى بأشخاصهم، ومحتفظين بأسلحتهم، فوقتها سوف أقول بقلب جريح بعمق:

إنني سأتخلى لكم عن دمياط، إذا ما تمكنت من اقناع المحاصرين في المدينة بالموافقة على هذه الشروط»، وبما أن هذه العروض، مضاف إليها هدنة عشر سنوات، قد أرضت السلطان، أرسل الملك أربعة من فرسانه، مصحوبين ببعض الأعيان المسلمين، مع رسائل، واعتمادات سرية إلى النائب البابوي، والدوق، وإلى الآخرين الذين كانوا مسؤولين عن المدينة ومتولين لحكمها، وأعطاهم شارة، وأقنعهم بإعادة دمياط إلى المسلمين، وفق الشروط التي تقدم ذكرها أعلاه.

وعندما عبر رسل الملك المعسكر بصحبة المسلمين الذين تقدم ذكرهم، ووصلوا إلى أبواب المدينة، سلموا الرسالة التي كان معهوداً بها إليهم، ولدى تسلمها حزن النبلاء الصليبيون أكثر مما يمكن التعبير عنه، ومكثوا وقتاً طويلاً وهم في حيرة حول الذي عليهم فعله بالنسبة للقضية، لأنهم خافوا خوفاً عظيماً من مكر العدو، وخشيوا أنهم بعد تسليمهم دمياط، أن يجدوا الملك وقد تسمم، وكذلك جميع الذين كانوا معه، وأنهم سوف يعيشون لوقت قصير جداً فقط، لأنهم كانوا على دراية جيدة بهذا النوع من الخيانة الاسلامية، ولكنهم عندما علموا من رسل الملك، بأنه كان لايتسلم الطعام أو الشراب من أيدي أي من المسلمين، اقتنعوا بوساطة تدخلات النائب البابوي والملكة، وأصدقاء الملك الآخرين، الذين كانت تهمهم حياته، بأن يتجاوبوا مع الشروط، وبعدما تسلموا ضمانات حول سلامة الملك، وكذلك سلامتهم، وسلامة البحارة، وكذلك أماناً حتى الوصول إلى عكا، تخلى ولاة المدينة (وأنا آسف أن أكتب ذلك) عن مفاتيحها، ولم يكن ذلك على كل حال من دون تأوهات حزن عميقة، وعندما سمع الناس بهذا، قاموا بهياج حزنهم، وغضبهم، وعلى عكس الشروط التي تمت الموافقة عليها من الجانبين، فدمروا جميع المؤن، التي كانت متروكة هناك، وهي المؤن التي كانت عائدة إلى الملك أو إلى الآخرين، وكسروا براميل الزيت، والخمرة، ورموا بالقمح والشعير، واللحوم المملحة، أو أحرقوها، لأن الحزن كان قد استبد بهم وقهرهم لدى التفكير بأن أعداء الإيمان سوف يسمنون اعتماداً على مخزوناتهم، التي حفظوها خلال تلك المدة الطويلة من حالة الجوع، ورأوا أنه كان من الأفضل أن لاتؤخذ مطلقاً.

كيف جرى إعدام الصليبيين في دمياط

ثم أطلق السلطان سراح الملك، وأرسله بأمان إلى عكا، وتملك مدينة دمياط، لكن لدى دخوله إليها، وجدها مجردة تماماً من جميع أنواع المؤن،

وأن الأوعيــة التي تحفظ هذه المؤن قــد حطمت إلى قطع، لذلك أمــر بأفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين الذين وجدهم هناك [لأن أصحاب المراتب العليا كانوا قد نجوا] فأعدموا، وحزن لأنه سمح لأعيان الناس —الذين وافقـوا على الشروط— بالمغـادرة بسلام، كما أنه أمـر بإحـراق أسطول الصليبيين الذي وجده هنـاك، وعلاوة على ذلك، فإن الصليبيين الذين كـانوا قد غادروا المدينـة على شكل حشود، قد جـرى اعتراضهم من قبل كمائن المسلمين، الذين هاجموهم مـن الجبال ومن الوديان، وقـد جـرى تمزيقهم إلى أشــلاء من قبلهم، ولحسن الحظ كــان الأسرى قـد أعيدوا قبل هذه الواقعة.

كيف تحدى الملك الفرنسي السلطان

عندما وصلت أخبـار هذا الإجراء إلى مسـامع الملك الفرنسي، الذي كــان مقيماً في عكـا، تحت حماية الداويـة والاسبتــاريـة مع الصليبيين الآخـرين، أرسل رسالة إلى السلطان، بأنه غـادر، وعدواني، لأنه خـرق من دون حيـاء الهدنة التي عقداها، وأنه حصل على المال، الذي تسلمـه منه —الملك الفرنسي— بالخداع، وعلى هذا رد عليه السلطان قائلاً، بأن الفـرنسيين هم الذين أسهمـوا في اعطـاء فـرصـة الانتقـام هذه، وأثاروا عدوانيـة المسلمين، وأن شطراً منهم قد تبرهن بأنهم قـد تورطوا في هذه الآثام العدوانية، لذلك عانوا بعدل من العقوبات التي تقدم ذكرها.

المسلمون يثورون ضد السلطان

عندمـــا سمع شعب الشرق مـع المصريين بأن السلطان قـــد رشي، وبذلك سمح لمثل ذلك الملك القـوي ولإخـوانه بالمغادرة وهم أحـرار، غضبوا غضباً شديداً، وثاروا بالسـلاح ضده، ولم يستطع أن يسوغ نفسه إليهم بـالسبب الذي أعطاهـم إياه، من أنـه رغب في استرداد دميـــاط لصـــالـح المسلمين كلهم، وفي سبيل أن لايكون الميناء الموجـــود هناك،

ووسائل الدخـول إلى البلاد، مفتوحة لبقيـة الصليبيين، ولذلك إما أنهم أرغمـوه على الفـرار، أو قتلوه، وقـد ازدادت ثورة الشعب المسلم ضـد السلطان، من أنه لم يعط أحداً شيئاً من المال الذي حصل عليه، قبل أسر الملك، وبعـــد أسره، ولم يدفع لهم الأعطيـات المتفق عليهـــا مع أنهم أوصلوا الحرب إلى نهايتهـا، وتولوا إعدام الفـرنسيين المغلوبين، بناء على أوامره.

ونشب بين ذوي المراتب العليـا من النـاس الشرقيين، الذين كـانوا هناك، صراع مميت وخـلاف شـديد، حـول من الذي من بينهم سـوف يتمتع بمجـد الاستحــواذ على مثل تلك الغنائم الكبيرة، هـذا وعندمـا علموا باطلاق سراح الملك، صبوا جام غضبهم على السلطان.

وهلك في مدينة دميـاط أوليفر دي تيرمي Termes مع جميع أتبـاعــه، الذين ندعــوهم الـ Ruptarii (المناوشين بالخيــــــول)، وهلك أيضـاً عـدد كبير آخـر، تعـدادهم كبير جـداً حتى نتمكن من ذكـرهم، لكنهم —كما هو معـروف بشكل جيـد— قـد دونت أسماءهم اسماً اسماً في كتـاب الحيـاة، ومـن الواضح أن السبب في هـذه الكارثة الكبيرة كان تجبر كونت أوف أرتوي، الذي رفـض مع الشتائم الإصغاء إلى تواضع المسلمين، عندمـا تقـدمـوا —في سبيل السـلام— بكثير من العـروض، سلف ذكرهـا، وبعد ذلك، ومن أجل أن ينسـب المجد إليـه كله، أخذ معه ثلث الجيش، وترك بشكل سري بقية جيش الملك، ولكي نكون على اطلاع كـامل حـول خصـوصيـات المسـائل المتقـدم ذكـرها، أقحمنا في هذا العمل، الرسالة التالية، التي أرسلت إلى الايرل رتشارد.

الرسالة التي أرسلت إلى الإيرل رتشارد

«إلى صاحب السمـو رتشارد، ايرل أوف كورنويل، مستشـاره جون، إلخ، إلخ:

بما أنه في بعض الأحيـان تقلق عقول الكبـار، وتتعذب نتيجـة لعرض مختلف الاشـاعات، حتى تبـات الحقيقـة معروفـة، رأيت من المناسب أن أوصل إليكم بعض الأخبـار المحزنة والمبكيـة المتعلقة بالجيش الفـرنسي، بشكل محدد وصـــادق، وهـي تقـــارير لم تنشر بعـــد، وقـــد علمت بخصوصيات ذلك برواية شفوية، وليس من خلال رسالة مكتوبة، وهي تقارير معتمدة وصـادقة سمعتها من كاهن سـالف لي، كان قد أرسل إلى ملكة فرنسـا، وذكرت هذه التقـارير، أنه بعد عيـد طهارة مـريم العذراء المبـاركة، أخـذ الملك الطريق نحـو القاهرة، وقـد بقي دوق بيرغندي في دميـاط، وكذلـك زوجات النبـلاء، وكثير من السيـدات يتـولين خدمـة الملكة، لكن عندمـا حـاول الملك عبـور النيل، جرى اعتراضـه بقـوة من الطرف الآخـر للنهـر من قبـل سلطان مصر ومعـه أعـداد كبيرة من المسلمين، ولذلـك نصب معسكره على هـذا الجانب من النهـــر، وجمع قـوارب، من أجل أنه إذا مـاربطهم مع بعضهم، يمكنه عبـور النهـر مع جيشـه بهذه الواسطة، التي تكون بمثابة جسر، وفي اليـوم الأول للامتناع عن أكل اللحــوم، كـان السلطان غـائبـاً، مع أنه تـرك حشـداً كبيراً في معسكره قـرب النهر، وتطبيقاً لخطـة واحد من المتحـولين المسلمين، كان كونت أرتوي ومقـدم الداوية وجميع اخوانه الذين كانوا هناك، قـد تلقوا تعليمات خـالصـة بعبـور النهـر، وكـان هذا المتحـول بين جماعـة كـونت أرتوي، لابل كـان في الحقيقة خـادمه، وكـان برفقة هذين المقـدمين وليم لونغوسبي وأتبـاعه، مع عـدد كبير آخر، يصل تعـدادهم إلى حوالي ثلث الجيش كله، فهـؤلاء جميعـاً عبروا النيـل، وانقضـوا بشكل مفـاجيء على المسلمين، واشتبكوا بجـرأة معهم في القتـــال، وتبع ذلك صراع عنيف، وبعد طويل وقت، وبعد مقتل عدد كبير، في الحقيقة مقتل جميع المسلمين الذين وجدوهم في السهل، وكـذلك في معسكرهـم، وبعدمـا كانت هناك مـــذبحـة ألمت بكلا الجنسين، حصـل الصليبيـون على نصر مجيـــد، لكن الكونت وأتبـــاعـه لم يكونوا قـانعين بهذا، ذلك أن الكـونت رغب بعناد

بالمتابعة متوغلاً، ليهاجم قرية اسمها المنصورة، وكانت على مقربة منهم، مع أن الداوية عارضوا ذلك، وسعوا لإقناعه بالاقلاع عن فعل ذلك، عازين الأسباب إلى المصاعب التي عملوا في ظلها، والناجمة عن تعب أجسادهم وجراحاتها، ومثل ذلك خيولهم، مع أسباب أخرى، لكن الكونت المذكور وأتباعه ما كان ليعود بأي حال من الأحوال، وبعد تبادل اللوم بين أحدهم والآخر، تابعوا زحفهم إلى القرية المذكورة، وهاجموا الأعداء بجرأة، ولدى رؤية هذا، هرب جميع المسلمين الذين سكنوا في تلك القرية وفي الأماكن المجاورة، مع أصوات بكاء وانذار مرتفعة، وبذلك علم السلطان الذي لم يكن وقتها بعيداً كما هو معتقد، وسمع في اليوم نفسه الصراخ، وعلم بحقائق القضية، ودخل الصليبيون —على كل حال— دون حذر إلى القرية، فقطعوا عن طريق تراجعهم، وقهروا بوساطة الأحجار التي انهالت عليهم، والتي رماها بعض السكان، الذين بقيوا متخفين فوق الشرافات، وتمزق أفراد الجيش وتفرقوا، وبصعوبة بالغة نجوا من ذلك المكان، بعدما تناقص تعدادهم كثيراً، ولذلك بدأوا على الفور ييأسون، ثم قدم السلطان مع حشد كبير جداً، واشتبك بصراع دموي معهم، وأخيراً —بعدما سمح الرب— تمّ قتل جميع الصليبيين، باستثناء شخص واحد، من مرتبة متدنية، أخذ طريقه عائداً بصعوبة كبيرة، وحزن الملك كثيراً لدى سماعه بهذا (ولاعجب في ذلك)، واستعد بكل حماسة في عقله، وبكل سرعة في مقدوره، ليتمكن شخصياً من عبور النهر، بوساطة القوارب المتقدمة الذكر، وبوساطة مراكب أخرى، قائلاً لأتباعه: «إنه من الضروري الآن أن تعرض فرنسا كل شجاعتها، وأن تبذل قوتها كلها»، لكن في الوقت نفسه كان كثير من الصليبيين قد سقطوا من الجوع والعطش، وحيث أن خيولهم كانت مرهقة وجائعة، بدأت تزداد ضعفاً، والذي كان أسوأ من هذا كله، ومحزناً، هو استعادة ذكرى الذين قتلوا، فهذا أصاب قلوب الجميع وجعلهم يشعرون بالمرارة في أرواحهم.

وفي الوقت نفسه أيضاً، تبع العائق العائق، لأن السلطان المذكور، الذي كان كثير من المسلمين قد هجروه، صدوراً عن كراهيتهم له، بالعقل والجسد، بسبب تجبره وخداعه، قد مات في هذا الوقت، وقام المسلمون على الفور بتعيين واحد آخر، هو ابنه، وقد توحدوا جميعاً معه، وأدوا يمين الولاء له على أساس أنه مولاهم، وهكذا أصبحوا كلهم بالفعل جسداً واحداً، وأخذوا يشعرون بالثقة، وصاروا متوحدين بقوة أعظم مما كانوا عليه من قبل، في سبيل تدمير الصليبيين، لأنهم رأوا أن الدمار الشامل محيق بهم، وعرف السلطان المعيّن حديثاً عن طريق نصائح الشيوخ والشطر الحكيم من أتباعه، بعد عمل مثابر، بإجراءات الصليبيين وخططهم.

وأرسل الملك في الوقت نفسه، كثيراً من أفراد الجيش الفرنسي، الذين هدهم المرض والجوع، في أسطول، عن طريق النيل، عائدين إلى دمياط، في سبيل أن يستردوا قوتهم في مكان آمن، وكان السلطان قد أخبر سلفاً بهذا، فتدبر جلب عدد أكبر من المراكب، مشحونة برجال مسلحين، وجلبت هذه المراكب في عربات تجرها الثيران، وكانت مهمة هذه المراكب اعتراض أسطول الملك، ونشبت معركة بحرية حادة جداً فوق النهر، فيها تمّ تبادل الرمايات من على الجانبين، حيث تطايرت مثل زخات البرد، وقد تمكن المسلمون بقذفهم النفوط على الصليبيين، من إحراق كثير من مراكبهم، وقتلوا الناس الذين كانوا فيهم، وحصلوا على النصر، وغرق الصليبيون، أو قتلوا، أو أحرقوا، وهكذا تمكن الرب في غضبه من تدميرهم جميعاً بالسيف مثلما دمرهم بالجوع، ونجا واحد منهم فقط، وكان انكليزياً من حيث المولد، ليعلن خبر الكارثة المبكية إلى الملك، الذي غلبه الحزن والأسى، فكان مثل أيوب آخر.

وبعد هذا، في ثمانية الفصح التالي، قام الملك مع جيشه بعبور النهر الذي يتدفق من النيل، وهو يعرف باسم آخر، هو نهر تنيس، وقد قوبل

من قبل السلطان مع حشد لايحصى من المسلمين، وأعقب ذلك معركة، انتهت بنتيجة مأساوية محزنة، ذلك أن الجيش الصليبي الذي ضعف من الآلام ومن الحزن، انهزم، ونزل سوء حظ لايمكن جبره بشعب المسيح، ووقع الملك مع أخـويه الحيين بالأسر، ومثل ذلك كـان حـال البقيـة، الذين لم يقتلوا، وهكذا بحكـم خفي وبقضـاء من الرب، تحولت قيثـارة المسيحيين من الغناء إلى الحزن، وعـوضـاً عن صـوتها الجميل السـالف، أخـذت تقـرع أصوات ندب مبكيـة، وبعـدمـا بات الملك مع الآخـرين أسرى، تحدث السلطان معـه ومعهم حـول السـلام، إنما أثناء البحث حول هذه القضيـة —لأنهم لم يستطيعوا الاتفاق، لأن الملك كـان حزيناً يائسـاً إلى حد الموت تقـريباً— أرسل السلطان بشكل خيـاني كتلة كبيرة من رجـاله، يحملون الراية الفـرنسيـة الحريـرية الحمـراء مع الأعـلام الفرنسية الأخـرى، من أجل مفاجئة الصليبيين الذين كانوا يجهلون هذه الحادثة، بغية التمكن من السيطرة على المدينة.

وكـان الصليبيون —على كل حـال— قـد أنذروا سلفاً وحـذروا من هذه الخديعة، وتنبهوا من خلال الزحف غير النظامي للقوات، فأغلقت الأبواب، وجـرى عقـد مـؤتمر، رفض خـلالـه الدوق مع الآخـرين مطالبهم، وأعلنوا أنهم ليسـوا خائفين، وأن بإمكانهم الدفـاع عن المدينة لمدة عـامين أو أكثـر، ففي خـلال تلك المدة، وقبل أن تنتهي، لابد وأن الرب سيزودهم بالمسـاعدة وبالرأي الصحيح، وأنهم لن يتزحـزحوا عن مـوقفهـم من أجل المحـافظة على حيـاة الملك، وبناء عليـه عـادوا إلى السلطان مخفقين فيما نووه.

وعلى كل حال، عمل الملك هدنة عن نفسه وعن ورثته، وربط نفسه، بوساطة رهائن، بأن يدفع مائة ألف مـارك من الفضة مع فقدان دمياط، ولان مـوقف ولاة تلك المدينة بوسـاطة الملكة وبعض أصـدقـاء الملك، الذين رغبوا في إنقاذ حياته، وأعيدت دمياط (أنا أكتب ذلك خجلاً) إلى

أعـداء المسيح، مما ألحق الإهانة بالكنيسة المسكونية، وهلك في هذه المعركة السيئة الحظ، جميع نبلاء فرنسا تقريباً، ومات جون أوف درو Dreux في قبرص، وكان فخار فرنسا، كنذير سوء حول مستقبل شرير».

سخط الفرنسيين لدى سماعهم بمقتل أبناء بلدهم

عندما جلبت أخبار هذه الحوادث المفجعة إلى علم السيدة بلانشي ونبلاء فرنسا، بوساطة بعض الناس الذين عادوا من البلدان الشرقية، لم يكن بإمكانهم تصديقها، ولم يرغبوا بذلك، وأمروا بحملتها بأن يشنقوا، ولقد كان هؤلاء، كما نعتقد، شهداء ظاهرين، وبعد لأي، عندما سمعوا بالحقائق نفسها من تقارير متوالية حملها أناس لايمكن التجرؤ على تسميتهم رواة حكايات، وعندما شاهدوا رسائل تحتوي على الروايات نفسها، مع وثائق موثوقة لايمكن أن تخطىء، ساد فرنسا كلها النحيب، والشعور بالإهانة، وتلاشى لاهوتيون وكذلك فرسان حزناً، ورفضوا تلقي المواساة، وكان الآباء والأمهات في جميع الاتجاهات يندبون موت أولادهم، وبكي التلاميذ واليتامى موت الآباء، والأقرباء موت الأقرباء، والأصدقاء موت الأصدقاء.

وتغير جمال المرأة، ورمي جانباً بأكاليل الورود، وألغيت الأغاني، ومنعت الأدوات الموسيقية، وجرى تغيير كل نوع من أنواع البهجة إلى نحيب وبكاء، والذي كان أسوأ هو أنهم اتهموا رب العدل، وجدفوا بمرارة قلوبهم، ولعنف حزنهم، وتفوهوا بكلمات الكفر، التي بدت ولها مذاق الردة أو الهرطقة، وبدأ إيمان الكثيرين يترنح، وكان من الممكن لمدينة البندقية الفخمة، وعدد كبير آخر من المدن، التي كانت مقطونة بأناس نصف مسيحيين، أن تقع بالردة، لولا أنها جرى تثبيتها بمواساة أساقفتها المقدسين، ورهبانها، الذين أكدوا بكل ثقة، بأن القتلى كانوا الآن يحكمون بمثابة شهداء في السماء، وهم لايرغبون الآن بالعيش في

وادي ظلام العالم، من أجل جميع الذهب الموجود في الدنيا، وهكذا أمكن بعد بعض المصاعب، تهدئة غضب بعضهم، لكن ليس غضب الجميع.

كيف حمل ملك قشتالة الصليب

عندما سمع ملك قشتالة العظيم الانتصارات، والذي ربح حتى الآن أكثر من ثلاثة عشر نصراً على المسلمين، سمع بهذه الحوادث، أشفق على الفرنسيين لما عانوه، وحمل شخصياً الصليب، معتقداً أن من الأفضل اخضاع الأرض المقدسة للمسيح، وأجدر من اخضاع أي بلد آخر.

الشكاوى التي عملت بسبب استخراج المال

مثل هذه كانت الثمار التي أنتجت بوساطة السلب والنهب، الذي مارسه النبلاء، بناء على اذن من الكنيسة الرومانية، أو بالحقيقة بناء على تعليم منها، مارسوه على جميع الفقراء المتألمين، في سبيل أن يملأوا أكياسهم، عندما ينطلقون للحج وليقاتلوا في سبيل الرب، ومن الحوادث المتقدمة الوقوع، من الواضح وضوح الضوء، كيف أنه لايرضي الرب الربح الذي يأتي من ظلم الفقراء وافقارهم.

مثل واضح حول استخراج المال مورس في فرنسا

مع أن ممارسة استخراج المال، التي جرت في جميع أرجاء المملكة الفرنسية، لم يجر ذكرها، وينبغي أن تبقى في صمت أبدي، رأينا أنه من الموائم، إقحام مثل في هذا الكتاب، حيث من المعلوم أن الملك الفرنسي، قد استخرج —بناء على اذن من الكنيسة الرومانية— العشر من الكنائس في جميع أرجاء مملكة فرنسا، لمدة ثلاث سنوات، على شرط أن يقوم البابا باستخراج الكمية نفسها من الجهة نفسها، حتى يتمكن من متابعة الحرب بنشاط أكبر ضد فردريك، لكن بعد الجباية لمدة ثلاث

أعوام، عندما رغب البابا في أن يجمع الثمار لنفسه، جرى اخبار الملك الفرنسي بذلك فرفض بشكل مكشوف السماح بذلك، ومارس خداعاً خاصاً به، ليهزم هؤلاء الجباة الشرهين، معطياً سبباً لذلك، بأنه لايمكنه بأي حال من الأحوال، السماح بأن تتعرض كنائس مملكته للإفقار، من أجل شن الحرب على مسيحيين، لكن في سبيل قتال الكفار، هو يمكنه أن يتحمل ذلك بمـــزيد من رباطة الجأش، لكن حتى آنذاك، يؤثر أن يكون ذلك بوساطة العلمانيين وليس رجال الدين، وبالاضافة إلى ذلك، إذا تركت الكنائس فريسة لمدة ثلاث سنوات مقبلة سوف تكون عرضة إلى دمار لايمكن جبره، وهذا أمر لن يزعج البابا حوله، وهو على هذا قام —حسبما ذكرنا أعلاه— باستخراج المال المذكور، بوساطة وكلاء البابا، حتى يكون التحصيل أكثر فاعلية، وأيضاً حتى يتمكن كذلك من معرفة كم ستكون حصة البابا، عندما ستجمع، وبهذا الإجراء، شعرت قلوب الكثيرين بحزن عميق، وفي وسط لعناتهم صلوا، بأن ينزل حكم النبي اشعيا، أو بالحري حكم الرب، بالذي لم ينظر نظرة مقت إلى جميع السرقات المرتبطة بالتقديمات إليه.

فهل من الممكن أن يقـوم ملك انكلترا مع أخيـه الايرل رتشـارد، والأمراء الصليبيين الآخرين الذين هم عازمين على نيل الربح القذر، أن يزنوا هذه الأشياء بميزان العقل، لأنه مع أن عمل الحج المقدس، هو عمل تقوي بحد ذاته، مع ذلك إن التزود من أجل الرحلة، عندما يتم الحصول عليه بوسائل قذرة، يدنس ممارسة العمل التقوي، وهذا —كما هو معتقد— كان سبب العار المتقدم ذكره أعلاه والدمار، مع أنه لعل هناك أسباباً أخرى، ربما هي غير مطلوبة، وبشأن الاستخراج الذي مورس في مملكة فرنسا، رأينا أنه من المناسب ذكر قضية واحدة، على أساس أنها حادثة مهينة جداً، فقد صدف أن قابل وكيل البابا المذكور كاهناً صغير المرتبة لإحدى القرى، وهو يحمل ماء في وعاء صغير، مع

مرشة وبعض قطع من الخبز أعطيت له مقابل رشه بعض الماء المقدس، وإليه توجه الروماني المخادع بمخاطبته هكذا: «كم هي المرابح التي تحصل عليها من هذه الكنيسة سنوياً»؟ وعلى هذا السؤال رد الكاهن الجاهل بالدهاء الروماني: «حوالي العشرين شلن، كما أظن»، ووقتها أعلن الروماني عن نفسه، وقال له: «من هذا المبلغ، يترتب على هذا من أجل منفعة المورد أربعة وعشرين بنساً، أي شلنين»، فدمر على الفور ذلك الرجل المسكين، الذي تسول من باب إلى باب قائلا: «ادفعوا إلى الملك مايستحقه منكم»، ولكي يدفع هذا المبلغ الصغير، أرغم هذا الرجل المسكين على اكتراء مدارس لأيام كثيرة، وأن يقوم ببيع كتبه في الساحات، وأن يسير وهو نصف جائع، لابل بحياة جائعة، لكن دعونا نترك الآن عملية الجباية هذه، وأن نعود إلى قضيتنا الأساسية.

شهامة راعية دير لاكوك

وعندما وصلت أخبار الكارثة المذكورة أعلاه إلى علم البابا، حزن بشكل مؤلم، ومثل ذلك فعلت كل جماعة البلاط الروماني، وجرى تعليق جميع المراسيم لبعض الأيام، وازدادت سمعة البابا سوءاً، وانتشر ذلك في الخارج بدرجات كبيرة، وكان من بين شكاوي الفرنسيين، كلمات سمعت، مثل مايلي: «واأسفاه، كم من الشرور جلبه علينا تجبر البابا، الذي رفض بعناد أن يقبل بتذلل فردريك، وأن لايتلقى منه ترضية صحيحة وموائمة، لابل بالحري أثاره حتى أوصله إلى مرارة الروح، فهو قد عرض بلا تردد، بلطفه، أن يسترد —من دون سفك للدماء— لنا جميع الممتلكات التي كانت في أيدي الصليبيين، في أي وقت من الأوقات، في الأرض المقدسة، والآن ويالأسف، كم من الدماء العامة والنبيلة، جرى سفكها —من دون فائدة— في الأرض المقدسة، وفي ألمانيا، وفي ايطاليا، وما هو أسوأ، إن الإيمان يتأرجح ويتراجع، والأرض المقدسة عرضة للخطر، والديانة المسيحية قد

تلاشت في تأثيرها، وأوهام المسلمين قد ارتفع شأنها، ففي ظل أي كوكب غير سعيد لابد أنه قد ولد، لأن سوء الحظ قد تفجر في أيامه، في كنيسة مولانا يسوع المسيح، الذي أعلن هو عن نفسه أنه نائبه».

وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى مسامع راعية الدير الكونتسة هيلا، التي أدارت بنشاط نسائي ديراً للسيدات الراهبات في لاكوك، وهي التي كانت أم النبيل وليم لونغوسبي ولدى تذكرها الرؤيا المجيدة التي رأتها حول ابنها، في الوقت الذي مات فيه، حيث كان واضحاً أنه كان شهيداً، كما ذكرنا أعلاه، قامت بروح مشرقة، فضربت يداً على يد، وجثت على ركبتيها، وانطلقت تحمد الرب وتثني عليه، وقدمت شكرها بشكل رفيع إلى المسيح بهذه الكلمات: «أيها الرب يسوع المسيح، أقدم لك شكري لأنك قضيت بذلك، قضيت بأن يخرج من جسدي —مع أنني مذنبة— مثل ذلك الابن، الذي تفضلت بتشريفه بتاج الشهادة، وإنني آمل بمساعدته، سوف أتقدم على الفور نحو أمجاد مملكتك السماوية»، وعندما شاهد الذين كانوا حاملين لهذه التقارير، والذين التزموا الصمت لوقت طويل، لخوفهم، شاهدوا أعمالها، وسمعوا كلماتها، أثنوا على هذا الثبات الأكثر مما هو نسائي، لهذه المرأة، وعجبوا كيف أنها بعاطفة الأم لديها، لم تنفجر بالنحيب والشكوى، بل بالحري تمجدت فرحاً ببهجة روحية.

وفيات بعض النبلاء

في سياق هذا العام الحزين، مات بعض النبلاء الذين كانوا رجالاً من الأعظم شهرة، أثناء ذلك الحج الذي تقدم ذكره، وكان بين هؤلاء: ايرلات، ومركيزات، وأساقفة، وفرسان، وقد مات بعضهم على ظهر سفنهم، وبعضهم في الجزر التي نزلوا بها، وغرق بعضهم، وكان واحداً من هؤلاء أسقف نويون Noyon, الذي كتب اسمه، وكذلك أسماء البقية، كما هو واضح، في كتاب الحياة السرمدية، وفي هذا العام

أيضاً، في حـوالي يوم عيد القديسة مـرغريت، مات روبرت مـوسشامب Muschamp, وكان رجلاً صـاحب اسم رفيع في المناطق الشمالية من انكلترا، ومـات في حـوالي الوقـت نفسـه أيضـاً هنري هيستنغ Hastings, وكان فارساً متميزاً، وباروناً غنياً.

كيف استعد المسلمون لإلقاء الحصار على عكا

وفي حوالي الوقت نفسه، عندما رأى المسلمون أن الحرب تقدمت بين أيديهم ونجحت، عملوا الاستعـدادات لحصـار عكا، لأنهم تمتعـوا الآن وابتهجوا بالأسـلاب الوافرة التي أخذوهـا من أعدائهم القتلى، وتألفت هذه الأسـلاب من: الخيـول، ومن الأسلحـة والدروع، وآلات الحرب، والقسي الزيارة، والسفن، والمؤن، وأيضـاً بسبب الجرأة التي شعـروا بها إثر الهزيمـة الأخيرة للصليبيين، وكـذلك نتيجـة للهـدنة التي تمّ التخلي عنهـا وهجـرها، وكانوا آسفين أيضـاً إلى أقصى الحدود، لأنهم سمحـوا للملك الفرنسي ولأخـويه الحيين بدفع الفدية، أو بالمغـادرة وهـم أحرار بعدما دفعـوا الفدية، ولهذا صبوا التهم ضد سلطان مصر، كـراهية منهم لنهمـه، وكـانوا أيضـاً واثقين تمامـاً بأنهم سـوف يستردون مقتنيـاتهم المفقودة، وأن ينالوا النصر على الملك وعلى أخـويه، وأسرهم أثناء تعبهم وهم مرهقين.

الملك الفرنسي يرسل أخويه عائدين إلى فرنسا

قام الملك الفرنسي التقي بتقدير الأمور، فبعـدما دفع مبلغ مال الفدية المتقدم ذكره، وهو مبلغ كان قد استقرضه من الداوية والاسبتارية، ومن الجنويين والبيازنة، وبعـدما استرد الرهائن التي كـان قد أعطاها، أرسل فجأة وبشكل سري أخـويه الحيين: ألفـونسـو، كـونت بواتو، وشـارل كـونت بروفانس، في سفينة قـوية، فبحكمـة أعادهما إلى الغـرب، وتحت ارشـاد الرب وحمايتـه وصـلا سـالمين معـافيين، أمـا الملك نفسـه، فبقي

حزيناً، ودونها مجد في عكـا، وأقسم في قرارة قلبه المرير، أنـه لن يعود إلى فرنسـا الحلوة، في مثل تلك الحالة من العـار، لأنه من الذي يستطيع من دون تأوهات ودمـوع الحزن، أن يصف أســاه ونحيبـه، عندمـا يرى أن أخـاه روبرت قـد بات ميتـاً، وهو نفسـه قـد هزم، وقـد عهـد بأخـويه الآخرين، في وضع مخز، إلى الأمواج الكبيرة في المحيط؟.

وذهب الأخوان المتقـدما الذكـر، مع دوق بيرغندي، الذي عاد معهما إلى الوطن، على الفـور إلى البـابا، لأنهم أمـروا بأن يفعلوا ذلك من قبل الملك، ليقومـوا بحثّه، لكن ليس بتوسـلات ناعمة، بأن يرسل مسـاعدة سريعة إلى الملك الفـرنسي، الذي كان موجـوداً في خطر ضائقـة شديدة، وكـان يقـاتل في سبيل كـرامة الكنيسـة المسكونيـة، وأن يعيـد فـردريك المتذلل إلى السلام مع الكنيسة، بحكم أنه هو وحده بين جميع المسيحيين يمكنه أن ينجد في حالة الخطر هذه، ومن ثم اقناعـه لإعطاء نجدة فعالة وسريعـة إلى الملك، الذي هو الآن في وضع ميئوس منه تقـريبـاً، وإذا لم يستجب وكـــان الأمــر على عكس المطلوب، على الـدوق، والكونتين المذكـورين، نقله، أي البابا من مقـره في ليـون، على أساس أنه عنيـد في كراهيته، غير حريص على كـرامة الإيمان المسيحي، وإذا ما قام الأسقف المنتخب لليـون مع أخيـه رئيس أساقفـة كـانتربري، اللذين وضع فيهما ثقته، بالدفاع عنه، فإن على فـرنسا كلها، برئاسة النبـلاء المتقدم ذكرهم، الثورة ضده.

حول الفيضان غير الاعتيادي للبحر وهياجه

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في اليـوم الأول من شهر تشرين الأول، وكـان القمر في ربعـه الأول، ظهـر هناك قمر جـديد، منتفخ، وأحمر في شكله، وذلك كإشـــارة على قـدوم عـواصف، وذلك وفقـاً للكتـابات المجربة لفيلسوف وشاعر في قوله:

عندما مايزال القمر جديداً، وعليه مسحة من اللون الأحمر

منتشرة فوق وجهه، إنه يهدد بعواصف من الريح

مالم يمنع ذلك حرّ، أو برد شديد.

وعندما يكون وجهه متورماً، ينذر بالعواصف، لكن عندما يكون شاحباً

ومشعاً، فهو ينقي وجه السماء

وبناء عليه فإنه في الأسبوع الأول من زيادة القمر، تغطت السماء بضباب كثيف، وبدأت تضطرب كثيراً بعنف الرياح، التي بدأت تمزق وتطرح الأغصان والأوراق التي كانت وقتها تتلاشى وتموت على الأشجار، وحملتهم إلى مسافة بعيدة في الهواء، والذي كان أكثر تدميراً، هو هياج البحر الذي تجاوز حدوده الطبيعية، وتدفق تيار المدّ لمرتين من دون جزر، وقذف بأصوات زئير مرعبة، إلى حد أنها بعثت الدهشة لدى الذين سمعوها حتى في مناطق نائية عنها، واعترت الدهشة حتى الشيوخ من الناس، وفي الحقيقة ما من أحد في العصور الحديثة يتذكر قط وقوع مايشبه هذا الشيء من قبل، وفي ظلام الليل أيضاً، ظهر البحر وكأنه يحترق مثل النار، وبدت الأمواج الهائلة وقد احتشدت مع بعضها، وكأن إحداها تتحارب مع الأخرى، بحدة كبيرة إلى حد أن البحارة البارعين ما كان بإمكانهم انقاذ سفنهم من الغرق، ودون أن نذكر قضايانا الأخرى، ففي ميناء هارتبورن Hertbourne وحده، ابتلعت الأمواج الهائلة والهائجة ثلاث سفن فخمة، إلى جانب سفن أخرى صغيرة، مع سفن أخرى متوسطة الحال، وفي وينشلسي Winchelsea —وهو ميناء على الساحل الشرقي— جرى تدمير بيوت الملح، ومساكن صيادي السمك، والجسور، والطواحين، وبالاضافة إلى ذلك تمّ تدمير أكثر من ثلاثمائة بيت في تلك القرية،

وذلك بالاضافة إلى بعض الكنائس، فقد أطيح بها بوساطة البحر الهائج والمرتفعة مياهه، وعانت هولاندا في انكلترا، وهولاندا في القارة أيضاً، وكذلك فلاندرز، والمناطق الأخرى المنخفضة، المجاورة للبحر من دمار يصعب جبره، وأرغمت الأنهار التي تصب في البحر على التراجع وازدادت مياهها إلى درجة أنها فاضت على المروج، فدمرت الطواحين، والبيوت المجاورة لهم، وهاجمت الحقول، وحملت الحبوب التي لم تكن قد خزنت بعد في الهري، وبذلك ظهر غضب الرب واضحاً إلى الفانين في البحر، وكذلك على الأرض، وبدت عقوبات المذنبين أنها باتت وشيكة، وفقاً لنبوءة حبقوق في قوله: «هل أنت غاضب أيها الرب في الأنهار، أم أن سخطك هو في البحر»؟ وهل من عجب في ذلك؟ لأنه من البلاط الروماني، الذي يفترض أن يكون نبع العدالة كلها، صدرت آثام لم يذكر مثلها، وإن واحداً منها —مع أنه غير جدير بالوصف— رأينا أنه من الموائم إقحامه في هذا العمل.

حول الاستخراج المقيت من رئاسة رهبان بنهام

مع أن رئيس رهبان بنهام Binham كان له الحق الكامل في كنيسة ويستلي Westley, على أساس أن يستحوذها لاستخداماته الخاصة، وذلك على قاعدة منحة الراعي، وتأكيد أسقفين مع هيئتهما الكهنوتية، ومن ثلاثة بابوات من بابوات الكنيسة الرومانية، وهم: لوكيوس Lucius, ويوجينوس Eugenius وغريغوري Gregory التاسع، ومع هذا كله فإن جنويا كان زائفاً وجاهلاً، قد حصل على الرسالة التالية من البابا، وهي رسالة مناقضة لجميع الحقوق، والعدل: «من إنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، المعلم برنارد دي نيمفا Nympha, كاتبنا في انكلترا، صحة ومباركات رسولية، بما أن ولدنا المحبوب كثيراً وحاجبنا ن. N, كان قد أعطى من قبل كنيسة ويستلي Westley, في أسقفية

إيلاي، إلى رينير دي ســــــوليريوم Reiner de Solerium قسيس يبري Ypres, الذي توفي مؤخراً، ومع أن هذه الكنيسة عائدة إلى تقدمة أولادنا المحبوبين كثيراً، رئيس رهبان ورهبان المجمع الرهباني في بنهام، من طائفة القديس بندكت، وقد احتفظ بها القسيس المذكور وبقي في انكلترا أثناء حياته، لقد رأينا من الموائم أن نقوم بموجب سلطاتنا، بالانعام بالكنيسة المذكورة ومنحها إلى ولدنا المحبوب كثيراً، كاهن هيريغيتوس Herrigettus ابن النبيل بيراشين Per-rachin دي مالاشانا Malachana أوف فولتا Volta وهو من أهل جنوى، معلنين أن كل شيء يعمل ضد استغلاله لها لاغياً وفارغاً، ونحن نصادق على الذي عمله حاجبنا في هذه القضية، وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمركم، إما أنتم شخصياً أو بوساطة شخص آخر، بتعيين نائب لـ هـ .H المذكور، أو أي شخص آخر، يمكنك أن تختاره باسمه ليستحوذ شخصياً على الكنيسة نفسها، وليتولى حمايتها عندما يُنصّب فيها، وأن يزال منها أي معيق مهما كان، وتأجيل جميع المرافعات، وضبط المتذمرين بالروادع الكنسية، دون الأخذ بالانعامات التي أعطيت إلى الانكليز، من أنه عندما يموت كاهن إيطالي، أو يتخلى عن منافعه، لايجوز أن يتسلم ايطالي آخر على الفور تلك المنافع، أو أية انعامات أخرى، يتوجب ذكرها في هذه العروض، أو التي من الممكن بها تعويق أو منع هذا التنصيب أو التعيين، ودون الأخذ بأي مرسوم برحلة اليومين، مما صدر في المجمع المسكوني. صدر في ليون في التاسع والعشرين من نيسان، في السنة السابعة لحبريتنا».

كيف قمع رئيس أساقفة كانتربري بالتهديدات شكاوي المتذمرين

وفي حوالي الوقت نفسه شعر رئيس أساقفة كانتربري، بأن ضميره قد جرح حول مايتعلق بالعدوان الكبير الذي اقترفه في لندن، خاصة في

كنيسة القديس بارثلميو، كما روينا أعلاه، فأرسل سراً برسل مع تهديدات وكذلك مع كلام لين باسمه وباسم الملكة، وباسمه شخصياً، وسعى إلى قمع شكاوى الكهنة.

وفاة وليم أسقف وينكستر

وفي حوالي عيد القديس متى في هذا العام، توفي وليم أسقف وينكستر في تور، بعدما أقام هناك لحوالي أحد عشر شهراً، مع حاشية صغيرة، من أجل أن يوفر على نفسه النفقات، لأن أسقفيته كانت مثقلة بديون لانهاية لها إلى البابا، وهي الديون التي ازدادت، عندما أخرجه الملك —بتنكيله به— من انكلترا، فوقتها كان البابا يتمتع بالثروة، لذلك فتح له صدر المواساة، كما ذكرنا من قبل، وبعدما حقق —على هذا— السلام مع البابا، وجعل الملك يميل نحوه بمشاعر طيبة، قام بانقاص النفقات المعتادة لمائدته، وأنقص كثيراً عدد حاشيته، في سبيل أن يتمكن في أسرع وقت من جمع مبلغ المال المتفق عليه، من أجل تحرير كنيسته من ديونها، وعندما كان على وشك الموت، ورأى قربان الموت قد جلب إليه، قال، والكاهن كان داخلاً من الباب، وهو حامل للقربان: «تمهل قليلاً ياصديقي، إنه من الموائم لي، أنا الخائن لربي والمستخف به، وجوب حملي أمامه»، وبناء عليه أطيع، وحمل من قبل خدمه إلى أمام جسد المسيح، فتلقى قربان التحية بدموع الندامة، وهكذا وهو في حالة خوف من الرب، لفظ روحه النادمة.

الملك يستخدم أقصى مساعيه اليقظة للحصول على انتخاب أخيه ايثيلمار لكرسي وينكستر

وسمع الملك بهذه الحادثة، فتفوه بكلمات أسف قصيرة مع دموع جافة، كانت ممزوجة مع البهجة، وسعى باستخدام جميع الوسائل التي كانت بمقدوره أن يؤمنها إلى تعيين أخيه ايثيلمار في مكان الأسقف

المذكــور، مع أن هذا الأخ لم تكن فيـه الشروط المطلوبـة، فيما يختص بالطائفـة، والعمـر، والمعـرفـة، وبناء عليـه أرسل على الفـور اثنين من مقــدمـي كهنتــه (اللذين عــرف بأنهما بارعين كثيراً في جميع أنواع المناقشات) إلى وينكستر، يحملان رسائل منه، من أجل أنه بمزج الكلام الناعم مع التهـديدات، والوعود، يجعل عقـول رجال دين الكاتدرائيـة، الذين إليهم يعـود حق الانتخاب، تميل إلى طلب ايثليهار المذكـور، حتى يكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وكان الشخصان اللذان أرسلا لهذه الغـاية هما: جـون مـونسيل Mauncell, وبطرس تشيسبـــورك Chacepork, وكـانا كاهنيـة، ولقد استخـدما كل جهـد ممكن في تأمين الأخـذ برغبـة الملك، وبإلحاق الوهن بعقـول عـدد من الرهبـان، أقنعـاهم بطلب ايثيلهار المذكور ليكـون أسقفهم، ولقد قلت: «طلبـوا»، بسبب أنه كـان عاجـزاً تماماً، وغير أهل لمنصب الأسقفيـة، وبعد مـرور حـوالي الخمسة عشر يومـاً، استخـدم خلالها الكاهنان المذكـوران أقصى مســاعيهما، للتأثير على الرهبــان، الذين ظهـروا أنهم ثابتين أكثـر من الآخرين حتى يرضخـوا لإرادة ملكهم الأرضي، وأن يضعوا جـانباً كل خوف من الملك السماوي، وقد ذهـب الملك نفسه إلى وينكستر، وتوجه على الفــور إلى الكنيسـة الكاتـدرائيـة للقـديس ســويزين Swithin, ودخل إلى مقـر الهيئة الرهبـانيـة، وكأنه كـان أسقفاً أو رئيسـاً للرهبـان، وأخذ كـرسي الأسقف الرئيس، وشرع بإلقاء القـداس التالي، مقـدماً له بنص مقدس.

كلمة الملك التي ألقاها وكأنه يعظ في الهيئة الرهبانية لوينكستر

«قبلت الاستقامـة والسلام بعضهما بعضاً» إلخ، ثم تابع إلقـاء كلمته فأضاف: «إنه بالنسبـة لي وللملوك الآخرين، وأيضاً للمقـدمين ولرجال العـدالة لدينا، الذين بوساطـة العدالة، لديهم سلطة حكم الناس، وفقـاً لصرامة الحكم والعدل، وإليكم أنتم، الذين هم رجال السلام، وطلاب

الدين، يعود السلام والهدوء، في هذا اليوم، بسبب إظهاركم، لحسن التوافق بأنفسكم، مؤثرين لطلبي، وموافقين عليه، وذلك كما سمعت —وإنه جيد بالنسبة لكم أنكم تصرفتم كذلك— قبّلت الاستقامة والسلام بعضهما بعضاً، كما قلت من قبل، ففي بعض الوقت الذي مضى، قد كنتم متمردين ضدي، في انتخاب وليم دي ريلي Rele, أسقفكم المتوفى أخيراً، الذي كان غير مقبول لدي، ولقد كنت قاسياً عليكم، لكنني أصبحت الآن راضياً عنكم وصديقاً ودوداً إليكم، وبتذكري لمعروفكم، أنا ملتزم بتقديم عظيم الاحسان، بالمقابل إليكم.

علاوة على ذلك، من المعروف بشكل جيد، أن الدمار أول ما جلب إلى العالم، جلب بوساطة امرأة، لكن بوساطة امرأة أيضاً جاء الخلاص، وفي الحالة الحاضرة، مثل هذا، إنه في محاولة مني لإرضاء رغبات الملكة زوجتي، التي رغبت في الارتقاء بهذا الكرسي بوساطة انتخاب عمها وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وكنت قد ضايقتكم من قبل بالتماساتي للقيام بذلك، وألحقت بكم الضرر، غير أني الآن أرغب في رفع شأن قضية أخي لأمي، الذي هو بسبب امرأة، هي الملكة ايزابيلا، أمنا، هو بلا شك متحالف معي بحكم القرابة، لذلك سوف أكون أنا متصالحاً معكم، ولسوف أعمل بشكل مؤثر، على إعلاء شأن منافعكم شخصياً ومنافع كنيستكم، ولسوف أطوقكم بذراعي العواطف القلبية.

ومجدداً، عليكم أن تلقوا في ميزان العقل، قضية، ليست هي الأقل أهمية، هي حقيقة أنني ولدت في هذه المدينة، وتعمدت في هذه الكنيسة ولذلك إنكم مرتبطون بي بروابط أعظم عاطفة، وينبغي عليكم عدم معارضة إرادتي بأية طريقة، لابالحري أن تدعموني في جميع المسائل، مع اخلاص رفيع، كما أنه لايخفى على عقولكم وجوب إعطاء الموافقة، لأنه إذا ماجرى انتخاب أخي ايثيلمار سوف يتمكن لوقت طويل —كما نأمل— من إنارة هذه الكنيسة، مثل الشمس، بأشعة أصله النبيل،

وعنصره الملكي، فهو متميز بهذا بسبب أمه، وبسبب دمه المتميز الصادر عن أبيه، وأيضاً بسبب لطفه الأصيل، وبسبب شبابه، وفي ذلك هو مرض لكل من الرب والانسان.

اذهبوا —على هذا— بسلام للتشاور، وعودوا مسرعين، ومن دون أية إعاقة أو اعتراض، ونفذوا غايتي التقوية، التي أعطيتموني الأمل حولها، وأن تعلنوا بالإجماع بحضوري عن أخي ايثيلمار مرشحكم للأسقفية»، هذا وقد أضاف في نهاية موعظته، أنه إذا ما وجد الرهبان معارضين لقناعاته، فإنه سوف يدمرهم جميعاً، وفقاً لكلمات الشاعر:

الرجل في السلطة يستجدي بسيف مجرد

كيف قام رهبان وينكستر، وهم تحت الاكراه بطلب ايثيلمار ليكون أسقفهم

أما وقد وضع الرهبان هكذا، في ضيق عسير، تناقشوا بدقة حول هذه القضايا، وكان ذلك عندما ابتعدوا عن مقر الهيئة الرهبانية، وأعادوا إلى عقولهم ذكرى الاضطرابات السالفة التي جنوها، والتي كانت ظالمة، في قضية وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، لابل أكثر من ذلك لدى انتخابهم وليم، أسقفهم المتوفى أخيراً، وقال أحدهم للآخر: «ومرة ثانية ها نحن مهددون بوساطة التوسلات المسلحة للملك، وأن نقوم بمعارضته، إنها قضية صعبة ومرعبة، وهي مليئة بالمخاطر لكنيستنا، لأن البابا مطيع للملك في كل شيء، وبما أنه الآن في وضع حرج، سوف يتجنب من خلال الخوف تقديم أية إساءة إلى الأمراء، وبناء عليه إننا إذا ما طلبنا، أو انتخبنا أي شخص آخر، مهما كان انساناً أهلاً وموائماً، وقتها فإن أخاه الملك، سوف يستثار إلى حد الغضب، لابل في الحقيقة إلى حد الانفجار، ولسوف يقوم بإلغاء جميع إجراءاتنا، حتى لو أننا قمنا بتعيين القديس بطرس، لو أنه كان حياً، سوف يقوم باضطهادنا، وهكذا

فإننا سنجعل من الجانب الأول الملك عـدواً لنا، ومن الجانب الآخـر المعارضة الشديدة لدى البابا، الذي من السهل رشوته، وسوف نسحق، وكأننا بين حجـري رحـا، وسيكـون اضطرابنا ودمـارنا الذي لايمكن جبره، قريباً جداً.

بالاضـافـة إلى هذا، كنـا قـد رقينا وليم أسقـف نورويك، وانتخبناه ليكون أسقفنـا، ووضعنا أنفسنا تحت سلطـانه، على الرغـم من رغبـة الملك، ومع أنه عارض الانتخـاب، وظلمنا لهذا السبب نفسه، فإن وليم المذكـور، بعدمـا تسلم السلطة كـاملة، ومع أنه كـان انكليزياً، بارعـاً في قـوانين البـلاد، وواحـداً كنـا نأمل أنه سـوف يـرضي الرب في جميع المجـالات، وسيكون مفيـداً لأنفسنـا، قـام بالتنكيـل بنا من دون رحمة، وألحق الأضرار التي لاتجبر بنا، ناسياً جميع المنافع التي كـان قد تسلمها، ومن أجله عـانينا من آلام وأضرار لاتعـد ولاتحصى، فقـد سجنا، وسحلنا، وضربنا، وتألمنا من الجوع، وتلطخنـا بالدمـاء من جـراحـاتنا، وغللنا مثل اللصـوص، فبمن على هـذا يمكن أن نثق؟ وبمن يمكن أن نضع آمـالنا، فمن الجانـب الأول نخـاف من سيـلا (صخـرة خطيرة في الجانب الايطالي من مضيق مسينا) ومن الجانب الآخر من خطر الدوامة الوشيـك، [أي بتنا بين نارين]، وإذا فعلنـا هذا فـالموت نصيبنا وإذا لم نفعل سوف لن ننجو من أيدي الملك.

وإلى جانب هذه الأشياء، إنه أيضاً ممـا يعطينا سبباً عادلاً للخوف هو أننا إذا مـا رقينا ايثيلمار المذكـور إلى الأسقفيـة، هو سـوف يكون دومـاً أسقفاً منتخباً، وليس أسقفاً، وهذه حالة لم تعرفها هذه الكنيسة من قبل، ونأمل أن لايحدث هكذا مطلقاً، ولربما أيضاً، سوف يحصل على اذن من البـابا، بأن يحتفظ —إذا مـاانتخب— بالموارد التي لاحصر لها، التي هي الآن بين يديه، لأنـه مـاهو الذي لايستطيع الكـرمـاء بأعطيـاتهم، أن لايحصلوا عليـه في البـلاط الرومـاني في هذه الأيام؟، وإذا مـا انتخبناه،

سوف لن يكون الأقل في الثروة والسلطة من أي واحد في انكلترا، وبصعوبة يمكن حتى استثناء الملك، ووقتها يمكن أن يمتلك القدرة (لكن عله لن يسير على خطى أبيه أو البواتيين) على تحويل انكلترا كلها إلى بواتو، أو يكون مثل الحاجب للملك، الذي يمتلك السلطات كلها، فيجلب بواتو كلها إلى انكلترا، وبذلك سوف يدمر ذكرى الانكليز ويزيلها من على وجه الأرض»، وفي النهاية على كل حال، وبعد تحمل الكثير من الآلام، وبعدما رأوا أن الوقت كان شريراً، وأن ما من مكان للجوء مفتوح أمامهم في صدر أبينا البابا، الذي يقدم بشكل عام المساعدة إلى الذين يفرون إليه، الذين انحنوا أمام قسوة التجريد من الأملاك، والذين أرغموا على الرضوخ لرغبات الملك، وبناء عليه قام رهبان وينكستر، وقد أرغمهم تدخل الملك وانتهازيته، وكانوا أيضاً يائسين من مساعدة البابا، قاموا بصوت واحد —لكن ليس بقلب واحد— بالمطالبة أن يكون ايثيلمار أسقفهم، والراعي الروحي لأنفسهم، وهو الذي كان أخو الملك لأمه، وابن هوغ برون، كونت التخوم، وايزابيلا زوجته، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكان من مواليد بواتو، وطالبوا به مع أنه كان غير كفء للمنصب، في العمر، والمعرفة، والطائفة، وكانت لديه موارد لاتحصى موائمة لرئيس أساقفة، وهكذا قاموا بناء عليه، بحضور الملك، بترشيح ايثيلمار المذكور بشكل علني ومهيب، وعلى هذا صار ايثيلمار مرشحهم، أو أسقفهم المنتخب، على شرط، أن مثل هذا الشخص يمكن ترقيته إلى المنصب الأسقفي، فقط بوساطة إعفاء من البابا وموافقة.

ملك إنكلترا يبعث رسلاً إلى البابا

ثم إن الملك عبّر عن سروره، بملامح وجهه، وبحركاته، وبنبرات صوته، وأمر كاهنه، روبرت سوثندن Sothenden, وكان بليغاً بارعاً، أمره بصياغة رسالة بليغة ومؤثرة، يمزج فيها تهديدات مرعبة،

مع وعود سخية وافرة، والتماسات حارة، حتى تنقل إلى البابا، ثم أرسل رسلاً خاصين، وفصحاء، يعرفون كيف يربحون البابا وكرادلته للقبول برغبتهم، وللتباحث مع البابا والتشاور، حول هذه القضية الصعبة بشكل مرض، لأنها قضية مرغوبة قلبياً من قبل الملك، وأن يقوموا بوساطة الالتماسات وكذلك الرشوة، حتى يرضى بإعطاء موافقته عليها.

حول رسالة الملك الشاكية إلى البابا

وا أسفاه، لماذا ضعف العالم سوف يطول أكثر؟ ولماذا قام السلام والعدل، اللذان يأخذ منهما الملك نص قداسته، فنفيا نفسيهما؟، وأين هي حرية الانتخاب، وأين هو السلام الأولي للكنيسة، الذي أقسم الملك على رعايته من دون إحباط، أثناء انتخابه، وا أسفاه، وا أسفاه، هو الآن يزدري الرعايا الطبيعيين لمملكته، مع أنهم رجال مقدسين، ومتعلمين، ومتدينين، وجرى اقحام الأجانب، مع أنهم رجال غير لائقين بأي منصب، وجاهلين تماماً بالآداب، ولايعرفون اللغة الانكليزية، وهم غير نافعين كلياً في الاعتراف، وفي الوعظ، من دون نظام، أو مكونين بشكل جيد في أخلاقهم، مستخرجين للأموال، ومهملين للأنفس، والذين كانوا فيما مضى رجالاً مقدسين، ومتدينين، ومتعلمين، بالتعاون وبوساطة إلهام الروح القدس، جرى سحبهم، حتى من دون موافقتهم، ونزعهم من كراسيهم الكنسية، التي جرى الآن الاستيلاء عليها بالقوة، بعدل، أو من دون عدل، من قبل رجال البلاط والأجانب، وجميع الديرة التي إليها يعود حق انتخاب الأساقفة، قد تدمرت، بسبب هذه الظروف نفسها، وغدت الرعاية الآن عبئاً، ولم تعد مرتبة شرفية، ومصدر خسارة، وليس مصدر منفعة، وجميع الكنائس، سواء أكانت أسقفية أو ديرية، بحكم سقوطها بيدي الملك بعد شغورها —وهو الذي ينبغي أن تكون سلطته وقدرته مسخرة لحمايتها والدفاع عنها— هي الآن عرضة للسلب

والنهب، آه، أيها البــابا، ياأبا الآباء، لماذا سمحت لبلدان المسيحيــة، بأن تتلوث بمثل هذه الإجـراءات؟ وعلى هذا، كان بعدل طردك مـن مدينتك ومن كـرسيك، وابعـادك إلى المنفـى مثل قـابيل محروم آخـر، وأعـداؤك، الواقفين إلى جانب فـردريك يتقدمون، وأنـت هارب من الذين أرغموك على الفرار، والذين يطاردوك سريعين وأقوياء، وفي كل مكان أمرك يرعد مــدوياً فـوق الذيـن هم رعيـة لك، لكـن ليس له قيمــة بين الذين هم متمـردين عليك، ففي كل بقعـة يجري حـرمـان الأسـاقفـة من منافعهم، وتصـدر الأوامر بإعطاء المنافع إلى أنـاس غير جديرين بها، وإلى أجـانب، وإلى أشخاص غير معـروفين، وإلى الذين يطلبون الحليب مـن شياه قطيع الرب، ويجتزون الصـوف، ويسلخون الجلد منها ويذهبـون به، ويبقرونها ويفرغون ما في جوفها، و ما من أحد يمكنه الحصول على الحماية بوساطة الامتيـازات الممنوحة إليـه من قبل الآباء المقـدسين، وبين الأمم والبلدان أيضـاً، إن انكلترا —كما يعلم العـالم— هي المكان الذي ازدهرت فيـه المسيحيـة كثيراً، وهي أيضاً التي ديست بـالأقدام وسحقت أكثـر، ويظلم البـابا سلبت أملاكهـا وحرمت من ثمار جهـودها، ومع أن ما من واحـد يتــولى سلبـه، هو يعمـل بمثـابة ســالب نحــو الآخـريـن، لأنه أين هو الانكليزي، الذي من المعروف أنه يمتلك موارد في أي جزء من روما، أو ايطاليـا، أو جنـوى، أو في أية مملكة أخـرى، مع أن رجــال هذه البلدان مستـولين على كل شيء في انكلترا؟ آه يارب، ياإله الانتقـام، متى ستتـولى شحذ سيفك مثل البرق، لكي يغرق في دماء مثل هؤلاء الناس؟، وصدقاً إن ذنوبنا هي التي جلبت بعدل مثل هذه النوازل، وأوقعتها علينا.

حول وفاة أسقف روكستر وانتخاب المعلم لورانس دي سينت مارتين إلى ذلك الكرسي

وفي الوقت نفســه من العام، في حـوالي عيـد القديس ميكائيل، مـات أسقف روكستر، وفي مكانه انتخب رهبــان روكستر المعلم لورانس دي

سينت مارتين Martin, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً بالملك، وفعلوا ذلك خشية منهم أنهم إذا ما اختاروا واحداً آخر، سوف يعارض الملك ذلك الاختيار.

عودة أسقف لنكولن من البلاط الروماني

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل نفسه، عاد إلى انكلترا روبرت أسقف لنكولن حزيناً وغير راض، بعدما بقي عدة أيام في البلاط الروماني، ومقابل انفاق كبير من دون فائدة، ودون أن يتمكن من تحقيق غرضه كما رغب، وكان قد قام على كل حال، بالتضييق إلى أبعد الدرجات على كثير من الرهبان، وآذاهم بإرغامهم على الدفاع عن أنفسهم ضد هجماته.

ولدى وصوله إلى أسقفيته، وقد شاهد الفوضى المحيقة بالكنيسة المسكونية، كما قد تعلم من مثل نيقولا، أسقف درم، جرد نفسه وحررها من جميع مشاكل الدنيا، التي غالباً ما مزج نفسه بها، وشغلها من دون فائدة، وعهد بإدارة الواجبات والوظائف العائدة إليه إلى المعلم روبرت مارش Marsh, وكان من موظفيه، ناوياً أن يقول وداعاً إلى هذا العالم الفاني، وأن يتخلى عن أسقفيته، ولكن بما أنه كان يخشى من سلب الملك ونهبه، الذي تولى بالعادة إفقار الكنائس الشاغرة، وقيامه بعد ذلك بإقحام أشخاص غير لائقين بها، لهذا جلس ينتظر بصمت، وعلق تنفيذ نيته السرية، دون أن يعرف الذي عليه عمله في هذه الحالة من اضطراب الشؤون الدنيوية.

كيف عارض أساقفة إنكلترا رئيس أساقفة كانتربري

وفي الوقت نفسه، علم أساقفة انكلترا، من إفادات الأسقف المذكور، الذي عاد مؤخراً من البلاط الروماني، ومن إفادات آخرين، ومن جواسيسهم المنابين، الذين كانوا قد أرسلوهم إلى هناك، بأن رئيس

أساقفة كانتربري كان يخطط للتآمر ضدهم، من أجل ايذائهم، ولذلك جمعوا مالاً للانفاق على أنفسهم في ذلك البلاط، الذي مال بالعادة إلى هذا الجانب وإلى ذلك الجانب بتدخل المال، وكان مثل قصبة تهتز وتتمايل مع الريح، وبناء عليه أخذوا من الأشخاص ذوي المنافع بنسين من كل مارك، لأن المسألة كانت مسألة صعبة، أي ما طلبه المستخرج المذكور، فهو أراد الحصول على المال، وتحصيل ضرائب للزيارات التفقدية من رجال الدين والناس في مقاطعته التي كانت مقاطعة واسعة، وكان هذا الإجراء سيضغط على الجميع بثقل شديد، لأنه كان من الواضح أن رئيس الأساقفة المذكور الذي كان معاباً في أخلاقه، وفي علمه، اشتهى أن ينال من زياراته التفقدية ليس زيادة الدين، أو اصلاح الأخلاق، بل هدف من وراء ذلك الربح الدنيء، الذي صار الآن عادة له.

حول الهزة الأرضية في تشيلتيرن في إنكلترا

في العام نفسه، في يوم عيد القديسة لوسيا Lucia, وفي حوالي الساعة الثالثة من النهار، وقعت هزة أرضية في سينت ألبان، وفي المناطق المجاورة، التي اسمها تشيلتيرن Chiltern, وذلك حيث أن مثل هذه الحادثة لم يسمع بمثلها من زمن سحيق، ولم يشاهد قط مثيلها، لأن الأرض هناك متماسكة وحوارية، ليست ذات حفر، أو مائية، أو قرب البحر، وعلى ذلك كانت هذه الواقعة غير اعتيادية وغير طبيعية، ولكن الأكثر عجباً منها، هو أنه لو كانت هذه الهزة الأرضية مدمرة في تأثيراتها، مثلما كانت غير اعتيادية ومدهشة، لتولت هزّ جميع الأبنية وحولتها إلى قطع، وقد جاءت مع حركة كبيرة، وترافقت، مع صوت كان مرعباً، وكأنه كان رعداً من تحت الأرض، وقد وقع حادث مدهش أثناء هذه الهزة الأرضية، هو الحادث التالي: استولى الرعب على الحمائم، وعلى الغربان، وعلى العصافير، وعلى الطيور الأخرى، التي كانت

معشعشة فوق البيوت، وعلى أغصان الأشجار، وكان رعبها وكأن صقراً كان يحوم من حولها، ثم مدت هذه الطيور أجنحتها ونشرتها فجأة وهربت، وكأنها كانت مجنونة، وطارت بشكل مضطرب نحو الأمام ونحو الخلف، وأثارت الخوف والرعب بين الذين شاهدوا هذه الواقعة، لكن بعد توقف اهتزاز الأرض، وتوقف الضجيج الذي رافق ذلك، عادت إلى أعشاشها المعتادة، التي اضطربت بوساطة الهزة الأرضية، وأوقعت هذه الهزة الأرضية —في الحقيقة— الرعب في قلوب الجميع، وكان ذلك أكثر من الدهشة، أو الخوف، وقد قيل بأنها كانت منذرة بالحوادث المستقبلية، وفي هذا العام، تأثرت الأرض، وكذلك البحر بالتحركات غير الاعتيادية والمرعبة، التي وقعت وفقاً للكلمات المهددة للرب في الانجيل، في قوله: «سوف تكون هناك هزات أرضية في أماكن مختلفة»، وهدّد هذا وأنذر بأن نهاية العالم باتت وشيكة.

كيف ردع رئيس أساقفة كانتربري الشكاوى الصاخبة لكهنة القديس بارثلميو

وفي حوالي الوقت نفسه أرسل البابا رسلاً خاصين إلى ملك انكلترا، ورجا أن ينال اذنه ليتخذ مقر إقامته في بوردو في غسكوني، لأن أخوي الملك الفرنسي، استجوباه، بدقة، وسألاه باسم الملك المذكور، وطالباه باسمها، فيما يتعلق بكرامة الكنيسة العالمية، بأن يقيم سلاماً مع فردريك، الذي تذلل الآن، وعرض تقديم الترضيات، وأن يبدي الاحترام للكنيسة، وقام أخوا الملك، أي كونتا: بواتو، وبروفانس، بالتلميح له، بأن سوء الحظ الذي تقدم ذكره، قد نشأ من خلال جشعه، لأنه —أي البابا— فاسد بالمال، منع الصليبيين من الزحف لتقديم النجدة إلى الملك وانقاذه، وحللهم من نذرهم بالحج، مع أنهم هم الناس الذين كانوا قبل وقت قصير مضى، قد حملوا علامة الصليب، نتيجة لجهود وكلائه، أي الدومينيكان والفرنسيسكان،وبالاضافة إلى

ذلك كان قـد باع الصليبيين إلى الايرل رتشارد وإلى نبـلاء آخرين، وفق الطريقـة نفسها التي مارسهـا يهود الأزمان الخاليـة، لدى بيعهم الأغنام والحمام في الهيكل، وهؤلاء هم الذين عوقبوا ورميوا إلى الخارج من قبل الرب الغـــاضب، كما نقــرأ في الانجيـل، ولم يعبأ البــابا بهذه الحجج وبوسـائل الاقناع هذه، وأظهـر نفسـه عنيـداً متشبثاً، وبناء عليـه غـادر الكونتـان بقسـوة ومع كلمات نابيـة، وبادرا مسرعين إلى انكلترا، لاقناع الملك الانكليـزي، نظراً لرغبتـه بتكريـم المسيح، بأن يقـوم بكل سرعـة بالتوجـه لانقاذ الملك الفـرنسي ونجدته، وفقاً لما تعهـد به، ذلك أن هذا الملك متشوق لحضوره.

حيرة ملك إنكلترا

وبناء عليه، كان الملك الآن في وضع حرج صعب، بسبب أنه كان إذا مـا أراد قطع الطريق على البابا، فإنـه سوف يغضب، ولسـوف لن يرقي أخيه ايثيلمار، وإذا مـا أراد فتح صدر الحماية للبـابا سوف يثير فـردريك ويغضبـه، فمن خـلال أراضي فردريك كـان سيرغم على المرور، عندمـا سيسير لأداء حجه، بالاضـافة إلى ذلك هو لن يرضي الفـرنسيين، وكان هناك أمـراً آخـرأقلق الرجـال الأكثر حكمـة بين الانكليـز، وهو أنه إذا ماسمح للبابا بالإقامـة في بوردو، سوف يكون بإمكانه الابحار في وقت قصير إلى انكلترا، وأن يؤذيها، لابل أن يدنسهـــا بحضـــوره، لأن هؤلاء الأشخاص كانوا يعتقدون أن البلاد كانت تعاني من الفساد، فهي كانت بالفعل تعاني من ذلك بوساطة أعمال الربا للسماسرة، وكانوا يخافون من أنها سـوف تكون ملوثـة أكثـر ببـلاط البـابا، إذا (لاسمـح الرب) كـان حاضراً، ولذلك عقد مناقشات دقيقة، وأكثر طولاً، حول هذه المسألة.

رسالة البابا إلى راعي دير القديس ألبان وإلى بعض الآخرين

وفي حـوالي الوقت نفسـه، أي مع ميلاد ربنا، أرسل البـابا أوامـر إلى

راعيي دير القـديس ألبان، ودير وولثـام Waltham, وإلى رئيس شمامسة المكان الأول، بأن قرار الحرمان الكنسي الذي أصدره بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كـانتربـري ضـد: هنري عميـد لندن، وبطرس رئيس الشمامسـة وروبرت المرتل لذلـك المكان، وأيضـاً ضـد المعلم وليم أوف ليشفيلد Lichfield, ووليم ليفتي Leafete, وضد رهبان آخرين من لندن، بسبب العـدوان على هيئتهم الكهنوتية، ينبغي الإعلان أنه لاغياً وفـارغاً، وعلى الرغم من هذا، ضغط رئيس الأساقفـة المذكور بطلبه في البلاط الروماني من أجل الحصول على الأموال، وعلى ضرائب الزيارات التفقـدية من الذيـن سوف يـزورهم، وطالب بهذا بمـزيد من الإلحاح، وبثقـة أكبر، بسبب أن أسقف لنكولن، الذي من المعـروف أنه كان أدنى منه مـرتبة، وكان قد حصل قبل عـدة سنوات خلت من البابا على امتيـاز القيـام بزيارات تفقـديـة لكهنة كنيستـه في لنكولن، مع أنهم عارضوه بشدة، وأنفقـوا مبلغاً كبيراً من المال في الدفاع عن أنفسهم ضد محاولاته، إنما من دون فـائـدة، والـرسـائل حـول هذه القضيـة، أي فيما يتعلق بقاعدة الشجب، قد أعطيت كاملة في كتاب Additaments.

موت الإمبراطور فردريك

وفي حوالي الوقت نفسه، فارق هذه الحيـاة فردريك، الذي كان أعظم أمـراء الأرض، وأعجـوبة هذا العالم، والمنظـم لإجراءاته، فـارقهـا وهو منسحق الفؤاد بشكل مـدهش ومتذلل، وبعدمـا جرى تحليله من الحكم الذي صدر ضـده، وقد قيل بأنه ارتدى زي الرهبان السسترشيـان، وقد مات في يوم عيد القديسة لوسيا، ولذلك فإن الهزة الأرضية التي وقعت في ذلك اليوم لم تكن بوضـوح من دون أهمية وبوفاته، مـاتت جميع آمال الفرنسيين التي عاشوها بإنقاذ، أو انجاد ملكهم، وأبقي خبر وفاته سرياً لمدة عدة أيام، حتى لايفرح أعداءه على الفور، لهذه الواقعة، لكن في يوم عيد القـديس اسطفان، جـرى الإعلان عن ذلك،وجـرى إخبار الشعب

به، وسوف نكتب وصيته النبيلة في كتاب Additaments[1].

إكمال خمسة وعشرين نصف قرن من سنة النعمة

مع نهاية هذا العام يكون قد انقضى، منذ سنة النعمة خمسة وعشرين نصف قرن، أي ألف ومائتين وخمسين عاماً، ويتوجب أن نذكر أيضاً، وأن لانمر باستخفاف دون أن نوضح، أن ما من واحد من أنصاف القرن هذه حتى ثلث الثلاثين سنة الماضية، قد وقعت فيه حوادث مدهشة، وغير اعتيادية وجديدة، كالتي وقعت في هذا النصف الأخير، أي في الخمسة والعشرين عاماً، وهناك في الحقيقة كثير من الكتّاب والباحثين في التاريخ، الذين يقولون، إنه لم يشاهد في أنصاف القرون الأخرى، أعاجيب ومستجدات مدهشة كالتي وقعت في النصف الذي انتهى الآن، ولا حتى حوادث أسوأ من التي هي متوقعة الآن مع الخوف.

حول الأحداث المدهشة لهذا النصف الأخير من القرن

لأنه في نصف القرن هذا، غادر التتار ملاجئهم، وعاثوا فساداً، بوحشية الحيوانات المفترسة بلدان الشرق، والبلدان المسكونة من قبل المسيحيين، وكذلك البلدان المسكونة بالكفار.

وتمت هزيمة أمير المؤمنين الذي كان أقوى ملوك اسبانيا وأفريقيا، وانهزم، وتفرق جيشه كله.

وعندما كان المعلم أوليفر يعظ في المقاطعات الألمانية، ظهر تمثال المسيح في السماء، وكان مرئياً بوضوح إلى كل واحد، وانسحبت الكنيسة الاغريقية من الخضوع إلى كنيسة روما، بسبب التجاوزات لهذه الكنيسة، خاصة ممارستها للربا وللسيمونية (بيع المناصب)، وبيع العدالة، وآثام

---

١ - مالبث متى باريس أن غيّر نيته، بادخاله نص هذه الوصية بعد قليل في كتابه هذا.

أخرى كثيرة لايمكن التهاون بها.

وجـرى الاستيلاء على دميـاط، المدينة المصرية المشهـورة مـرتين، واستردت مع فقدان عظيم للدماء، من الجانبين الاسلامي والصليبي.

ووضعت انكلترا تحت الحرمان من شراكـة المؤمنين لمدة سبعة أعوام، وعانت المملكة نفسها من حـروب داخلية للمدة نفسها تقـريباً، وغدت أيضـاً دافعـة للجزية، وتنفيـذاً لنبـوءات بعض الأشخـاص، لم يكن بين يدي الملك جـون، عندما مات أي استحـواذ كامل لأية منطقـة، ولذلك أطلق عليه اسم «بلاوطن».

وجرى تحريم ممارسة المحنة بالنار والماء للبرهنة على البراءة.

وأعطي الاذن لشخص واحـد بتسلم مـرابح عـدة أسقفيـات، وبأن يحتفظ بالموارد التي كانت لديه من قبل.

وجـرى تحويل الشهيـدين: القـديس تومـاس في انكلترا، وادمـوند المعترف في فرنسا، وانتشر صيت القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا في ألمانيا خلال هذه الحقبة، وجـرى منع الأشخاص، وبعد ذلك سمح لهم عن طريق المال، بأن يتملكوا أكثـر من كنيسة واحدة، وبـذلك صار غير الشرعي شرعياً.

وجرى انتخاب لويس الابن الأكبر لملـك فرنسا، والوريث الشرعي له سيداً، وكأنه صـار ملك انكلترا، لكن مالبث، بسبب خرقـه لوعوده، أن ترك البـلاد بشكل مهين، وواجه الامبراطور الـروماني أوتو سقـوطاً محزناً بسبب اضطهاد البـابا انوسنت الثالث له، ذلـك أنه هزم في القتال، وحرم كنسياً، وخلع من العرش.

وجـرى مـرتين أسر رهبـان الداوية، والاسبتـارية، ورهبـان طائفـة التيـوتون للقـديسـة مـريـم، والقـديس لعـازر (لازاروس)، وتمزيقهم،

وإعدامهم.

وتعرضت مدينة القدس المقدسة، مع كنائسها المقدسة، وأماكنها التي تقدست بحضور المسيح للدمار مرتين، وفي المرة الأخيرة سويت مع الأرض بشكل وحشي، من قبل الخوارزمية وسلطان مصر.

وحدث كسوف للشمس مرتين خلال ثلاث سنوات، وظهرت ثانية أعجوبة مدهشة في السماء، عنها جرى تقديم رواية كاملة في هذا الكتاب، وكان ذلك في سنة النعمة ألف ومائتين وثلاث وثلاثين، ووقعت هزات أرضية في انكلترا، وكان ذلك حتى في تشيلتيرن، لعدة مرات، وفي مقاطعات سافوي، جرى سحق خمس قرى، مع كنائسهم، وبيوتهم، وسكانهم بركام الجبال الذي سقط عليهم، وحدث فيضان للبحر غير اعتيادي ومدمر، مثله لم يشاهد من قبل، وشوهد في إحدى الليالي سقوط عدد لايحصى من النجوم من السماء، بحيث كان هناك في وقت واحد، وفي اللحظة نفسها عشر نجوم أو اثنتي عشرة نجمة تتطاير هنا وهناك في وسط السماء، وكان بعضها يتطاير في الشرق، وبعضها الآخر في الغرب، وبعض في الجنوب، وبعض في الشمال، ولئن كانت هذه النجوم نجوماً حقيقية، لما بقي نجم واحد في السماء، ولم يمكن العثور على سبب منطقي واضح لهذه الحادثة في الكتب حول الأنواء وعلم الهيئة، باستثناء أن تهديد المسيح كان وشيكاً ومحيقاً بالناس، وهو قوله: «ستكون هناك علامات بالشمس» إلخ، إلخ.

وجرى عقد مجمع مسكوني مرتين في روما، وفي ليون: وفي المجمع الثاني منهما (في ليون) جرى خلع الامبراطور الروماني فردريك، ووقع بالأسر الكاردينال أوتو، الذي كان من قبل النائب البابوي في انكلترا، وجاء وقوعه بالأسر قرب جنوى، مع عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والقساوسة، وبعض الجنويين، الذين غرق منهم عدد كبير.

وفي ويلز حدث أنها بعدما فقدت أميرها للويلين، وولديه بالتوالي، اللذان واجها موتاً مبكراً، خضعت إلى القوانين الانكليزية، ولحكم الملك الانكليزي.

أما غسكوني التي تحركت ضد سلطة ملك انكلترا، فتم اخضاعها من قبل سيمون ايرل ليستر.

وعبر الملك هنري الثالث البحر مرتين مع جيشه، ليسترد حيازة ممتلكاته في القارة، بالقوة، وخاصة نورماندي، التي جرى انتزاعها من أبيه، بوساطة قرار من النبلاء النظراء الاثني عشر لفرنسا، لأنه تلطخ بقتل ابن أخيه آرثر، وعاد هذا الملك مرتين مهاناً، ومجللاً بالعار، ورجلاً فقيراً.

وجرى استرداد جزء كبير من اسبانيا وإعادته إلى المسيحية، وذلك مع عدة من مدنها الجليلة، التي كان من بينها: قرطبة، واشبيلية، وبنشكلة Peniscola مع مدن أخرى، وكذلك جزيرتي: ميورقة، ومنورقة، وأماكن أخرى كثيرة على الساحل، وجاء الاستيلاء عليها من قبل الملوك المنتصرين لقشتالة.

وفي المناطق الشمالية، تم الاستيلاء على جزء كبير من فريزلاند، وروسيا، وذلك إلى امتداد سفر اثني عشر يوماً، وذلك من قبل وولدمار Waldemar, ملك داشيا Dacia, حتى أنه جرى اكتساب سبع أسقفيات للمسيح بوساطة هذه الحادثة.

وهرب البابا، أو بالحري طرد من مدينة روما بوساطة تنكيل الامبراطور فردريك، ونفى نفسه، واتخذ مقراً لذاته متخفياً في أناني Anagni وبيروسيا Perusia,ذلك أنه اتهم من قبل الامبراطور المذكور، بأنه سعى إلى الاستيلاء على الامبراطورية، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وقام الداوية أيضاً،

بسبب الحقد المثار بهم من قبل البابـا بانتهاز الفرصة، والسعي إلى تسليم الامبراطور، ووضعه بين يدي سلطان مصر.

وإثر وفـاة البابا غـريغـوري، بات الكرسي البـابوي شاغـراً لمدة سنة وتسعـة أشهـر، وقد جلس ثلاثـة على الكرسي الرسولي خـلال عـامين، وكـان هناك واحــداً من الكرادلة، متميـزاً أكثـر مـن البقيـة، هو المعلم روبرت سمركـوت، وكان من أصل انكليزي، وقد جـرى قتله خنقاً في القصر، الذي عــرف باسم قصر الشمس، خشيــة من أن ينتخـب بابا، وصــدوراً عن الحســد كما قيـل، وأخيراً جـرى انتخــاب سينيبيــولد Sinibald, وكــان كــاردينـالاً، انتخــابه بابا تحت اســم انوسنت الثـالث، وقد سـار على خطى سلفه، فحـرم كنسياً الامبراطور فـردريك وظل يهرب من قصر إلى قصر، ليتجنـب اضطهــاد الامبراطور، وذهب أخيراً إلى ليون، حيث تولى في مجمع مسكوني، خلع الامبراطور المذكور، وتولى من دون حياء استخرام مبلغ من المال من أساقفة الكنيسة، وسعى بوساطة هذا المبلغ إلى ترقية لاندغريف ثورنجيا، وبعد ذلك وليم كونت هولاند، إلى العرش الامبراطوري، وقد مات الأول من هذين، وألحقت الهزيمة بالثاني، فأخفق في مقصده.

ووجد الممارسون للربا، الذين اسمهم الـ Caursins, والذين عدّوا مسيحيين، مكان التجاء، وموضع استقرار وهدوء في انكلترا، أولاً بموجب تسـاهل من البابا فقط، لكن بعـد ذلك تحت حمايته المكشـوفة، ولذلك أطلقوا بلا حياء، على أنفسهم، اسم تجار البابا، وصرافيه.

وجـرى تعليق الأساقفـة وحرمـانهم من استغلال منافعهم الكنسيـة، حتى تتم تلبية طلبات الجشع البابوي وارضـائها، من أجل أتباعه الذين لايستحقــون، والذين لم يظهــروا قط في انكلترا، ولم يزعجــوا أنفسهم للقيام بأعباء المسؤولية عن الأرواح والأنفس.

وظهرت طوائف رهبانية متعددة ونبعت بأعداد وافرة، ففي البداية ظهر الدومينيكان، وبعدهم الفرنسيسكان، وظهر الآن حملة الصليب، ثم ظهر الكرمليون، وفي ألمانيا نشأت هناك طائفة النساء العفيفات، اللائي حملن لقب الـ Beguins, وقد غدا تعدادهم كبيراً جداً، إلى حد أن ألفاً منهن أو أكثر أقمن في كولون وحدها، ومارس هؤلاء الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان في البداية حياة فقر، وقداسة عظيمة، وكرسوا أنفسهم لأعمال الوعظ والتبشير، والاعترافات، وللواجبات اللاهوتية في الكنيسة، وللقراءة والدراسة، وتخلوا عن كثير من الموارد، وتبنوا فقراً تطوعياً في خدمة الرب، ولم يحتفظوا بشيء لأنفسهم لليوم التالي، لاسيما من أنواع الطعام، غير أنهم حصلوا خلال أعوام قليلة لأنفسهم على ما جعلهم في أحوال رائعة، فبنوا بيوتاً ثمينة، وعلاوة على ذلك، جعلهم البابا —على الرغم من إرادتهم— المتسلمين للضرائب، والوكلاء الذين يستخرجون الكثير من الأتاوات لصالحه، ويبدو أن الزمان قد عاد بالحقيقة، إلى الوقت الذي كان فيه القديس بندكت، الذي بروح جميع القديسين، قد عمل اشارة إلى هذا، في بداية نظامه، وذلك حيث عالج قضية مختلف أنواع الرهبانيات، هذا ولم تنحدر طائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين طوال الوقت الطويل منذ تأسيسها أولاً، مثلما انحطتا في هذه الأيام.

وأشع القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، الذي وجد جسده غير مهترىء في بونتغناك، والقديس روبرت الناسك الذي كان في نارسبورا Knaresborough, والقديس روجر، أسقف لندن، مع عدة قديسين آخرين، أشعوا وانتشر صيتهم بوساطة عدد من المعجزات المدهشة، التي عملت عند قبورهم، ومثلهم أيضاً القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا، والقديسة هيلديغارد Hildegarde, التي كانت نبية في ألمانيا.

وأعيد بناء كنيسة ويستمنستر، وتمت إشادة معبد ذهبي بأعمال ذات نفقات عالية جداً، من قبل الملك هنري الثالث، من أجل استخدام القديس ادموند، وجلب إلى انكلترا بعض دم المسيح، وحجرة تحمل طبعة قدمه، ووضعت في ويستمنستر بمثابة هدية من الملك.

أما بالنسبة لهرطقات الألبينيين Albigenses والجوفينانيين Jovinians مع هرطقات كثير من الشعب الايطالي، التي نمت لها فروع كثيرة، فقد جرى تدميرها في هذه الحقبة.

وجرى مسح هاكو وتتويجه ملكاً على النروج.

وسار الرهبان السسترشيان على خطى رهبان الطائفة السوداء، فحصلوا على اعفاء من البابا، فعمروا أبنية موائمة في باريس وفي أماكن أخرى، حيث ازدهرت جماعات العلماء، وامتلكوا مدارس هناك، حتى لايكونوا موضع عدم احترام من قبل الدومينيكان والفرنسيسكان.

وتمت حيازة الكرسي الجليل لكانتربري مع الكنيسة، من قبل شخص غير كفء، أقحم من قبل الملك، مع أن هذا الكرسي كان متميزاً وقد تقدس من خلال كثير من رؤساء الأساقفة في الأزمنة الماضية، وقام هذا الدخيل، وقد حرضه المثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي لم يعبأ بمعارضة كهنته، فحصل على سلطة زيارتهم زيارات تفقدية، فاستخرج في السنة الأولى منافع الكنائس الشاغرة، لمدة سبعة أعوام، وظلم بذلك الكثيرين ممن كانوا خاضعين له.

وفي السنة الأخيرة هذه من نصف القرن الأخير، حصل المسلمون على نصر فرضوه بإرادتهم، وجرى تمزيق الجيش الصليبي كله، الذي تألف من نبلاء جميع فرنسا، والداوية، والاسبتارية، وفرسان طائفة التيوتون للقديسة مريم، وفرسان طائفة لعازر، وتقطيعه إلى أشلاء، وجرى بالوقت نفسه أسر لويس، الملك التقي لفرنسا، مع أخويه:

كونت بواتو، وكونت بروفانس، وكان وليم لونغوسبي هناك، وقد قتل مع كثير من نبلاء انكلترا، وهرب كونت أرتوي، أخو الملك الفرنسي، من المعركة، وغرق.

وخسر البابا والبلاط الروماني كله الحظوة والمكانة لدى رجال الدين، وكذلك لدى الناس، لأن الصليبيين جرى بيعهم،وحللوا من عهودهم، مقابل دفع المال، وتأخروا وأعيقوا بطرق كثيرة مضاعفة.

وانزعجت المسيحية كلها واضطربت، وتعرضت الكنيسة العالمية للخطر، بسبب الحروب التي تفجرت عن الكراهية وصدرت عن عدم الاتفاق بين البابا وفردريك.

وحمل الملك هنري الثالث الصليب، ومثله فعل كثير من نبلاء انكلترا، وكذلك فعل كثير من ملوك، وأمراء، ونبلاء، وأساقفة العالم المسيحي، وكان راعي الدير الوحيد الذي فعل مثل هذا، هو راعي دير القديس إدموند، الذي نسي أنه مع القلنسوة الرهبانية، قد تعهد بأن يحمل بشكل دائم صليب المسيح، وسط سخرية الكثيرين، فهو حين تسلم الشارة المزيفة للصليب، بحضور الملك ومعه، عمل عملاً له بشكل واضح طعم التملق.

وفي هذا العام المميت، غادر خلاله إلى المسيح عدد كبير جداً من النبلاء، الذين كانوا قد تركوا أوطانهم، وزوجاتهم وأولادهم، وأقربائهم، وأصدقائهم، ليقاتلوا بإخلاص في سبيل المسيح، وكان هؤلاء جميعاً بشكل واضح شهداء، وأسماؤهم التي لايمكننا تقديمها في هذا الكتاب، بسبب عددها الكبير، هي قد دونت بأحرف لايمكن مسحها في كتاب الحياة، وهم أنفسهم قد تسلموا تاج الشهادة، وفقاً لما استحقوه.

وعلاوة على ذلك، توفي في يوم عيد القديسة لوسيا، فردريك أعجوبة

الدنيا، وكانت وفاته في أبوليا.

ووقعت هذه الحوادث المدهشة جميعها خلال نصف القرن الأخير، وهي حوادث غريبة مثلها لم يشاهد قط أو سمع به، كما لايمكن العثور عليه في أي من كتابات آبائنا في العصور الخالية.

**** **** **** ****

هنا نهاية تواريخ الراهب متى باريس، الذي هو من رهبان القديس ألبان، وقد تولى كتابة هذه التواريخ لصالح الأجيال المقبلة، صدوراً عن محبة الرب، ومن أجل تشريف القديس ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وذلك من أجل أن لاتتعرض ذاكرة الحوادث الحديثة للدمار بوساطة تقادم الزمن أو النسيان:

منذ أن حملت العذراء أولاً بولدها، انقضى

ألف واحد ومائتين وخمسين مرة

جرى فيها سياق الأعوام حتى الآن، وخلال جميع ذلك الوقت

لم يقع الفصح قط في اليوم السادس

قبل غرة نيسان، في السنة

التي أنهت نصف قرن، باستثناء السنة

التي انتهت الآن.

لقد انقضى على هذا خمسة وعشرين نصف قرن، منذ تجسيد ربنا، ويبدو أن الفصح لم يحتفل به في سنة اليوبيل، التي هي السنة الخمسين، في وقته الصحيح، أي في السادس والعشرين في هذه السنة الأخيرة:

تاريخ متىٰ انتهى هنا

وأرسلت سنة اليوبيل

وأنزلت رقوداً من السماوات

وأعطى أيار رقوداً له

هنا على الأرض، وفي عليين في السماء

عندما فيها سيقوم هناك

ومن المعتقد، ومانعتقده ليس من دون أهمية، أن جميع العناصر الأساسية قد عانت في هذه السنة الأخيرة، من الضرر والنار، لأنه في ليلة عيد الميلاد الذي مرّ مؤخراً، أشعت السماء بطريقة مرعبة، معاكسة للمسيرة الطبيعية للطبيعة والهواء، وحدث أيضاً أنه في أسقفية نورويك وفي المناطق المجاورة لها طولاً وعرضاً، كانت السماء قد غطيت بالضباب، واضطربت برعد غير طبيعي، وليس في موسمه، وذلك لوقت طويل، وقد حجبت بغيوم كثيفة، كما أنه لم يسمع منذ زمن طويل مثل هذا الرعد المخيف، كما أنه لم يشاهد مثل ذلك البرق حتى في الشتاء، وكذلك حدث أن البحر قد تجاوز حدوده الطبيعية، ودمر الأماكن المجاورة له، كما حدث أيضاً أن الأرض اهتزت في انكلترا، لابل حتى في تشيلتيرن، التي هي بالعادة أرض حوارية وصلبة:

متى تعبك هنا انتهى

أوقف قلمك ولاتتعب أكثر

ولاتطلب الذي سيجلبه المستقبل

فجيل آخر لديه أشياء أخرى*.

* يبدو أن متي باريس توقف عند هذه النقطة من تاريخه، ولم يتابع العمل فيه لبعض الوقت، غير أنه استأنف العمل فيها بعد وكتب التكملة.

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين، العام الخامس والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث:

فيه أمضى الملك عيد الميلاد في وينكستر، وبسبب أن أخاه —كما تقدم الذكر— ايثيلمار قد جرى ترشيحه لشغل الكرسي الأسقفي لوينكستر، الذي كان شاغراً، كبح يديه الجشعتين عن نهب وسلب ممتلكات الأسقفية، حسبما كانت عادته الطبيعية، ولكن بما أن العادات القديمة لايمكن نسيانها بسهولة، أمر بالأشجار بأن تقطع وأن تباع، وأن يجري جمع المال الذي سيتم تحصيله من البيع وأن يضاف إلى خزينته، مع أنه أخبر بكل وضوح بأن مثل عملية السلب تلك هي بلا شك لن تفيد الذين كانوا ذاهبين إلى الحج، للقتال في سبيل الرب.

حول عاصفة رعدية جاءت في غير موسمها في الشتاء

وفي حوالي هذا الوقت، أي في ليلة عيد الميلاد، سمع رعد مخيف، وعدّ ذلك بمثابة دليل على غضب الرب، وظهر هذا بشكل خاص في أسقفية نورويك، وفي المناطق المجاورة لها، ولمع برق وقذف بشرره، وقد ترافق مع هياج غير معتاد للهواء، وفي غير موسمه، مما أوقع رعباً عظيماً وخشية شديدة في قلوب الجميع، الذي سمعوا ذلك ورأوه، وقال اللاهوتيون بأن هذا نذير بكاء كبير في المستقبل.

عدم توزيع الملك أية ملابس بمناسبة العيد

وفي هذا العيد الذي يحتفى به كثيراً لم يوزع الملك أية ملابس عيد على فرسانه، وعلى آل بيته وحاشيته (ولعله لم يفعل ذلك للتوفير لأنه كان قلقاً على حجه)، مع أن جميع أجداده قد مارسوا أعمال التوزيع منذ عصور قديمة، حيث كانوا يمنحون ملابس ملكية، وجواهر ثمينة.

كيف جرى إلغاء نفقات المائدة الملكية

وجرى أيضاً إلغاء المائدة الغنية والضيافة الملكية، وقام الملك من دون حياء، بالسعي لنيل الاقامة ووجبات طعامه مع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، و الكهنة، ورجال من درجات متدنية، حيث أقام معهم، وسألهم منحه الهبات والهدايا، و في الحقيقة هو لم يعدّ الأشخاص الذين اقتصر عملهم فقط على تقديم الضيافة والمعاملة الفخمة له، ولحاشيته، وللملكة والأمير ادوارد ورجال البلاط، بأنهم متأدبين وكرماء، إذا لم يرفقوا ذلك بتخصيصه بهدايا كبيرة وفخمة، وفي الحقيقة هو لم يخجل بسؤالهم، ولم يكن سؤاله لهم تقديم معروف له، بل توجب عليهم ذلك لأن هذا كان حقه.

وفي هذه الآونة أيضاً، بعدما تناول الملك مؤخراً وجبه طعام عند روبرت باسلو في بيعته في ويستمنستر، أثقله بتوبيخات مهينة، فما كان منه إلاّ أن أجازه الآن ببعض الهدايا الثمينة، كما أن رجال البلاط، والحاشية الملكية، لم يقبلوا أية هدية، مالم تكن ثمينة، وغالية الثمن، مثل أن يكون ذلك: جياد جميلة، وكؤوس من الذهب أو الفضة، وعقود بجواهر منتخبة، وأحزمة امبراطورية، وماشابه به ذلك من أشياء، وصار بلاط الملك مثل بلاط روما، حاضنة، أو بالحري، يمدد نفسه، مثل عاهرة، من أجل الربح.

وكان عدد الذين قتلوا من جيش الملك الفرنسي —بسبب رعونة كونت أرتوي— أكثر من ستين ألفاً، وعشرين ألف رجل كانوا تحت السلاح، وذلك بالاضافة إلى الذين غرقوا، مع آخرين اختفوا أثناء الفرار، والذين سلموا أنفسهم عن طواعية إلى العدو، وصاروا مرتدين عن المسيحية، وسبب هؤلاء للمسيحيين أذى أعظم مما فعله أعداؤهم الآخرين.

ولم يختلف رقم مبلغ المال من أجل فـدية الملك، الذي وقع بالأسر، من خلال غضب الرب، كثيراً عن رقم تعداد الذين قتلوا، حيث كان ستين ألف باونـد، من أفضل أنواع الذهـب الخالص، أي من النقـود الاستيرلينة، إلى جـانب بعض الأموال العـامة الأخرى، من نقـود تور وباريس، وكـان ذلك مبلغـاً هائـلاً، ووقعت هذه المذبحـة في سنة النعمة: ألف ومائتين وخمسين، وجـرى دفع الفدية، مع تقديم الرهائن من أجل ذلك، في السنة التـاليـة، أي في سنة ألف ومـائتين واحـدى وخمسين.

كيف فرضت الحراسة بمزيد من الشدة على سجناء الإمبراطور

وفي هذه الآونة، كـان هناك ثلاثة أو أربعـة أشخـاص من كل مـدينة من مـدن ايطاليا، مع بعض المواطنين من دول أبوليـا، ممن حاربوا ضـد فردريك وابنه، وكانوا مودعين في سجن فردريك (وكلهم كان قد اعتاد أن يسميهم خونة أو متمـردين ضده) هؤلاء جـرى إرسالهم بعـد موت فـردريك من قبل ابنه كونراد إلى منـاطق نائية من أراضيـه، أي إلى نابل Naples وبلرم في صقليـة، حتى يمكن حـراستهم بشـدة أعظم، ويكونوا أكثر حفظاً، وقد فعل كونراد هذا بناء على نصيحة أبيه، وجرى تسليم بعض السجناء إلى هنري بن فردريك، والذي هو أيضاً ابن أخت ملك انكلترا، غير أن وضع هؤلاء السجناء في سجـن فـردريك، وكـان من بين هـؤلاء السجناء ابن مـركيـز مـونتسرات Montserrat, وهو الذي جـرى تقديمه بدلاً عـن انسيوس، وكان ولداً آخـر من أبناء فـردريك، وكان مـايزال سجيناً لدى البـولونيين، ذلك أن المعـاهدة من أجل هذا التبـادل كـانت على وشك الابرام، عندمـا تـدخل مـوت فردريك، وحال دون الاتفاق النهائي عليها.

كيف ثار أبناء فردريك وأصدقائه ضدّ البابا

ثم شرع أبناء فردريك مع أصدقائه، الآن بتقوية أنفسهم، ومن ثم التحرك ضد البابا، وصحيح أن رأساً قد جرى قطعه —حسب ماحدث في قضية هيدرا Hydra, التي قيل بأن هرقل قد قتلها— نمت عدة رؤوس في مكانه، لأن كونراد، كان فارساً شجاعاً جداً هو نفسه، ومحبوباً، ومخشياً جانبه من قبل جميع الامبراطورية، لأنه كان ابن ابنة جون الذي كان لايغلب، وكان ملكاً على القدس، وأيضاً لأن هنري —أخي كونراد— كان شاباً وسيماً، ومقبولاً من الجميع، وقد كان موضع تقدير من قبل جميع أصدقاء الامبراطور، لأنه كان ابن الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت محبوبة من قبل الجميع، وكان أيضاً ابن أخت الملك المسيحي التقي لانكلترا، هذا وكان البابا، بسبب جشعه، وكذلك جشع بني جلدته كلهم، هدفاً للكراهية العالمية ولكراهية أتباع الامبراطورية، ولذلك غدت الكنيسة، بسبب تزايد تنكيلها في وضع خطير جداً، وعانت من أضرار مضاعفة، وكانت استعادة ذكريات كوارث الماضي، أيضاً شوكة في أعين الذين وقفوا إلى جانب البابا، وهكذا نجد هنري راسبي Raspe, الذي كان لاندغريف ثورنجيا، والذي استهدف البابا أن يرقى به إلى العرش الامبراطوري، والذي من أجل ترقيته أنفق مبلغاً كبيراً من المال، قد هلك في ميتة مهينة، وبعد موته جرى اختيار هنري أوف غولديري Gueldres, لكنه لدى تفكره بالميتة المهينة للذي تقدم عليه، رفض هذه الترقية، وجرى من بعده اختيار دوق برابانت واللورين، لكنه رفض هذا العرض رفضاً تاماً، وكان الذي وقع الاختيار عليه بعد ذلك لشغل المنصب ايرل رتشارد، لأنه كان رجلاً داهية، ولديه أموالاً كثيرة، وأيضاً لأنه كان أخاً لملك انكلترا، لكنه رفض كلية المنصب، بسبب أن حظوظ الحرب كانت موضع شك، ومن بعده اختار البابا وليم كونت هولاندا، الذي بطيش

وافق على ذلك، وهو الآن، بعدما فقد كل شيء، قد أرغم على العودة إلى أراضيه، وفي الحقيقة، هي الآن ليست أراضيه، لأنه كان قد أعطاها إلى أخيه، ولذلك قد أرغم الآن، على الاستجداء، وقد ازدرى مكر البابا ووعوده، وبعد هذا كله، سعى البابا إلى وضع هاكو، ملك النروج، على العرش الامبراطوري، مكان فردريك، وفي سبيل أن يحوله لأن يكون مناسباً، وأكثر حظوة وموائمة لمقصده، تدبر أمر تكريسه وتتويجه ملكاً، لكن إثر تتويجه مباشرة، أعلن الملك المذكور صراحة بأنه كان دوماً على استعداد لشن الحرب ضد أعداء الكنيسة، ولكن ليس ضد أعداء البابا، وهذا ما كان هذا الملك قد أعلنه لي، أنا متى كاتب هذه الصفحات، ولكن بوساطة يمين عظيم، وإنه بسبب معطيات الظروف المبينة أعلاه، أحاقت المخاطر وتفجرت يومياً من كل جانب لتصيب الكنيسة.

حول الخلافات بين اثنين من أعظم السلاطين قوة

وفي حوالي الوقت نفسه نشب خلاف بين اثنين من أعظم أمراء المسلمين قوة، هما سلطان حلب وسلطان مصر، وذلك بسبب قبول الفدية من الملك الفرنسي، واطلاق سراحه من بين أيدي المسلمين، من خلال جشع سلطان مصر، لأن الشرقيين قالوا بشكل عام، بأنه كان ينبغي عدم فقدان مثل هذه المنحة الثمينة، وأن هذا ما كان ينبغي أن يحدث لولا تقاعس المصريين وجشعهم، ولذلك تعرض السلطان المذكور للهجوم من كل جانب، من قبل المسلمين، وخاصة من قبل سلطان حلب، وأرغم على الاعتراف بهذا، وأيضاً على ارسال رسالة إلى الملك الفرنسي، يتوسل إليه بتواضع لعقد السلام معه، وعرض بنود إقامة صداقة على أساس شروط محددة وصالحة، ومن خلال ذلك، ومن معطيات الظرف توفرت الآمال، بأن الحفاظ على القدس سوف يكون ممكناً بفعالية.

وفيما يتعلق بهذه القضية، تلقينا رسائل موثقة ومختومة من مقدم

الاسبتارية في القدس، وإذا ما رغب أي واحد برؤيتهم، عليه العودة إلى كتاب Additaments, وقد شعر الشخص الذي قتل السلطان بالتجبر والتفاخر، إلى حد أنه أثار غضب جميع شعب الشرق، لأن السلطان الذي جرى للتو قتله بشكل خياني، كان مستقيماً، ومعتدلاً، وواحداً غيوراً من دون تعب على إيمانه وعهده، ولأنه تعرض للنقد الشديد أثناء حياته، وللملامة لأنه سمح بفدية الملك الفرنسي وتركه يغادر حياً، قيل بأنه قد ردّ كما يلي: « ياأصدقائي، أنتم تعلمون أنه الأعظم نبلاً بين جميع المسيحيين، ولذلك لو أنه قتل، لشعر أقرباؤه، الذين هم كثرة كثيرة، في قرارة قلوبهم، بوجوب الانتقام له، وعلاوة على ذلك إنني كنت سأخسر مال الفدية، لأنه بدفع هذا المال سيلحق الفقر بفرنسا، وسينال المسلمون الغنى والسرور، كما أنني لم أتجرأ على اقتراف ذنب دس السم لمثل هذا الشخص، صاحب مثل هذه المرتبة العالية، خشية من أن تثير مثل هذه الخيانة الكبيرة الرب والمسيحيين، ولذلك دعونا نكون راضين بفضل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبدمار مثل هذا الملك العظيم، الذي هزم، وأخذ أسيراً، ودفع الفدية، وذلك مع العلم أنه لايوجد شخص له مرتبة عالية، أو حتى هو معروف، يمكنه أن ينجو من بين أيدينا، ونحن فرحون في تملكنا لأشخاصهم، وأسلحتهم، وخيولهم، وأموالهم، وعلينا أن نفتخر بالنصر الذي فاق جميع الثروات»، ولم ترضهم هذه الإجابة فقط، بل إنها ألهبت غضبهم وزادته، وقالوا له: «أنت تكذب بدناءة، لأننا لو قتلناه، أو أودعناه في السجن الدائم، لقذفنا بالرعب وبالاحترام في قلوب جميع شعب الغرب، لكن الجشع أعمى قلبك»، وقبل أن يحذر ذلك السلطان ويكون متنبهاً، طعن بخنجر، ومات بطريقة مؤلمة، والخائن الدموي الذي —كما ذكرنا— تولى قتله، مع أنه مولاه، قد حلّ محله، وخبر مقتل هذا السلطان وتعيين السلطان الآخر، جرى اعلام الايرل رتشارد به، برسالة يمكن العثور عليها في كتاب Additaments.

حول صبر الملك الفرنسي

وفي الوقت نفسه تحمل الملك الفرنسي المسيحي التقي جميع الانتكاسات بصبر وصمت، وبقي في عكا ينتظر المساعدة، ويرجو صلوات الرهبان، وبشكل خاص الذين كانوا في الهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، حتى يمنحهم الرب لطفاً ويمنّ عليهم بالهدوء، بعد تلك العواصف الثقيلة، وقام أيضاً، كما تقدم الذكر من قبل، بارسال أخويه، اللذين عقد عليهما آمالاً كبيرة، ووضع بهما ثقة عظيمة، وقد بعث بهما إلى المناطق القريبة من جبال الألب، ولكنهما —على كل حال— نسيا يوسفهما، وتوليا القيام بالواجب الذي فرض عليهما، بإهمال كبير، وأخرا القضايا إلى درجة أنهما بديا وكأنهما غير راغبين بمساعدته، وذلك وفقاً لكلمات الفيلسوف: «المماطلة الطويلة هي تردد كبير».

وصول غي أخي الملك من الأرض المقدسة

أثناء الاحتفالات المهيبة لعيد الميلاد، وصل غي، أخو الملك لأمه، وهو عظيم السرعة، من الأرض المقدسة، وليس معروفاً فيما إذا كان قد جاء فاراً من المعركة، وعلى كل حال من الممكن القول أنه بالنسبة لمقامه، بأنه هرب بحكمة ونجا من السجن في دمياط، بعد إعادة تأسيس السلام، وبما أنه وصل إلى انكلترا في حالة من الفقر، وكان مسافراً على قدميه تحول وهو على طريقه إلى دير فيفرهام Feversham, ليطلب الضيافة، وقد استقبل هناك بلطف وعومل بفخامة وكرم، ثم إنه سأل راعي الدير بأن يتفضل صدوراً عن رعايته له، وبسبب مكانته، ولاحترامه للملك، بإعارته وأصحابه، بعض الخيول، وأيضاً بعض الخدم، إلى أن يتمكن من الوصول إلى لندن، معلناً ومقسماً، أنه بمجرد وصوله إلى هناك، هو سوف يعيد الخيول ويرسلها مع الخدم مصحوبة بكثير من الشكر، وعلى هذا وافق راعي الدير، ولبى مطالبه، ولكن عندما وصل غي المذكور إلى

لندن، لم يخف من نيل تهمة نكران المعروف، مع الخزي البواتي القديم، ولـذلك لم يعـد الشكر إلى راعي الدير، كما لم يرجع الخيـول، بل أعـاد الخدم فقط، بعـدمـا أغضبهم بشتـائـم لايمكن ذكـرها، وعلى هذا من الممكن مقـارنة هذا الضيف، الذي هو بلا حيـاء بأفعى في الصـدر، أو بفـأر في الجبن.

كيف أغنى ملك إنكلترا إخوته

وعندما رآه الملك، اندفع مسروراً، واحتضنه بسرور أخوي، وبما أنه وجـده فارغ اليـدين، يتطلع لنيل المال الملكي، أعطاه على الفور مبلغـاً كبيراً من المال، كان قد أخـذه من اليهود، وعلى هذا فإن الحقائب التي كانت فارغة على ظهـور الخيل، امتلأت الآن بخمسمائة باوند، وعلاوة على ذلك أعطى إلى أخيـه غيـوفـري المسـؤوليـة عن بارونيـة هيستنغ Hastings الفخمـة، التي كـانت شـاغـرة آنذاك، وهكذا ضلل النبلاء المحليين لانكلترا، الذين هم رعاياه الطبيعيين، وحرمهم من كل شيء، وعيّـن الأجـانب كل يوم في مكـانهم، وبذلك يمكن للانكليـز الشكاية محقين، وأن يـرددوا مع النبي قـولـه: «أعطيت مـواريثنا إلى الآخرين، وبيوتنا إلى الغرباء»، كما أن الملـك لم يكن قانعاً بالتوزيع غير المعقـول بين العلمانيين والأجـانب، المال، الذي توجب عليـه حفظه، لتأمين شراء الضروريات من أجل حجه، بل سعى بمـواظبة للحصول على ترقية الأجانب غير الأكفاء، وغير الجديرين، إلى المراتب اللاهوتية العـاليـة، وتسليحهم وتشجيعهم ضـد الانكليـز، والدفـاع عنهم في القضايا القضائيـة المرفوعة ضدهم، لأنه كان قـد كتب إلى البابا يرجوه بحـرارة أن يبـدي بشخصـه الرعـاية نحـو بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كانتربري، في القضية القائمـة بينه وبين أساقفة انكلترا، وبشكل خاص بينه وبين أسقف لندن وكهنتهـا، وذلك حتى لايحبط رئيس الأسـاقفـة المذكور في أي من رغباته وخططه.

كيف أقسم أسقف لندن على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة

وعلى الرغم من أن أسقف لندن قد تعرض مؤخراً إلى الإيذاء الكبير من قبل رئيس الأساقفة، الذي حرمه كنسياً، وتسبب بنشر قرار الحرمان الكنسي في الطول والعرض، إنه عندما تأمل في هذه الأشياء كلها، ونظر إليها بعين الحكمة، وتفكر فيها قال لنفسه: «إن شرف انكلترا ينحدر بسرعة، ورئيس الأساقفة يقوم باضطهادي والتنكيل بي وبجميع الانكليز، ومع أنه أجنبي، يتولى مضايقتي مع أنني من أهل البلاد، وشخصية متميزة بدم نبيل انكليزي، ثم إنه عندما سيمتلك الملك الفرصة للتعبير عن غضبه نحوي ونحو أسرتي، سوف يسخر نفسه لفعل ذلك بكل سرعة وسرور، ولسوف يجرد أقربائي من جميع ممتلكاتهم، بكل وسيلة من الوسائل في قدرته، ومن ثم سوف يغني الأجانب بها، وبذلك فإن الشرور سوف تتكدس فوق الشرور في انكلترا»، ولدى تفكيره بعمق حول هذه الاحباطات، وجد نفسه في وضع صعب، وكأنه مسحوق بين حجري رحا، وقد سيق ودفع إلى هذا الجانب وإلى ذاك، فمن الجانب الأول كانت هناك قضية الكنيسة وكرامتها، ومن الجانب الآخر عنف الغضب الملكي.

واختار أخيراً —في سبيل أن يعاني من أدنى أذى ممكن، مع أنه انزعج وتألم تحت الأذى— أن يتواضع بنفسه لبعض الوقت، وأن يقسم على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة، مع أنه عدو، بدلاً من أن يخاطر في نيل غضب الملك، و حصل بهذه الوسائل على التحليل من قرار الحرمان الكنسي الذي صدر ضده، وذلك في الوقت الذي عجب فيه كثيرون من عدم خوفه من تهديد النبي في قوله «ويل لك يامن تسوغ عمل الرجل غير التقي».

ذهاب البابا إلى بيروسيا

وفي حوالي الوقت نفسه، بعدما أمضى البابا شهراً وزيادة في ميلان، وسط كثير من القلق، تابع سفره إلى المدينة (روما)، وأثناء عبوره خلال المدن التي كانت على طريقه، أنفق مبالغ كبيرة من المال، ووصل أخيراً إلى بيروسيا Perusia, حيث رأى أنه سيكون من الحكمة والأفضل له البقاء، لأنه فهم أنه إذا ما ذهب إلى روما، سوف يستخرج منه شعب روما مبلغاً كبيراً من المال بالقوة، وأنه لن يمتلك القدرة على الوقوف بوجههم وفق شروط متساوية، لأنه سوف يكون داخل شباكهم، ولذلك، وعلى الرغم من أن الرومان رغبوا بحضوره، لم يذهب إلى هناك، خائفاً من المؤامرات، التي نجا منها منذ بعض الوقت، وقال وكأنه كان يخاطب روما:

إن آثار الأقدام تلك التي تشير إلى الوكر فقط

تخيفني كثيراً، لأنه لاتوجد آثار تشير إلى طريق العودة.

إجراءات شكاوى البنادقة مع آخرين ضدّ ملك فرنسا

وفي هذه الآونة أيضاً، شكل البنادقة، والبيازنة، والجنويون مؤامرة ضد ملك فرنسا، وضد أخويه، وضد رعيته، مع أنهم كانوا ليسوا بحاجة للمشاكل وللاضطراب والأذى، ذلك أنهم قالوا بأنهم تمكنوا بالقوة من الحصول على مدخل إلى دمياط قبله، غير أنهم طردوا بعد ذلك من المدينة بسبب جبروت وعنف الفرنسيين عندما وصلوا، كما أنهم اتهموا الملك الفرنسي بممارسة الفوضوية، وبالخيانة، والجبن، ذلك أنه عندما كان الملك جاهزاً للاقلاع برحلته، أبعد عشرة آلاف رجل من رماة القسي الزيارة، كان من بينهم بنادقة، وبيازنة، وجنويين، وكذلك بعض الفرنسيين، ولم يتعب نفسه بأخذهم معه، مع أنه قد استدعاهم، ووعدهم بأن يدفع لهم مبلغاً محدداً من المال عندما سينطلق، وبإجرائه

هذا الذي قضى بابعـادهم، هـو أرغمهم على العـودة إلى حـالة من التسـول، فعندمـا عـادوا إلى مناطقهـم، لم يسمح لهم حتى بالاقـامـة في البيوت والحقول التي باعوها، ولذلك قاموا بإغلاق الموانىء بغلايينهم، وراقبوا البحر بحرص، من أجل سلب، أو إغراق أي فرنسي، يمكن أن يعبر البحر.

حول اتحاد بعض الرهبان

وفي هذا العـام، رأى بعض القسـاوسـة والـرهبـان الذين انتمـوا إلى الكنائس الديرية، بوضـوح بأن الأسـاقفـة في جميع الأمـاكن، الذين من المفترض أن يجدوا فيهم حماتاً لهم، قـد أصبحـوا الآن منكلين بهم بشكل مكشوف، وآذوهـم أكثر من أي رجل علماني أو مـدني، وأيضاً أن الحبر الأعظم كـان الأكثـر حـدة في ظلمهم، وأن هذا كـان يزداد، كلما ازداد قـوة، لذلك عقـدوا اتحاداً فيما بينهم، من أجـل أنه بالمسـاعـدة في تحمل أعباء بعضهم بعضاً، يمكن لهذه الأعباء أن تكون أقل ثقلاً عليهم، وبناء عليـه قـام تحالف تجاري بين التجمـع الرهبـاني للكنيسـة الأسقفيـة لكانتربري، مع رعـوية ودير وولتهـام Waltham, وقامـوا هـم، وكـذلك قـام آخـرون بالرجـاء بتـواضـع بتقـديم طلب المعـونة نفسهـا والمساندة، من قبل دير القديس ألبان.

عودة سيمون إيرل ليستر من غسكوني

في يوم عيـد الغطاس، عاد فجأة سيمـون ايرل ليستر، وبشكل مهين، وبكل سرعـة من غسكوني، يحيط به ثلاثة رجـال مسلحين فقط، كـانت خيولهم قـد هدّها الجوع والتعب، وعند وصوله إلى لندن طـالب بسرعة وإلحاح تقـديم مساعـدة فعالـة من الملك، بالمال والعساكـر، حتى يكبح وقاحة العصـاة الغسكونيين، ذلك أنه أكد، أنه لن يستطيع الاستمرار في تلك الحرب العاليـة النفقات اعتماداً على امكانيـاته وحده فقط، من دون

مسـاعدة الملـك، علماً بأنه سوف يستنزف مـوارد ايرليتـه في ليستر، وفي سبيل هذه الغاية، حث الملك وشجعه بالكلمات التالية، حيث قال:

«مولاي الملك، عليك أن تعيد إلى ذاكرتك، أنك عندما كنت مؤخراً في غسكوني، لجأت واثقـاً، إلى مسـاعدة أولئك الذين عـددتهم رعـاياك المخلصين، ومع ذلك لم يفتحوا صدر العطف والمساعدة إليك، كما أنهم لم يمدوا يد العون إليك، حسبما هـو متوجب عليهم، كما أنهم لم يشفقوا مطلقـاً عليك، عندمـا كنت هارباً من خيـانـة وتنكيل الملك الفـرنسي، وأيضاً لم يشفقوا على الملكة أثنـاء حملها، وعندما كانت متمـددة مريضة في ريولي Reoli, ولا أثناء ولادتها في بوردو، بل انتزعوا أموالك منك، وسمحوا لك بفقدان أراضيك، وكـرامتك»، وعندما سمع الملك هذا تأثر، وأشفق على الايرل لما عـاناه من آلام وارهاق، فأجابه بطـريقة فيهـا مواسـاة له قائـلاً: «بحق رأس الرب، لقد أخبرتني بالصـدق، أيها الايرل،وأنا سوف لن أرفض تقـديم عون فعـال لك، أنت الذي تقاتل بنشاط ومواظبة من أجلي، غير أن صرخات شكاية قد وصلت إليّ، من أنك توليت بشكل تعسفي سجـن الذين جـاءوا إليك بطريقـة مسـالمة، والذين أنت بعثت خلفهـم، وأنت قـد وعـدتهم بالوفـاء وتعهـدت لهم بالحفاظ عليهم، غير أنك توليت قتلهم عندما أصبحوا تحت سلطانك»، وقـد أنكر الايرل هـذا بشكل كـامل، وأضـاف قـائـلاً: «مـولاي، إن خيانتهم معروفة، فأنت قـد جربت ذلك وعانيت منه، وقد جعلهـم هذا غير جديرين بالتصديق».

إجراءات الإيرل سيمون قبل مغادرته غسكوني

قـام الايرل سيمون المتقـدم الذكـر، الذي كـان رجلاً صـاحب قـوة وخبرة في الحرب، قبل مغـادرته غسكوني، بـالاستيـلاء على قلعـة فرونساك Fronsac الحصينة، وأسر المحاصرين، وسوّى القلعة مع الأرض، وكانت هناك قلعـة لايمكن الوصول إليها تقريبـاً، وواقعة

في منطقة جبلية، وكـانت بالفعل قلعة لاترام، وكان اسمهـا ايغريمونت Aigremont, وهذه أيضـاً أفـرغهـا من سكانها، وبـذلك صـار بإمكان جميع المسـافرين عبر ذلك الطريق، متـابعـة سفـرهم، وتنفيـذ ارتحالهم بسـلام، وكـان هذا المكان محاطاً بصخـور لايمكـن اجتيـازها، وكـانت هناك أبراج قد بنيت على قمم الصخـور حيث أشرفت من علو فـوق الوديان، كما أنه لم يكن بإمكـان التجّـار أو الحجـاج، لابل حتى سكان تلـك المنطقـة، العبـور من دون التعـرض للسلب مـن قبل اللصـوص، والتعـرض حتى للقتل، وقـد أخضع الايرل هؤلاء جميعـاً، وجعلهم طائعين للملك بقوة السلاح، وهذا أيضاً مافعله بالنسبة لبعض سكان بوردو، والذين تمردوا ضد القوانين العادلة.

مغادرة الإيرل المذكور إلى غسكوني

واسترد الايرل المتقدم ذكره أعلاه أنفاسـه من المواساة، التي قدمت إليه من قبل الملك، ومع أنه كـان مقهـوراً من قبل ثورة جماعة الخونة كلهـا في غسكوني ضـده، أصبح الآن متشجعاً ولـديه آمالاً عـاليـة، وبعدمـا تسلم ثلاثة آلاف مـارك من خـزانة الملك، وبعدمـا جمع مبلغـاً كبيراً من كونتيـة ليستر التابعـة له، ومن الأراضي التي كانت عائدة مـؤخراً إلى غيلبرت دي همفرونفيل Humfronville, التي كان له حق الوصـاية عليها، عاد على الفور مسروراً، وأرسل رسالة إلى دوق برابانت، وإلى المقدمين الجيران له، حتى يرسلوا لـه بعض الفـرسـان والأتبـاع المزوديـن بالسـلاح، لكي يستقبلوه لدى وصوله، لأنه كان مسرعاً تماماً في طريقه إلى غسكوني، وقال بأن أولئك الرجال سوف يقاتلون مخلصين لصالحه، فلسوف يغنيهم بعطاء وافـر، وإطاعــة من الكونت لأوامــره، أرسل إليـه ثلاثمائـة فـارس غير نظاميين، وبعض رماة القسي الزيارة، الـذين هبوا لمساعـدة الايرل، وكانوا متعطشين مثل علقات لامتصاص دماء الغسكونيين، وفي الوقت نفسه كان الغسكونيون غير مهملين لأمرهم، فحصنوا أنفسهم ضدهم.

كيف جرى ادخال عبارة «دون التقيد» بالاستخدام في المحاكم العلمانية

وفي حوالي الوقت نفسه، نشب خلاف قضائي بين سيلفستر Sylvester, أسقف كارلآيل، وواحد من البارونات، حول عزبة، كان البارون المذكور قد باعها إلى وولتر، سلف الأسقف المذكور، والتي قد رغب البارون المذكور باسترداد تملكها، وبحكمة ظهر الأسقف المذكور بشخصه في المحكمة، لأن خصمه كان في القارة، مع أن حماته كانوا موجودين، ولذلك حصل على رسائل حماية من الملك، طوال غياب البارون، وإلى عودته مسروراً إلى مقاطعته، وبقيت الفئة المعارضة ساكنة، لكن عندما سافر الأسقف وابتعد إلى مسافة، حصلوا على رسائل من الملك فيها عبارة «عدم التقيد بالرسائل السالفة، وأن قضية البارون لايجوز تأخيرها»، ومن المعتقد أنه لم يتم الحصول على هذا الإجراء، من دون استخدام المال، وانتشرت الرسائل وتوزعت في كل اتجاه، وفيها قد أقحمت العبارة المقيتة «دون التقيد بالأمر المتقدم»، أو عبارة «عدم التقيد بأي امتياز قديم، وبموجب ذلك ينبغي أن تكون إجراءات القضية»، ولقد أدخلت هذه العبارة بالاستخدام، وبالاضافة إلى هذا تسللت تأويلات شريرة الآن إلى الصكوك، وباتت ممارسة، من ذلك على سبيل المثال، إذا ورد مكتوباً مايلي: «نحن نمنح امتياز كذا إلى الدير الفلاني»، وقد ورد ذكر الدير بوضوح، وتبع ذلك قوله: «وجميع عزبه»، وهنا إذا لم يرد ذكر العزب بكل دقة ووضوح، من الممكن للعبارة المضافة أن تكون بلا فعالية، وهذا كما هو واضح مضاد للعقل، ولجميع أشكال العدل، لابل في الحقيقة معاكس لأحكام المنطق، التي بوساطتها يمكن البحث عن الحقيقة من دون اخفاق، وتولى تأسيس طريقة الإجراءات هذه رجل غير مستقيم، كان وقتها مسؤولاً عن العدالة، وكان اسمه روجر دي ثيركباي Thurkeby, وقد قال

وهو يتنهد بعمق مشيراً إلى العبارة المتقدمة الذكر: «واأسفاه، واأسفاه، لماذا انتظرنا كل هذا الوقت؟ إن المحكمة المدنية ملطخة الآن بالأمثلة اللاهوتية، والنهر كله قد تسمم بالنبع الكبريتي».

إطلاق سراح بعض الصليبيين من الأسر بين المسلمين

وفي هذه الآونة، تبين أن بعض الأشخاص الذين كان من المعتقد أنهم قد قتلوا في المعركة ضد المصريين، هم أحياء في سجون المسلمين، وتمّ الآن دفع فديتهم من قبل أصدقائهم، فقد جرى دفع فدية كبيرة من أجل مقدم الاسبتارية، وأطلق سراحه، ونظراً لسجنه جرى تعليق استخدام ختم الاسبتارية، الذي كان من الرصاص، وذلك وفقاً لعادة الطائفة، وظل معلقاً حتى تمّ التأكد من اطلاق سراحه ثانية، وجرى تقديم شكل الختم المذكور في كتاب Additaments, كما أن الرسالة التي قيل بأن المقدم المذكور قد بعث بها إلى أصدقائه، قد جرى ادخالها هناك.

حول تحليل عمدة لندن وكهنتها من قرار الحرمان الكنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تحليل عمدة وكهنة كنيسة القديس بولص في لندن، الذين تقدمت الاشارة إليهم في الصفحات الماضية، من العقوبة التي أصدرها ضدهم رئيس أساقفة كانتربري، وجاء ذلك بناء على سلطان البابا، وتولى ذلك راعي دير القديس ألبان، وراعي دير ولتهام Waltham, ورئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان، غير أنهم وضعوا بعد ذلك تحت العقوبة نفسها، لسبب آخر.

حول النزاع المتعلق بحصة الأسقف الأخير لدرم

ورغب في حوالي الوقت نفسه، بعض ذوي العقول الشريرة، والأشخاص المرائين بإرضاء وولتر أسقف درم، فذهبوا إلى البابا، وأعلنوا بأن حصة من أسقفية درم، قد أعطيت من دون سبب إلى

نيقولا، الأسقف الأخير، الذي كـان قد استقال من منصبـه، وأن نيقولا المذكـور، قـد احتفظ بحـوالي ثلث الأسقفية، وبنـاء عليه تقـدمـوا الآن بالرجاء إلى البابا من أجل إعادة الأسقفية كاملة، أو على الأقل أن تكون أقل ضرراً، وعلى هذا ردّ البـابا قائـلاً: «نحن مندهشون لسماع كـلامكم هذا، أولم يكن قد جرى التوزيع والتقسيـم بعد مداولات طويلة، ووفقاً لرأي أناس متعلمين، وكـذلك بنـاء على مـوافقـة الفـرقـاء، وأولم يجري تثبيت ذلك من قبلنا ومن قبـل ملك انكلترا، ومن قبل نوابنا؟»، وكـان أسقف باث، الذي كـان واحداً من النواب، آنذاك مـوجوداً في البـلاط، ولذلك دعي ليقدم بينة حول الحقيقة، فشهد بأن كل شيء قد عمل، مع التقدير المتوجب للعدالة، ولـذلك جرى ابعاد المشتكين مع الملامة، وهم في حين فكروا باضعـاف قضية الأسقف نيقـولا، هم قامـوا فقط بزيادة قـوتها، ولم تمر هذه الإجـراءات من دون تسبيـب الاهانة لوولتر أسقف درم، وإلى رئيس رهبـان ورهبـان ذلك المكان، الـذين من الواضح أنهم كانوا شركاء سريين في المؤامرة وفي التحريض عليها.

حول التقارير الشريرة المتعلقة بهنري أوف باث

وجـرى في العـام نفسه، في يوم عيـد طهـارة القـديسة مـريم تقـديم شكوى ثقيلة ضد هنري أوف باث Bath, وكان فـــارساً متعلماً، وبارعاً تمامـاً في شريعة البلاد، ورجل عـدالة ومستشاراً خـاصاً للملك، وكانت فحوى التهمة، أن كونه صديقاً وحيداً للملك، قام بخداع مولاه أثناء شغله لمنصب المســؤول عن العــدالة الذي عهــد به إليــه، وتولى بوسـاطة حجج بارعة، إن لم نقل بوسـاطة الخيـانة، من افراغ حـافظات النقـود للآخرين، ليمـلأ حافظتـه، ولم يتردد، أو يخف، من تسلم الهدايا من جميع الجهـات بكلتـا يديه، وبذلك صـار ثـرياً، بالموارد، والعـزب، والذهب، والفضـة، حتى أنه صار الآن الأول الأكثـر ثروة بين زملائـه المتـولين لأعمال العدالة، وكـانت زوجته أيضـاً، امرأة جشعـة ومتجبرة،

وكـــانت من حيـث الأصل من أسرة بـاسيت Bassets ومن سـاندفـوردز Sandfords, وعلى هذا كـانت متفـاخرة بنسبهـــا وأصلهـا، وقـامت بتحـريض هنري المذكـور على هذا السلوك، وبما أنـه حرض، ومـال ليعمل هكذا بإرادته، صار متشـوقاً للبحث وراء الربـح الدنيء، بالعـدل وأيضـاً من دون وسـائل عـادلة، فقـد قيل إنه حصّل لنفسـه ولاستخداماته في جولة واحدة أثناء ممارسته لأعمال العدالة، على أكثـر من مـائتي قطعـة أرض، ولذلك انتشرت حـولـه فضـائح كثيرة، ونشب خصـام أيضـاً بين هنري المذكـور وايفـرارد دي ترمبنغتـون Everard de Trumpington, بشأن إحـدى العـزب، ووجهت التهمـة إلى هنري بـالحنث بالوعـود وبالخيـانـة، من قبل أحـد الفـرسان واسمـه فيليب دي أرسي Arcy, وكان ذلـك بحضور الملك والملكة، ولـذلك احتجـز، أو بـالحري كما يقـال بـالعـادة جـرى اعتقـاله، مع أن جـون مـونسيل Maunsell, الذي كـان كـاهناً ومستشـاراً خاصـاً للملك رغب بضمانتـه، وأن يكون كفيله بأنه سـوف يلتزم بالعدل، غير أنه أخفق بـالحصول على الإصغاء، لأن غضب الملك اشتعل بشكل مرتفـع، وأجاب بأنه لن يقبل بأي كاهـن ليكون كفيلاً له في مثل هذه القضيـة، لأنه عدّ الجريمـة إحـدى جرائم الخيـانة العظمى، وبما أن أسقف لندن جـاء ليتحدث لصالحه، وبناء على وسـاطة وتدخل كثير من الوسطاء، جـرى تسليمه وعهـد به إلى أربعـة وعشرين فارسـاً، سوف يحضرون المحاكمة ويسوغون هنري المذكور بالمحاكمة خلال مدة جرى الاتفاق عليها وتحديدها.

حول كفالة هنري أوف باث

وكـان هنري رجـلاً بارعـاً وداهيـة، ففكر آنذاك وتصرف وفق قـول الشاعر الكافر:

مساعدة القاضي مطلوبة من أجل الشرائع غير العادلة

وبناء عليه أرسل زوجتـه إلى جميع أقربائهـا من الباسيت Bassets,
ورجتهم بحرارة، من أجل التـدخل بشكل فعال لدى الملك من أجله، وأن لايوفروا تقديم الهدايا الكثيرة، والوعود الأكثر، وإذا لم يتمكنوا من نيل أي شيء بهذه الوسائط، عليهم الظهور من أجله في يوم الفزع، وهم مجهزين بالسلاح والخيول إذا كان ذلك ضرورياً، وعلى هذا وافقوا جميعاً بصـوت واحـد، لأنـه كـان هناك واحـداً من بينهم اسمـه نيقـولا دي ساندفورد Sandford, وكان فارساً جـريئاً، وكان قادراً، وراغباً وعلى استعداد للقيام بدوره ضدهم جميعـاً، حتى لو كلفه ذلك المخاطرة بحيـاته، وأبلغت أخبار هذه الاجـراءات سراً إلى الملك، فازداد غضبـه، ورفض بإصرار قبـول جميع الهدايا، والكلام التلطيفـي، وأقسم على أنه سـوف يتابع القضيـة حتى تعرض وسط محاكمـة دقيقة، وعندها عـرف هنري أنه في وضع حرج، لذلك ذهب مع أسقف لندن، وفيليب باسيت وبعض أصـدقـائـه الآخـرين إلى الايرل رتشـارد، وأمكن بوسـاطة الالتماسات والرشاوى جعل قلب ذلك النبيل يميل إلى قضيته، وأضافوا متوعدين بوساطة أيمان مرعبة، أن الملك إذا ما تسبب بموته، لابل حتى بحرمانه من ميراثه، لسوف تثار المملكة كلها، وتثور ضد الملك، وأنه إذا ما حـدث هذا، فإن قضايا أخـرى سوف تستخدم، خـاصة التحكم غير العادل والصحيح للأجـانب، وبالتالي ظلم الانكليـز، وأن الشقاق الذي ظهـر في الخارج، سـوف لن يهدأ ويخمـد، وعندمـا سمع الايرل هذا، استـولى عليـه الرعب، ولكونـه تمت السيطرة عليـه بوسـاطة التماسـات وهدايا هنري المذكور، ذهب إلى الملك ليهدىء غضبه، وليطالب لصالح هنري، ولصـالح سـلام المملكة، ولكن غضب الملك وسخطه كـان من غير الممكن تهدئته هكذا، وعندما كان الايرل على وشك المغادرة وتركه، خـاطبة على الشكل التـالي: «نحن لايمكننا منع نبـلاء المملكة من تأييـد حقـوقهم وامتيـازاتهم، ولن نستطيع النجـاح في تأسيس سـلام المكلة المترنحة».

إحصاء كمية نفقات الملك

وأمر الملك في تلك الآونة بإجراء احصاء وفحص لجميع السجلات والملفات، بغية اكتشاف مبلغ النفقات غير العادية التي عملها منذ تتويجه، وقد تبين أن ذلك كان مبلغاً ضخماً جداً، وقد جرى تقديمه في كتاب Additaments.

تأسيس دير للنساء من قبل كونتسة آرونديل

وفي حوالي الوقت نفسه، أسست السيدة النبيلة ايزابيل، كونتسة آرونديل Arundel أرملة هوغ ايرل آرونديل، ديراً للنساء في مكان اسمه مارهام Marham قرب ليني Lynne, وكان ذلك على نفقتها، أي من حصة زواجها.

جلب أخبار وفاة الإمبراطور فردريك إلى الممالك الغربية

ومع نهاية عيد الميلاد، ومع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم، انتشر تقرير في جميع بلدان الغرب، مالبث أن تأكد، وقد تحدث عن وفاة فردريك الامبراطور الروماني الأخير، ذلك أنه أصيب بمرض متعذر الشفاء، في يوم عيد القديسة لوسيا العذراء، ومات في يوم عيد القديس اسطفان، وأضاف التقرير أنه عندما شاهد أن حلول موته بات مؤكداً، بات نادماً، ومع دموع غزيرة عمل اعترافاً كاملاً تماماً بذنوبه، وعهد بنفسه إلى الرب، وإلى طائفة السسترشيان، التي كان قد لبس زيها، فهذا ماأخبرنا به رفاقه بشهادة مؤكدة، حيث قالوا أنه قام بتواضع وبتقوى قبل وفاته بلبس زيهم وارتدائه، وبحكم اقتراب وفاته، تمّ جلب أحد الأساقفة، بناء على طلب الامبراطور، من أجل التحليل من ذنوبه، وأيضاً لتحليله من حكم الحرمان الكنسي، وذلك باسم الرب، الذي لايرغب بهلاك أي واحد يؤمن به.

وصية الإمبراطور فردريك

ومع تنهــدات عميقـــة، وإعـــلان أنه ودّ لو أنــه لم يلد، ولم يتسلم حكومــة الامبراطورية، وفي سبيل استرداد وتأييــد الحقــوق التي من أجلها تورط في كثير جـداً من الأحزان العميقـة، وأسف كثيراً، يروى بأنه عمل الوصية التالية:

أنا فـردريك، أترك مـن أجل خـلاص روحي في المقـام الأول ألف أونصـــة Ounces من الـذهب، حتـى تنفق، وتـــــوضع تحت تصرف ابني كـونراد، من أجـل استرداد الأرض المقـدسـة، ومن أجل الكنيسة الرومانية المقدسة.

بند: إن إرادتي تقضي برد كـل الممتلكات التي أخـــذت بشكل غير عادل من أي واحد.

بند: إنني أمنح الحرية إلى جميع السجناء العـائـدين للامبراطورية أو المملكة، باستثناء الخونة فقط.

بند: إنني أدع جميع ممتلكات الكنيسـة حـرة، وتقضي رغبتي بإعـادة جميع حقوقها إليها.

بند: إنني أترك كـــونراد بمثـــابة وريثي للامبراطوريـة الرومـانيـــة، ولمملكة صقلية.

بند: إنني أترك لابني هنـري مملكة القـدس، وعشرة آلاف أونصـــة [من الذهب] لتدفع بإملاء من ابني كونراد.

بند: وأترك لحفيـــدي، أي ابن ابني هنري دوقيـــة النمسـا، وعشرة آلاف أونصة ذهب.

بند: وأترك ابني مـانفرد Manfred بمثابة نائب لكونراد في

الامبراطورية، من بافيا Pavia على هذا الجانب، ومملكة صقلية، لمدة سبعين سنة، إلاّ عندما يكون كونراد موجوداً.

بند: انني أختار هنغاريا لتكون مكان دفني، وذلك حيث جرى دفن الملك وليم».

وتحتوي الوصية على أعطيات أخرى كثيرة، لم أقم بتذكرها، لأنها أقل أهمية، وقد وزع بين أصدقائه، وأولاده الآخرين، وخدمه كميات كبيرة من الممتلكات، وبشكل رئيسي من الذهب والفضة، وهذا من الممكن تصديقه، لأنه في تلك السنة نفسها، جرى ارسال اثني عشر جملاً إليه من الشرق، كانوا محملين بالذهب والفضة، لأنه كان شريكاً في حركة نقل التجارات، وصديقاً كبيراً لجميع سلاطين الشرق، ولذلك فإن الذين كانوا يسافرون بالبر والبحر، وصولاً حتى إلى الهند، كانوا على حسابه.

كيف جرى إيقاع عقوبة الحرمان الكنسي بعميد وبكهنة لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، قام رئيس أساقفة كانتربري بوساطة المعلم يوستاس أوف ليني Lynne, الذي كان موظفاً لديه، بانزال عقوبة الحرمان والملامة بعميد وبكهنة لندن، مما سبب الدهشة لكثيرين، وعلّل ذلك بسبب اعتداءاتهم، وزاد على ذلك، دعوتهم للظهور أمام البابا، وبذلك تفجرت فضيحة مهينة، لأنهم حرموا في الوقت الأول كنسياً من قبل فئة أولى لسبب ما، ومن جهة أخرى جرى تحليلهم من قبل آخرين لسبب ما آخر، وكان حال الكهنة أنهم شعروا بخوف كبير، وبمرارة في القلب، والتمسوا من جميع أساقفة انكلترا مساعدتهم في الوقوف ضد هذه المظالم، وأن يقاوموا العنف الذي أنزل بهم، بحكم أن جدار جيرانهم كان يحترق، وأما الملك، فلأنه كان هو الذي أوجد رئيس الأساقفة، والملكة لأنه كان عمها، لم

يستطيعـا تركه معـزولاً مهجوراً، مع أنهما شعـرا بالخجل، وعلى الرغم من أن قضيته كانت قضية غير عادلة.

الموت الجريء للإيرل وولتر

وتعـرض في هذا العـام الايـرل وولتر للانهاك والتـلاشي، وهو الذي كان قد أظهـر قوته في الأرض المقدسة بالقـول والفعل، وهو الذي كان لبعض الوقت حاكم يافا، وبعض القلاع الأخرى على الساحل، وبعض الجزر القريبـة منها، وكـان مسجوناً ومضيقـاً عليه في زنزانة قـذرة لدى المسلمين، ذلك أن المسلمين قـد كـرهوه، لأنه عندمـا كـان حراً، غـالبـاً ماألحق بهم أذى كبيراً، ولأنه لم يكن هناك واحداً أكثر شهرة منه في جميع الأرض المقدسة، أو أعظم قـوة منه، أو أخلاقه رضية أكثـر منه، وبعدما كاد يتـلاشى وبعدمـا تعرض للجـوع والعطش، بناء على إرادة أعـدائه، ونظراً لأنه كان قـد تعرض للجلد مراراً، بات واضحـاً أنه أخذ يقترب من الموت، وأن القبر هو كل مابقي له، واستخدم المسلمون جميع وسائل التعذيـب حتى يرضخ ويرتد، أو يذعن لإرادتهم، لكن من دون فائـدة، وبناء عليـه جرى عقد مـؤتمر فيها بينهم، وجرى جلب الايرل للـوقوف وسطهم، وعلى هذا تـولى السلطان مخاطبتـه بكـلام ناعم وبتهـديدات، ومزج ذلك بوعود وافـرة، وحثه المسلمون بقدر مـا كان لديهم من قوة، ووعدوه بالحصول على حريتـه، بحكم أنه كان بين أيديهم، على أن يقوم بتسليمهم يافا، التي كـانت موضوعـة تحت عهدته، والتي كان قـد عهد بها إلى أتباعه الشجعان والمخلصين، وخاطبه السلطان قائلاً: «أيها الايرل الذي لايقهـر، إنك غـالبـاً مـا ألحقت بي أذى لايمكن الخلاص منه، ولذلك إنك تستحق أن تعـاقب بعـدة ميتـات، ومع ذلك، يمكنك الآن أن تنقذ حياتك، وأن تنال التكريم مـع هدايا كثيرة، إذا أعدت يافا إلينا، التي كـانت لبعض الوقـت تحت حكمك، والتي وضعت فيهـا حـامية موثوق بها من أتباعك، الذين لم نستطع اضعـاف ثباتهم، ولسوف يجري

آخذك إلى باب تلك المدينة، لتتولى إعلام المحاصرين بهذه الشروط، أي حصولك على حريتك مع حرية جميع سكان المدينة»، وأعطى الايرل موافقته على هذا، وحمل إلى باب المدينة —التي كانت مطوقة بعساكر المسلمين— من أجل أن يخبر الحامية بذلك العرض، وعندما شاهد سكان المدينة الايرل، وجدوا صعوبة بالغة بالتعرف عليه، لأنه كان متلاشياً، وقام الايرل أولاً بمخاطبة حرسه قائلاً: «اسمحوا لي بإلقاء خطابي حتى النهاية، لأننا نقول بأن الكلمة الأخيرة تحتوي على المغزى»، وأعطي الاذن ليفعل ذلك، وسعى الايرل إلى ايصال الكلمات التالية بوضوح وبصوت مسموع، إلى جنوده الذين اجتمعوا فوق الباب، حيث قال: «أيها الصليبيون الشجعان والأتقياء،والجنود المخلصين، انظروا إلى جسدي حيث أنه قد تلاشى إلى حد أنكم تستطيعون التعرف لي فقط من خلال صوتي، وكلامي وحده، إن موتي بات وشيكاً، وجسدي هو تقريباً بلاحياة، وبصعوبة يحتفظ بالرمق الأخير، لاتتنازلوا عن شيء أبداً، ولاتمنحوهم أية عروض للسلام مطلقاً من أجلي، فلماذا يتوجب فداء جسد شبه ميت؟ وإنه إذا ماجرى فدائي، إنني لن أتمكن مطلقاً من استرداد صحتي، ولذلك إنني أرجوكم بحق دم المسيح المسفوك، الذي تدفق في هذه الأرض من أجل خلاص العالم كله، بأن لاتسلموا لاالقلعة ولاالمدينة إلى هؤلاء الكلاب الكفرة، الذين هم متشوقون بشدة للاستحواذ على هذه المدينة، وتدمير المسيحية كلها، لأنهم سوف لن يظهروا الرحمة نحوكم بعد تسليمها، كما أن الحجاج والسكان الذين قد استعدوا الآن للقدوم إلى مساعدتكم على الفور، لن يتمكنوا وقتها من مساعدتكم»، ولدى سماع المسلمين لهذا الخطاب ضربوا الايرل صاحب العقل النبيل على فمه بمقابض سيوفهم، التي أبقوها مجردة، فسببوا تدفق الدم الكثير، وخلعوا أسنانه، ثم سحبوه وجروه إلى الوراء ليتولوا قتله بوساطة جميع أنواع العذاب القاسية، وقد تحمل الايرل جميع هذه الاجراءات برجولة، وسار على الطريق الذي سلكه قريبه أمير أنطاكية،

وبما أن الاشارة قد تمت إلى هذا الشخص الأخير، نعتقد أن من الموائم ادخال رواية قصيرة حول موته وكتابتها على صفحات هذا الكتاب.

حول ثبات أمير أنطاكية أمام الموت

عندما كان صلاح الدين يقاتل ضد الملك رتشارد في الأرض المقدسة، وقع أمير أنطاكية بالأسر، وقد عومل بشكل لاإنساني كبير في السجن الاسلامي، حيث احتفظ به مضيقاً عليه بشدة، وكان يعاني من الجوع والعطش، ولذلك بدأ يتلاشى، وأمر صلاح الدين في أحد الأيام بجلبه إلى حضرته، الأمر الذي جرى تنفيذه، ونظر إليه صلاح الدين وهو مقطب وقال له: «أخبرني الصدق، لو أن الله قد أعانك وكنت بين أيديك وتحت سلطانك، كما أنت الآن بين يدي، ماالذي كنت ستفعله بي»؟ وعلى هذا ردّ عليه بازدراء ودونما خوف: «لو أن الرب قد أعانني، لقمت على الفور بالأمر بقطع رأسك، لكن بما أنك ملك، وإن كنت كافراً، لما جعلت أحداً يتولى قطع رأسك، بل توليت ذلك بنفسي أنا شخصياً، لأنه لايجوز لأي انسان من مرتبة متدنية فعل ذلك»، وعلى هذا ردّ صلاح الدين قائلاً: «إن فمك قد أملى عقوبتك» ودعا على الفور بجلب سيف إليه، وقال: «وهكذا إنني سوف أتولى على الفور قطع رأسك»، وكان أمير أنطاكية مغلولاً من يديه وقدميه، ومع ذلك قفز نحو الأمام وهو مسرور، واقترب من صلاح الدين، ومدّ رأسه نحو الأمام، وكذلك مدّ رقبته، حتى يكون أكثر جاهزية لضربة يد صلاح الدين، وتفوه للمرة الأخيرة بالكلمات التالية: «خذ أيها الكلب، هذا الرأس المهان، والأشعث، وذي اللحية، وهذا الوجه الهزيل، والاذنين القذرتين، وإن الذي ستكسبه قليلاً —لابل لاشيء له قيمة زائدة— وإنني أعهد بروحي إلى الرب»، وعند ذلك تمكن صلاح الدين بضربة واحدة خفيفة من قطع رأس ذلك الشهيد الرائع في الرب، قائلاً:


Bibliotheca Alexandrina
0414621